٤ - إما يسأل الله عما سواه.
٥ - إما لا يجاهد نفسه.
٦ - إما يعتنى بنفسه و أحواله و قوته. .
٧ - لا يخضع لأوامر الله سبحانه و تعالى.

٢ - و قال أيضا ليس معنـى التوكـل أن يهمـل أحد الأسبـاب و الوسائـل و يتعطل عن العمل بل هو التمسك بها و لكن من الضرورى أن لا يجعلها نصب عينيه و يتوكل عليه فمثلها كمثل أبواب جعلها الله وسيلة للوصول إلى الغاية و الهدف.

٣ - قال : للمعرفة درجات متفاوته. فاذا حظى السالك بحظ وافر من الحقائق فبها و نعمت و إلاَ من مهمته أن يتمسك بالشريعة.

٤ - قال - إن الذين يتوجهون إلى الله عز و جل لا يحتاجون إلى الكشف المطلق لأن الكشف نوعان أحدهما دنيوى و لا حاجة إليه البتة و الثانى أخروى و هو ثابت من الكتاب و السنة و هو يكفى للعمل و لا يقارنه أى كشف.

٥ -يفرى بتربية المشائخ و احد من الأشياء الثلاثة:
١ - إلهام الله سبحانه و تعالى ٢ - أمر المرشد ٣ - الاشفاق على الخلق.

و سرد فى بيان الثالث قائلا:- لما يرى المشائخ الخلق متخبطين فى ضلالة و هم يعلمون أن مصيرها هو الخلود فى العذاب و الخسارة فيشفقون عليهم و يحاولون لدفع هذه البلية عنهم.

و يقومون بنشر تعاليم الإسلام بينهم ناصحين واعظين يأمرونهم بالتجنب عن سوء الأدب و باقامة الشريعة المطهرة و يقولون لهم أن يسلكوا وفق ما أمرهم الله و لكن ليس من مهمة المشائخ أن يوصلوهم الغاية بل هو أمر زائد - و قال أثناء ذلك.

" إن الطريقة النقشبندية يهدف إلى تربية الانجذاب الإيمانى"

و كان ذلك منهج جميع الأنبياء و الرسل.

٦ - قال - إن استقامة الإعتقاد و المحافظة على الأحكام الشرعيـة و الإخلاص و التوجـه إلـى الله سبحانـه و تعالـى مـن أعظم النعـم لايساويهـا أى ذوق و وجدان.

٧ - و قال مرة و هو يرد على مخالفى الأولياء.

يتجنب الأولياء من الكبائر و لكن من الجهل أن تبطل جميع أقوالهم إذا صدرت منهم صدفة أى كبيرة - بل ينبغى أن يلاحظ معظم أعماله بوجه عام فاذا صدرت منه أى خطيئة باقتضاء الطبيعة البشرية فهو معذور فى هذا المجال .

الهوامش :

١ - هذه المجموعة تشمل هذه التراجم أيضا و سبق نشرها فی مجلة " الفرقان " الشهرية الصادرة من لكناؤ تحت اشراف الشيخ محمد منظور النعمانی حفظه الله و تولاه

٢ - ألف هذا الكتاب بعد خمس و عشرين سنة من وفاة الخواجه باقی بالله و يعتبر من أهم المستندات و الوثائق عن أخبار الخواجه و مجدد الألف الثانی رحمهما الله و إسمه الحقيقی " بركات الأحمدية الباقية (الفريدی)

٣ - كان خواجه الله بخش كرمكتيسری مريداً و خليفة للشيخ مبارك توفی فی ٩/ رمضان سنة ١٠٠٢هـ و يتاتی تاريخ وفاته من أعداد سورة الإخلاص - و كان الشيخ تاج الدين السنبلی أولا من مريدی و خلفاء الشيخ كرمكتيسری من الطريقة العشقية الشطارية ثم انضم إلی طريقة الخواجه باقی بالله النقشبندية و حصل منه علی الخلافة و الإجازة - و ضريحه فی كرمكتيسر مديرية ميرت (زبدة المقامات، اسرارية (مخطوطة) مونس الذكران، تاريخ جونفور)

٤ - كتب " صاحب أسرارية " أن الشيخ الخواجه خرد يقول كان الخواجه رحمه الله صحيحا سالما فی الظاهر و لكنه كان يعانی من أمراض مزمنة و أصيب بالحمی أيضا فی أواخر أيام حياته

٥ - ورد فی " أسرارية " أنه حكی هذه القصة اليوم الثانی من الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوی و قد زالت تلك الكيفية فقال تشتت مفاصلی البارحة و استمرت هذه الكيفية إلی نصف الليل ثم انتعشت

وللبحث صلة ..

تعريب محمد أمين الندوی

البيـــرونـــــــــى
و معرفته باللغة السنسكريتية

(دراسة فونولوجية تحليلية لإنقحاراته العربية للكلمات السنسكريتية)

بقلم : البروفيسور سونيتى كمار تشتارجى
جامعة كلكته ، الهند.

أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، الذى ولد فى سنة ٩٧٣م فى منطقة خيوة التى كانت تسمّى آنذاك بالخوارزم (والخوارزمية فى القديم) ، و الذى مات فى الغالب فى غزنة فى سنة ١٠٤٨م ، شخصية فذة من أبرز الشخصيات العلمية فى العصور الوسطى، و هو ذلك النابغة العبقرى الذى كان متضلعاً من علوم الرياضة، و الديانة، و الفلك، و الفلسفة، و الكيمياء ، و التاريخ ، و النجوم، و الطب ، و الصيدلة ، و الطبيعة ، و علم الإنسان (الانثروبولوجية) ، و الذى يتميز بأنه أول رجل قام بدراسة الإندولوجية (الدراسات الهندية) ، و هو من أعلم العلماء فى كل العصور، و البيرونى لا بد أن يعد من أبرز كوادر و قادة الفكر الانسانى فى التاريخ، و ذلك لما احتل من مكانة سامية فى العلم و الثقافة فى ناحية ، و الموضوعية و اللبرالية الفكرية الواسعة فى ناحية أخرى ، و الأهمية المتميزة، و السمات التى يختص بها علم البيرونى و شخصيته قام بدراستها و فهمها و تقديرها المستشرق الألمانى الكبير أدوارد سخاؤ (E. SACHAU) ، الذى حقق كتابين من كتبه العظيمة، و الذى يستحق أن يدين له العالم الحديث لما أنجز من أعمال جليلة بصدد البيرونى خاصة، و هو الذى حقق "كتاب الهند" للبيرونى فى سنة ١٨٨٧م، و نقله إلى الانجليزية و نشره من لندن فى سنة ١٨٨٨م. و إن إجلال المستشرق سخاؤ لمآثر البيرونى العالم و الإنسان إجلال يستحقه البيرونى

كاملاً ، و قد كان محسوباً على الأجيال العلمية فى العالم، و لـه مـن التاثير و الفاعلية لما فيه من تحفظ متكتم، و فوق كل شيء للقيمة الخالصة التي تحملها أعماله، و كل ذلك كان دعماً لتكوين مكانة البيروني، و البيروني لا بد أن يعرف و يدرس فى الهند التى كان هو نفسه أول من فسّرها علميـاً و ثقافيـاً، و يظهر أن البيرونى سوف يعرف حق المعرفة، لأن ذكراه قامت باحتفالها الأوساط المتعلقة فى أوربا و فى الهند كذلك بعد أن مضى على وفاته ما ينيف على تسعة قرون، فقد احتفلت ذكراه فرنسا فى المؤتمر الحادي و العشرين الدولي للمستشرقين فى باريس فى يوليو سنة ١٩٤٨م، كما أن الهند تشهد احتفالات لذكراه التى عقدت فى كلكته، و ذلك تحت إشراف الجمعية الإيرانية فى ديسمبر سنة ١٩٤٨م

على أن علم البيرونى فى غاية من الوسع و العمق ، فليس ذلك هو السبب الوحيد لتقديرنا إياه، و جدارته للإجلال منّا، فالبيرونى أكثر من أن يكون عالماً فحسب ، إنه قبل كل شيء إنسان لم تسمحه معتقداته الدينية الخاصة أن يهمل أو يقلل من أهمية الأعمال التى أنجزها قـوم اخـر فى بيئـة و تاريخ مختلفين، و كان ذهنه متحرراً من النظرة الدينية الضيقة لديانة أرثوذكسية روحية ترى الحقيقة محصورة فى جدرانها الخاصة، النظرة التـى لا توافق و الدراسة الموضوعية و الودية الملائمة للديانات الأخرى و التفاهم معها باعتبارها طرقاً متجانسة للفحص الواحد، و العنوان الكامل لكتابه فى الهند و إن كان يوحى بنظرة أرثوذكسية لمسلم اشتغل بالعلم " كتاب تحقيق *ما للهند من مقولات مقبولة فى العقل أو مزدولة*" و لكن فى الحقيقة ليس الكتاب تفنيداً هجومياً أو دعائياً لكي يدلل أعلوية أو تشامخ ديانة على الأخرى، فالكاتب يعالج الموضوع ـ صراحةً و ضمناً ـ بصفته مسلماً صادقاً، و عالماً يملك الشعور بتفوق معتقداته على المعتقدات الهندوكية و على الهنادك الذين كانوا يضيئون للأتراك سبلهم فى الحياة ، و أن بيئته الإسلامية أسمى و أفضل من البيئة الهندوكية ، لأنها أكثر كوزموبوليتانيـاً (COSMOPOLITAN) (تحرراً من الأحقاد القوميــة و المحلية) و أكثر اعتدالاً ، و لكنه ـ مع ذلك كله ـ يحاول أن يحتفظ بالاتزان، فالنزعات و الاتجاهات و المعتقدات و التقاليد السائدة فى المجتمع الهندوسى ، التى لم يكن يرضاها البيرونى كعـالم و كإنسـان يملك العقـل و التفكيـر، لم ينظر إليها البيرونى بوجهة نظر تعتبرها " مكائد بهيمية قذرة لا اخلاقية للهمج الوثنيين البيرونى يتظاهر إتجاهاً واضحاً لتقرير أن الهنادك كانوا بشراً فى اعتقاد تلك النزعات و الطقوس، و العمل عليها.

و يستشهد بأنماط متماثلة فى مختلف أنحاء العالم، من الاغريق القدمـاء، و العرب الأوائل مثلاً ، و بذلك يتخلص البيرونى من أن يسبب أى نوع من الإشمئزاز و المقت للهندوس من القراء المسلمين الذين يقرؤن كتابه

بالعربية، فالانعزال و الابتعاد من التحيز و التغرّض طبقاً لعصبيـــة دينيـــة أو جنسية، و النزاهة العلمية التى احتفظها بها البيرونى لابد أن نشكره لها نحن الهنادك فى الهند، و هى ميزة يشاد بها البيرونى فى الأوساط العلمية العالمية، و من الناحية الإنسانية هذا الاتجاه أكثر قيمة من الدراسات الإيجابية البحتة.

كان البيرونى عالماً ذا بصيرة عميقة و خبرة فريدة فى زمانه، و لعله كان أكبر عالم كوزموبوليتانى ، متميز بمعرفة واسعة بل و ثقافة دولية فى زمانه فى حوالي ١٠٤٠ للميلاد ، و ذلك قبل ماينيف على تسعة قرون من العصر الراهن، ففى الهند و الصين كان كبار العلماء قد قصرت خبرتهم فى حدود الهند و الصين فقط، فلم يكن فيهم من كان يعرف شيئاً عن أفكار و اتجاهات الثقافات الكبـــرى فى الأقطـــار الغربيـــة ، و هـــى ثقافات العالم الاسلامـــى، و الإغريق القدماء ، و الروم ، و كان غرب أوربا بما فيها إيطاليا متسكعاً فى القرون المظلمة ، و لم يكن لديه علم إلاّ النتف اليسير من المعرفة المسيحية باللغة اللاتينية، و عدد قليل من الكتاب اللاتينيين الكلاسيكين كشف عنهم نخبة من الباحثين المتوهجين فى هذا العصر، و كذلك لم يكن علماء البزنطنيين من أوربا الشرقية يعرفون من ثقافة السراسينيين و آدابهم المنوعة الضخمة ، و لكننا نجد فى البيرونى شخصية فريدة، و عملاقاً فذاً ، الرجل الذى كانت لغته الأم هى الفارسية ، و انتمى إلى بلاد يتكلم أهلها بالتركية ، و هى الخوارزم ، و عاش فى بطانة من الارستقراطية التركية فى غزنة، فيستحيـل أن لا يعرف التركيـــة، و قـد طالع كعـالم مغـرم بالبحـث و التحقيق ، و نزوع إلى الدراسة ، جملة الآداب و العلوم التى احتوت عليها هذه اللغات، و كانت العربية هى لغة الثقافة و الدين للعالم الاسلامي كله، فكان يتقنها تماماً ، أو كان يعرفها كما يعرف الانجليزية أكبر كاتب هندى فى هذه الأيام، و استفاد البيرونـــى من علوم اليونـــان ، و البزنطنيين و السريانيين، و من علوم الهند فى الرياضة و الفلك و الطب من تراجمها العربية فى بغداد ، لأن بغداد قـــد ورثت علـــوم و آداب الثقافـــات و الحضارات المجـاورة القديمـــة ، و البيرونى يحيل إلى أفلاطون و أرسطاطاليس، و قد عرضهما فى التراجم العربية التى صنعت من التراجم السريانية للكتب اليونانية الأصيلة ، و لكنه فهم مغزاها و محتواها ، و عـــرف القيمـــة ، علميـــاً و تاريخيـــاً و فلسفيـــاً ، و البيرونى يحيل إلى كبيلا (KAPILA) و وياسا (VYASA) ، كما يحيل هو نفسه إلى ويراهـــا مهيـــرا (VRAHA MEHRA) و البورانـاز (PURANAS) بفهم سـواء، و أعظم من ذلك أنه عرف اللغة الأصيلة لهؤلاء الكتاب الهنادك ، و هذا شئ فريد فى أبناء قومه، فرجل واحد يتضلع من ثقافات مختلفة ، هندية و إسلامية، (بأنواعها العربية ، و الإيرانية ، و التورانية و التركية) فى حوالى سنة ١٠٤٠ للميلاد ، إلى حد علمنا فى العالم المتمدن ، و هذا الإسم هو أبو الريحان البيرونى.

بقى البيرونى فى معسكر السلطان محمود الغزنوي مبدأً من سنة ١٠١٧م، و قضى فيه من عمره خمسة عشر سنة من الرابعة و الأربعين من عمره إلى الثامنة و الخمسين ، و لكن السلطان لم يتمكن من احتلال مكانة نفيسة فى نفس البيرونى ، و ذلك بحكم الظروف السياسية الخاصة، و قد أشار إليها المستشرق سخاو ، و كان البيرونى رهينة فى بلاط السلطان من دولة معادية شديدة، و بيد أنه كان مبجلاً لمكانته فى العلم و الثقافة ، و لكن مع ذلك كله لم يكن البيرونى يلقى من الدعم الكافى، و الحفاوة و المناصرة الكاملة، كان السلطان محمود الغزنوي ملكاً قوياً ، و لكن ورطته طائفة من المتمذهبين المتزمتين الذين كانوا يشغلونه فيما كانوا يريدون من شن الغارات المتكررة المتتالية على الهند، و بذلك فإنه أساء كبيراً إلى جيرانه الهنادك ، يتركهم ضحايا ، و يأسر الآلاف ، و يدمّر المدن و المعابد و التماثيل ، و يغنم معه ملايين من المال، و هذه الحملات لم تكن تساعد على بعث نظرة ملائمة فى نفوس الهنادك للسلطان محمود و الأتراك بصفة عامة ، فأصبح إسم " الترك " يرادف المهيب و المستنكر و الممقوت فى أذهان الهنادك ، و فى سنة ٩٢١ م قام السلطان محمود الغزنوي بدمج مقاطعة البنجاب الهندية بإمبراطوريته بغزنة ، و بالتالى أصبحت مقاطعة البنجاب " دار الأمن " تحت سلطة مسلمة ، التى يتمكن فيها المسلم - سواء عالماً أو جندياً - من التجول بدون أن يواجه خطراً أو يحس بمشكلة ، و بدأ فيها تحول جديد من الديانة الهندوكية إلى الاسلام . و هذا ما سنحت به للبيرونى فرصة كبيرة للدراسة المباشرة للثقافة الهندوكية ، حيث إنه جاء إلى الهند، و سافر فى أقطارها كثيراً ، و كان البيرونى كفلكي و رياضى ينزع لدراسة الكتب الهندوكية فى هده العلوم التى كانت مادتها قد نقلت إلى العربية مسبقاً ، و سنحت له فرصة كبيرة أثناء إقامته المكرهة رهينة فى غزنة من الخوارزم فى سنة ١٠١٠ م ليعرف مباشرة من العلوم الهندية ، و كانت مدينة غزنة كعاصمة دولة كبيرة فى الشرق و قاعدة ملك قوي مثل السلطان محمود الغزنوي قد جذبت دون شك رجالاً من جميع أنحاء الشرق الأدنى، و الآسيا الوسطى ، و لم تبق الهند كذلك غير ممثلة فى هذه النسمة الكوزموبوليتانية، حيث كان فيها الجنديون و المتحرفون و أهل الصناعة ، و الأمراء و رجال العلم كأسرى الحرب، و لم يقدر معظمهم للعودة ثانياً إلى الهند أو للقبول فى بيئتهم المحلية و المجتمع إذا قدروا العودة إليها، و ذلك لأن المدنيين المحليين اعتبروهم أنجاساً لإسارتهم فى أيدى الأتراك ، الهمج الأجانب ، فلم يكونوا ليستعيدوا مجدهم السابق لما أنهم قد توسخوا فكرياً و روحياً فى أيدى الأتراك، ، هذا ما سبب الجاليات الهندية فى بلاد أفغانستان ، الكيان الذى لم يكن فى انعزال تام عن ثقافتهم و آدابهم القومية الهندوكية الأصيلة، و يظهر أن كلاً من هاتين الطائفتين كان فيها رجال أذكياء و أفذاذ كانوا يقدّرون غراماً متظاهراً فى دراسة ديانتهم و أساليب تفكيرهم

فى الحضارة ، من رجل من الجنس الحاكم كان مبجلاً لغزارة عمله و ثقافته، فدراسة البيرونى للمواد الهندية بما فيها اللغة السنسكريتية و اللغة الدارجة السائدة فى مناطق البنجاب الغربية غالباً ما بدأت فى غزنة ، فلما استولى الأتراك على البنجاب ، يمكن أن يكون البيرونى قد قام بزيارة أمكنة عديدة فى البنجاب الغربية، حيث صادف له اللقاء بالبراهمة و الآخرين من العلماء لدعمه، و أن يكون قد ألقى عصاه لمدة يسيرة من الزمن فى مدينة ملتان التى كان الهنادك يقدمونها للزيارة الدينية، لما فيها من معبد لإله الشمس، و التى يتوقع أن تكون اللغة السنسكريتية قد شاعت فيها فى النصف الأول من القرن العاشر للميلاد.

ذكر المستشرق سخاؤ رأيه فى طبيعة علم البيرونـــى بالسنسكريتيـــة ، و يصف أن علمه بها كان واسعاً ، عميقاً و لكن ينقصه الكمال ، لأجل ذلك كان البيرونى كالآخرين من العلماء و الباحثين الأوربين فى السنسكريتية ، الذين تحملوا فى الهند فى أيام تشارلز ولكنس و وليـام جونس، مديناً للشاستــرى أو البانديت فى حضنه، و هل كان هناك عــدد مــن البراهمـــة الذين ساعـــدوه و عملوا معه فى أعمال علمية مختلفة ، و فى أوقات متفرقة ، و هؤلاء الرجال قدموا خدماتهم له بإعداد ترجمة سريعة للنصوص التى كان البيرونى فى حاجة إليها، فى لغة مفهومة بين الفريقين ، و هى إما اللغة العامية السائدة فى البنجاب الغربية التى عرفها البيرونى كإحدى اللغات السائدة فى مناطق غزنة، أو اللغة الفارسيـــة ، على السواء ، و هذا هو الأساس لثقافتـــه السنسكريتية ، و يمكن أن يكون البيرونى قد عرف اللغة السنسكريتية بعد أن اجتاز هذه المرحلـــة ، فدرس النصوص السنسكريتيـــة الأصيلـــة ، بعون مـــن الترجمات و المختصـــرات التى صنفهـــا هو نفسه بعـــد أن نقلهـــا إلى اللغـــة العربيـــة أو الفارسية، و كان البيرونى ذرائعياً (INSTRUMENTALIST) فى ترجمة السنسكريتية إلى العربية أو الفارسية ، و فى تأليف كتب فى السنسكريتية ، و هنا كذلك يظهر البانديت السنسكريتى كعمدة فى فهم النصوص السنسكريتية و نقلها إلى العربية أو الفارسية ، و المستشرق سخاؤ قدم دراسة شاملة فذة لكل ما حظى به البيرونى فى السنسكريتية، محدداً نجاحـــه و الحدود التى وقف عندها، و ذلك بدراسة مقارنة للنصوص العربية المترجمة بالنصوص السنسكريتية الأصيلة ، و ليس هذا ما يعتبره الإنسان غير مهم خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن العملية قام بها عالم ألماني استطاع أن يجمع فى نفسه العربى و السنسكريتى بطريقة فريدة.

و لعل قدراً ـ و لو ضئيلاً ـ من الآداب السنسكريتية كان قد نقل إلى اللغة البهلوية (و من البهلوية إلى اللغات الغربية أمثال السريانية و العربية و اليونانية) منذ أيام الساسانيين ، و التراجم العربية التى صنعت فى بغداد من الكتب السنسكريتية فى علوم الرياضة و الفلك و الطب و الفلسفة كانت

فى موكب التراجم الساسانية ، و الحقيقة أن هذا التحدر عريقة أصولها فى العصور الاغريقية، و منذ القرن الخامس قبل الميلاد - على الأقل - كان علماء الهند و رجالها فى الدين يفدون عادة إلى الغرب ، و على الأقل إلى اليونان لتوطيد أواصر بالشخصيات الأفذاذ فى الأجانب ، و تعريفهم بمعتقداتهم الخاصة فيما يتعلق بماوراء الطبيعة ، و كل ذلك بحكم نزعات قوية للتجول ، و معرفة الديار و الأمصار و الرجالات ، و نعلم يقيناً أن فيلسوفاً هندياً وصل إلى أثينا و قابل مع سقراط قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، و الأسكندر الكبير استصحب كالانوس (CALANOS) من الهند إلى بابيليون (BABYLONIA) حيث قتل هو نفسه فى محرقة ، و الملك أشوكا فى القرن الثالث قبل الميلاد أوفد فلاسفة بوذيين إلى بلاد الشرق الأدنى بما فيها الآسيا الصغرى و سورية و مصر و اليونان، و لا شك فإن هؤلاء الرحال لم يكونوا بوذيين مولداً، و مما يستبعد أن لا يكونوا قد ألقوا محاضرات فى الفلسفة الهندية التى كونت اللبنة الأولى للقدر الضئيل من المعلومات الهندية و ثقافتها لدى الاغريق و السريانيين، و لم يعرف هل قاموا بنقل أى من الكتب الهندية السنسكريتية، إلى اللغات الغربية أمثال الفارسية القديمة، و السريانية ، و اليونانية و لا نجد شيئاً من هذه الكتب ، و لا تحيل إليها كتب التاريخ ، و من القرن السادس للميلاد لما بدأت الامبراطورية الساسانية ترغب فى إنشاء أواصر ثقافية مع الامبراطوريات الهندية المعاصرة لملوك غوبتا (GUPTA) فى شمال الهند، و ملوك شاناكيا (CHANAKYA) فى دكن، شكل ذلك نقطة انطلاق لتكريس جهود مخططة لنقل الكتب الهندية إلى اللغة الإيرانية ، و هى الفارسية القديمة ، و لا يعقل تماماً أن دولة عظيمة قوية مثل دولة الساسانيين لم تكن تملك نهضة أدبية و علمية فى إيران ، و فى الوقت نفسه بدأت الجهود لنقل الكتب اليونانية و السريانية فى العلوم التطبيقية و الطب و الفلك و الفلسفة ، إلى الفارسية ، و كذلك لنقل الكتب السنسكريتية إلى الفارسية على السواء ، و السوفسطائيون الإغريق و الفلاسفة و العلماء أو (PAT HRŌM FILISŌKFĀY وفقاً لـ PAHLAVI DENKART) وفدوا إلى إيران، و هم يحملون معهم مجموعات من الهيلات (HELLAS) الكلاسيكية إضافة العلوم البيزنطية و اليونانية الرومية (YONAYIK و HROMAYIK) على الترتيب طبقاً لما يميزه الإيرانيون الساسانيون) ، و علماء الهند الأذكياء (PAT HINDUKAN DANAK) كذلك وجدوا بلاط الملوك الساسانيين يقدر مؤهلاتهم فى الثقافة و العلوم و الفكر، و يدلنا التاريخ على أن عدداً من الكتب نقلت إلى الإيرانية (البهلوية) منها كتاب (TRK) أو (TARKA) و هو المنطق [انظر H W Baily Zoroastrian Problems in Nineth Century Books - Ratan bai Katrak Lectures, Oxfond, 1934, pp. 80 - 86.]

و العلماء الهنادك الذين كانوا يفدون عادة إلى إيران لم يجدوا أنفسهم

فى جو ملائم، الزرداشتية الإيرانية بما فيها من عبادة النار كانت مفهومة بيسر لدى العلماء الهنادك، و فى العهد الساسانى كانت النزعات الهندية عن التطهر الميلادى عن أريا و مليشا (ARYA AND MLECCHA) ، و عن الطبقة الوراثية الهندوكية و التنجيس عميقة الجذور مثل ما كان فى الجاهلية قبل الإسلام، و يمكن أن يكون العلماء الهنادك قد ذهبوا إلى إيران ثم يرجعوا إلى الهند دون أن يفقدوا ميزة الطبقة الوراثية، و لا شك أنها كانت مثلما كان فى العصور الاغريقية ، قبل المسيحية. و لكن بظهور دين أصولي كالإسلام الذى نقص أتباعه تلك الروح للتعايش مع معتقدات و تقاليد الكفار التى مثلتها معتقدات اليونان و الفرس ، اختلف الوضع تماماً ، و دخل فى طور جديد، و العلماء السنسكريتيون الوافدون إلى بغداد توطنوها لمصالحهم فى الحياة ، و اعتنق عدد منهم الإسلام ، و هذا يدل على أنهم لما أقاموا فى دولة إسلامية شعروا بأنهم لا تسمحهم الأوساط الدينية الهندوكية أن يرجعوا إلى المجتمع المحلى فى زمن كانت الهند تخوض معركة الموت و الحياة بالإسلام فى حدود الهند الشمالية الغربية ، و بالتالى كان ذلك تقاربية غزنة إلى الهند، أما الحقيقة أن فى غزنة رجلاً مثل البيرونى وجد أشخاصاً ملائمين لإبداءه فى المعتقدات و الثقافة الهندية عبر اللغة العامية فى البنجاب الغربية ، أو عبر السنسكريتية ـ إذا صح فى حساب التاريخ ـ و أن ذلك وفّر له أجواء ملائمة ، فإنه بقى مسلماً، و ظل يبحث فى موضوع الفحص الطبعى فى الهنادك ، ليتسنى له الخوض فى الأرباض المتقاربة للعلم و الفلسفة الهندوكية.

البيرونى لا يذكر إسم " السنسكريتية " بالضبط ، و لا يستعمل الكلمات البراكرتية (PRAKRIT) أو الأبابرامسية (APABHRAMSA) و لكنه كان يعتقد تماماً أن اللغة السنسكريتية و اللغة المحلية السائدة لم تتميزا كلغتين مختلفين تماماً عن الأخرىٰ ، بل كانتا لهجتين للغة واحدة ، و هذا ما اعتقده العلماء عامة فى الهند فى العصور الوسطىٰ الأولىٰ ، و يؤيده علماء السنسكريتية القدماء الأرثوذكس إلى يومنا هذا، و هذا فى الحقيقة يتعلق بالتكافآت الصوتية بشئ يسير من الخلاف فى التصريف و التشريح ، و كانت السنسكريتية هى اللغة المنطوقة ، و العكس بالعكس ، و هذا رأي السيد امودارا (DAMODARA) صاحب كتاب "UKTI - VYAKTI PRAKARANA" و هو كتاب ألفّه صاحبه غالباً فى مدينة وارانسى المدعوة بـ باناراس (BANARAS) أنذاك ، فى مأة سنة من وفاة البيرونى ، لغاية هى تعليم اللغة السنسكريتية عبر اللغة المحلية ، كالمرأة المذوقة من البراهمة ، التى احتفلت مهرجان الكفارة ، و استعيدت إلى مكانتها الأولىٰ من المرأة البرهمية ، و باستعادة الأشكال التامة حولت اللغة الابابرامسية إلى السنسكريتية المستقيمة ، و البيرونى لا يثبت خطأً فاصلاً بين السنسكريتية المستقيمة المستخدمة فى الكتب، و اللغة المحلية الدارجة ، كما كانت سائدة فى الأوساط المعاصرة أنذاك، فهو يدرج الأشكال البراكرتية

الدارجة مكان الأشكال السنسكريتية أو بجانبها على السواء ، و لم يكن البيرونى متناغماً متماسكاً فيما يتعلق بطريقة التلفظ ، فكان يتلفظ كلمة سنسكريتية حينا بطريق ، و آخر بسواه ، و لعل السبب فى قلة التماسك هذه أنه لم يجد تلفظاً موحداً بين أساتذته أو متعاونيه، و لعلهم كانوا ـ كما يقترح المستشرق سخاؤ ـ من مختلف أرجاء الهند.

فمن أى الأرجاء الهندية كان أساتذته و متعاونوه فى الغالب؛ المستشرق سخاؤ يعد قائمة للكلمات السنسكريتية و الهندية الأخرى التى استعملها البيرونــى فى كتابـه، إمــا فى تمثيلاتها الشكليـة فى العربو ـ فارسية (ARBO-PERSIAN) أو تكافآتها السنسكريتية، أو فى أشكال أخرى ، و دراسة هذه القائمة ملاحظاً العيوب فى الخط العربى الكوفي الذى استخدمه البيرونى فى كتاباته العربية، تدعم كثيراً فى تلفظ اللغة السنسكريتية فى أشكالها المحلية إضافة فونولوجية (علم الأصوات الكلامية) الآريين الهنادك فى باكورة التجديدية (خاصة الآريين الهنادك من البنجاب العربية) فى القرن الحادى عشر للميلاد.

و تصريف البيرونى يمثل تنوعاً فى طريقة التلفظ ، و تدل مجموعة أشكاله أنها لم تكن مبنية على ما يمكن أن نعتبره طريقة سائدة للتلفظ فى البنجاب الغربية فى حوالي ١٠٠٠ للميلاد. بل يظهر أنه أقرب إلى التلفظ التهجى بسمات عدة للخلافات العامة فى واد الغنج (GANGES) ، و الذى اتبعه البيرونى فى انقحاراته لما كان يعرف الخط السنسكرتى و المعادل الصوتى للكلمات كما ذكر فى قواعدها، و لكنه لم يعرف أصولها و أساليبها فــى التكلم، و الكلمــات التى أدرجهــا البيرونـــى فى كتابـــه بصورة الانقحار (TRANSLITERATION) فهى ليست أكثر من خمس مأة و ألفين ، و هذه الانقحارات تكابد من وجهين ، أولاً هى مكتوبة بالخط العربى الكوفى الدى كان سائداً آنذاك فى الأوساط العلمية، و ثانياً هى فــى المخطوط (Scheter , 1159) ، و هذا المخطوط بخط البيرونى نفسه من أوائل سنة ١٠٣١م، و فيه أخطاء كثيرة فى نسخ الكلمات السنسكريتية الأجنبية، المكتوبة بعيوب فى الخط الكوفــى ، و النقاط التى تفصل بين ب و ت و پ (P) أو بين س و ش و خ و ح ، أو بين د و ذ و ث و ز ، لم تكن وفق تماسك بالقواعد المعينة، فالبيرونى و إن يهتم بالاشارة إليها كما هو باد فى مخطوط شيفر الذى نسخ من النسخة الأصيلة للبيرونى ، و لكنه أحياناً يستعمل الحرف الفارســى ذا ثلاث نقاط لحرفى : ث و پ (P) ، و حرف ق (K) بنقطتين فوقيتين لحرف " G " (و لم يظهر انذاك حرف گ الفارسي). و يبدو أن البيرونى لم يعتن كثيراً فى انقحاراته لكل من حروف پ (P) و س و ث (T) و گ ، و لا يتجشم طويلاً عن الاسقاطات الهنديه مثل KH و GH و TH و DH و PH و BH وغيرها من الحروف ، و البيرونى يكثر فى استعمال حرف "Dhal " (الدال) العربى و الفارسي (لصوت احتكائى يسمع

حركة الهواء عند النطق بها) مثـل الحـرف الانجليـزى فـى TH مثل THEN و BATHE للتوقف الاحتكائى السنسكرتى و الهندى ، و الحقيقة أن البيرونـى لم يعرف كيف يتمثل أصوات الانثناء الخلفى أو المخى للغات الهندية فى اللغة العربية ، فاكتفى باستعمال الأصوات النطعية العربية لها مثل ت و د و ر و ژ (Ḍ) الداخلـى، حينمـا يتلفظ مثـل "Ṛ" كما فـى : كـروا = KUḌAVA ، و بيرى = VYĀḌI و دراور = DRAVIḌA ، و درامر = (DRAMIDA و نيرى = NAḌI و بيروزج = (VAIḌYRYA وغيرها. و لكنه كان يشعر بالصوت الخاص لحرف " Ṇ " المخي الهندى ، الذى لا يـزال باقيـاً فـى اللغـة البنجابيـة (الشرقيـة و الغربية) بل و فى السندية و البشتو كذلك ، و حاول أحياناً ليعرف عنه بمجموع HR أو PN ، كما فـى بانينى = PĀṆINI ، المكتوبـة مثل PNRT و برنج = BAṆIJ أو VAṆIJ و كان التلفظ البراكرتى متبعاً فى كلمة BHĀNU عندما نراها مكتوبة حيناً مثل بهنر BH'NR ، و آخـر مثل BH'R (بهر) = BHĀṆU إضافة BH'N و BH'NW التى تعادل BHANU (N بدون نقطة)، و صوتية هذه الكلمات السنسكريتية حاول البيرونى أن ينقلها بأسلوب فاتر تعوزه الحماسـة، و الناسـخ زاد الطين بلـة فى إفسـاد الإنقحـارات ، ببث تشوس و ارتباك مثل أن يستعمل السكون مكان الضمة ، (كما فى بَغْرْ لكلمة بَغْرُ، BĀR = BĀRU) .

و يمكن تقديم ملاحظات عديدة عن طريق التلفظ التى استخدمها البيرونى فى الكلمات السنسكريتية فى الانقحارات، فهو يستعمل دوماً حرف "ب" (B) لحرف "V " فى السنسكريتية، و لا يستعمل "V" أو " W " مكانه ابتداءاً، و يستعمل أحياناً " W " إذا كان الحرف سابقاً على الحرف الساكن أو واقعاً بعده، أو كان الوسطى الصوت، فحرف " V " السابق على الحرف الساكن طالما يحذفه البيرونى ، و يأتى مكانه بتلفظ محلـى مع " V " الواقع بعـد الحرف الساكن، و ذلك لكى يضعّف أو يطيل الحرف الساكن اللاحق كما فى الأمثلة : بلنب (Vilambin) عبيكت (Avyakta) بلبهـ(Valabhi) برد (Vṛddhi) و برك (Vṛka) ، وبرن (Varuṇa و Varṇa) ، و بـــدس (Vidiśā) وبلميـك (Vālmiki) و بعمــن (Vāmana) و بعندو (Pāṇḍava) و پلب (Plava) ، و بين بيد بياس (Veda - vyāsa) ، و تمرن (Tamra - Varṇa) ، و لكنه يكتب سويت (Sveta) ، و بيوسوت (Vaivasvata) حينما يكتب دروسبد (Dṛṣavati) و رب (Ravi) و كب (Kavya) وغيرها من الأمثلة. و فى محاولة لتمثيل حرف و " V " السابق على الحرف الساكن نجد انقحارات مثل سرسفت (Sarassati) و بيسفنر (Vaiśanara) و نند كسيفر (Nandikeśvara) بالفاء لحرف " V " فى السنسكريتية و الطريف أن حرف " V " الواقع بعد " A " (الألف) الذى هو الحرف الصغير يصبح غير ملفوظ لحرف الفاء (F) واضحاً فى *طريقة التلفظ السنسكريتية السائدة فى مناطق البنجاب الغربية فى القرن الحادى عشر للميلاد ، (كما فى أمثلة Sarasfati و Vaisfarana و Nandikes fara)* ،

و طريقة التلفظ السائدة فى البنجاب الغربية و السند مهما كانت فى السنسكريتية أو اللهجات المحلية البراكرتية قد احتفظت باستيقاء حرف " V " فى الابتداء (و كذلك الوسطى إذا لم يمتصه الحرف الساكن اللاحق بعده فى الألفاظ البراكرتية) ك " W " و استعمال حرف ب لحرف " V " فى الابتداء أو فى الوسط يميز التلفظ السائد آنذاك فى واد الغنغ، و هل اختار البيرونى بشعور تلفظ البنادت (PANDITS) من الهند المتوسطة فى مسألة " V " السنسكريتية ، لأنهم احتفظوا بالعرف الخالص أكثر من سواهم؟ فى عديد من الأمثلة نجده يستعمل " ڤ " لحرف " V " كما فى كلمة ميڤاد (MEWAR) ، و هذا ما أحياه المصريون الآن فى مصر ليقيم به حرف " V " الأوربى.

و فى هند العصور الوسطى كانت لغة أبابرامسا (APABHRAMSA) قد أصبحت لغة علمية (حوالى القرن الثامن للميلاد) فى معظم مناطق الهند الشمالية من البنجاب إلى بنجال ، و حرف S فى السنسكريتية قد رقى قيمة " KH " مفرداً أو مجموعاً ، حتى إن حرف S (ष) فى علم الإملاء (ORTHOGRAPHY) الهندى البدائى كان يستعمل لقيمة " KH " (ख) بصفة عامة ، و فى الخط الجورمكهى أصبح حرف (ष) علامة مستقلة، لحرف KH فى مكان (ख) ، لأجل ذلك نوى السلطان داراشكوه فى القرن السابع عشر للميلاد يتكافأ الابنيشد كالآبانيخت (UPANIKHAT) فى ترجمته الفارسية لها، و لكن البيرونى يكتب دائماً حرف Ś لحرف S إلاّ فى أمثلة حيث استعمل هو نفسه الخاء و الكاف لحرف ष (KH) و حرف S ، كما فى هذه الأمثلة سخت (Sisya hita) (الملفوظ كـ Sikhyahita) ، و نكسوه (Nakhada = Nisādha) و لكن سريكين (Srişeṇa) ، و غوك (Ghosa) ، و بكسو (Visuva) إضافة پكليوات (Puskatavati) و پكر (Puskara) ، و هذا يدل على أن البيرونى قد حاول بشعور أن يعطى حرف (ष) مدلوله الصوتى الحقيقى كالحرف الصفيرى ، و كذلك فى حرف S الحنكى (PALATAL) و أصبح هذا حرف S النطعي فى طريقة التلفظ السنسكريتى فى هند العصور الوسطى، و لكن البيرونى متيقظ تماماً فى تمثيله لحرف Ś ، فيتجشم لإيضاح فرق بينه و بين حرف S النطعى ، و تلفظ Ṣ كالخاء و تلفظ S كحرف S موجود فى الحقيقة فى كل من تات ساما (TATSAMA) و شبه تات ساما (SEMI-TATSAMA) . أى الكلمات السنسكريتية المستعارة سواء عدلت شيئا، أو لم يتم تعديلها ، و ليست من TADBHAVA أى المشتقة من الألفاظ البراكرتية ، (أصبحت هذه الحروف S و Ṣ و S مثل S فى وادى الجانجيز ، و مثل حرف H فى البنجاب و السند ، كما فى VISMATI (السنسكريتية) و BIS الهندية ، و WIH البنجابية ، و DESA السنسكريتية ، و DES الهندية، و DEHU السندية، و SNUSA ، و NUH البنجابية ، و ASADHA السنسكريتية، و ASĀRAH الهندية ، و HĀR البنجابية ، و TRASA السنسكريتية ، و TRĀH البنجابية ، وغيرها من الأمثلة.

و الأمثلة التى استعمل فيها حرف Š لكل من Ś و Ş السنسكريتية كثيرة فـى كتـاب البيرونى ، مثـلا : K'ŠY (KĀŚĪ) و K'YŠB (K'SŶB) ، و TŠ (TIŞYA)، و BHBŠ (BHAVISYA) ، و BH'ROBRŠ (BHARATA VARSA) و KŠYR (KŞİRA)، و KŠKND (KIŞKINDHYA) ، و KŠ (KUŚA) و K'ŠT (KAŞTHA) ، ŠNK (SANIKA) و ŠNTN ('SANYANU) ، و ŠYŠ ('SESA) و ŠYL - ST' PT (ŚAILA SUTAPATI) ، و ŠKT ('SAKTI) و SŠLK Š (ŚA'SILAKSA) ، و Š Š (ŚIS'YA) ŠSTR (ŚASTRA) ، و ŠQ (ŚAKA) ، و ŠKRB'R (SUKRAVĀRA) و 'Š (IŞU.A'SA) و ŠR,BN ('SRAVAŅA) ، و ŠRW ('SARABHA) ، و ŠJ (ŚUCI) و غيرها، و فى TKRŠT (TAKSAŚILA) و PYWRN (PAYOŞŅI) و 'RT (AŞTA) و M 'NS RTG (MĀMSAŞTAKA) ، و PWR' RTK (PŪRAŞŢAKA) نجد صرف الحرف " R " لحرف Š ، فهل هو لأجل التلفظ الصوتى لحرف Ş مجموعا ، و الذى إذا لم يكن كذلك لاشتبه الأمر بحرف الراء (R̄) ؟ و هناك أمثلة استعمل فيهـا " S " لكل مـن Ś و Ş ، و السبب فيه أشار إليه المستشرق سخاؤ فى مقدمة تحقيقه لكتاب البيرونى . (و فى كلمة مثل NIXRB استعمـل X لقيمة K H السنسكريتيـة) و متجانساً لتلفظ الحرف " V " السنسكريتي كالباء فى العربية نجد تلفظ V كحرف J مفرداً أو مجموعاً ، و هذا النمط المحلى القديم يتبعها البيرونى فى إنقحاراته، مثل : JBN (VAVĀNA) و J'NBLK (YAJNAYALKYA) و J'M (YAMYA) ، J'DW (YADAVA) و 'RJPRT (ARYAVARTA) ، و JOSTR (YUDHISTHIRA) ، و JM (YAMA) ، و J 'WDH (AYODHYA) ، و JNJW (YAJNOPAVITA) ، و R'JDHR (ARYA BHAĐA) و 'RJK (ARYAKA) و 'RJM (ARYAMAN) و JWŽN (YOJANA) ، و JRD (AYURDA) و JWG (YUGA) ، و JUJ (ACARYA) ، و NJWT (NIYUTA) و PRZTR (PARIYATRA) ، و SRJW (SARAYU) ، و لكـــن SRW (SARAVU) و SRJT (SARYATI) ، و انظـر كـــذلك SJ (SAHVA) بإندماج براكريتى مثل "SAJJA" .

البيرونى كان يعرف تلفظ JÑ السنسكريتية كمدلول لـ " GV " السائد فى مناطق الهند الشمالية، و أقطارها الجنوبية كذلك، و لكنه أهملـه كالدارجـة أو الســـوقيـــة ، فـكتـب YAJÑA كـ JGM و YAJNAVAIKIYA كـ J 'NJBK و J 'GBNLK على السواء. و استخدم NJ لقيمة JÑ بصفة عامة، و استخدم ŠN لقيمة JÑ أو JÑA فى موضع واحد، و استعمال D لحرف T كذلك شائع مثل *MDS لكلمة MTS فى MATSYA، إضافة استعمال MJ الدارجة لكلمة MC ، كما فى MACCHA، و DR ، فـــى ATRI ، و ADRI ، و TR ، فـــى ATRI ، و DBY ، فـــى ATAVYA ، و BDS فى VATSA ، وغيرها من الألفاظ.*

الأمثلة المذكورة تمثل عديداً من السمات النافثة فى كتابة البيرونى للألفاظ العربية فى الخط الكوفى السائد فى أيامه، و هنا عديد من النقاط التى

يمكن ملاحظتها إذا درسنا أساليب الكلام الهندية و نظام التخطيط العربى و الفارسى ، و انقحارات البيرونى لها أهمية و قيمة لا يستهان بها ـ رغم ما فيها من تحديدات الخط العربى ـ لدراسة الفونولوجيا الآرية الهندية فى حوالى القرن العاشر للميلاد عندما أخذت الدارجات الآرية الهندية سبيلها فى التكون، و تحققت طريقة هندية خاصة لتلفظ الألفاظ السنسكريتية (التلفظ السنسكريتى القديم كما فى العصور الويدية ، و هى العصور الآرية الهندية القديمة عبر انتقاله بحكم التطور فى الآريين الهنديين و ضياعه فى الجماهير) و رغم ما فيها من قلة التماسك فى نظام البيرونى أو أخطاء الناسخ.

(انظر سونت كمارتشارجى[1]

(Sanskrit in Perso- Arabic Script : A side light on the medieval pronunciation of Sanskrit in Kashmir and North India, in *India Linguistics* Quarterly, Vol VII, Part 3 1939, Calcutta, pp 131 166)

لاحظ البيرونى أن لغة الهندوس فى حياتهم اليومية تختلف بكثير عن لغتهم فى الكتابة الأدبية و العلمية، فكانوا يستعملون البراكرتية أو الأبابرامسا أو أبهاسا (BHASA) فى جهة، و اللغة السنسكريتية فى جهة أخرى ، و هاتان تمثلان طريقتين ، و من الأولى عرف البيرونى ما كان شائعاً فى البنجاب الغربية، و فى الجاليات الهندوكية المتواجدة فى افغانستان ، و كانت لا تختلف إحداها عن الأخرى فى أيامه، و كانت متماثلة للغة السند، و لم يعرف البيرونى شيئاً عن أخرى فى أيامه، و كانت البراكرتية فى قلب الهند، و الذين كانوا يقيمون فى غزنة من الأسرى و المقيمين مؤقتاً يتصور فيهم أن يكونوا يستعملون اللغة البنجابية الغربية التى لم تكن تختلف كثيراً عن اللغة الأبابرامسية الغربية التى عرفها الشرقيون و الوسطيون كلغة دارجة سائدة فى جميع أنحاء المقاطعة، و هى سلف للبراج بهاكا (BRJ BHAṢA) أو الهندية، و يدرج البيرونى فى كتابه ـ شعوراً أو بدون شعور ـ كثيراً من الألفاظ الهندية الدارجة السائدة فى مناطق الهند الشمالية الغربية انذاك ، و ذلك فى مواضع تتوقع فيها الألفاظ السنسكريتية ، و بها نستطيع أن نقترح رأياً عن الفونولوجيا أو الأعراف الصوتية لهذه اللغة الدارجة ، و كانت هى لهجة محلية حولت حرف " S " البراكرتى بالحاء " H " مثلا جروه (KROSA) و بيسح (VIPASA) ، و أصيسرى (ASADHA) و دوحسي (DUADA SIKA) ، و تروحى (TRAYO DASIKA)

و فى هذه اللهجة أصبحت الفاصلة الأنفية + الصامتة من الاندو ارية القديمة مثل الفاصلة الأنفية + الصوتية أو الملفوظة بملء النفس كالأنفية الثنائية مثل Ś NG لكلمة SANKHYA ، و BHND مثل (DOMBA) ، و TRNJY (TRIYANJAHI) ، و DWM (DOMBA) ، و DRPR (UDDANA PURI)

قارنه بالأشكال البنجابية الحديثة : DAND (لكلمة DANTA السنسكرتية) و CAMB (لكلمة CAMPALA السنسكريتية) و CANAUN (لكلمة CANDANA السنسكريتية) و KANDU السندية (لكلمة KANTAKA السنسكريتية).

الترجمة العربية لمابهاراتا التى صنفت قبل القرن العاشر الميلادى ، و التى نقلها إلى الفارسية مختصراً و نشر مختصرها العربى بهذه الترجمة الفارسية، المستشرق ريندو REINAUD من باريس فى سنة ١٨٤٥، نجد فيها أشكالاً مثل QND (KUNTI) و FN (PANDI) و قارنها بالبنجابية CANAB . و قد احتفظت هذه اللهجة بمجموعات من الاندماج أمثال KR و TR فى

KRWH = KROHA = KROSA

TRYA = TRIYA = TRITYA (⇒ TRIIYA)

و دراسة الكلمات و التراكيب الدارجة فى كتاب الهند للبيرونى ـ إضافة ما فيه من الكلمات السنسكريتية ـ تسلط أضواء منزلقة على تاريخ الفونولوجيا فى اللغة البنجابية و السندية ، و بذلك يمكن أن تكون موضوعاً لدراسة مفصلة إضافة الانقحارات المتماثلة المعاصرة للأسماء الهندية الشمالية الغربية ، و الكلمات الواردة فى كتب المؤلفين بالعربية و الفارسية.

و قد نقل البيرونى عدة كتب سنسكريتية إلى العربية ، و المستشرق سخاؤ ذكر الكتب التى ترجمها إضافة المنهجية التى مثلها فى الترجمة ، و كذلك نقل البيرونى عدة كتب عربية إلى اللغة السنسكريتية بوحي فى نفسه أو بإيحاء من متعاونيه من البنادت الهنادك ، و هذا الموضوع تناوله سخاؤ بالحث و الدراسة، (انظر مقدمته لكتاب تحقيق ما للهند) إضافة أعماله فى موضوعات فكرية ، و ترجماته من السنسكريتية ، علاوة كتابه الشهير " كتاب الهند " (انظر مقدمة سخاؤ ص : ٢٠ ـ ٢١)، و على الأقل صنع البيرونى ترجمة سنسكريتية لثلاثة كتب ، و هى :

١ ـ الاستقطات لأقليدس .

٢ ـ المجسطى لبطليموس .

٣ ـ كتاب ألفه البيرونى نفسه فى الاسطرلاب.

و كما يقول المستشرق سخاؤ :

" لعل البيرونى قام بإملاء المعانى إلى أساتذته البنادت، و هم الذين حولوا الألفاظ إلى السلوكات (SLOKAS) ".

و يبدو أن البيرونى كان يختلف إلى العلماء الهنادك فى مناطق كشمير و مناطق الهند الوسطى بهذه الترجمات السنسكريتية للعلوم العربية و الاسلامية ، و لكن الأسف أن جميع مآثره السنسكريتية ضاعت تماماً ، و لم نحظ بشيء منها فى أيامنا هذه.

و البيرونى فى أعماله السنسكريتية كلها يظهر كشخصية لها دورها الكبير فى الترجمة باللغة السنسكريتية ، و كشخصية تحب الهند و تألف

ثقافتها و آدابها ، و فى نفس الوقت كشخصية يؤيد عملياً مبدء تقرير المصير لكل أمة و شعب .

لما غزا السلطان محمود الغزنوى خيوة فى سنة ١٠١٧م و استولى عليها، كان البيرونى قد أكره للبقاء فى غزنة كرهينة، و يبدو أنه لقى حفاوة بالغة لعلمه و ثقافته الواسعة إذا لم يكن قد لقى مناصرة ملكية عملية، و أخرى التسهيلات لمواصلته الدراسة و البحث، و على كل حال فالبيرونى لم يتوفر له سبب خاص يدفعه إلى شكر و تقدير معاصره العظيم، و فى جهة أحرى إنه تذمر لما كان يصادفه من الإحراج فى مواصلته البحث فى الفراغ، و كان السلطان محمود الغزنوى يملك شخصيـة عظيمة أخـرى مثل البيرونـى فى بلاطه، و هو الشاعر الفارسى الكبير الفردوسي ، الذى نظم رائعته الأدبية الفذة ، و ملحمة فرس القومية *"شاه نامه"* ، رجاء جـزاء أوفـى لكن السلطان، و لكنه خاب خيبة مريرة فى الأيام الأخيرة لعمله و قلة التعاطف إضافة معارضة بطانة السلطان محمود الغزنوى كانت مسئولة عن تنكر السلطان لهاتين الشخصيتين العظيمتين فى أيامـه ، و فى بلاطـه، و هما البيرونـى و الفردوسى.

كان السلطان محمود ملكاً شهمـاً، سخياً ، قوياً و كبير مناصر للفنـون و الآداب ، و عاش فيما يمكن أن نسميه بالفترة الثانية للعهد البطولى للإستيلاء الاسلامى و التركى ، و أعماله للدفاع عن الإسلام فى الهند و نشره بعثت فيه دوافع متوهجة جياشة لخدمة الدين وفق ما أدركه من معناه و مغزاه، إضافة تعطشه للعنف و النهب، و مثل الصليبين قبل قرن منه لم يكن يختلج فى ذهنه أدنى ريبة فى أنه و جيشه التركي إنما اصطفاهم الله، و هم صفوة الحكام مـن الله ، الذين يمتثلون أوامـره فى جميع ما يـجزونـه مـن الحـرب و الضرب، و القتل و القتال ، و النهب و العنف ، و اسلمة الهنادك ، و تدمير معابدهم و أصنامهم و آلهتهم ، و انهم كانوا يستحقون الجزاء الأوفـى مـن الله و من الاسلام بصورة المغانم بكثرة كاثرة من خزائن الهند، و أسراها فى هذا العالم، و الجزاء بالنعيم فى الآخرة ، و بهذه الدوافع تمكن هو بجيشه العرمرم المتوهج بالحماسة الإيمانية المتقدة و أحلامه للمجال الحيوى (LEBEN & RAUM) كسلطة حاكمة ، على الإستيـلاء على الهنـادك الذين عـدى فيهم داء التشـرذم و التشتت و الانحطاط ، و قلة التنظيم و الفاعلية فى الاستراتيجيات الحربية، و كما يقول البيرونى نفسه " *استغلالات عجيبة دعت الهنادك مثل ذرات الغبار المنتشرة فى جميع الجهات ، و مثل قطعة قديمة من القصة فى أفواه الناس* ". فى حملاته المتتالية على الهند أكثر من ثلاثين سنة إنه " دمّر ثروة البلاد " و الحملات النهبية التى شنّها السلطان على الهنـد كانت أول و أخطر و أحرج كارثة و نكبة واجهها الهنادك منذ تكوينهم القومـى و لم يحدث فى نفوس الهنادك أي نوع من النزوع أو التأثر الإيجابى للسلطان " كاسر الأصنام

" الذى فعل أشد و أقسى و أحرج ما يضرهم و يجرح مشاعرهم، و قد دلّل باحث هادىء مسلم مثل البروفيسور حبيب من جامعة عليجره الاسلامية (الهند) كيف أن منهجية السلطان محمود التركية لنشر الإسلام سببت فشله و اخفاق أهدافه، و هذه المنهجية للحملات الخاطفة و التدمير التى شنها الأتراك على الهنادك فى القرن العاشر للميلاد ، و واصلوها بقوة فى قرنــى الحـادى عشــر و الثانى عشر ، حتى إنها بعثت شاعر الإيران الكبير و المتصوف جلال الدين الرومى (المتوفى سنة ١٢٧٤) على أن يقول :

" فى منهجية الاتراك كيف تدمّر حياة مثل حياة الهنــادك البؤس ؟ "

فلم يلبث أن اتضح الواقع أن المنهجية التركية للسلطان لم تجد نفعاً فى فتح القلوب فى الهند، سواء طبقتها الارستقراطية أو الجماهير، و جذبها إلى الإســلام ، و فى جهة أخــرى المنهجيــة التــى اختارها الصوفيــة فى الدعـوة و الإرشاد، لقيت نجاحاً باهراً فى الإسلام، فمنهج الصوفية الذين صنعوا الكرامات و عاشوا بين الجماهير الهندوكية استطاع أن يجذب الهنادك إلى الإسلام بعدد كبير فى مناطق هى بعيدة كل البعد عن مراكز القوة السياسية للإسلام و المسلمين فى الهند، و ذلك بسلوكهم و كدسهم و إخلاصهم و حياتهم التى هى قدوة صالحة للعبادة فى الاخــلاص فى الأعمــال، و التفكيــر الروحي و المعتقدات الهادئة ، و لم يزل السلطان محمود يشن حملات متتالية على الهنادك حتى الزمن الذى رأى فيه أن يدمج مقاطعة البنجاب الهندية فى إمبراطوريته ، و دمجها فعلاً فى سنة ١٠١٤م.

و بعد دمج المقاطعة بامبراطوريتـه أجـرى ذاك السلطان كاسر الأصنــام و عدو الهنادك و ديانتهم و ثقافتهم و آلهتهم عملات عديدة لمقاطعتـه الهنديــة ، و عمل فيها ما لم يعمله أحد من سلفه فى تاريخ العملات الإسلامية ، ففى العملات الإسلامية منذ أيام الأمويين نجد هذه الأشياء بصورة لازمة

١ ـ كلمة الشهادة وفق العقيدة الإسلامية، لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه، مكتوبة باللغة العربية.

٢ ـ إسم الملك الذى يجرى العملات ، بألقابه أو دونها.

٣ ـ إسم المكان الذى ضربت فيها العملات بالعربية ، مثل هذه العبارة "ضرب هذا الدرهم (أو الدينار) فى .... "

٤ ـ ذكر التاريخ هجرياً.

أما العملات التى ضربها السلطان محمود فكانت يكتب عليها بلغتين ، ففى ظهر كان كل شىء بالعربية ، كما هو المعهود فــى عملات أمـراء المسلمين، و لكن فى الآخـــر نجــد فى عملات السلطان محمود ترجمــة العبــارة العربية باللغة السنسكريتية. و لعل هذا كان لأول مرة و آخرها فى تاريخ الإسلام أن سلطاناً يأذن لترجمة عقيدته الدينية فى لغة أجنبية هى أداة لديانـــة و ثقافة أخـرى و معادية للإسلام ، فترجمة كلمة الشهادة كانت

كالتالي :

AVYAKTAM EKAM, MUHAMMADA AVATARA

و ليست هذه ترجمة حرفية للجملة العربية ، و المسلمون يعترضون أولاً على كلمة أفتارا (AVTARA) التى تعنى التجسيد الإلهى ، و ذلك لأن النبى فى الحقيقة إنما هو بشر كأحد من أفراد النوع البشرى ، و أتباعه نفسه، عاصره أو لم يعاصره، و لكن ينبغى أن نلاحظ أن الاسلام فى القرنين العاشر و الحادى عشر للميلاد لم يشهد العقيدة الإسلامية كما يقررها القرآن ، فى إيران و افغانستان ، بل كان قد اندمج فيه تصوف المتصوفين و غمر فيه ، و المسلمون فى الهند يلقنون حتى الآن بآلاف من الوعاظ أيام الاحتفال بالميلاد النبوى أن نوعاً خاصاً من النور و هو النور المحمدى ، قد خلقه الله قبل أن يخلق العالم، و كان ذلك النور فى السمآء من الأزل ، و بأجزاء هذا النور خلقت الملائكة و المخلوقات الأخر، و كان ذلك هو النور المحمدى الذى هبط إلى الأرض و تجسد بنفسه كالنبى فى بطن السيدة آمنة هذه الأسطورة جزء من سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) التى وصلت إلى الهند، فلا يجانب الصواب من يقول إن النبى تجسيد إلهى أو (AVTARA) ، و هذا التصور يلائم تماماً بما يعتقده الصوفية و الآخرون من الوعاظ، و قام الصوفية بنشرها فى الذين دخلوا فى الإسلام من الهنادك فى مناطق البنجاب

نعود الآن إلى ترجمة الجزء الأول من ألفاظ الكلمة للشهادة

و أخرى المنقوشات العربية المبينة لإسم السلطان و المضرب و التاريخ مترجمة بدقة و تقيد بالحرفية فى الترجمة

AYAM TANKAN MUHAMADA PURE GAATTE AHATAH

(ضربت هذه العملة الفضّية فى مضرب فى محمد بور) و محمد بور هى مدينة لاهور حالياً .

(السلطان محمود) NARPALI MAHAMUDA

(فى عام هجرة النبى) JINAYANA - SAMVATI

و ترجمة " الهجرة " النبوية تدل على دقة فى التعبير عن معنى فى العهد الاسلامى الذى كان غريباً للهنادك ، لكى يبعث فيهم نزوعاً إلى الاطلاع عليه و الاحاطة به، و قد وجد عدد من عملاته المكتوبة فيها باللغتين ، و هى تحمل اختلافاً فى التاريخ، (مثل سنة ٤١٢ هـ و ٤١٩ هـ الموافق لسنة ٢١ ١م و ١٠٢٨م) و اختلافاً فى مكتوبها بقليل ، ففى إحدى العملات نجد عبارة "بسم الله ضرب " و هنا ترجمة " بسم الله " ترجمة صحيحة فى عبارة "AVYAKTYA - NAME"

(راجع لمزيد من التفصيل :

Edward Thomas, on the coins of the Kings of Ghazani (961-1171 A.D.), London, 1848, P. 57; Chas. J. Rodgers, Catalogue of Coins collected by Chas. J. Rodgers and purchased by the Government of Punjab, Part II, Miscellaneous Muhammedan coins, Punjab Government Publication, Calcutta, 1894, p.28, coins No 38FF; Sanely Lane Poole: Catelogue of coins in the British Museum, referred to by K.N. Dikshit; K.N. Dikshit : A Note on the Bilingual coins of Sultan Mahmud of Ghazni, IRASB; Letters, Vol II, 1936, No 3 issued 1938, Nurmismatic Supplement, P. 29; Satnely Lane Poole: Medieval India (story of the Nations series) London 1906, p. 27, Jaya Chandra Vidyalankar: Itihas-Prawe's (Hindi) Vol. I, Allahabad, 1939 pp. 213-216.

و انتشار هذه العملات مكتوبة فيها المعتقدات الدينية باللغة السنسكريتية كان وفق النظرة الدينية الأرثوذكسية إرضاء للنزعات اللاشعوبية فى غير المسلمين آنذاك، و كان يمثل تنازلاً كبيراً للنسمة غير المسلمة التى كانت تدفع الجزية فى مناطق فتحتها الجنود الإسلامية، و فى هذا يتحير المرء لأن السلطان محمود الذى قضى أكثر من ثلاثين عاماً من حياته فى قتال الهنادك، يجيز هذه " العلاوة " الكبيرة للنسمة الهنادك . تبليغهم رسالة الإسلام فى لغتهم الخاصة ، و إحلال لغتهم قبولاً رسمياً فى العملات ، الشيء الذى يوحي بأن السلطان حاول استبقاءهم فى قوميتهم الأصيلة ، و لعل ذلك كان تعبيراً عن حصافة سياسية داهية، فما كان يتوخى معاداة النسمة الهندوكية الهائلة التى شكلت نسبة مئوية كبيرة بعد دمج مقاطعة البنجاب. لأنه كان من الممكن أن يصبح ذلك صورة تلقائية للتحررية و الشهامة فى المعتقدات.

و لكن فى خلفية كتاب الهند للبيرونى و شخصية البيرونى الواسعة العلم و الثقافة فى دولة السلطان محمود الغزنوى لعل السلطان فكر فى أن البيرونى يستحق رصيداً منه لإتجاهاته الودّية و الكوزموبوليتانية للهنادك ، و التعبير عن تقدير علوم الهند و ثقافتها الهندوكية باعتراف لغتهم الخاصة رسمياً ، و لا يعقل أن يربط أحداً من البراهمة أو علماء السنسكريتية من الهند بهذا المشروع الحكومى ، و يقال إن السلطان محمود الغزنوى وصلت إليه هدية ملكية من أمير من أسرة راجبوت ، و كانت الهدية بصورة عبارات أبابرامسية تشيد ببطولة الأتراك فى معالجة بعض الأفيال ، و يقال كذلك أن السلطان محمود أعرب عن سروره حينما ترجمها بعض العلماء فى بلاطه الذين كانوا يعرفون الهندية أو الأبابرامسيسة، و لا يتوقـع أن بعض البراهمة أو علماء الهندية كان مسئولاً عن ترجمة المعتقدات للإسلامية باللغة

السنسكريتية في عملات السلطان المضروبة للهند.

و إذا افترضنا رجلاً بعث السلطان على هذه العملية فهو البيروني نفسه، و الأسلوب الممثل في ترجمة المعتقدات الإسلامية في العملات يشعر بشخصية البيروني فيه، فكلمة JINA استخدمت متكافئة لكلمة النبي أو الرسول في العربية ، و البيروني في كتاب الهند (المخطوط ص ٥٧، ١ ، ١٤، ١٥١، ١، ١٧،) يستعمل كلمة JINA نفسها مرتين ، و هو يستعملها لبودا (BUDDHA) ، و " جنا و هو البودو " و كان يعرف أن البوذا كان مؤسس طائفة الشمانيين أو السراماناس (SARAMANAS) الذين يرتدون الكساء الحمراء ، و لعله فكّر أن الكلمة جنا قد تكون أنسب كلمة لكلمة " النبي " إذا لم يوجد لفظ خاص يؤدي هذا المعنى ، فبعد ترجمة الجزء الأول من كلمة الشهادة نشعر بيد البيروني نفسه ، أما ترجمة " لا إله إلاّ اللّه " كـ AVYAKTAM - EKAM ("الباطن واحد" حرفياً) فليست ترجمة حرفية للعبارة العربية ، بل هي ترجمة تفسيرية و ملتوية ، و لكنها تملك تسويغاً من البيروني نفسه ، فكلمة " إلاله " في العربية تعني شيئاً واقعياً ، ظاهراً للإجلال من العباد ، فهذا إله يمثله تمثال أكثر مما يمثله إله في التجريد ، و كلمة " اللّه " نقيض للإله الظاهر الملموس ، فهي تعني الألوهية اللامادية و اللاصورية، فلا يعتبر إله سواه ، إذن الترجمة الحرفية للجزء الأول من الشهادة تكون " اللاصوري واحد " وفق عقيدة التوحيد التي لايصفق بها الإسلام في أي حال ، و مثل هذه الترجمة أقرب إلى لغة الروحانية الهندوكية و فلسفتها المعبرة عنها في عبارات مثل عبارة EKAM SAT (الذي موجود ، هو واحد) و عبارة EKAM EVADVITYAM (الواحد بدون ند).

ثم إن البيروني يفهم من معنى كلمة AVYAKTA أنه يعني بخصوص "الواحد بدون هيئة وصورة " . في الحقيقة هذا أحد المعاني المتعددة للكلمة ، و ليس هذا المعنى أنسبها، فالمعنى الحقيقي هو " اللاظاهر" ، و هذا الظهور ليس عبر الصورة فحسب ، بل يشمل جميع أنواع الظهور ، أو التعبير المدرك بإحدى الحواس أو أكثرها، فترجمة كلمة " اللّه " بافيكتا (AVYAKTA) ليست ترجمة مستقيمة ، و لكن إذا رأينا أن اللاصورية هي سمة أساسية للباريء ، و اخترنا من المعاني الواسعة AVYAKTA السنسكريتية ، فهذا الواحد، "بدون صورة " يجد تسويغاً لغوياً.

و هنا يتذكر المرء بالخلاف الذي وقع بين العلماء في الصين ، بين البوذيين الذين تزعمهم هوين تسانج HIUEN TS ANG و التاويين (TAOISTS) على ترجمة سنسكريتية لإحدى المصطلحات الأساسية في الفلسفة الصينية ، و هي مصطلح " TAO " الذي يترجم في الانجليزية بكلمة WAY (اخذاً في الاعتبار المعنى البكتوجرافي و الايديوجرافي الأساسي للمدلول في الخط الصيني). أراد التاؤييون أن يعبروا عنها بكلمة BODHI السنسكريتية التي تعني الحكمة و المعرفة الأسمى ، و لكن هوئن تسانج الذي لم يكن يتعاطف بالمعتقدات التاوية لم يرض إلاّ أن يترجمها بكلمة "MARGA" السنسكريتية

التى تعنى الطريق أو الصراط (هادياً المرء إلى ما يبتغيه مرماه) ، فلم ينتهوا إلى قرار، بيد أن كلمة ṚTA الويدية التى تعنى النظام الكوني أو القانون الكوني هى أنسب كلمة لها نظراً إلى مادته " Ṛ " التى تفيد " الذهاب ".

و ترجمة كلمة " اللّه " بكلمة AVYAKTA فى هذا المعنى فى عملات السلطان محمود الغزنوى التـى نجدهـا مسجلاً فـى كتاب الهنـد للبيرونى قد تقترح بأن البيرونى نفسه كان مسئولا ـ على الأقل ـ للكتابة السنسكريتية. و لا يبعد أن يكون البيرونى نفسه هو الذى أشار إلى السلطان بإنجاز هذا المشروع فى العملات ، و يعرف مما سبق أن ذلك ليس مجرد تخمين و رجم بالغيب ، و كل ذلك يجعل البيرونى فى ضوء جديد، و هو مغرم بالسنسكريتية، و مؤيد لمبدء تقرير المصير لكل أمة فى مجالات اللغة و الثقافة ، و خاصة للأمم التى لها حضاراتها و تاريخها، و لما أعلن البوذا أن الناس فى كل مكان ينبغى أن ينتفعوا أنفسهم بتعاليمه عبر لغاتهم القومية و المحلية فإنه قرّر ميثاقاً كبيراً للحريـــة الطبيعيـــة لجميع الناس، البعيدين منـــه ، و المتحمسين لـــه ، و أتباعه و معارضيه، و هذا التوكيد على اللغة الخاصة للعبادة و الدعوة رفضت تلك الحرية الطبيعية لكثير من الناس، و الجدير بالملاحظة إن هذه الحرية الكبيرة لابد أن يمهد لها الطريق حتى يتمتع بها الناس، و هكذا كان فعلاً فى مناطق بنجاب الغربية فى القرن الحادى عشر للميلاد ، و البيرونى هو الذى أوحى بهذا المشروع إلى السلطان محمود الغزنوى بوحى من شخصيته اللبرالية و الكوزموبوليتانية : و الآن حينما معنى على وفاته ماينيف على عشرة قرون الشيء الذى نستطيعه هو تقديم الإجلال البالغ منا لذكرى هذه الشخصية العظيمة الفذة، التى كانت أكبر لبرالي دولي فى أيامه ، و أحد الأنوار الساطعة النيرة فى طريق التطور الفكرى للإنسان.

ملحوظة : لما اكملت هذا المقال أشار صديقى الفاضل الدكتور واسوديواسدانا أجراوالا من مجمع البحوث الأثرية الهندية إلى الدراسات التى قام بها هو نفسه فى موضوع الكتابات السنسكريتية فى عملات السلطان محمود الغزنوى ، و التى نشرت فى مجلة مجمع النميات الهندية ، المجلد الخامس، الجزء الثانى ، ثم فى مجلة الإمارات المتحدة للتاريـخ ، المجلـد السابـع و العشرين ، ديسمبر سنة ١٩٤٤م، لكناؤ ص : ٥٤ ـ ٥٥ ، و قد قام الدكتور أجراوالا باعادة نظر فى فى الدراســات السابقــة للموضـوع . و النتائـــج التى وصـل إليها هـى عامـــة النتائج التـى وصلت إليها أنا فـى دراساتى، إلاّ فى قضيـــة JINAYANA SAMVATI للهجـرة ، الدكتـور أجراوالا يقرء TAJKIYARA - SAMVATI (العـام العربـى) ، لأن TAJIK معنـاه العـرب، مشتقاً مـن TAZI و TAZIK فى الفارسية القديمة ، و يبدو أن الذى قال الدكتور أجراوالا صحيح ، إلاّ أن فى كلمة YERA نشعر ببعض الأحراج رغم شرح الدكتور أجراوالا ، أما ما يتعلق بالترجمة السنسكريتية للكتب العربية ، فيعتبر الدكتور أجراوالا ممكناً أن يكون البيرونى العظيم هو الذى تولاها بنفسه.

تعريب : محمد ثناء اللّه الندوى

الأمير السيد صديق حسن خان

(١٨٣٢ ـ ١٨٩٠م)

دراسة نقدية لمآثره و مؤلفاته

بقلم : الدكتور محمّد اجتباء الندوى
رئيس قسم اللغة العربية بجامعة إله آباد

الامير السيد صديق حسن خان من كبار علماء الهند و كتّابها و مفكريها، عرّف بلاده بإنجازاته العلمية الكثيرة فى اللغة العربية و الفارسية. و وثق عرى الأخوة و الصداقة و العلاقات الثقافية و العلمية بين بلادنا الهند الغالية و بين البلاد العربية و الإسلامية المترامية بين القارات، و اشتهرت بتزويد البيئات العلمية بذخائر فكرية ذات قيمة و أهمية كبيرة، و ذاع صيتها فى البلدان و الأوطان، و لاتزال فى مكانة مرموقة بين البلدان و الدول.

كان الأمير صديق حسن خان ابن أسرة دينية و علمية عريقة يصل أواصرها بالبيت النبوى الشريف نزحت إلى الهند لنشر الدين و العلم. و استقرت فى مدينة "قنوج" (QANNAUJ) بالولاية الشمالية، و حولتها إلى مدينة العلم و الحضارة و المدنية، و مدينة الحب و الإخلاص و التضحية و الحرمة و الفداء و الوفاء، و تألق نجمها فى سماء الهند فترة طويلة يستضئ به كل من سار على درب العلم و الحضارة و التّقى و السلام و السيادة.

ولد فى يوم الأحد وقت الضحى سنة ١٢٤٨ هـ الموافق بـ ١٨٣٢م فى بيت جده لأمه ببلدة "بانس بريلى" ولاية اترابراديش، (١) و أخبر الوالد الشيخ السيد أولاد حسن بولادته فسرّ كثيراً، و انتقلت به أمه إلى مدينة "قنوج" و لم يحظ بكفالة أبيه الفاضل المجاهد التقى إلا خمسة أعوام فقط كما يصرح الأمير بنفسه :

" ولدت فى ١٩/ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨ هـ و انتقل أبى إلى

رحمة ربه فى سنـــة ١٢٥٣ هـ فربتنى أمـى، و قامت بتعليمى و تربيتى خير قيام. (٢)

كان الأميـر يذكر مسقط رأسه "بانس بريلى" كثيـرا و يتغنـى بـه و ينشد:

بلاد بها حل الزمـان تمائمـى و أول أرض مسّ جلدى ترابها (٣)

كانت أمه مثقفة ديّنة مدبرة تملك ملكة نادرة فى تربية الأطفال، فسهرت على نشأتـه و تربيتـه و تثقيفه، و وجهته توجيهـا إسلاميـا قويـا و قد أشار إليه الأمير فى كتابه "*إبقاء المنن بالقاء المحن*" و يقول :

" *كنت فى السابعة من عمرى، و كان المسجد قريبا من بيتى، حينما يؤذن لصلاة الفجر و أنا فى سبات عميق هادئ، كانت أمى ـ رحمها اللّـه ـ توقظنى و توضئنى و تبعثنى إلى المسجد و لا تتركنى بأن أصلى فى البيت ، و إن لم أقم من نومى ترش الماء على وجهى.*" (٤)

التحـق أولا بكتّاب البلد ثم انتقل إلى مدينتـى فرخ آباد و كانفـور و قرأ على أساتذتهما الكبار و شيوخهما المتقنين اللغـة و العلـوم الإسلاميـة، و أخيرا سافر إلى دهلى عاصمة البلاد و مركز العلم و الثقافة ليكمل دراسته فاستفاد من علماء بيت الشاه ولى اللّه الدهلوى، و تتلمذ خاصة على المفتى صدرالدين خان بهادر صدر الأفاضـل ـ مفتـى شبـه القارة الهنديـة آنذاك ـ و تلقى علوم الحديث على الشيخ زين العابدين بن محسن اليمانى (١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م) و الشيخ عبدالحق البنارسى المحدث تلميذ الإمام الشوكانى (١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م).

و لما أكمل عامين كاملين فى دهلى استأذن شيخه المفتى صدرالدين للعودة إلى بلده، فمنحه إجازة بخط يده، و يذكر الأمير زمن إقامته فى دهلى و يتغنى و يطرب :

سقى اللّه وقتا كنت أخلو بوجهكم و ثغر الهوى فى روضة الأنس ضاحك
أقمنـا زمانـا و العيـون قريـرة و أصبحت يومـاً و الجفون سواكب (٥)

رجع الأمير إلى قنوج، فشاهد شئوون البيت مفككة من الناحية الإقتصادية و لم تكن موارد تمون العائلة، و سمع من بعض جيرانه عن إمارة "بهوفال" و رفاهيتها و تقدير أميرات بهوفال بالعلم و رجاله، فارتحل إليها سعياً للرزق، و بعد مجهودات و مساعى أضنته فترة من الزمن، نال منصبا و ثقـة و حظـوة مـن قبـل رئيس الوزراء (مدارالمهـام) الشيخ جمال الديـن و بواسطته إلى الأميرة، إلى أن احتل منصب أمانة الإمارة، و رغبت الأميرة

شاه جهان بيكم (و كانت أرملة لها بنت من زوجها الأول) القران معه لعلمّه و فضله، و حسن خلقه و جودة عمله و حنكته فى تسيير دفة الإمارة، و ذلك فى عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م، و أقرؤا ما يقول المؤرخ العظيم العلامة الشيخ عبدالحى الحسنى رحمه الله

" كان يتردد (السيد الأمير) بحكم منصبه إلى نواب شاه جهان بيكم "ملكة بهوفال" و يمضى بين يديها، فألقى الله فى قلبها محبته فقربته إلى نفسها و كانت أيّما، مات زوجها النواب باقى محمّد خان قبل سنوات، و قد اقترحت عليها الحكومة الإنكليزية الزواج، ليكون زوجها بجوارها ليساعدها فى شئوون الحكومة و الإدارة، فتزوجت به لما علمت من شرف نسبه و غزارة علمه و استقامة سيرته، سنة سبع و ثمانين و مائتين و ألف الهجرية، و جعلته معتمد المهام سنة ثمان و ثمانين و مائتين و ألف، و منحته إقطاعا من الأرض الخراجية تغل له خمسين ألف روبية فى كل سنة." (٦)

و بذلك سنحت له فرصة الخدمة و العمل لبثّ العلم و الثقافة و رفاهية الشعب و هنائه، فقام بإصلاح العمل الزراعى، و تنمية الإقتصاد و ترقية مستوى المعيشة فى أرجاء الإمارة، و فتح مدارس دينية و علمية وتربوية و مهنية كثيرة، فنماالوعى الفكرى و الخلقى، و تهيأت عناصر طيبة ممتازة أسدت خدمات جليلة نحو الشعب و الحكم و الإمارة.

كان الأمير مغرماً بالعلم و اقتناء الكتب فى اللغات المختلفة، و قد جلب كمية كبيرة من الكتب فى رحلته إلى الحج بعام ١٢٨٥ هـ و عيّن له وكلاء فى البلاد العربية و تركيا ليرسلوا له الكتب القديمة و الحديثة، فتأسست لديه مكتبة ضخمة و كان بجنب مسئولياته الحكومية و الإدارية يطالع و يقوم بالبحث و الدراسة و يؤلف كتبا و يترجم فى اللغات الثلاث العربية و الفارسية و الأردية، فمؤلفاته لا تقل عن مائتين و خمسين كتابا أتحف بها المكتبات الهندية و العربية، و أنشأ مطبعة تطبع فيها مؤلفاته و كتب التراث أيضا فهو من السابقين الأولين فى إحياء التراث، و عرضه فى ثوب جديد.

و فى أواخر حياته مُنى بالجور و القسر و البلاء و المحن من قبل الحاسدين و المتآمرين و لم يكن ذنبه إلا خير الناس و فلاح الأمة و رفاهية الشعب و خدمة العلم، أصيب بمرض شديد و عانى عناء كبيراً إلى أن وافته المنية فى ١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م.

و أحب هنا أن أقف وقفة يسيرة لدى مؤلفاته الكثيرة العدد مستفيداً من رسالتى التى قدمتها للدكتوراة ثم أقوم بتعريف تحليلى وجيز لأهم

مؤلفاته، فكما مر معنا بأن مؤلفاته تربو عن مائتين و خمسين كتابا من بينها ست و خمسون كتابا في اللغة العربية.

إنه موضوع أثير حوله سؤال، و ارتاب فيه كثير من الناس، فقالوا : هل هذه الكتب كلها من مؤلفاته ؟ و كيف استطاع أن يؤلف هذا العدد الضخم بجنب وظائفه الحكومية و مسئولياته الرسمية و واجباتـه العائليـة ؟ و لكن مجرد استفهام و ارتياب، و لم يكن هناك دليل و لا برهان و لا وثيقة تثبت هـذا الكلام و تؤيد الشكـوك، مع ذلـك كان السـؤال وجيها، و الأمر يؤدى إلى شبهات حول هذه المؤلفات، فشغل بالى و اقلق خاطرى، فقلت لا بد من البحث و الدراسة العميقـة الواسعـة، ألايمكن أنه استغـل منصبـه و كلّف العلمـاء و رجال العلم بأن يؤلفوا، و بدوره نسب هذه المؤلفات إلى نفسه، فشمرتُ عن ساق الجد حتى وجدت كتابين، اثنين يتطرقان الموضوع و هما :

١- كتاب *"تزك سلطانى"* من تاليف الأميرة سلطان جهان بيكم طبع في المطبع السلطانى ببلدة بهوفال عام ١٣٢٨هـ بعد وفاة الأمير صديق حسن خان بواحد و عشرين عاماً، ذكرت فيه كما يلى :

> *" يعرف القارئ بأن الأمير صديق حسن خان كان رجلا خاملا تافها قبل أن يقدم بهوفال، و لكنه بعد فترة من الزمن صار من حسن حظه رجلا معروفا ممتازا و مماثلا للأمراء."* (٦)

ثم تكتب :

> *" لايشك فى أن الأمير صديق حسن كان ذكيا ذا علم جم."* (٧)

٢- كتاب "اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التأليف" للكونيل ادورد فنديك طبع فى مطبعة الهلال بمصر عام ١٣٢٣هـ أى بعد وفاة السيد الأمير بست و عشرين عاماً ، كتب فيه :

> *"أصله (الأمير صديق حسن) من عوام الناس إلا أنه توصل إلى ملكة بهوفـــال فى إقليم الـــدكن فى الهنـــد و تزوج بها و تسمى نائبا عنها، فعندما اغتنى بالمال جمع إليه العلماء و أرسل فابتاع الكتب المخطوطة من كل جهة، و جمع مكتبة كبيرة، و كلف من حوله من العلماء بالتأليف ثم أخذ مصنفاتهم و نسبها لنفسه، بل كان يختار الكتب القديمة التى لم تكن منها سوى النسخة الواحدة و يغير العنـوان و يبدلـه باسم آخر، و يضع على الصحيفة الأولى إسمه مع ألقاب الفخر."*

ثم يقول :

> *" مع ذلك له مصنفات حسنـــة منهـــا تفسيـــره الذى سمـــاه "فتح البيان فى مقاصد القرآن"* (٨)

قدمت بين يديكم قطعتين مقتبسة من كتابين تشتملان على جزئين بل أخراها على ثلاثة أجزاء، القطعة الأولى من كتاب "*تزك سلطانى*" للأميرة سلطان جهاں بيكم التى كانت تكن للأمير البغضاء لزواجها مع أمها الأميرة شاه جهاں بيكم، و من شدة مخافتها لتحول الحكم إلى السيد و أولاده بعد وفاة أمها، و هذا موضوع مستقل يحتاج إلى مقال، و القطعة الثانية أيضا تتعلق بالموضوع سنتحدث عنه، و الجزء الثانى من القطعة موضوع نقاشنا، فكما تحدثت سابقا بأن الأمير كان يجمع الكتب من أيام طلبه للعلم و كلما وجد مالا اشترى كتبا وترك له والده مكتبة غنية أيضاً، و توظف الأمير فى الإمارة وتحول إلى مناصب جليلة نحو سبعة عشر سنة قبل قرانه مع الأميرة شاه جهاں بيكم، و كان راتبه كبيرا و منح ضيعة من قبل الأميرة السابقة سكندر جهاں بيكم لأجل خدماته و إخلاصه و وفاءه، فاجتمع لديه مال و ثروة فاضت عن حوائجه و كانت حياته حياة بسيطة ساذجة، فاستطاع بأن يشترى كتبا قبل الزواج و قبل أن يلقب بـ "الأمير" و أتى بالعلماء من أنحاء الهند إلى الإمارة قبل زواجه مع الأميرة و عيّنهم على مناصب دينية و للدعوة و الإرشاد وتوجيه الشعب توجيها دينيا

و إن عدد مؤلفات الأمير كبير، فهل يتصور بهذا القدر الكبير مخطوطة؟ كيف استطاع أن يجلبها و لم يكن يعثر على المخطوطات فى ذلك الزمن إلاّ قليلا، يأخذها، و يغير عنوانها و غلافها و يضع عليها إسمه مع ألقابه الفخرية كما يقول الكولونيل ادورد، و من المعلوم أن مؤلفات الأمير طبعت و نشرت و صدرت إلى كل جهة من جهات العالم الإسلامى، و قرأها العلماء الأفاضل و درسها الباحثون القديرون و تلقوها بالقبول، و أثنوا عليها و أبانوا عن أرائهم عن هذه الكتب، و لم يذكر واحد منهم بأنها مسروقة أو محرّفة، و لم يكتشفها غير الكولونيل هذه السرقة و الخيانة و ذلك بعد ستة و عشرين عاماً، فيا للعجب ! أثبت هنا ما كتبته فى رسالتى عن تكليف العلماء للكتابة عنه و هو كالتالى

> *"و أما الذين أشار إليهم ادورد فنديك فكثير منهم كانوا مقيمين فى الإمارة منذ عهد الأميرة سكندر جهاں بيكم، فمن كان منهم كاتبا أو مؤلفا أو واعظا فمؤلفاتهم لاتزال تقرأ و تدرس و تطالع، و هى توجد إلى الآن، و بينها و بين مولفات الأمير فرق بيّن و بون شاسع، من حيث الأسلوب و طراز الإنشاء و الكتابة و طريقة الاستدلال، و غزارة العلم و سعة المعلومات و استخراج المسائل و دراستها دراسة واعية دقيقة، و الإحاطة بالمواضيع و نقد الآراء و خلافات الأئمة المجتهدين. فكل ما كتبه الشيخ محمّد بشير السهسوانى أو الشيخ ذوالفقار أحمد البوفالى*

و غيرهما من العلماء يختلف تمام الاختلاف عما كتبه الأمير صديق حسن حان و يمكن لكل باحث و دارس أن يطلع على هذا الفرق بسهولة و يسر و بوضوح و جلاء." (٩)

يبدو لى أن الكولونيل ادورد كان ذا صلة قوية مع الحكومة الإنكليزية و برجال الأسرة الحاكمة فى بوفال و بالأميرة سلطان جهان بيكم و مؤيديها الذين كانوا على خلاف شديد و عداء بغيض مع السيد الأمير و كانوا يحاولون إسدال الستار على أعماله و خدماته و مآثره.

و الظاهر أن الكولونيل اطلع على كتاب "*تزك سلطانى*" للأميرة سلطان جهان بيكم و قد طبع قبل كتابه بخمس سنين فوجد فيه بُغيته و استفاد منه و أضاف من قبله مثل هذه الأكاذيب و التهم، ليشوه سمعة الأمير و يقلل من قيمة مؤلفاته و ينشر بين فئات العلم فى العالم إشاعات مفرضة و أباطيل و أكاذيب و افتراءات، و لكنه لم ينجح و خاب و خسر، و لم يلتفت إلى أكاذيبه أحد، و لم تقل قيمة مؤلفات الأمير بل بقيت تطبع و تنشر و تقرأ و تدرس فى اللغات الثلاث : أعنى العربية و الفارسية و الأردية، و انتفع منها خلق كثير، و لاتزال تصدر فى ثوب جديد ببحث و دراسة و هوامش قيمة فى البلاد العربية، و تحتل مكانة مرموقة عظيمة بين المكتبات و مراكز العلم و الثقافة، و لم يسع الكولونيل إلا أن يجاهر بالحق و يقول :

" مع ذلك له مصنفات حسنة منها تفسيره الذى سمّاه "فتح البيان فى مقاصد القرآن".(١٠)

إن عدد مؤلفات الأمير كبير بدون شك لم يبلغ عدد مولفات معاصريه إلى هذا العدد و كن لا غرابة فيه إذا أنعمنا النظر فى انهماكه بالتصنيف و عكوفه على التأليف و شغفه بالترجمة و النقل و النسخ، كان الأمير منذ نعومة أظفاره يعيش بين الكتب ينقل و ينسخ و يكتب، فأصبح سريع الكتابة، جيد الخط، و قد ألف أول كتابه "شرح مختصر الميزان" أثناء طلبه للعلم فى دلهى (١١). و كان سنّه لم يتجاوز عشرين سنة، و توفى و هو فى التاسع و الخمسين سنة من عمره، فأكب على التأليف و الترجمة و النشر تسعا و ثلاثين سنة، و قال من يوثق به بأن الأمير كان يكتب يوميا ساعات، و لم يترك التأليف و الكتابة يوماً مهما تكن الظروف و الأشغال، كان يرافقه دائماً كتاب و قلم وقرطاس، فحيثما وجد فرصة اشتغل بالكتابة و التأليف.

و أقتبس هنا كلمة من مقالتى التى نشرت فى مجلة "*رابطة العالم الإسلامى*" بمكة المكرمة، التى تشهد بما أقول :

" كان ثلاثة علماء أفاضل على روابط وثيقة مع السيد الأمير

و شاهــدوا و عرفوا عملـــه و شغفـــه و انهماكــه بالتصنيف و التأليف و الكتابة و هم

١- السيد علي حسن خان ابن الأمير

٢- الشيخ عبد الحي الحسني، و كان صديقا حميما لأبناء الأمير، و كان مدير ندوة العلماء.

٣- الشيخ المحدث حيدرحسن خــان الطونكي، عميـد دارالعلـوم لندوة العلماء الأسبق، و معاصر الأمير، و قد رآه مرارا في بهوفال، و حضر مجالسه، و لبث معه مدة من الزمن، و قرأ الإثنان على أستاذ واحد و هو الشيخ حسين بن محسن اليماني .

فيقول ولده الأمير على حسن :

" كان الأمير يقضي جُلّ أوقاته في التأليف، و لايزال الناس في الإمارة أحيـاء شاهـدوا بأعينهم الانهمــاك و غاية الشغف بالتصنيف و التأليـف للسيـد أميـر و سرعة قلمه و كتابتـه و جودة خطه." (١٢)

و يقول الشيخ الحسني

" و له مصنفات كثيرة و مؤلفات شهيرة في التفسيـر و الحديث و الفقه و الأصول و التاريخ و الأدب، قلما يتفق مثلها لأحد من العلماء، و كان سريع الكتابة، و حسن الخط، يكتب كراستين في مجلس واحد بخط خفي في ورق عال." (١٣)

و يقول أيضا :

" ثم يقبل إلى التأليف و مطالعة الكتب من غير أن يضيع دقيقة حتى ينتصف النهار و يدخل الظهر." (١٤)

و يقول الشيخ حيدر حسن خان :

" إن الأمير صديق حسن خــان كان يؤلف جزءاً واحـدا كل يـوم و إن ذهب إلى أحد في مناسبة أو حفلة أو مأدبـة، و تأخر الطعام، فيتنحى و يشتغل بالتأليف في نفس المكان " (١٥)

و أحب هنا أن أقدم فهرساً لبعض الكتب محددا بالأيام و الأوقات التي أنفقها الأمير في تأليف الكتب بالتحديد و الدقة و الضبط، مقتبسا من كتابه "رياض المرتاض" ليقدر القاري مدى شغفه و سرعة كتابته و شدة اهتمامه بالتأليف :

اسم الكتاب	اللغة	مدة التأليف	المطبعة
١- ابجد العلوم	العربية	أربعة أشهر	بوفال
٢ - إتحاف النبلاء	الفارسية	شهر واحد	كانفور
٣ - التاج المكلل	العربية	شهروعشرأيام	بوفال
٤ - رحلة الصديق	العربية	أسبوع واحد	كانفور
٥ - الروضة الندية	العربية	خمسة عشرةيوما	مصر
٦ - مسك الختام	الفارسية	شهران	كانفور
٧ - فتح البيان (١٠أجزاء)	العربية	سنة واحدة	قسطنطنية
٨ - البلغة	العربية	٢٢ يوماً	قسطنطنية
٩ - حصول المأمول	العربية	٢٦ يوماً	قسطنطنية
١٠- ذخر المحتى	العربية	١٢ يوماً	بوفال (١٦)

هذا ما ذكرته بإيجاز ليطلع القارئ على سرعة كتابته و بذل أوقاته المنسقة فى التأليف و لا أدرى كيف تسرب الشك إلى قلوب بعض الناس عن مؤلفات الأمير، و نجد أمثلة أخرى فى تاريخ تأليف علماءنا فى الكثـرة كمّاً و كيفاً، فقد ألف معاصره الفاضل الشيخ عبدالحى اللكناوى مائة وعشرة كتب منها ست و ثمانون فى اللغة العربية، و كان قد رزق عمرا أقل منه بكثير.

و كان فى عصرنا الأخير الشيخ الربّاني المولانا أشرف على التهانوى (١٢٨٠-١٣٦٠هـ) تسعمائة و عشرة كتب، ما بين صغير و كبير منها ثلاثة عشر كتابا فى اللغة العربية.

و بذلك يتضح ما برهنت عليه بالشواهد البينة علـى أن الأميـر صديق حسن كان من كبار علماءالهند و من أعظمهم تأليفا و إنتاجا و نفعا، فله يد كريمة بيضاء فى ميادين العلم و الفكر والثقافة و الحضارة لا تنسى مادامت الأرض و السماء.

الهوامش

١- إبقاء المنن، ص ٧

٢- نفس المصدر ص ٧

٣- و ذكر صاحب سيرة أستاذه " المفتى صدرالدين أزرده" الأستاذ عبدالرحمن برواز الإصلاحى ٣
بأن إسم والده "سيد آل حسن" و ولد فى قنّوج و والده توفـى قـبل ولادتـه (ص· ١٢١)

و لكننى فضلت ما كتب الأميرصديق حسن و إبنه الأمير السيد على حسن فى كتابيهما إبقاء المنن و ماثر صديقى، ج/٢ ص ١

٤- مآثر صديقى، ج/٢ ص ١٢

٥- نفس المصدر نفس الصفحة

٦- نزهة الخواطر، المجلد الثامن ص ١٨٩-١٩٠

٧- مترجما من "تزك سلطانى، ص ١٢١

٨- نفس المصدر، ص ١٧٢

٩- اكتفاء القنوع، ص ٤٩٧

١٠- نفس المصدر، ص ٢٠٨

١١- ماثر صديقى، ج/٢ ص ١٢

١٢- المآثر، المجلدالرابع ص ١٨٠

١٣- نزهة الخواطر، ج/٨ ص ١٩١

١٤- نفس المصدر، ج/٨ ص ١٩٤

١٥- مجلة "معارف" ص ٤٤٢ عدد حزيران ١٩٧٥م

١٦- مجلة "رابطة العالم الإسلامى" سبتمبر ١٩٧٨م ص ٤٠ - ٤١

الأمير خسرو بين يدي مرشده
حضرة الشيخ نظام الدين الأولياء.

بقلم : البروفسور نثار أحمد الفاروقى
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة دلهى ، الهند.

ليس من الضرورى أن نسوق شهادات كم كان الشيخ نظام الدين الأولياء عطوفا بمريده النجيب الأمير خسرو، فقد ذهب ذلك اليوم مذهب المثل . ذات مرة قال الشيخ نظام الدين الأولياء : "هناك لحظات أسئم فيها من كل شئ ، حتى من نفسي، ولكن لا أضجر أبدا من هذا الترك " (١) وكان أضفى عليه لقب ترك اللّه (٢) ، و كلمة ترك فى الشعر الكلاسيكى عبارة عن الحبّ والأثير ، و بالتالى "ترك اللّه" يرادف "محبوب الهى"، و هو لقب الشيخ.

إن المصادر القديمة مثل *فوائد الفؤاد* و *سير الأولياء* لا تشيران إلى أن الأمير خسرو كان تلقى الخلافة من مرشده الشيخ نظام الدين الأولياء ، ولكنه لا شك فى أنه كان أعز مريديه عليه دون مراء ، وإنه لم يمنح الخلافة بحكم صلته مع البلاط الملكى، و رغم ذلك لم يمنعه الشيخ منها. غير أن كتاب "*لطائف اشرفى*" (٣) قد جعل الأمير خسرو فى عداد صفوة أصحابه وأخلص خلفاءه.

متى تعارف الشيخ والأمير خسرو ؟ وما هى الظروف التى ربطتهما برباط الصلة الحميمة ؟ ومتى أ دخل فى السلسلة للمرة الأولى؟ أسئلة لم يسبر عن ردودها الحا سمه بعد. قد تلقى الشيخ نظا م الدين تعليمه البدائى فى وطنه بدايون (ولاية اترابراديش) تحت إشراف أمه ، ثم امّ دهلى للتعليم العالى . وبادئ ذى بدء سافر بوحده حتى يسبر الإمكانيات فيها ، وفى رحلته الثانية استصحب أمه وشقيقته الأرملة الكبرى و أولادها، و كان حينذاك بين ١٩-٢٠ سنة من عمره ، ولعله في ذات الوقت اتصلت أسبابه بوالد الأمير خسرو.

و طبقا لمقدمة *غرة الكمال* ولد الأمير خسرو في سنة ٦٥١ هـ / ٥٤ ـ ١٢٥٣م ، وتؤيد ذلك بعض المصادر الأخرى أيضاً. و حينما توفى والده الأمير سيف الدين محمود لم يكن بلغ خسرو أكثر من ثماني سنوات من العمر (٤) ، ويعني ذلك أن أباه انتقل لجوار ربه في سنة ٦٥٩ أو ٦٦٠ للهجرة /٦٢ - ١٢٦١ للميلاد. و تفيد بعض الروايات ، ولم أتمكن من أن اعثر على مصا درها، أن الأمير خسرو حضر مجلس الشيخ نظام الدين الأولياء مصحوبا بأبيه ، وكانت زيارته المبكرة ، و وقف على باب الزاوية، لم يلج البيت مع أبيه ، ثم ارتجل رباعية وبعث بها إلى الشيخ ، وهي كالتالي:

تو آن شاهى كه بر ايوان قصرت   كبوترگر نشيند، بازگردد
فقيرے مستمندے بر درآمد   بيايد اندرون، يابازگردد

(أنت ملك بحيث أن حمامة إذا جثمت على أعلى قصرك تصبح صقرا إن رجلا معدما حزينا واقف على عتبتك فهل يسمح له بالدخول أم عليه أن يرجع *القهقرى* ؟)

و يُروى أن الشيخ نظام الدين ردّ عليه عفواً في صورة رباعية كتبها على قصاصة من الورق و أرسلها:

بيايد اندرون مرد حقيقت   كه باما يك نفس همرازگردد
اگرابله بود آن مرد نادا ن   ازان راهے كه آمد باز گردد

(إن طالب الحق يجب أن يدخل علينا حتى يقاسم أسرارنا لوقت قصير ، ولكن إذا كان جاهلا غبيا فليرجع توأ على أدراجه)

و جاء في *سير الأولياء* (٥) أن الأمير خسرو بايع الشيخ نظا م الدين بعد ما أ درك الرشد. ولكن إذا صحت القصة التى رويناها آنفا . فإنها لا بد أن تكون وقعت قبل سنة ٦٦٠ هـ/٦٢ ـ ١٢٦١ م ، حينما كان الأمير خسرو في السنة الثامنة من عمره ، مع أنه كتب نفسه في مقدمة *غرة الكمال* أنه بدأ ينظم الشعر و كان ابن اثنتى عشرة سنة ، وذلك يعنى أن حياته الشعرية بدأت بعد وفاة أبيه حول سنة ٦٦٢هـ/ ٦٣- ١٢٦٤م ، وقبل أن يتربع السلطان بلبن على عرش دهلى. إنه يعتقد بصورة عامة أن وفاة الشيخ فريدالدين گنج شكر كانت في محرم سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م و لكن شهادة الخلافة التى أعطاها الشيخ نظام الدين، واحتفظ بها كتاب *سير الأولياء*(٦)، جاء فيها تاريخ كتابته ٦٦٩ هـ /٧١ -١٢٧٠ م . إن نسخة خطية لكتاب *شمائل الاتقياء* الموجودة في المتحف الوطنى الهندى في نيو دلهى تتضمن عدة تواريخ جملية (Chronogram) و جاء فيه التاريخ الجملى لوفاة الشيخ فريد "*كليد* گنج شكر بو د" الذى يدل على سنة ٦٧٠ للهجرة /١٢٧١ الميلادية (٧). وكذلك نعلم أن الشيخ فريد منح خلافته

الشيخ نظام الدين في السنة الأخيرة من عمره ، ومن هنا لا يمكننا أن نؤمن بأنه خلال حياة شيخه ، و دو ن الحصول على الإجازة الصحيحة (الخلافة) كيف يدخل الشيخ نظام الدين أحدا فى السلسلة؟ و على الجانب الآخر تقول رواية أخرى إن الشيخ نظام الدين لم يدخل أحداً فى السلسلة مادام الشيخ بدرالدين إ سحاق (ختن وخليفة الشيخ فريد الدين) على قيد الحياة ، و تاريخ وفاته كما هو محفور على باب ضريحه هو سنة ٦٩٣ هـ / ٩٤-١٢٩٣ م ، و ذلك من عمل الخواجة حسن النظامى (المتوفى يوليو عام ١٩٥٥ م) ، ولا أدرى ما هو مصدر علمه ؟ وعاش الشيخ بدر الدين قرابة ستة أو سبعة أعوام بعد وفاة الشيخ فريد -رحمه الله- فمن هنا يمكننا أن نتوصل إلى أن الأمير خسرو بايع الشيخ نظام الدين بعد سنة ٦٨٠هـ / ٨٢-١٢٨١ م، حين كان بلغ مبلغ الرجال تماما. و يرى الدكتور وحيد مرزا أن خسرو دخل في السلسلة عام ٦٧١ هـ/٧٣ - ١٢٧٢ م ، أعنى فى أيا م الشيخ نظا م الدين المبكرة حين لم يكن حتى استقر فى دهلى بصورة منتظمة . وإذا صح هذا فإنه يكون من الخطأ أن يعتقد أن والد الأمير خسرو أيضا كان مريدا للشيخ نظام الدين الأولياء.

وكان للأمير خسرو شقيقان : حسام الدين قتلغ خان الذى توفى سنة ٦٩٨ هـ/ ٩٩ - ١٢٩٨ م فى ذات الأسبوع الذى توفيت فيه أمه ، وعزالدين علي شاه الذى نصادفه فى المجلس الذي انعقد فى ١٣/رمضان المبارك سنة ٧٠٧ للهجرة ٧ /مارس ١٣٠٨للميلاد. (٨) و سجل في *فوائد الفؤاد*. يقول الأمير حسن الدهلوى :

"عزالدين على شاه سلمه الله تعالى كه يكے از مريدان خاص بود"

(إن عزالدين على شاه – سلمّه الله تعالى- أحد المريدين البارزين)

يقول جمالى (٩) إنه كان أكبر إخوته ، ولكن وحيد مرزا جعل الأمير خسرو متوسط إخوته (١٠) و من أنجال الأمير خسرو نتعرف على أ ربعة أبناء و هم : غياث الدين ملك أحمد ، ومحمد (١١) ، و خضر و مبارك ، وبنتين : عفيفة ، و ميمونة واعتقد أنهم كلهم دخلوا في السلسلة النظامية الجشتية على يدى الشيخ نظام الدين الأولياء. ونجد أحد أحفاد الأمير خسرو المدعو بـ " خسرو الثانى" فى مجالس الشيخ ناصر الدين محمود الأودهى المعروف بـ" چراغ دهلى " (المتوفى سنة ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦م) والراجح أنه أيضا كان شاعراً مثل جده، و كانت بينه وبين السيد محمد الحسينى گيسودراز (المتوفى سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م) صداقة حميمة . ذات يوم تحدث مريدو چراغ دهلى فيما بينهم أن الصوفية بصورة عامة يلبسون الأحذية الحمراء و لكن ما بال شيخنا چراغ دهلى يوثر الحذاء الأحمر ، و ماذا عسى يمكن أن يكو ن وراء ذلك ؟ فابتاع أحدمنهم حذاء أصفر ذا النوع العالى و أهداه إلى الشيخ چراغ دهلى، فوضع الشيخ أحد قدميه فى فردة من ذلك الحذاء تجربة واختبارا ، بينما كانت قدمه

الأخرى على السجادة ، ثم وهب ذلك الحذاء الأصفر لخسرو الثاني ، أعني حفيد الأمير خسرو، إذ أنه متبعا شيخه كان يلبس حذاء أحمر . و خرج خسرو الثاني من عنده ، و وجهه يفيض بشرا ، وقال للسيد محمد حسيني گيسو دراز إن شيخه أهدا له حذاء فأجابه. " إن هدية الأحذية من قبل الصوفية إلماع عن المنزلة الرفيعة في التدرج الصوفي أو عن أن المتسلم سيغادر هذا العالم". و لم يكن تغير لون ذلك الحذاء حتى مرض خسرو الثاني فجأة ، و وافته المنية بعد عدة أيام (١٢) هذه القصة تتصل بچراغ دهلی فإذن كانت وفاة خسرو الثاني قبل سنة ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦م.

و كان عماد الملك راوت عرض (المتوفى سنة ٦٧١ هـ / ٧٣- ١٢٧٢م) جد الأمير خسرو لأمه و كان أميرا مهيبا يعيش حياة مترفة كما يرويه لنا ذلك المؤرخ البرنـــي (١٣) ، و كان قصره الفخم يقوم قريبا مـــن جســـر يسمى (باب مندا) ، والشيخ نظا م الدين أيضا كان نزل في هذا القصر لمدة من الزمن قبل أن يستقر في غياث فور (حوالى سنة ٦٨٦هـ/ ٨٨-١٣٨٧م) و كان أيضا اعتزم على أن يقطن في (بتيالى) حيث كان يسكن الأمير خسرو في ذلك الوقت (١٤) يقول الأمير خورد الكرماني و كان ذلك بداية عهد الأمير خسرو بالشعر فكان يعرض عليه كل ما كان ينظمه في تلك الأيام ليصلحه ، فأشار عليه الشيخ ذات يوم : " و الأفضل أن تتبع أسلوب الشعراء الصفاهانيين الذين يكون قريضهم مشبوبا بالتفاصيل الغزلية

" روزے حضرت سلطان المشائخ فرمود طرز صفاهانيان بگوئی يعنى عشق انگيز وزلف و خال آميز " (١٥)

قد كان أسلوب الشيخ سعدى الشيرازى (المتوفى حوالي سنة ٦٩١ هـ) آنذاك أكثر الأساليب الشعرية شهرة وأعظمها سحرا وأخذا ، فكان الأمير خسرو، حسن سجزى يحاولان جهدهما لمحاكاته ، ولكن لم يصادفهما النجاح وعمل الأمير خسرو بنصيحة شيخه و أخذ يعبر في شعره عن المشاعر و ا لأحاسيس الرقيقة وعواطف الحبِّ المشبوبة حتى صارله أ سلوب أنيق رائع ، كما ينم ذلك عن شعور الشيخ نظام الدين النقدى الرفيع و ذوقه الشعرى المصقول ، فقد قدّر مواهب الأميرخسرو في مرحلة مبكرة ، و وجه عبقريته الشعرية إلى الجانب الصواب . وفيما بعد قدّم خسرو مجموعاته الشعرية *غرة الكمال* ، *وسط الحياة* و *نهاية الكمال* إلى الشيخ، وفي مقدمة جميع مؤلفاته تقريبا ، بعد أن حمد الله – سبحانه وتعالى و أثنى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، قدم إجلالا وثناء عطرا صادقا على شيخه ، ثم أخذ في مدح الملك . ففي مقدمة ديوان *غرة الكمال* (١٦) يقول :

"بعد ا ز توحيد أحد، و محامد محمد صلى الله عليه و سلم آنچه بر بنده فرض است خواندن دعاے شيخ كامل ومكمل ، مقتداے واصل وموصل ، و عنوان توقيع عنايت إلهى و مضمون نامه

أسرار نامتناهى است. سبحان شيخى كه آيتے است از مصحف مجيد بلكه نسختيست از منشور " أرسل رسوله با لهدى " شيخ عالم بل شيخ الشيوخ عالم نظام الحق والدين كه نظم كار عالم بجواهر سبحه، أو بر بسته ا ست. زهے بينائے صادق نظر كه مكنونات أرنى أنظر إليك" را در سواد عين " كأنك تراه " تضمين فرموده است و خہے دانائے رموز خداوند اكبر ، مغلقات " وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلاّ هو" را در سبق أزل حل كرده. دل رحيمش به صنعت تقريب " إن رحمة اللّه قريب من المحسنين" مشغول. درونه لطيفش بطرف ربانى " وجوه يومئذٍ ناظرة إلى ربها ناضرة " مخصوص . شاعر برائے أوچه بيت سازد كه بيت اللّه بيت اوست" المسجد بيت كل تقى و بر " دران روز كه هم گفتارهارا بسنجند " و الوزن يومئذ الحق ". اميد دارم كه در ميزان أقوال ركيك مارا اگر وزنے باشد از مدائح و محامد أوباشد."

(بعد توحيد اللّه سبحانه وتعالى – والثناء على نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، إنه من واجبى أن أ دعو للشيخ الذى هو الكامل والمكمل وللقدرة الذى هو على صلة باللّه تعالى ، ويوصل الآخرين به ، عنوان العناية الإلهية متضمنا زبدة الأسرار المطلقة . ومجيد شيخى الذى هو ما سة مثالية ، و آية من المصحف الكريم، بل ترجمة صادقة للمرسوم الربانى (أرسل رسوله با لهدى) . هو شيخ العالم بل شيخ شيوخ العالم ، نظام الحق والدين ، قد اتحد نظام الشئون الدنيوية مع الجواهر المنظومة في سبحته . ما أحسن من مشاهد مع النظرات الصادقة قد استوعب المحتويات الخفية (أرنى أنظر إليك) في عين (كأنك تراه) . وما أروع من مدرك للأسرار الإلهية قد تعلم ماخفى من (وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلاّ هو) فى أول درس تلقاه في الأبد . إن قلبه الرؤوم يعمل دائما على تقريب (إن رحمة اللّه قريب من المحسنين) ، وباطنه النقى قد اختص بفضل اللّه (وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناضرة) ، أى بيت يمكن أن ينظم شاعر فيه إذ أن بيت الله (أعنى الكعبة) هو بيته (المسجد بيت كل تقى و بر) . و يوما توزن فيه جيمع الكلمات (الوزن يومئذ الحق) . فرجائى أنه إذا كان هناك أى ثقل في كلماتى الساقطة يكون ذلك بما مدحته وأثنيت عليه.)

وبين مؤلفات الأميرخسرو ، لاتتضمن مجموعتا مثنوى قران السعدين و مثنوى تغلق نامه أى قصيدة في مديح الشيخ ، أما الثانية فلم تكتمل ، بينما نظمت مجموعة قران السعدين فى سنة ٦٨٨هـ/ ٩٠ – ١٢٨٩ م . و يجب أن نمعن النظر فى أنه لما ذا لاتشتمل هذه المجموعة الشعرية على مديح الشيخ .

إن سببه البسيط هو أن الأمير خسرو لم يكن أصبح بعد مريدا للشيخ ، و قد يكون سببه الآخر أنها تحكى قصة اجتماع شمل معز الدين كيقباذ و بغراخان، فاجتنب خسرو على عمد عن مديح الشيخ قبل مديح ا لملك.

وانتهى خسرو من مجموعته الشعرية مثنوى شيرين خسرو في سنة ٦٩٨هـ/ ٩٩ - ١٢٩٨ م ، وهى تتضمن ٢٦ بيتا مدح به الشيخ ومنها .

بسقفش كرده جبريل آشيانـه   ملك در صحن او كنجشك خانه
دل از نورحضورش بادمعمور   جزاين نور حضوراز همتش دور

(قد جعل جبرئيل من سقف بيته ماواه ، والملائكه في صحنه كأوالف الطيور فلتبق قلوبنا مشحونة بنور وجو ده، وكل شيء ما سواه مدفوعا عنا ببركته.)

و كذلك دبج يراعه مجموعة أخرى مثنوى *ليلى* مجنون في سنة ٦٩٨ للهجرة . وحتى ذلك الوقت كانت رسالة الشيخ نظا م الدين الروحية قد عمت وتؤتى أكلها. ، ونفخت روحا جديدة فى المجتمع كله وفيها ١٥ بيتا فى مدحه مستهلا بما يلي:

" *مدح شيخ الطريقت نظام الحق والحقيقت محمدي ، كه عيسى آخر الزمانش فرستادند تا دم جان بخش او اسلام محمدي از سر زنده گردانيد و عمر جاويد بخشيد. متع الله المسلمين بطول بقاءه* "

(أمدح شيخ الطريقة ونظام الحق والحقيقة ، الذى بعث كعيسى عليه الصلاة والسلام - فى آخر الزمان ، لكى تمنح أنفاسه المحبية الإسلام حياة جديدة حتى يستعيد نشاطه من جديد و متع الله المسلمين بطول بقاءه) :

چون گوهرمدح خواجه سفتم   از غيب شنيدم آنچه گفتم
ا كنـون قـدرے در معانـى   ريـزم بسـر جنيـد ثانـى
قطـب زمـن و پنـاه ايمـا ن   سـر جملهٔ جملهٔ كريما ن
در شـرع نظا م دين أحمـد   يعنى كه نظا م دين محمد
در حجرهٔ فقـر پا دشا هـے   درعالـم دل جها ن پناهـے
برخـاك ز رحمـت آسمانـے   بـر چـرخ ز دولت آ ستانـے
شاهنشه بے سرير وبےتـاج   شاهانش بخاك پاے محتـاج
بينـا تر جمله پاك بينـان   بيدارتريـن شب نشينـان
مسند زسپهر بـر ترش بـا د   خسرو چو ستاره چاكرش باد

(لقد تلقيت من الغيب ما قرضت ونظمت من اللآ لى فـى مدح الشيخ و هاهى أنثر الآن قـدرا مـن المعالى على جنيـد الثانـى ، قطب الوقت ، و ماوى الإيمان، و رأس النبلاء ، والذى هو في الشريعة بمثابة النظام

لِدين أحمد – صلى الله عليه وسلم – أعنى نظام الدين محمد. هو مليك عالم القلب فى صومعة الدرويش . هو سماء الرحمة والعطف على هذه الأرض بينما مقره في السماوات. هو الإمبراطورالذى لم يكلل ولم يتربع على العرش، والذى يحرص الملوك على غبار قدميه هو أحد الأتقياء بصرا ، و أكثر رهبان الليل سهرا و يقظة . فليكن مستقره فوق السماوات ، وليكن خسرو خادمه)

و كذلك نظم مجموعة مثنوى *مطلع الأنوار* فى هذا العام نفسه ، وأدرج فيها ٤٨ بيتا فى مديح شيخه قبل أن يأخذ في مدح الملك.:

شيخ أمم قطب حقيقت نظـا م	خضر و مسيح از دم يحيى العظام
عصمتيـــان حـــرم أسمـــــان	جلوه كنان در نظرش هــرزمـا ن
چون بهوابرده دو د ست دعـــا	گشتـــه هــر انگشت كليـــد سمـا
سكّهٔ كارش بفروع وأصـو ل	تابع قـــال الله و قـــال الرسـو ل
زيرفلك قطب زمانه هموست	قطب دو گوينـد يگانــه هموســـت
بر در او هركـه ارا دت نمــو د	زنـــده جاويـد شـد ار مرده بـود
از پئے گمراهى جانها رقيب	و ز پئے بيمـــارى دلـهـا طبيب
راهرو ے كو بطريـــق صفـــا	رفتـه قـدم بـــر قـــدم مصطفـــے
چـو دم الـهـــام زد ه كــا م او	نائــب و حــى آمـــده الـهـام او
سركه بزيرقدمش گشت خـاك	موے بمو از سر سوداست پـــاك

مفتخرازو ے بـــه غلامــى منـم
خواجه نظام است ونظامى منم

(إن نظام الدين شيخ الناس ببكرة أبيهم، و قطب الوقت .مثله مثل خضر و عيسى . عليهما الصلاة والسلام – بفعل أنفا سه المحيية. إن حورا مطهرات من الحريم السماوى لا تزال على مرمى بصره. حينما يرفع يديه بالدعاء فتصبح كل أنملة من أنامله مفتاحا لأبواب السماوات. . كل عمل من أعماله صغيرا كان أو كبيرا، ينسجم مع تعاليم الله ورسوله صلى الله عليـه وسلم. هو المرتكز تحت السماوات.، يزعم أن هناك قطبين ، ولكنه منقطع النظير. و كل من جاء على بابه مخلصا وجد حياة سرمدية ، و حَى بعد موته . هو يحرسنا إ ذا انحرفت نفو سنا عن الصراط المستقيم ، ويطب القلوب إذا حمت ومرضت ، ويسلك الصراط المستقيم، ويتبع تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم حذوا بحذو و نعلا بنعل. إن إلهامه في شئونه يقو م مقام الوحى. والرأس الذى تدوسه قدماه يصبح خلوا من الكآبة والحزن. أنا اعتز بأنى مولاه ، وسيدى نظام. ، فأنا إذن نظامى)

و فى العام القادم سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ – ١٢٩٩ م دبج مجموعة شعرية

أخرى مثنوى *آئينه اسكندرى* ، هذه الأخرى أيضا تضم ٣٧ بيتا فى مديح الشيخ نظام الدين الأولياء . و منها

پناه جهان دین حق را نظام — ره قدس را پیشوای تمام
جهان زنده از جان بیداراو — زمین روشن از روز بازاراو
قدم گاهش ازپایهٔ عرش بیش — کف پایش ازبوسهٔ خلق ریش
زمین وفلک در ولایت حدش — ولی گوشهٔ بوریا مسندش
گره مفلس وتوشه دان پر ز در — شکم خالی و دل زگنجینه پر
دم خُلق، او چو صبا جان نواز — نوالش همه وقت مهمان نواز
زنظارهٔ روئی آن آفتاب — همه پاك چشمان دو دیده پرآب
بَرد بار خلق او چه بسیار تر — کسی نیست ازوی سبکبارتر

جهان زو همه وقت پر نور باد
زمین را درش بیتِ معمور باد

(هو مأوى العالم ، ونظام الدين الحق، وقائد طريق الورع والتقى إن العالم يحى بروحه اليقظى ، والأرض تضيء بنفاق سوقه إن موطأ قدميه أسمى و أرفع من مستقر عرش الملوك، قد تقرحت قدماه بالقبلات المتواصلة بالرغم من أنه يجلس على حصير من القش وجيبه خال غير أن كيس مؤنته مشحون بالدرر، وبطنه طاو رغم أن قلبه مشرب باللآلى الروحية . إن سلوكه نبيل دمث ومنعش للروح كالنسيم العليل ، وأعطياته دائما تكرم الضيوف وإذا رأى الأتقياء وجه ذلك الشمس المشرف فتطفح عيونهم بالدموع وعلى أنه يحمل عبأ هموم عامة الناس مع ذلك ليس هناك من هو خال البال أكثر منه ، فليكن وجوده المشرف دائما فى هذا العالم ، وليعم بابه بالناس في سائر الأوقات)

و قرض مجموعة شعرية أخرى مثنوى *دولرانى و خضرخان* في سنة ٧١٥ هـ / ١٦- ١٣١٥ م ، وهى تشتمل على ٢٤ بيتا في مديح الشيخ قبل مديح الملك. وقد مدح فيه ، كعهدنا به ، شيخه بكل الإخلاص وعرفان بالجميل عرفانا يفيض من القلب. وهو الآن قد كان تقدم فى السن فيدعو أن يكون موته على الإيمان :

نظام الدین حق فرخنده نامی — که دین حق گرفت ازوی نظامی
زعلمش دردوعالم رو شنائی — دوعالم، علم کسبی و عطائی
حدیثش چون خبردرامرو درنهی — بیك پایه فرود از پایهٔ وحی
بصدرخضروعیسی مسندآرای — خضربوسیده دستش حضرخان پای
بهر سو کز دمش بادی رسیده — هزاران کوه رنج ازجا پریده
کلاهش را نیارم نام گیرم — زهی بخت ازته کفشش بمیرم

خدايا آن گزيده بنده خاص   كه هست الحمد لله جفت اخلاص
به قربت هم نشين مصطفى باد
دران قرب ايستادش بهر ما باد

(هونظام الدين الحق، يحمل إسماميمونا، قد انتظمت بفضله حبات الدين الحق. قد أشرق كلا العالمين بعلمه هذا بمعرفته المكتسبة ، و ذاك ببصيرته النافذة الموهوبة . إن أمره بأخذ شيء أو تركه لايقل إلاّ درجة واحدة من الوحي. ومقامه في المنزلة الأولى مع خضر وعيسى عليهما الصلاة والسلام . وبينما يقبّل خضر عليه السلام يده ، يقبل خضرخان قدمه. وحيثما تصل أخف موجات نفسه تزول آلاف من جبال الكرب والأسى دفعة واحدة. لقد أكون سعيدا إذا مت تحت حذاءه ، فضلا عن قلنسوته، ربى الذى اصطفى عبده من هو توأم الإخلاص ، ليكن في جوارك صاحب محمد صلى الله عليه وسلم. وليكن قريبا منه مكان لنا خادمين)

إن بعض الأبيات ألتى نظمها خسرو في مديح الشيخ تنطوى أيضا على إشارات قيمة لمترجمى حياته ، فمثلا إن بيتا واحدا يدل على أن الدعاء الذى دعا به سليمان عليه الصلاة والسلام ، والذى جاء في القرآن الكريم (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ مُلْكٍ لايَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي) قد كان منقوشا على خاتمه :

زير نگين عرصهٔ ملكِ جمش   آية "هب لى" رقم خا تمش

(إن رقعة مملكة جمشيد كلها تحت حكمه ، والآية الكريمة " رب هب لى" مكتوبة على خاتمه)

كما يدل بيت آخر على أن القلنسوة الرباعية الزوايا التى كان يعطيها الشيخ مريديه، و كان يلبسها أيضا ، كانت عقدت فيها عقدة على شكل الحرف العربى " هـ"

زافسرِ شاهان كُلهِ او فره   بر كلهش هاء هُوَ اللّه گره

(إن قلنسوته أكثر احتراما واعتبارا من إكليل الملك ، ويوجد فيها حرف (الهاء) الدال على " هوالله أحد" كعقدة .)

و كذلك يشير بيت آخر إلى أن عكازته مستقيمة ، لا تقوس فيها و لا اعوجاج.

را ست عصايش چو شهابى بروز   ديو كُش وبلكه عزازيل سوز

(إن عكازته مستقيمة كالشهاب ، وهى قاتلة للأرواح الخبيثة . بل قاتلة للشيطان)

و بالإضافة إلى ذلك هناك قصائد أخرى تنطوى على إشارات قيمة عن حياته.

وكان الأمير خسرو ربما ينشد قصائده فى مديح الشيخ فى حضرته ، فأنشده ذات يوم أبياتا له فسأله الشيخ معجبا به :" أى هدية تحب ؟ " و كان

شيخه حضرة الشيخ فريد أيضا قد سأل شمس دبير بعد ما سمع إلى قصائد فى مديحه، أى هدية تحب ؟ وما تحتاج إليه علاوة على ذلك ؟ و كان هو أيضا قد اقترح بعض اصلاحات وتغييرات في قريضه ، فطلب إليه شمس دبير أن يدعو لرفاهيته الإقتصاديه ، فدعا له الشيخ و كان من بركة دعاءه أن عين مؤدبا لأبناء الملك بلبن ، كما أصبح بعد أكثر الناس نفوذا و تأ ثيرا في البلاط الملكي. فجريا على هذه العادة ، سأل الشيخ نظا م الدين الأمير خسرو أن يبوح بذات نفسه ، فقال خسرو لساعته " اتمنى العذوبة في شعرى ، وأن يصبح ممتعا وشيقا جدا " ، فأمره الشيخ والابتسام يعلو شفتيه " انهض إلى غرفتى، هناك شيء من السكر في طست تحت سريرى و هات به هنا" امتثل الأمير بأمره ، و رجع بالطست و فيه قدر ضئيل من السكر، ثم أمره الشيخ " انثر منه شيئا على نفسك ، كما ذق شيئا منه أيضا "(١٧) ، و امتثل الأمير خسرو بحكم الشيخ ، وبفعل هذه البركة أصبحت العذوبة خصيصة بارزة لشعره ومن الطريف أن التاريخ الجملى (Chronogram) لوفاته هو "طوطى شكر مقال" (٧٢٥هـ) ولكنه بعد ذلك كان يأسف على ذلك ويقول لماذا لم يسئل شيخه شيئا أثمن و أغلى. و مرة وضع الشيخ لعابه أيضا على شفتى الأمير خسرو للبركة (١٨) . و إنه لمن بركة الشيخ أن الأميرخسرو قد تمكن في خمسة وسبعين عاما من حياته من إنتاج هذا القدر الضخم من النثر والنظم ، بحيث يمكن أن تكون كتاباته مكتبة صغيرة على حدة . فقد كتب الغزل والقصائد والمثنوى والرباعيات والمقطوعات وما إليها ، لا فى اللغة الفارسية فحسب بل فى اللغات العربية والتركية والهندوية أيضا. و كان أيضا يعتبر ملحنا بارزا للموسيقى الهندية ، كما أحدث عدة نماذج حديثة من أمثال " كهه مكرنيان " ، والألغاز ، و" دو سخنى" و " شوبولى" . كان الشيخ قد أعجب بـ "تخميسات" نظامى جنجوى الشهيرة إعجابا شديداً ، و كان يطلب إلى الناس أن ينشدوها إياه إذا خلا به المكان ، فطلب إلى الأمير خسرو أن يحاول " التخميسات " ، فألف خسرو مثنوياته الخمسة على غرار " تخميسات " نظامى.

ويخبرنا مؤلف كتاب *سير الأولياء* أن الأمير خسرو ومعز الدين بانتشه كانا قد تلقيا عليه أيضا دروسا من رسالة فى البلاغة والعروض (١٩) ، ويعضد ذلك كتاب *لطائف أشرفى*، و هو مجموعة أقوال السيد أشرف جهانغير السمنانى. فضلا عن ذلك إن خسرو نفسه قد اعترف في مقامة *غرة الكمال* ، كما أقرّ فى بعض مدائحه له أيضا ، بأنه قد تتلمذ على الشيخ نظام الدين الأولياء فى علم العروض أيضا.

و كلما كان خسرو يؤلف كتابا جديدا فكان يهدى باكورة نسخه إلى الشيخ ، و هو كان يمسك الكتاب فى يديه المباركتين، ويقول " لنقرأ الفاتحة "، ثم يتلو أولى سور القرآن الكريم ، ويدعو لشعبيته و ربما كان يتصفح الكتاب ويقرأ فيه من هنا و هناك .

و كان يريد الشيخ أن لا يقصر خسرو نفسه على الشعر فحسب ، بل ليشد دائما بأعينه إلى هدف أسمى و أعلى. وعلى الرغم من رغبته الشديدة فى كتابة النثر و نظم الشعر و مواظبته على الحضور فى البلاط، و رحلاته المتكررة إلى الأصقاع النائية مع الجيش، لم يغفل الأمير خسرو قط عن الإزدهار الروحى. وقد أصاب الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى حين قال إنه على الرغم من أن خسرو كان يتمتع بوشائج ودية مع الأسرة الحا كمة وطبقة النبلاء ، ولكن قلبه كان دائما مشدودا إلى شيء آخر . ويتضح ذلك بمانجد من البهجة والسرور فى قراءة مؤلفاته ، إ ذ أن مثل هذا البركة قلما توجد فى مؤلفات أناس آثمين ، كما إنها لاتحظى بمثل هذاالقبول العام (٢٠)

ويشهد ضياء الدين البرني، و كان صديقا حميما للأمير خسرو: "و إضافة إلى ثقافته و ذلاعة لسانه و كفاءاته ، إنه كان صوفيا مستقيما و قد قضى معظم حياته فى الصلاة و الصيا م وتلاوة القرآن المجيد ، وكان فذا فى قسمى العبادة الدينية : العبادة اللازمة والعبادة المتعدّية التى يعدو نفعها على الآخرين كإقامة الأوقاف الخيرية و ما إليها. و كان يصو م بصورة منتظمة و كان موضع ثقة لدى الشيخ أكثر من أى مريد آخر ، كما لم أتعرف على مريد آخر أخلص و أوفى منه . وقد أوتى حظا وافرا من حب اللّه والهيا م به ، و كان يغشى السماع الصوفى، ويأخذه الوجد ونشوة الحب. وكان ضليعا فى الموسيقى، و كان يحدث ألحانا و أنغاما جديدة . و كان مطبوعا على قول الشعر. ويحمل قلبا حنونا بين جنبيه، ويتمتع بذوق أنيق و بالجملة كان قد جعله اللّه ـ سبحانه و تعالى ـ فذا فى كل فن يتصل بالحذق والذوق الرائع. و كان فريدا من غير ريب، وشخصيته كانت تبعث على الحيرة والدهش في عصره"، (٢١)

ويقول الأمير خورد إن خسرو ، بعد فراغه من قيام الليل، كان يتلو سبعة أجزاء من القرآن الكريم كل ليلة ، وقد سأله الشيخ يوما: " قل لى يا ترك ! كيف تجد عبادتك ؟ فأجاب خسرو . " مولاى ! قد انفجر باكيا فى هزيع الليل" فقال الشيخ فرحا : " الحمد للّه ! الآن قد بدأت تلوح بعض السمات" (٢٢)

و كان الأمير خسرو ، بين الفينة و الفينة ، يغيب عن دهلى مع الجيش الملكى، فسافر أولا في صحبة الأمير محمد خان الشهيد، الوريث الشرعى للسلطان غياث الدين بلبن، إلى ملتان ، و مكث بها حوالى خمسة أعوام ، و كان الأمير حسن علا السجزى الد هلوى ، مؤلف كتاب *فوائد الفؤاد* أيضا متصلا ببلاط الأمير محمد خان. وهنا نشبت معركة ضاربة بين المنغول و الجيش الهندي بتاريخ ٢٩/ ذى الحجة سنة ٦٨٣ للهجرة المصادف لـ ٨ / مارس سنة ١٢٨٥ للميلاد، و سقط الأمير محمد خان صريعا فى تلك المعركة. وكان رجلا نابغا عبقريا، و راعيا للعلم و الفنون الجميلة ، مثقفا، دمث الخلق ، وقد أعرب معاصروه من أمثال الأمير حسن الد هلوى والأمير خسرو وضياء الدين البرنى وغيرهم عن أسف و ألم بالغين على موته المبكر، و رثوه شعرا و نثرا. و وقع

الأمير خسرو أسيرا في أيدي الجيش المنغولي ، فذهبوا به إلى بلادهم ، وصادف ذلك طقساحارا، و كانت الرياح و عواصف الرمل تهب هبوبا سريعا ويستطيع المرء أن يتصور مناخ صحارى ملتان التي تتحول إلى الجحيم خلال فصل الصيف . وعطش الأمير خسرو و أصحابه عطشا شديدا ، و بعد لأي عثروا على قدر يسير من الماء في الصحراء . هنا في هذا الوقت العصيب هداه عقله إلى أن الأعداء قد عطشوا و إنهم سوف يشربون الماء حتى يشبعوا ، ثم يتعرضون للانتفاخ الرئوي ، فارتشف بعض جرعات ارتشافا ليبل حنجرته ، بينما انتفخت بطون الجيش المنغولي ، و سقطوا منتشيا عليهم في المكان نفسه و هكذا وجد الأمير خسرو فرصة للفرار من أسرهم و كتاب مجمل فصيحي (٢٣) أيضا يحكي هذا الحدث. ولكن جاء فيه "أن المنغول ذهبوا بخسرو إلى بلادهم، ثم لم يعلم عن مكان وجوده" لكن رجع خسرو إلى دهلي سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م .

وحينما كان يذهب خسرو بعيدا عن دهلي، كان الشيخ نظام الدين الأولياء يبعث إليه رسائل تفيض بالحب والعطف ، وكان يخاطبه بلقب "ترك الله "، و قد احتفظ خسرو بهذه الرسائل بحيطة بالغة و كانت من أمنيته أن توضع رسائل الشيخ هذه في كفنه بعد موته حتى يغدق الله سبحانه وتعالى - عليه رحمته يوم الجزاء بفضل هذه الأوراق المقدسة و من هنا يظن أن أولئك الرسائل كانت قد دفنت مع من كانت أرسلت إليه ومع ذلك توجد نبذات من هذه الرسائل في أمكنة مختلفة من كتاب *سير الأولياء* ، و قد جاء في إحدى رسائل الشيخ التي كان بعث بها إلى الأمير خسرو

> "بعد از محافظت جوارح، از أمور نامرضيهٔ شرع اجتناب نمايد و درمراعات أوقات هم كوشد، عمر عزيز كه سبب تحصيل كلى مرادات است غنيمت شمرد ، وروزگار را ببطالت مصروف نگرداند، و اگر در ضمير انشراح يابد برپئى انشراح رود كه آن در طريقت أصلى معتبراست در كل كا رها استخاره را تقديم نمايد" (٢٤)

(وبعد صيانة جسمك من الأعمال غير الشرعية عليك أن تجتنب عن الأشياء غير المرضية ، و حافظ على أوقاتك و اعتن بها إن هذه الحياة الغالية التي هي وسيلة للحصول على كل ما يطمح إليه المرء ، لابد أن تقدر حق قدرها ، وأن لا يزجى الوقت في أمور لا طائل تحتها إذا اطمأنت نفسك إلى شئ غامض فيه ، فإن ذلك جدير بالثقة في المنهج الصوفي للحياة وعليك أن تطلب من الله تبارك وتعالى - الهداية في كل شئ.)

وكان الأمير خسرو بصورة عامة يحضر في زاوية شيخه ليلا و حينما

كان الشيخ، بعد الانتهاء من صلاة العشاء ، يستجم على الفراش، كان خسرو يجلس على الأرض بجانب سريره. حينذاك لم يكن يسمح بالدخول عليه إلاّ عدد من نخبة الناس و صفوة الخدمة و أقرب عشيرته. و كان ذلك وقت محادثات غير رسمية، والحديث فيه كان يدورعامة حول النكات والحكايات والأحاجي و أحاديث البلاط والأحداث الجديدة و الأنباء و الآراء المختلفة . وإذ أن خسرو قد كان مضى جل حياته فى البلاط الملكى فكان ضليعا فى الأحاديث السارّة و آداب المعاشرة الاجتماعية ، و كان قادرا على أن يضفى مسحة غير عادية على أشياء غادية تافهة ، كما يقول مولانا الطاف حسين حالى . (المتوفى سنة ١٩١٤م) فى رثاءه لميرزا غالب (١٧٩٧ - ١٨٦٩ م)

لاكهـ مضمون اور اس كا ايك ٹهٹهول
سوتكلف اور ا س كى سيـد هـى بـا ت
دل ميں كبهتى تهى وه اگر به مثل
دن كو د ن كهتـا اور را ت كو را ت

(إن كلماته البسيطة كانت تفوق على آلاف من الكلمات الرسمية ، و كانت تمس شغاف قلوبنا، وإن كان ينبس بأشياء عادية كأن يقول - مثلا - الليل ليلا والنهار نهارا.)

و كان ذلك بالذات مثل أحاديث خسرو الشيقة الممتعة ، و كان الشيخ يرهف لها السمع ، و يحثه على المضى فى الحديث ، بين وقت لآخر، قائلا: " ثم ماذا حدث ، ياترك ؟ "

ولم يزل الأمير خسرو متصلا ببلاط عديد من الملوك الذين كان قد تربع معظمهم على عرش الحكومة بعد اغتيال من سبقوهم ، ولم تشب حياته شائبة ، وعاش بمنأى من أى مكيدة او مؤامرة . و ذلك يفسر لنا كيف عاش في جميع الأحوال والظروف واستقامت علاقته معهم جميعا ، و كذلك كان يتمتع بسمعة طيبة داخل زاوية الشيخ ، فلم يشتك أى مريد للشيخ أو خادمه إليه قط من سوء سلوكه. بل بالعكس من ذلك لقد مد خسرو كل عون إلى أصدقائه المريدين ، و كان يشفع لهم لدى الشيخ . يوما دخل خسرو فى الزاوية بعد صلاة العشاء فو جد علي بن محمود جاندار جالسا فى (جماعت خانه) ، و بعد ما تبادلا التحية ، سأله خسرو بظرافة " كنت مولعا بالنرد ، وتقضى جميع أوقاتك فى لعبها ، فما ذا حدث بك الأن ؟ ، فأجابه على بن محمود " نعم ! صحيح يا أخى ! كنت مغرماً بالنرد ، وما كنت لأتركه حتى ولو كنت فى الحج . ولكن منذ أن بايعت الشيخ فإنى حتى لا أفكر فيه " (٢٥) و أعاد الأمير خسرو هذا الحوار الذى داربينهما على مسمع الشيخ، فأعطاه الشيخ قطعة من الرمان التى كانت فى يده و قال : " انزل ، و كُلها مع علي بن محمود، ."

و إذا كان أحد مريدى الشيخ أو خلفاءه يريد أن يعرض شيئا على

الشيخ ، ولم يكن يجرأ على مواجهته شخصيا، فكان يطلب وساطة الأمير خسرو ، وقد اشتهرت بهذا الصدد قصتان .

كان الشيخ برهان الدين غريب الهانسوى (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٦ م) مشرفا على مطبخ الزاوية ، وكان رجلا هزيلا ضعيفا متقدما فى السن ، قد جاوز العقد السابع من عمره . و كان من عادته أن يجلس على حصير فى المطبخ ، و بما أنه كان هزيلا فلم يكن يطيب له الجلوس على الحصير، ولذلك ثنى بطانية أربع مرات و جعل منها مجلسا له. و حدث أن على زنبيلى و ملك نصرت ، رجلا حاشية علاء الدين الخلجي ومن مريدى الشيخ ، تحدثا عنه فى مجلس الشيخ أن برهان الدين يجلس فى المطبخ جلسة الشيخ على بطانية ، فأغضب ذلك الشيخ، و بعث بالفور خادمه إقبال ، أن يبلغ برهان الدين أن يغادر الزاوية لتوه . و امتقع لونه و قلق قلقا بالغا ، ولكنه امتثالا لأمر الشيخ ترك الزاوية و أتى بيت مولانا إبراهيم طشت دار حيث أقام عدة أيام ، ولكن من كان ليؤوى شخصا قد عاتبه الشيخ ، فرغب إليه مولانا إبراهيم أن يعفيه من ذلك ، و قال له لو علم الشيخ أنى أويتك فى بيتى فيغضب بى ، والأفضل أن تذهب إلى المدينة ، وحزن برهان الدين حزنا بالغا، و جاء إلى بيته مضطربا قلق النفس، و أخذ يبكى بكاء مرا والذين جاؤوا يعزونه من الأصدقاء أيضا لم يتمالكوا على دموعهم حينما رأوه في هذه الحال التى يرثى لها. و كان الأميرخسرو و نصير الدين چراغ دهلى وبرهان الدين غريب من صفوة الأصدقاء و إخوان الصفا ، فتقدم خسرو إلى الشيخ نيابة عن برهان الدين ، وطلب منه أن يضرب عنه الصفح ، ولكن لم يرض عنه الشيخ . و أخيرا قرّر بعض الأصدقاء أن يظهر خسرو بين يدى الشيخ، بحيث تتدلى عمامته من عنقه، و كان يعتبر علامة للاعتراف بالذنب فلمارأى الشيخ خسرو في مظهر رجل مجرم سأله " ماذابك ياترك ؟ " فقال له خسرو من فضلك أصفح عن جريمة برهان الدين. فسأل الشيخ و يعلوه الابتسام أين هو ؟ و استدعى برهان الدين فورا من بيته، و ظهرهو و خسرو مرة أخرى بين يدى الشيخ فى ذلك المظهر نفسه، و قاما في ركن من الزاوية ، ثم عفا الشيخ عن مولانا برهان الدين . و أدخله فى السلسلة من جديد (٢٦) وقد كان هذا التثريب يهدف إلى إخافته من أن يتظاهر بكونه خليفة لشيخ و حتى أن يحاكى ذلك إنه يجب علينا أن نرى وجوهنا في هذه المرآة كيف نزعم أننا خليفة لشيخ ، دون الكفاءة التى يؤهلنا لذلك.

و القصة الثانية تتصل بالشيخ نصير الدين محمود چراغ دهلى ، الذي قال ذات مرة لخسرو " لك صوت مسموع عند الشيخ ، فبفضلك قل له نيابة عنى في وقت مناسب إنى أسكن فى أيودهيا (فيض اباد) ، و لا أجد وقتا كثيرا للصلاة والعبادة لكثرة من يزورنى من الناس و إذا سمح لى الشيخ فأحب أن أخرج إلى بعض الصحارى أو انتبذ إلى مغار فى بعض الجبال حتى

أستطيع أن أفـرغ نفسى كلها للعبـادة والتأمل " وعرض خسرو هذا الطلب على الشيخ بعد صلاة العشاء فأجابه الشيخ :

"اورابگوترا درميان خلق مى بايدبو د،و جفا و قفاے خلق مى بايد كشيد. ومكافات آں به بـذل و ايثار و عطا مى بايد كرد" (٢٧)
(أبلغه أن يعيش بين الناس ويتحمل جفوتهم ، و يلاقيهم مقابل ذلك بسماحة النفس ورحابة الصدر)

ثم أوضح الشيخ قائلا: إن ذلك لا يعدو أكثر من خداع بالذات، إن نفسه تهفو إلى حياة فارغة باسم الجلوس فى بعض المغارات للعبادة. إن المرء إذا جلس فى مكان منعزل يدوّى صيته الآفاق ويتهافت عليــه الناس. و كان الشيــخ نظام الـدين الأولياء يستهدف اصلاح المجتمع لا الخلاص الشخصى فحسب ، ولـذلك حذّر چراغ دهلى حينما دارت هذه الفكرة بخلده.

و قيد الأمير خسرو ملاحظات الشيخ عنه ، بين حين لآخر ، والحدب الـذى أغدقه عليه فى منا سبات مختلفة ، حتى أصبحت رسالة لا بأس بطولها. و قد نقل مؤلف *سير الأولياء* بعض مقتطفاتها. و لكن الرسالة الأصيلة لاتوجد اليوم ، ولعلها وضعت في كفن خسرو وقت دفنه كما كانت أمنيته الأخيرة .

ومرة قال رجل للشيخ إنك تغمرخسرو دائما بهذا العطف والحدب ، أنا أيضا أرجو منك شيئا منه . و من دماثة خلق الشيخ أنه مخافة أن لا يثبط همته لم ينبس ببنت شفة واعتصم بالسكوت ، ولكن لما غادرالرجل المجلس قال لمن حوله قد خطر ببالى أن أقول لهذا الرجل عليك أن تخلق فيك أولاً مثل هذه الصفات. (٢٨)

و ذات مرة قال الشيخ للأمير خسرو أدع لحياتى فإنك لن تبقى بعدي حيا، وسوف تدفن بجنبى ، و إنه سيكون كذلك إن شاء اللّه تعالى . وقد عـهدت إلى اللّه تعالى أنه حينما يرافقوننى إلى الجنة فاستصحبك معى .

ومرة رأى الشيخ في منــامه أن نهرا يجري تحت (الجسر الأصفر) أمام بيت الشيخ نجيب الدّين متو كل ، ماءه صاف و شفاف ، و كان الشيخ جالسا في دكّان على مكان مرتفع ، والريح تهب عليلة رخيـة ، فطمع فجـأة إلى شــىء ، و تذكر الأميرخسرو ، وفي اثناء ذلك دعا له الشيخ دعاء خاصا ، وأحس بالفور أنه حظى بالقبول. ثم طمأنه الشيخ قائلا إنك ستبلغ - إن شاءاللّه - منزلة السمو الروحانى. (٢٩)

ويوما قال الشيخ إنه داربخلدى البارحة أن خسرو ليس من اسم الدراويش، فلتدع با سم "محمد كا سه ليس" منذ اليوم. و كتب خسرو بعد أن هـذا اللقب أضفى عليّ من الغيب. وقد أخبربه الصا دق المصدوق صلى اللّه عليه وسلم، و أرجو أن بركات عديدة أخرى سوف تنزل بى بفضل هـذا اللقب. (٣٠)

و ذات يوم تحدث الشيخ إلى الأمير خسرو أنى رأيت البارحة، ليلة

الجمعة، فى المنام أن الشيخ صدرالدين عارف ابن الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى قد قدم و استقبلته مع الإحترام والإكرام البالغين. وهو أيضا كال لى الاحترام جزافا. و فى الوقت نفسه رأيت أنك جئت من مكان بعيد، و حينما دنوت منا أخذت تصف المعرفة الروحية. وفى أثناء ذلك اذّن المؤذن الصالح لصلاة الفجر واستيقظت من النوم. فلما انتهى الشيخ من حكاية القصة سأل خسرو :" أخبرني ما هى تلك المنزلة الروحية ؟ " فأجاب خسرو بغاية من التواضع و كسر الذات . إنما انا كناس بيتك ، لا أستطيع أن أعين هذه المنزلة، و كلما حصلت عليه إنما هو مما حبوتنى أياها " لما سمع الشيخ ذلك أخذ يبكى بصوت عالٍ و جاوبه خسرو أيضا بالبكاء والعويل ولما انتهيا من البكاء وهبه الشيخ قلنسوته ، و خلع عليه ملابسه الخاصة بيديه. ونصحه بالإكثار من مطالعة أقوال الصوفية. (٣١)

وكذلك نظم الشيخ بعض أبيات أيضا فى مدح الأمير خسرو ، وقد نقل الأمير خورد الكرمانى إحدى رباعياته في سير الأولياء

خسروکه بنظم ونثر مثلش کم خاست ملکیّت ملك سخن آن خسرو راست
آن خسرو ما ست ناصرِ خسرو نیست زیرا که خدائے ناصرِ خسرو ما ا ست

(إن خسرو ، الذى قلما ولد من يجاريه فى النثر و النظم ، هو ملك دنيا الآداب . هو " خسرو " نا ، وليس " بـ "ناصر خسرو " ، إذ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ينصر " خسرو " نا)

و قد كانت اجتماعات السماع الصوفي تجيش بالحماسة بسبب وجود خسرو، و حينما كانت تعترى الشيخ حالة من الوجد ، كان خسرو بنفسه يأخذ ينشد و يغنى. ومرة دعا الأميرخسرو عددا من خلاّنه إلى بيت السيد محمد الكرمانى في غياث فور و كان الشيخ و عدد من صوفية البلد أيضا شاهدين فى تلك المناسبة. و رفع «بهلول قوال » عقيرته بغزل الأمير حسن الدهلوى :

زهے ترکے که از خمهائےابرو کمان پیدا کند پنهان ز تدبیر
بگوش مدعی کے جا ئے گیر د مرامیزے که هست اندرمزامیر

و بعد السماع أنشد الأمير خسرو غزله ، ولكن لم يستطع أن ينشد ماعدا المطلع ، و انتقل بعده إلى غزل الشيخ السعدى

معلّمت همه شوخی و دلبری آمو خت
جفاوناز وعتا ب و ستمگری آمو خت

(إن استاذك علمّك الدلال والعبث ، كما لقّنك فعل الجفاء و الطغيان والتانيب لا غير)

وقد غمرت الغشوة والوجد آنذاك المجلس كله ، و سأله رجل بعد : " لماذا لم تنشد غزلك أنت " فأجا ب خسرو : " ما ذا أفعل ؟ لما شرعت أنشد قصيدتى فانصبت علي ينابيع المعانى بحيث لم استطع أن أتغلب عليها. (٣٢)

استأنف الأمير خسرو رحلته إلى أودهـ وبنغال للمرة الثالثة سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤ م واستخلف الملك غياث الدين تغلق، ألغ خان على دهلى ، خرج على مهمة إلى بنغال مع جيش عرمرم لاستيصال شافة الثوار هناك. و مثل ناصرالدين حاكم (لكهناوتى) بين يديـه في (ترهت) و طمأنـه علـى طاعتـه و إذعانه لأمره . و بعد ما أقام الملك النظام سويا، غادرلدهلى ولقى حتفه فى أفغان فور قريبا من دهلى ، حيث انهار عليه القصر الخشبى الذى كان أعد لإقامته ، و كان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٧٢٤ للهجرة / ١٣٢٥ للميلاد.

لما أخذ خسرو يتأهب للسفر إلى بنغال وجد شيخه ضعيفا ، قد تدهورت صحته و كان لا بد أن قام بترتيبات خاصة ليكون على علم من حاله دائما . فلما بلغه نبأ مرض الشيخ مرضا شديدا ، واتبعه نعيه ، ولّى وجهه لساعته إلى دهلى ، و وصل إليها فى أقصر مايمكن من الوقت. وكان أغبر أشعث مفتوح الياقة فى ملابس سوداء و قصد لتوه ضريح مرشده الروحى و شيخه الأثير وقبّله ، و ذرف عليه دموعا غزارا ، ثم قال لمن حوله : " ما بكاءى على هذا الملك، إنما أنا أندب حظى فإنى لن أعيش بعده طويلا " و في أثناء ذلك نظم رثاء مشجيا طويلا ، ويو جد في بعض نسخ كتاب *نهاية الكمال* (٣٣) . و قد تخلى عن جميع ظرفه و خفة دمه وخبتت عبقريته الشعرية وأصبحت روحه المرحة التى كان يضرب بها المثل ذكرى من الماضى ، والشخص الذى كان يفعم المجلس كله حيوة ونشاطا وبهجة ، قد أصبح الآن عنوانا للأسى و الكآبة . وجلس قرب ضريح شيخه مجاورا، و انعزل تاما عن العالم من حوله ، وبعد ستة أشهر ، يوم الأربعاء من شهر شوال سنة ٧٢٥ للهجرة / ٢٥ من شهر سبتمبر سنة ١٣٢٥ للميلاد ، وافاه الأجل المحترم ، و دفن في مؤخرة ضريح شيخه ، ولكن جمالى الدهلوى يقول إنه توفى بعد ثلاثة أشهر (٣٤) من وفاة شيخه، و ذلك في شهر رجب سنة ٧٢٥ للهجرة/يونيو سنة ١٣٢٥ للميلاد، في حين يقول المؤرخ فرشته، دون أن يذكر المصدر الذي استقى منه ، أن خسرو ما ت يو م الجمعة بتاريخ ٢٩/ذى القعدة سنة ٧٢٥ للهجرة المصادف لـ ٦ من نوفمبر سنة ١٣٢٥للميلاد، و يعنى ذلك أنه بقى حيا حوالى سبعة أشهر بعد وفاة شيخه ، ولكنه يبدو أن فرشته قد أخطأ فيه ، و تصريح كتاب *سير الأولياء* أولى و أجدر بالاعتماد والثقة في هذا الباب . (٣٥)

الهوامش

١- الأميرخورد الكرماني *سير الأولياء* مطبعة محب هند، دهلي، ص ٣١٢
٢- المصدر المذكور ص ٣١٣
٣ - *لطائف أشرفي* الجزء الأول ص ٢٦٠، و الجزء الثاني، ص ٢٧٠
٤ - Wahid Mirza Life and works of Amir khusru . P 16
٥- *سير الأولياء*، ص ٢١١
٦- المصدر السابق ص ١٢٦
٧- ولدراسة مستفيضة أنظر مقالي حول كتاب " *أفضل الفوائد* " في *أمير خسرو أحوال و آثار* (تحقيق نور الحسن أنصاري) ص ٣٤٥ ، ٣٦٩.
٨- *فوائد الفؤاد*، (تحقيق لطيف ملك)، لاهور، ص ٩
٩- جمالي دهلوي *سير العارفين* (ترجمة أردية بقلم محمد أيوب قادري، ص ٨٧، وقد جاء فيه الإسم " أعز الدين علي شاه "، لكن الصواب " عز الدين
١٠- *Wahid Mirza Life and works of Amir khusru* P 7
١١- وقد مات نجل الأمير خسرو، محمد، في حياته، و يوجد رثاءه في *ديوان عرة الكمال*، و لحق بأخيه نجله الآخر، حاجي، بعد ذلك، و رثاءه في ديوان *نهاية الكمال*
١٢- السيد محمد أكبر الحسيني *جوامع الكلم*، مطبعة انتظامي، حيدرآباد
١٣- ضياء الدين البرني *تاريخ فيروز شاهي* (ترجمة أردية بقلم دكتور معين الحق لاهور
١٤- *فوائد الفؤاد*، المنقول أصلا عن ص ٢٤٢
١٥- *سير الأولياء*، ص ٢١١
١٦ - مقدمة ديوان *عرة الكمال*، ص ٤-٥
١٧ - *سير الأولياء*، ص ٢١١- ٢١٢
١٨ - *مثنوى نه سپهر*
١٩- *سير الأولياء*، ص ٢١١
٢٠ - *أخبار الأخيار*، مطبعة مجتبائي، دهلي، ص ٩٩
٢١- ضياء الدين البرني *تاريخ فيروز شاهي* (ترجمة أردية) ص ٥٢٢
٢٢- *سير الأولياء*، ص ٣١٢
٢٣- *مجمل فصيحي* طهران
٢٤- *أخبار الأخيار*، ص ٩٩
٢٥- *درر نظامي*، (ترجمة أردية) ص ١٣٣
٢٦- *سير الأولياء*، ص ٢٨٩ - ٢٩٠
٢٧- المصدر المذكور، ص ٢٧٤
٢٨- المصدر المذكور، ص ٣١٢
٢٩- المصدر المذكور، ص ٣٢٣
٣٠- المصدر المذكور، ص ٣١٣

٣١- المصدر المذكور ص ٣١٤

٣٢- المصدر المذكور ، ص ٣١٤

٣٣ - وتوجد نسخة خطية لـديوان *نهاية الكمال* فى مكتبة جامعة بنجاب في لا هور ، وتتضمن هذه المرثية الطويلة التى نقلها بالكامل الد كتور أفتاب أصغر في مقاله نظم الأميرخسرو للمراثى ورثاءه الشيخ الخواجة نظا م الدين الأولياء " أنظر *مجلة* تحقيق ، المجلد الأول ، والأعدا د ٣ - ٤ ، كلية الدراسات الشرقية والإ سلامية جامعة بنجاب ، لاهور ، عام ١٩٧٩ م

٣٤ - سير *العارفين* (ترجمة أردية) ص ١٢٤

ويقول جمالي إن خسرو غادر بنجالة دون أ ن يحصل على الإذن الرسمى من الإمبراطور ، ولكن أرى أن غياث الدين تغلق قد كان غا در بنجا له حتى قبل أن غادرها الأمير خسرو ، ويدل على ذلك أنه مات في أفغان فورتحت قصر خشبي قبل وفاة الشيخ نظام الدين الأولياء

٣٥ - سير *الأو لياء* ، ص ٣١٥

دور "هداية الحكمة"
فى نشر علوم الفلسفة

بقلم: الدكتور حامد علي خان
عليجـــره

مما لا يختلف فيه إثنان أن الإنسان كانن له عقل و فكر، و أن العلوم العقلية مثل العلوم الطبيعية بالنسبة للإنسان ثم إن العلوم العقلية ليست مختصة بديانة ما، و لا هى إرث لبلد خاص أو طائفة معينة، بل إنها توجد فى بنى جنس البشر منذ بداية المدنيّة و العلوم العقلية هى التى تسمى علوم الفلسفة.

العلوم العقلية فى المسلمين:

كان المسلمون لا يعرفون علوم الحكمة (الفلسفة) حتى نهاية عهد الخلافة الأموية، و لكن عندما ازدهرت حكومة المسلمين فى عصر الخلافة العباسية و بلغت أوج رقيها، و بدأت تفوق الشعوب الأخرى فى المدنية، نشأت فى المسلمين رغبة فى دراسة علوم الحكمة التى كانوا قد سمعوا ذكرها من الأحبار و الرهبان من أهل الذمة، و عرفوا بعض مسائلها بواسطتهم و المسلمون بدورهم كانوا متأكدين من أن الفلسفة تزيد الفكر سموا و رفعة و العقل ثقوبا و نفوذا.

بدأت أعمال الترجمة تحت رعاية الخليفة المنصور العباسى، و تمت ترجمة عدد لا يحصى من الكتب على عهد المامون العباسى، و أنشئ "بيت الحكمة" لهذا الغرض خصيصا، و استوردت كتب شتى العلوم و الفنون من مصر و إيران و الهند و روما و غيرها من البلدان ثم نقلت إلى اللغة العربية، فدرسها أصحاب الفكر دراسة عميقة و تبرعوا فى علوم الحكمة لدرجة أن نظرتهم فى هذه العلوم أصبحت عميقة للغاية، حتى أنهم

خالفوا "أرسطا طاليس" المعلم الأول فى كثير من المسائل و تناولوها بالبحث و النقد، و هكذا بلغ المسلمون فى هذا المجال حدا جعلهم يضعون مؤلفات كثيرة فى هذه العلوم و ينافسون سلفهم من اليونانيين بل يفوقونهم.

و نالت العلوم العقلية فى خراسان و ماوراء النهر جوا ملائما للغاية لنموّها و ازدهارها بصورة خاصة، و كان الفلاسفة البارزون من المسلمين مثل أبى نصر الفارابى و ابن سينا فى الشرق و القاضى أبى الوليد ابن رشد و أبى بكر بن الصائغ الوزير فى الأندلس قد بلغوا الغاية القصوى فى علوم الحكمة و الفلسفة.

العلوم العقلية فى المسلمين الهنود:

كان القرامطة و الإسماعيليون فى مملكة السند من أنصار المنطق و الفلسفة و المولعين بها، لكن عامة المسلمين لم تكن لهم رغبة تذكر فى علوم الحكمة، و لذلك فإننا لا نعثر على كتاب من كتب المنطق و الفلسفة أدرج فى المقررات الدراسية المتبعة فى الهند حتى القرن التاسع الهجرى ما عدا كتاب "*شرح الشمسية*"، و لكن عندما ورد دهلى الشيخ عبدالله بن الهداد صاحب "*بديع الميزان*" (المتوفى ٩٢٢هـ) و زميله الشيخ عزيزالله (المتوفى ٩٣٢هـ) على عهد حكم السلطان سكندر شاه بن بهلول اللودى (المتوفى ٩٢٣هـ)، أدخلا كتابى "المطالع" و "المواقف" فى المقررات الدراسية، و أصبح هذان الكتابان متداولين بين العلماء الذين شرفوهما بالقبول، بل وضعت لهما شروح كذلك لما أبدى أهالى الهند من رغبة فى علوم الحكمة (١).

و هاجر كثير من علماء البلدان الأخرى إلى الهند باعتبارها بلد أمن و سلام لأسباب تتمثل فى سقوط الخلافة العباسية و الفوضى السياسية و المجازر الوحشية و أعمال النهب و العدوان و الإغارة التى كان يرتكبها المنغول و كان فى هؤلاء العلماء المهاجرين إلى الهند عدد كبير من علماء خراسان و ماوراء النهر المولعين بالعلوم العقلية، و هكذا تمهد الطريق لرواج العلوم العقلية فى الهندنتيجة لتقلب الأوضاع بصورة مباشرة وغير مباشرة.

و رعى الامبراطور العظيم "أكبر" فى السلطنة المغولية العلوم العقلية بصورة خاصة، فلاقى العلماء المهتمون بالعلوم العقلية الواردون من خارج الهند تقديرا و إعجابا زائدين. و قدم أبو الفضل خطيب الكازرونى و الشيخ عماد الدين محمد الطارمى (المتوفى ٩٤١هـ) إلى "غجرات" فى القرن العاشر الهجرى، كما ورد الشيخ فضل الله الشيرازى مملكة "بيجافور" و الأمير فتح الله الشيرازى (المتوفى ٩٩٧ هـ) ولاية "الدكن"، غير أن الأخير انتقل إلى دهلى بسبب أوضاع الدكن غير الملائمة، و انضم إلى حاشية الامبراطور أكبر. و قد روج كل من هؤلاء العلماء الأربعة الفلسفة و المنطق

عن طريق التعليم و التدريس، و كان للأمير فتح الله الشيرازى حلقة واسعة، و كان من تلامذته المفتى عبد السلام اللاهورى (المتوفى ١٠٣٧هـ) الذى كان من أبرز علماء المنطق و الفلسفة، و يعد من أخص تلامذة اللاهورى المفتى عبد السلام ديوى (المتوفى ١٠٣٩هـ) و الشيخ محمد أفضل ردولوى الجونفورى (المتوفى ١٠٦٢هـ) و الشيخ محب الله الاله آبادى (المتوفى ١٠٥٨هـ) و القاضى عبد الستار اللكنوى (المتوفى ١٠٧٦هـ). و قد درس كل من هؤلاء كتب المنطق و الفلسفة و خرج عددا لا يحصى من التلامذة مما ساعد على تعميم العلوم العقلية فى الهند. و بفضل مساعى هؤلاء العلماء دخلت مؤلفات المحقق الدوانى و صدرالدين الشيرازى و مير غياث الدين منصور و الفاضل ميرزا جان فى المنهج الدراسى العربى المتداول فى الهند . (٢)

و يتضح مما ذكرنا أعلاه أن الاختصاصيين فى العلوم العقلية قدموا إلى الهند و أخذت هذه السلسلة تتزايد يوما فيوما، مما تمخض عن ظهور عدد لا يحصى من علماء المنطق و الفلسفة الذين تمهروا فى سائر العلوم عامة و العلوم العقلية خاصة و أرووا غلة الراغبين إلى المنطق و الفلسفة و يجدر بالذكر من العلماء البارزين القدامى المتخصصين فى العلوم العقلية، الشيخ وجيه الدين العلوى الغجراتى (المتوفى ٩٨٨هـ) و المفتى عبدالسلام اللاهورى، و كمال الدين الكشميرى (المتوفى ١٠١٧هـ) و المفتى عبد السلام ديوى ، والقاضى ضياء الدين النيوتنى (المتوفى ٩٨٩هـ) والشيخ جمال الدين الكوروى (المتوفى١٠٤٧هـ) والشيخ محب الله اللإله آبادى، والشيخ قطب الدين السهالوى (المتوفى ١١٠٣هـ) و الشيخ لطف الله الكوروى، و الشيخ قطب الدين شمس آبادى (المتوفى ١١٢١هـ) و الحافظ أمان الله البنارسى المتوفى ١١٣٣هـ

و كان من براعة العلماء الهنود فى المنطق و الفلسفة أنهم خلفوا مؤلفات كثيرة انتفعت بها الأجيال القادمة، و إذا كانت هذه المؤلفات تحدد مكانتهم العلمية الحقيقية، فإنها تدل كذلك على الإقبال الواسع الذى حظيت به العلوم العقلية فى الهند فى القرون الوسيطة. لقد وضع الفلاسفة و المناطقة الهنود مؤلفات مستقلة فى علوم الحكمة، كما وضعوا شروحا للكتب و النصوص المشهورة على غرار العلماء غير الهنود ، و علقوا كذلك على كتب الشروح التى كانت تتطلب مزيدا من الشرح و الإيضاح، و كتبوا بحوثا مركزة ضافية حول المسائل التى اختلف فيها الفلاسفة بالإضافة إلى أنهم ألفوا رسائل موجزة فى اللغة الفارسية التى كانت اللغة الرسمية للهند انذاك، بغرض ترويج المنطق و الفلسفة و التسهيل على طلاب العلم، و ترجموا أمهات كتب المنطق و الفلسفة إلى الفارسية و علقوا عليها.

إننا حين نقرأ سيرة العلماء و الفضلاء الهنود فى كتب التراجم نتأكد من أنهم قد قاموا بأعمال جليلة فى مجال المنطق و الفلسفة، لكن مئات من مؤلفاتهم ذهبت ضحية تقلبات الدهر و نوائبها، و لا تزال عشرات من

المؤلفات الثمينة فى المنطق و الفلسفة توجد فى شتى مكتبات البلاد بشكل مخطوطات، و إن عدد الكتب المطبوعة أقل بكثير من الكتب الخطية.

و يمكننا أن نقول بدون أى تردد إن المنطق و الفلسفة كانا قد أصبحا جـزءا من طبيعة أهل الهند فى القـرن الحادى عشر من الهجرة، و كان الإتجاه العام يميل إلى العلوم العقلية، و كان من نتيجة ذلك أن كثيرا من العلماء الهنود قد تخصصوا فى العلوم العقلية لدرجة أنهم يستحقون أن يلقبوا بالأئمة و النوابغ، و من أمثال هؤلاء المتخصصين القاضى محب الله البهارى (المتوفى ١١١٩هـ) و مـلا حمدالله السنديلـوى (المتوفـى ١١٦٠هـ) و نظام الدين السهالوى (المتوفى ١١٦١هـ) و القاضى مبارك بن محمد جوباموى (المتوفى ١١٦٢هـ) و مُلاّ كمال الدين فتحبورى (المتـوفى ١١٧٥هـ) و ملا محمد حسن اللكنوى (المتوفى ١١٩٩هـ) و الشيخ بركة بن عبدالرحمن الإله آبادى، و مولانا عبدالعلى بحر العلوم (المتوفى ١٢٢٥هـ) و فضل إمام الخيرابادى و العلامة عبدالحق الخيرابادى (المتوفى ١٢٧٨هـ).

يقول العلامة شبلى النعمانى:

"إننا نستطيـع أن نقـدم الملا محمود الجونفورى و الملا نظام الدين و محب الله البهـارى و حمد اللّـه و بحر العلـوم و شـاه ولـى الله الـدهلوى إزاء شمس الديـن فنـارى و قاضـى زاده و خواجـه زاده و العلامة قوشجى و ابن المؤيد و غيرهم الذين يلقبهم صاحب "كشف الظنون" بالحكمـاء ، بشـئ مـن التفـوق و الامتياز" (٣)

و يقول الأستاذ السيد عبدالحى:

" لقد كان العلامـة محمـود الجونفـورى و محـب الله البهـارى و شـاه ولـى اللّـه الدهلـوى، و نظـام الديـن السهالـوى و ملا محمـد حسـن اللكنـوى و كمـال الديـن الفتحبـورى و مولانـا عبد العلى بحـر العلوم و القاضـى مبارك الجوبامـوى و حمـد اللّه بن شكـر اللّه السنديلـوى و الشيخ بركـة بن عبد الرحمـن الإله آبادى و العلامة فضل حق الخيرابادى من العلماء الهنود، من جبال الحكمة، و كانوا قد بلغوا أقصى مدارج علـوم الحكمـة، و إنهم كانوا يضارعـون أبا نصـر الفارابـى و ابن سينا (٤).

مؤلفات علماء الهند فى الفلسفة:

و فيما يلى قائمة بالكتب البارزة التى وضعها العلماء الهنود المتخصصون فى العلوم العقلية:

١ ـ الكتاب المبين و السفر المتين. تأليف ملا محمد شفيع البهارى

(المتوفى ١١٣٥هـ) مخطوط رقم ٢٩٧٩، مكتبة رضا برامفور) ٣١٢ صفحة.

٢ - **العروة الوثقى**. تأليف ملا كمال الدين السهالوى المتوفى ١١٧٥هـ (مخطوط رقم ٩٤٨/٢٤٩، مكتبة مولانا آزاد بعليجره) ١٨٦ صفحة

٣ - **الرسالة فى العلم الطبيعى و العلم الإلهى**. تأليف القاضى محمد پناه الجونفورى المتوفى ١١٨٤هـ (مخطوط رقم ٥٩/٢ مكتبة مظاهر العلوم بسهارنفور) ٥٦ صفحة.

٤ - **غاية العلوم**. لملا محمد حسن اللكنوى المتوفى ١١٩٩هـ ٤٨ صفحة (مخطوط رقم ب/٢٩٤٧ مكتبة رضا برامفور)

٥ - **تسويلات الفلاسفة**. تأليف شاه أبى سعيد ظهورالحق المتوفى سنة ١٢٣٤هـ ٥٢ صفحة (مخطوط رقم ب/٤٠٥٦ مكتبة خدابخش - بتنه)

٦ - **عين الحكمة على رأس وجه حسن العصمة**. تأليف حكيم ابن عبدالله أبى الخير المعروف بـ "عماد" ١٣٨٠. صفحة (مخطوط رقم ٢١٤٢، مكتبة رضا برامفور)

٧ - **الدوحة الشامخة فى الأصول الراسخة**. تأليف الملا محمد بن نعمة الله المعروف بـ محمد أشرف صديقى المتوفى ١٢٤٤هـ (مخطوط رقم ٩٨٢/٨٣ مكتبة مولانا آزاد بعليجره) ٤٢٠. صفحة.

٨ - **تبصرة الحكمة**. تأليف حسن على بن نوازش على الجونفورى المتوفى ١٢٥٨هـ ١٢٦ صفحة (مخطوط رقم ٣٩/٦٣ مكتبة آزاد)

٩ - **كاشف الظلمة فى اقسام الحكمة** تأليف عبد الحليم بن أمين الله الفرنكى محلى المتوفى ١٢٨٥هـ (طبع فى المطبعة العلوية - لكناؤ - سنة ١٣٠٢هـ)

١٠ - **الجواهر الغالية فى الحكمة المتوالية**. تأليف شمس العلماء عبدالحق الخيرآبادى المتوفى ١٣١٦هـ (المطبعة الأحمدية برامبور، سنة ١٣٠٢هـ)

١١ - **الطرس الخامس فى اقسام الحكمة**. تأليف حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوى المتوفى ١٣٦٠هـ (طبع فى المطبعة المجتبائية بدهلى، سنة ١٩٠٤م)

١٢ - **الإضافة القدسية فى المباحث الحكمية**. تأليف محمد شريف المصطفى آبادى (طبع مطبعة أنوار أحمدى - إله آباد ١٣٤٦هـ)

١٣ - **الشمس البازغة فى الحكمة البالغة** للعلامة محمود الجونفورى المتوفى ١٠٢٦هـ (طبع بدهلى سنة ١٣٥٣هـ)

١٤ - **الهدية السعيدية فى الحكمة الطبيعية** للعلامة فضل حق الخيرآبادى المتوفى ١٢٧٨هـ (مطبعة "شعله طور"بكانفور، سنة ١٢٩٢هـ)

كتاب "هداية الحكمة":

وضع العلامة المحقق أثير الدين مفضل بن عمر أبهرى السمرقندى (المتوفى ٦٦٣هـ/١٢٦٤م) مؤلفات عديدة فى العلوم العقلية، و قد لاقى كتابه "*الايساغوجى*" فى المنطق إعجابا كبيرا، و أدرج فى المقررات الدراسية الابتدائية فى الهند و خارجها، و كذلك نال تأليفه "*هداية الحكمة*" قبولا زائداً. و هذا الكتاب هو فى الواقع نص جامع محكم متين، وزعه المؤلف على ثلاثة أجزاء: (١) المنطق (٢) العلم الطبيعى (٣) العلم الإلاهى، لكن الفلاسفة ركزّوا عنايتهم على الجزءين الثانى و الثالث، و هما اللذان أدرجا فى المنهج الدراسى.

و نظراً لأهمية كتاب "*هداية الحكمة*" و مقبوليته بين أهل العلم، فقد ألف كثير من العلماء له شروحا، منهم الملازاده أحمد بن هروى المرزبانى، و المير حسن بن معين الدين الميبذى، و ميرك شمس الدين محمد بن مبارك شاه البخارى، و ابن شريف الحسينى الجرجانى، و قطب الدين الجيلى، و عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبى، و معين الدين سالمى، و سعد الدين مسعود بن محمد القزوينى، و فصيح الدين محمد نظامى، و أمين الدولة، و خواجه صائن الدين، و قاضى زاده، و صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازى و من إليهم. وقد كسبت عدة من شروح كتاب *هداية الحكمة* إعجاب الناس فكتبوا عليها تعليقات و هوامش، و لقى شرح *ملازاده* لهداية الحكمة قبولا زائدا، و لذلك علق عليه كل من مصطفى بن يوسف المعروف بـ خواجه زاده، و موسى بن محمود الرومى المعروف بـ قاضى زاده، و لطف الله بن الياس الرومى، و محمد بن علاء الدين على الفنارى، و على بن محمد الجرجانى، و الأمير فخر الدين استرآبادى، و الشيخ محمد بن محمود المغلوى، و صلاح الدين مؤدب السلطان بايزيد خان، و خضر شاه بن عبد اللطيف المنشورى، و صالح الدين و حسين السمنانى و من إليهم (٥).

الإقبال على "هداية الحكمة" فى الهند:

أدخل كتاب "*هداية الحكمة*" فى مقررات المنهج الدراسى العربى المتبع فى الهند بعد رواج العلوم العقلية فيها، لكن هذا الكتاب وحده لم يكن كافيا لاقناع الطلاب و إرواء غلتهم، فأدرج فى المنهج الدراسى شرح كل من *الميبذى و الشيرازى* أيضا، و من هنا فإن الاختصاصيين الهنود فى الفلسفة قد وضعوا شروحا و هوامش حول هذه الكتب الثلاثة. و تتداول فى الهند حتى الآن ثلاثة شروح لهداية الحكمة:

١ ـ شرح *هداية الحكمة* لشمس العلماء عبدالحق الخيرآبادى المتوفى

١٣١٦هـ (مطبعة " شعله طور" بكانفور سنة ١٣٠٢هـ)

٢ ـ *شرح هداية الحكمة* لسعادت حسين بن رحمة الله العظيم أبادى المتوفى ١٣٣٢هـ (المطبعة المحمدية ـ لكناؤ سنة ١٣٠٧هـ)

٣ ـ *وقاية العصمة بشرح هداية الحكمة* لأبى الخير عبدالوهاب بن احسان على البهارى المتوفى ١٢٣٥هـ (المطبعة الخليلية بمدينة أره. سنة ١٣٠٠هـ)

٤ ـ كما وضع حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوى المتوفى ١٣٦٠هـ تلخيصا لهداية الحكمة طبع بالمطبعة المجتبائية بدهلى سنة ١٩٠٤م

و كتبت على شرح حسين بن معين الدين الميبذى لهداية الحكمة ـ والذى يعرف فى الهند بـ "*الميبذى*" ـ التعليقات التالية

١ ـ حواشى *الميبذى*، لمصلح الدين محمدلارى المتوفى ٩٧٩هـ (مخطوط رقم ٩٧٠/٢٧١ مكتبة آزاد ـ ذخيرة عبدالحى الفرنكى محلى) ١٠٨ صفحة

٢ ـ حواشى *الميبذى* للقاصى نورالله شوسترى المتوفى ١٠١٩هـ (مخطوط رقم ٢٩٠٣ ـ مكتبة رضا برامبور) ٨٤ صفحة

٣ ـ حواشى *الميبذى* لملاعبدالحكيم سيالكوتى المتوفى ١٠٦٨هـ (مخطوط رقم ٢٩٠٩ ـ مكتبة رضا برامبور) ٨٤ صفحة

٤ ـ حواشى *الميبذى* لمحمد عصمة الله بن محمد أعظم السهارنبورى المتوفى ١١٣٣هـ (مخطوط رقم ١٨٧٤ ـ مكتبة خدابخش ـ بتنه) ٨٤ صفحة

٥ ـ حواشى *الميبذى* لأبى محمد إسماعيل بن وجيه الدين المرادآبادى المتوفى ١٢٥٣هـ (مخطوط رقم ٧٨٢/٨٤ مكتبة آزاد ـ ذخيرة عبدالحى الفرنكى محلى) ٣٨٨ صفحة.

٦ ـ حواشى *الميبذى* لمحمد أصغر بن أحمد الفرنكى محلى المتوفى ١٢٥٥هـ (مخطوط رقم ٧٨٥/٨٧ مكتبة آزاد ـ ذخيرة عبدالحى) ٢٦٨ صفحة

٧ ـ حواشى *الميبذى* لعبد الحليم الأنصارى الفرنكى محلى المتوفى ١٢٨٥هـ (سنة ١٣١٠هـ ـ مطبعة أنوارمحمدى)

٨ ـ حواشى *الميبذى* لشجاعت حسين مولانـى (طبع بحيدرابـاد ـ الدكن سنة ١٢٩٣هـ)

٩ ـ حواشى *أنورعلى* (طبع بلكناؤ سنة ١٢٦٨هـ)

١٠ ـ حواشى محمد *عين القضاة الحيدرآبادى* (سنة ١٣١٠هـ مطبعة أنوار محمدى ـ لكناؤ).

١١ ـ حواشى *شمس العلماء* سعادت حسين *العظيم* ابادى المتوفى ١٣٣٢هـ (المطبعة اليوسفية بلكناؤ ـ سنة ١٣٣٥هـ)

١٢ ـ حواشى *المفتى لطف الله* العليجرى المتوفى ١٣٣٤هـ (مخطوط رقم ٢٩٠٩ ـ مكتبة رضا برامفور) ٦٠ صفحة

و كذلك كتب العلماء الهنود تعليقات كثيرة على شرح *هداية الحكمة* لصدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، و فيما يلى قائمة بالتعليقات التى عثرت عليها حتى الآن، بعضها مطبوع و بعضها مخطوط:

١ ـ *تعليقات الملا حمدالله السنديلوى* المتوفى ١١٦٠هـ (مخطوط رقم ٢٩١٥/١٣ مكتبة رضا برامفور).

٢ ـ *تعليقات الملا نظام الدين السهالوى* المتوفى ١١٦١هـ (مخطوط رقم ١١٠/٣٨ ـ مكتبة آزاد ـ ذخيرة سبحان الله).

٣ ـ *تعليقات غلام نور بن سعدالله الأورنك آبادى* المتوفى ١١٨٩هـ (مخطوط رقم ٧٦٧/٦٩ مكتبة آزاد ـ ذخيرة عبدالحى).

٤ ـ *تعليقات محمد أعلم بن محمد شاكر السنديلوى* المتوفى ١١٩٨هـ (مخطوط رقم ١١٠/١٤ ذخيرة سبحان الله).

٥ ـ *تعليقات الملا محمد حسن الفرنكى محلى* المتوفى ١١٩٩هـ (مخطوط رقم ٢٩١٩ ـ مكتبة رضا برامفور).

٦ ـ *تعليقات محمد عظيم بن كفاية الله الفاروقى الجوباموى* (مخطوط رقم ٢٩١٦ ـ مكتبة رضا برامفور).

٧ ـ *تعليقات محمد أمجد بن فيض الله القنوجى* المتوفى ١١٤٠هـ (مخطوط رقم ١١٠/٣٦ ـ ذخيرة سبحان الله ـ و مخطوط رقم ٢٩١٥ بمكتبة رضا).

٨ ـ *تعليقات المولانا عبدالعلى بحرالعلوم* المتوفى ١٢٢٥هـ (المطبعة السعيدية برامفور، سنة ١٣٢٢هـ).

٩ ـ *التحرير على الصدرا* (٦) فى النسبة التاليفية لشاه رفيع الدين دهلوى المتوفى ١٢٣٣هـ (مخطوط رقم ٧٥٧/٥٩ مكتبة آزاد ـ ذخيرة عبدالحى).

١٠ ـ *تعليقات الشاه عبدالعزيز دهلوى* المتوفى ١٢٣٩هـ (ذخيرة عبدالحى بمكتبة آزاد ـ مخطوط رقم ٧٥٩/٦١).

١١ ـ *تعليقات عثمان الدين العثمانى اللبكنى* (مكتبة رضا برامفور، مخطوط رقم ٢٩٢٩).

١٢ ـ *تعليقات أسدالله البنجابى* (مخطوط رقم ٢٩٢٦ ـ مكتبة رضا).

١٣ـ *تعليقات سراج الحق بن نورالحق الرامفورى* المتوفى ١٢٢٣هـ (مخطوط رقم ٧٥٥/٥٧ ذخيرة عبدالحى).

١٤ ـ *تعليقات ولى الله الأنصارى الفرنكى محلى* المتوفى ١٢٧٠هـ (مطبعة نولكشور بلكناؤ ـ سنة ١٣٠٣هـ).

١٥ ـ *تعليقات القاضى إرتضا على الجوباموى* المتوفى ١٢٧٠هـ (ذخيرة عبدالحى بمكتبة آزاد ـ مخطوط رقم ٧٦٠/٦٢).

١٦ ـ تعليقات سيد العلماء السيد حسين بن السيد دلدار على المتوفى ١٢٧٥هـ (ذخيرة عبد الحي ـ مخطوط رقم ٧٥٤/٥٦).
١٧ ـ شوكة الحواشى لإزالة الغواشى تاليف تراب على اللكنوى المتوفى ١٢٨١هـ (المطبعة المحمدية بلكنؤ، سنة ١٢٥٨هـ)
١٨ ـ نعليقات سلطان العلماء السيد محمد بن السيد دلدار على المتوفى ١٢٨٤هـ (ذخيرة عبدالحى ـ مخطوط رقم ٧٥٣/٥٥)
١٩ ـ تعليقات المفتى سعدالله الرامفورى المتوفى ١٢٩٤هـ (المطبعة الإسلامية ـ مدراس، سنة ١٢٧٠هـ)
٢٠ ـ تعليقات العلامة عبد الحى الفرنجى محلى المتوفى ١٣٠٤هـ (المطبعة العلوية بلكناؤ ـ سنة ١٢٩١هـ)

رواج الفلسفة فى الهند:

لقد أوجد ولع أهالى الهند بالفلسفة علماء بارعين وضعوا مؤلفات أقبل عليها طلاب الفلسفة بشوق و رغبة. و حظيت الكتب الثلاثة المذكورة أدناه بالدخول فى المقررات الدراسية

١ ـ ألف العلامة محمود بن محمد بن شاه محمد الفاروقى المتوفى ١٠٦٢هـ كتابا باسم "الشمس البازغة فى الحكمة البالغة"، و قد طبع هذا الكتاب عشرات المرات لكونه مندرجا فى المقررات الدراسية و قد علق عليه كل من الملا حمد الله السنديلوى، و الملا نظام الدين السهالوى، و الملا محمد حسن، و الشيخ أحمدى، و قلندر على زبيرى، و عبد الحليم الفرنجى محلى، و محمد يوسف الفرنجى محلى، و هداية الله خان الرامفورى و العلامة عبد الحى الفرنجى محلى، و لا تزال تعليقاتهم موجودة بشكل مطبوع أو مخطوط.

٢ ـ و كان كتاب "الدوحة الميادة فى حديقة الصورة و المادة" للعلامة محمود الجونفورى من الكتب التى تلقاها العلماء الهنود بحفاوة، و علق عليه الحواشى كل من محمد أمجد القنوجى، و محمد أعلم السنديلوى، و ملا محمد حسن، و بحر العلوم، و المفتى ظهورالله اللكنوى، و عبد الحليم اللكنوى، و عبد الحى الفرنجى محلى، و لا تزال تعليقاتهم موجودة بشكل مطبوع أو مخطوط.

٣ ـ و عندما ألف العلامة فضل حق الخيرابادى كتاب "الهدية السعيدية فى الحكمة الطبيعية" أدخلته بعض المدارس العربية فى مقرراتها التعليمية، كما حلاّه بالتعليقات سلطان حسن خان البريلوى و عبد الله البلكرامى و عبدالكريم و عبد الحق الخيرأبادى. و معظم هذه التعليقات موجودة لحد الآن.

٤ ـ و قد أدرج شرح هداية الحكمة لشمس العلماء عبدالحق الخيرابادى

فى مقررات بعض المدارس العربية أيضا، لكنى - كاتب هذه السطور - لم أطلع على تعليق كتب عليه.

مسائل الفلسفة و العلماء الهنود

و ألف العلماء المسلمون فى الهند رسائل مستقلة حول المسائل الهامة التى اختلف فيها الفلاسفـــة مثل القبليـــة و البعديـــة، و الحــدوث الذاتـــى و الحدوث الزمانى و ماهية الزمان و الكلى الطبعى، و المثناة بالتكـــريـــر و الوجود و أنواعه، و لا تزال عشرات من هذه الرسائل محفوظة فى مختلف مكتبات الهند.

تأثير الفلسفة على علم المنطق

كان القاضى محب الله البهارى من مفكرى عصره بجانب كونه فلسفيـــا و منطقيا، و كان قد اهتدى ببصيرته وسعة نظره إلى الكتب التى سيحتاج إليها العلماء الهنود، فألف كتابا فى المنطق أسماه "*سلم العلوم*" و ذكـــر فيه بجانب مباحث المنطق مسائل الفلسفـــة مثل الإمكان و الإمتنـــاع و الوجـــوب و القدم و الحــدوث الـــذاتى و الزمانى، و القوة و الفعل، و العلة و المعلـــول، و العلم و المعلوم، و العقـــل المطلـــق، و الجعـــل البسيط و الجعـــل المـــركب، و الـــوجـــود المطلق و الوجـــود المقيد، و الجوهر و العرض و ما إليها. و اندرج هذا الكتاب فى المقررات الدراسية منذ البداية، و قد وضعت له عشرات من الشروح التى كتبت لها مئات من التعليقات، كما ألفت عشرات من الرسائل حول المسائل الفلسفية المذكورة فى "سلم العلوم"، و يمكن تقدير مقبولية هذا الكتاب من أن ثلاثة من شروحه بدأت تدرس فى المدارس العربية. و قد قال العلامة شبلى:

> *" إن الملا محب الله البهارى مزج المنطق بمسائل الفلسفة و غير أسلوبه المتبع (٧)".*

تأثير الفلسفة على علم الكلام:

تأثر علم الكلام بالفلسفة خارج الهند و ظل هذا التأثير يتزايد يوما فيوما، حتى أن الفلاسفة المسلمين عرفوا بـ "المتكلمين"، و كـــان علـــم الكـــلام لا يمتاز عن الفلسفة إلا بأن كتبه كانت تشتمل على نصوص قرآنية و أحاديث نبوية. أما فى الهند فقد ألف القاضى محب الله البهارى كتابا فى أصول الفقه باسم "*مســلم الثبـــوت*"، و وضـــع أســاســـه على قواعـــد العقـــل و المنطـــق و الفلسفة، كما أضاف إليه بعض مسائل الفلسفة. و قد دخل هذا الكتاب أيضا

المقــررات الدراسيـــة و كسب إعجابـــا كبيــرا فى طـــول الهند و عرضها و فيما يلى نورد عدة أقوال للعلامة شبلى فى هذا الخصوص

"كان الملا محب الله البهارى من تلاميذ الملا نظام الدين بواسطة واحدة، و قد لقى كتاباه "سلم العلوم" و "مسلم الثبوت" إقبالاً بالغاً و قبولاً زائدا، لحد أنهما و شروحهما هى التى تعتبر اليوم دليل الفضيلة و الكمال عند العلماء (٨)

"لقد استولى "سلم العلوم" و "مسلم الثبوت" من تاليفات الملا محب الله البهارى على نصف حصص المقررات الدراسية (٩)

ـــ أدخل الملا نظام الدين كتابى الملا محب الله البهارى فى مقررات الدرس، و كان من نتيجه ذلك أن أسماء هذين الكتابين تلمع اليوم لمعان الشمس و القمر (١٠).

ـــ هناك ثلاثة شروح لسلم العلوم تدخل المنهج الدراسى، و كلها من تاليفات نفس الأسرة أو تلاميذها (١١).

ـــ و نتج عن ذلك أن المنطق لم يعد اليوم منطقا بل هو فلسفة، و كذلك صبغ الملا محب الله البهارى أصول الفقه بصبغة الفلسفة، و ترتب على ذلك أن الأصول هى الأخرى تبدو الآن كأنها علم الفلسفة (١٢)

تعريب . أسعد الأعظمى

الهوامش:

(١) منتخب التواريخ ١٢٢، ٣٢٣، ٢٤

(٢) مآثر الكرام، من "مقالات العلامة شبلى" ج ٣ ص ١٢٣

(٣) مقالات العلامة شبلى ج ٣ ص ٧٤، ٧٥

(٤) الثقافة الإسلامية فى الهند ٢٦٤، ٢٦٥

(٥) كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون ج ٢ ص ٢٠٢٨، ٢٠٣٠

(٦) أى شرح هداية الحكمة لصدر الدين الشيرازى

(٧) مقالات شبلى ج ٣ ص ١٢٤

(٨) مقالات العلامة شبلى ج ٣ ص ١٠٨

(٩) أيضا ص ١٠٣

(١٠) أيضا ص ١١٥

(١١) أيضا ص ١٢٣

(١٢) أيضا ص ١٢٤

السيد محمد الحسينى كيسودراز
ومآثره العلمية

بقلم : د/ مصطفى شريف
جامعة مدراس

من الأولياء الأتقياء والصوفية الأجلاء سيدنا الشيخ السيد محمد الحسينى المعروف بـ" الخواجة بنده نواز و الخواجة كيسو دراز الدهلوى مولدا، والحنفي مذهبا، و الجشتى (٤) مشربا والكلبركوى (٥) مدفنا. وهذا هو الشيخ العبقرى الفذ الذي لا يجود الدهر بمثله الاّ في القليل ا لنادر .

إسمه ونسبه:

هو محمد بن يو سف بن علی بن محمد بن يو سف بن حسن بن محمد بن على بن حمزة بن داؤد بن زيد بن أبى الحسن الجندى بن حسين بن أبى عبد الله بن محمد بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد المظلوم بن على الأصغر زين العابدين بن الامام حسين بن سيدنا علي بن أبى طالب رضى الله عنهم و أرضاهم عنّا .

كنيته و القابه :

أما كنيته فأبوالفتح ، و ألقابه قطب الأقطاب ، وصدر الدين ، والولى الأكبر الصادق .

تسمية كيسودراز:

أنه يعرف فى الهند وغيرها بـ" الخواجة بنده نواز" و بـ " الخواجة كيسودراز " و لقب بذلك بأنّه حمل مرة محفة شيخه الشيخ نصير الدين المعروف بـچراغ دهلى (أى سراج دهلى) رحمه الله عليه مع الآخرين و كانت شعر رأسه كبيرة فعلقت فى قائمتها و مع ذلك مشى حاملاً محفته إلى بعيد

مع الأذى ولكن سكت في حبّه و تعظيما له و لا أخرجها من القائمه . و لما أخبر بذلك الشيخ سرّ كثيرا بمحبة مريده و أنشد هذا البيت .

هركه مريد سيد كيسودرازشد والله خلاف نيست كه او عشق بازشد
(انّ الذى يبايع السيد كيسودراز والله أنه أشد حبا لله) فلقب بذلك واشتهر به (٦)

مولـــــده:

ولد -رحمه الله - فى دلهى عاصمة الهند فى ٤/رجب المرجب ٧٢١ هـ / ٣٠ يوليو ١٣٢١ م .(٧)

أسرته الكريمة :

كان جدّه الأعلى المخدوم أبوالحسن ابن السيد حسن هاجر من هراة إلى دهلى و نزل بها و استوطنها (٨) و كان و الـده الكريم السيـد يوسف الحسينى المعـروف بـ " سيد راجا " من مريدى الخواجة نظام الدين أولياء محبوب إلهى كما ذكره الخواجة بنده نواز فى ملفوظاته "*جوامع الكلم*"

"پدر من از ياران خدمت شيخ نظام الدين بود"
(و كان والدى من مريدى الشيخ نظام الدين)

إقامته بدولت آباد:

ولما بلغ السابعة من عمره سافر ابوه الكريم مع أسرته من دلهى إلى دولت آباد فى ٧٢٨ /١٣٢٧ م فى عهد السلطان محمد تغلق ٧٢٥ هـ /١٣٢٥ م - ٧٥٢ هـ / ١٣٥١م (٩) و كان حاكم دولت أباد ملك الأمراء السيد إبراهيم المستوفى خاله الشريف ، وكان بها وليّ من أولياء الله المعروف بـ "شيخ بابو" صحبه سيد راجا والده الكريم و كان الخواجة بنده نواز يختلف إليه مع أبيه فيترحم عليه ويحبه.

صبـــاه :

و كان رحمه الله مولعاً بالدين فكان يهتم بالوضوء والصلاة و كان الصبيان يحضرون عنده و كانوا يخدمونه ويعظمونه أشد تعظيما، و كان يعطيهم التبرك مثل المشائخ مع صغر سنه. ولما بلغ عشر سنين توفى والده في سنة ٧٣١ هـ/ ١٣٣٠ م بدولت آباد و دفن هناك (١٠)

دراسته الإبتدائية :

تلقى الشيخ دراسته الإبتدا ئية من جده لأمه و استفاد من الأساتذة البارعين فى دراسة *المصباح و القدورى* فكان الخواجة كثيرا ما يسمع من أبيه و جدّه ذكرالشيخ نظام الدين أولياء المتوفى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، والخواجة نصير الدين سراج دهلي المتوفي ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م فنشأ في روعه حبّ المشائخ الچشتية حيث اشتاق اشتياقا كثيرا للقاء الشيخ نصير الدين سراج دهلى.

رجوعه إلى دلهى :

و لما توفى والده وقع شىء من المخاصمة بين أمه و بين خاله ملك الأمراء السيد إبراهيم المستوفي، فتأثرت أمه الكريمة فتركت الإقامة فـي دولت آباد و سافرت مع أولادها إلى دلهي سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م اذ كان سيدنا الخواجة كيسودراز رحمه الله في خمس عشرة سنة من سنه الشريف (١١)

إرادته مع شيخه :

و لما وصل الخواجة إلي دلهي حضر لصلاة الجمعـة فى جامع السلطان قطب الدين ونظر هناك إلي سيدنا سراج دهلى من بعيد فتأثر تأثراً شديداً لرؤية وجهه الشريف فحضر فى خدمته مع أخيه الكبير السيد جندن (١٢) وبايعه و كان ذلك فى ستة عشر من رجب سنة ٧٣٦هـ/١ مارس ١٣٣٦ م (١٣)

ولما بايع الخواجة شيخه أخذ يعمل وفق إرشاداته فى العبادة والرياضة من الفرائض والنوافل كصلاة الإشراق وصلاة شكر النهار وصلاة الاستخارة وصلاة الضحى وكذلك من صوم النوافل في رجب و شعبان والصيام الستة من شوال ، و كان الخواجة يصوم صو م داؤ د ولكن شيخه قال إن مشائخنا الكرام كانوا يصومون صوم الدوا م. فعليك أن تصومه. و كان الخواجة يقرأ كتب علوم الظاهر علـى مولانـا السيـد شرف الديـن الكيتهلـي و مولانا تاج الديـن و مولانا القاضى عبد المقتدر مع الاشتغال بتهذيب الباطن.

مجاهداته :

و لماحصل له بشاشة القلب فى الأذكار والأوراد ترك البيت واختار إقامته في حجرة في حظيرة شيرخان يراقب ليلا وفى النهار يختلف إلى مولانا القاضى عبد المقتدر للحصول على العلوم. و لما نشأ فى قلبه التكدر من علوم الظا هر اثناء الاشتغال الباطنى ، استأذن شيخه فى ترك دراسة العلوم الظاهرة كَى يحصل له الفراغ الكامل في اشتغال الباطن . ولكنّ شيخه لم يأذن له فى ذلك بل اصرّ عليه أن يتمّ دراسة كتاب *الهداية* فى الفقه و *البزدوى* فى

الأصول و *الرسالة الشمسية* فى المنطق و *الكشاف* فى التفسير و *المصباح* وغيرها من الكتب و قال " اجتبيناك لعمل جليل" (١٤) فصار يتدرس العلوم وفق إرشاد شيخه حتى حصل له الفراغ من العلوم إذ كا ن ابن تسع عشرة سنة.ثم تبتّل إلى الله تبتيلا حيث يشتغل بالنوافل و صيام الدوام إلى ان قال شيخه رحمه الله لما رأى مجاهداته أنّ هذا الفتى النبيل انشأ فيّ حدّة بعد سبعين سنة و ذكّرني وقائع السنين الماضية (١٥) و ذهب مرة إلى حظيرة شيرخان و رأى ما رأى من أحوال مريده و قدم إليه نقودا فى النذر فاشتهر أمر الخواجة و يقول صوفية زمانه أنّ لهذا الشاب الفاضل مرتبة كمرتبة الأولياء الكاملين. و لما ازداد اشتياق المجاهدة ترك الناس وصار يجاهد فى الغابات.

خدمة الشيخ :

حضر الخواجه عند شيخه بعد أن جا هد فى الغابات في العزلة والخمول فكان من معمولاته أن يوضئ شيخه ثم يتوضأ ويصلى صلاة الصبح مع الجماعة واثناء اشتغال الشيخ في الأوراد يعلّم المسترشدين و إذا انعقد مجلس الشيخ حضره وبعد انقضائه و اثناء مراقبة الشيخ في الحجرة لايزال يذكر الله سبحانه فى زاوية و بعد أداء صلاة الضحى كان يستريح شيئا ثم يتلو كتاب الله إلى أن يحضر وقت صلاة الظهر فيؤضى شيخه و بعد صلاة الظهر مع الجماعة يشتغل بالأوراد و الذكر اثناء اشتغال شيخه في المراقبة في الحجرة ويصلى صلاة المغرب والأوابين و يعلم السالكين ثم يتناول قليلا من الطعام وبعد الفراغ من صلاة العشاء ينام إلى نصف الليل ثم ينهض ويتوضأ ويوضئ الشيخ للتهجد و اذا دخل الشيخ الحجرة للتهجد والمراقبة يتهجد و يراقب الله خارج الحجرة و يحضر الماء لوضوء شيخه.

ترحم الشيخ على الخواجة:

وقد ذكرنا أوّلا أن الخواجة كان يحب شيخه حباً جماً و يعظمه ويبجله و كذلك حال الشيخ مع مريده ، ولما ابتلى الشيخ قبل سنة من وفاته بالباسور قال للدعاء له فدعا له الخواجة إلى أن حصل للشيخ الصحة الكاملة .

و لما بلغ الخواجة السابع والثلاثين من عمره ، ابتلى بمرض الخلة أرسل الشيخ إليه الدواء و الطبيب و الخدام و بعد ذلك كان يرسل رجلا ليسأل عافيته . و لمأ برئ من المرض زاره و سرّ سرورا كثيرا و اعطاه قباءه و قد ذ كر العلامة السامانى رحمه الله هذا اللقاء هكذا:

" رفع الشيخ *چراغ الدهلوى* قباءه من بين يديه و أعطاه الخواجة ثم قال متمسكا أيديه "يا سيد محمد تقبل منى هذا " ـ يعنى خذ

البيعة من الناس . لمّا سمع هذا القول مـن شيخـه أخضـع رأسـه و سكت ثم قال مرة ثانية " هل تقبلت منى؟ " فأجاب الخواجة "تقبلت "ـ ثم سأل مرة ثالثة: " هل تقبلت منى هذا ؟ " فأجاب الشيخ: " تقبلت "ـ ثم أوصاه أمرين ، الأول : لا تترك الأوراد والاشتغال ، والثانى : عليك أن تراعى عيالى و أقربائى. (١٦)

حصول خرقة الخلافة من شيخه :

لما توفى الشيخ چراغ دهلى غسله الخواجة كيسودراز و أخذ حبال السرير الذى غسل عليه و ألقاها في عنقه فقال " هذه خرقة الخلافة "ـ وقد أقام شيخه مقامه قبل وفاته كما ذكر فوق (١٧) فجعل الناس يجيئون إليه و يبايعونه فيرشد هم إلى سبيل الحق وفق تلقين شيخه.

سفره الى الدكن :

أقام الخواجة قدس اللّه سرّه فى دلهى نحو أربع و أربعين سنة ثم خرج اثناء هجم تيمور إلى كلبركـه فى ربيـع الأول ٨٠١ هـ/نوفمبـر ١٣٩٨م (١٨) و كان مسيره من دلهى إلى كلبركه بهذه الولايات كواليار ، بروده ، دولت آباد. و كان الناس خاصتهم وعامتهم يستقبلونه أفواجا و يبايعونه اثناء سفره .

حفاوة الملك فيروزشاه البهمنى و ترحيبه :

لما اقترب الخواجة رحمه اللّه من بلدة كلبركا حضر بين يديه السلطان مع الأسرة الملكية والأمراء والعلماء والسادات والعسكر الملكى يرحب به ويحترمه، ولكنه بعد مدة تغيرت حالته من المخدوم ثم عزل عن سريره. (١٩)

علاقة بالملك أحمد شاه البهمنى :

كان السلطان أحمد شاه البهمنى (٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م ـ ٨٣٩ هـ/١٤٣٦ م) يحترم الخواجه قبل جلوسه على سرير السلطنة وبعده و يحضره ويخدمه وبنى له خانقاه و يخدم أيضا الدراويش الذين يقيمون فى الخانقاه ثم بايعـه و وقف قرى متعددة للنفقات ثم بنى قصرا فخما لإقامته متصلا ببلدة كلبركا. و كان الخواجه كيسودراز متبعا شديدا للشريعة المحمدية ، و أثّر هذا أثرا كبيرا في ملك أحمد شاه البهمني فقدتوجه إلى ترويج أحكام الشريعة وقوانينها. و هكذا صار المجتمع فى الدولة البهمنية مجتمعا دينيا.

حب أهل الدكن الخواجه:

و كان سكان الدكن يعتقدون فى الخواجه اعتقادا عظيما ، هذا يظهر من

واقعة و هى انّ رجلا سأل د كنيا أنّ محمدا رسول الله صلى اللّه عليه وسلم أفضل أم السيد كيسودراز ؟ فأجابه " أنّ محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولكن المخدوم السيد كيسودراز شىء آخر "فيظهر من هذه الواقعة حبّ الخواجه في قلوب أهل الدكن ، و أهل الدكن يسمون شهر ذى القعدة "بنده نواز" ومن هذا أيضا يظهر مودة أهل الد كن للخواجه المخدوم

ثناء العلماء والصوفية على الخواجه :

و من فضيلة الخواجه قدس اللّه سرّه أنّ السيد أشرف جهانكير السمنانى الكجوجوى الهندى (المتوفى ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م) رحمه الله حضر عنده للاستفادة الروحانية مع انه كان من الأولياء الكبار فى ذلك العصر فيقول

"ولما تشرّفت به حصل لى حقائق و معارف لم يحصل لى ذلك عند المشائخ الآخرين ، سبحان اللّه له جذبة ربانية قوية " (٢.)

و كتب الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى (ت ـ ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م) فى كتابه " *أخبار الأخيار* "

"هو جامع بين السيادة و العلم و الولاية ، و له مقال رفيع و شأن جليل و درجة بالغة، وله ذوق خاص فيما بين مشائخ الطريقة ، وله منهج ممتاز فى بيان أسرار الحقيقة "

ويقول صاحب *خزينة الأصفياء*

" هو من الأولياء العظام و من كبار المشائخ المتقدمين و خليفة الحق الأفضل للشيخ نصير الدين و محمود چراغ دهلى

وفى مرآة الأسرار

"صار مقبولا فى العالم واستفاض الأدنى والأقصى منه لحسن خلقه وصيت كمالاته ملأ الشرق والغرب ".

خلفاء الخواجه :

أسماء الخلفـــاء الكــرام كما ذكـر السامانى فى الباب السابع فى *السير المحمدية* :

(١) مولانا علاء الدين الكواليـري (٢) الشيخ صدرالديــن خونــد ميــر (٣) مولانا قاضى إسحاق محمد (٤) مولانا قاضى محمد سليمان (٥) مولانا قاضى عليم الدين بن شرف .(٦) الشيخ محمد أكبر (ابنه الأكبر) (٧) الشيـخ أبو المعالى بن سيد أحمد (٨) مولانا خواجه أحمد دبير (٩) مولانا أبو الفتح بن مولانا عــلاء الديـــن الكواليـرى (١٠) الشيخ سيـد يوسـف (إبنــه المعـروف

ب- سيد محمد أصغر) (١١) الشيخ سيد يد الله (حفيد الخواجه) (١٢) مولانا قاضى راجـا (١٣) مولانا شهاب الديـن (١٤) مولانا بهاء الديـن الدهلوى (١٥) مولانا عزّ الدين (١٦) مولانا ملك شهاب الدنين .

مآثره العلمية

وقد ذكرنا من قبل أنّ الخواجه لما اشتغل بعلم الباقى أراد أن يترك العلوم الظاهرة و لكن شيخه لم يأذن له بذلك لأنّه وجد فيه أنّ مريده صاحب الاستعداد للتصنيف والتأ ليف و بهذا أيضا ينشر فيوضه شرقا وغربا و كان هذا أمرا واقعيا فقد نبغ فى الكتابة مـع الحذاقـة والبراعـة. وترك لنا انتاجا علميـا و روحيا فى شكل الكتب و الرسالات و المكتوبـات صغيرهـا و كبيرها نثـراً و شعراً ، ترجمة وتعريبا باللغات الدكنية والفارسية والعربية على موضوعات شتى ، لا سيما فى مجال التصوف و ستظل نبراسا يضيئ الطريق لطلاب المعرفة الصافية ، يبدد ظلمات الجهل ويرشد إلى سبيل الرشاد.

و فيما يلى عرض لمؤلفاته فى الفنون المختلفة مع التعريف بما اطلعت عليه منها ، و هذه المؤلفات جميعها ذكرت فى المصادر التى ترجمت للخواجه رحمه الله. (٢١)

و قد ذكر صاحب *السير المحمدية* العلامة السامانى رحمه الله عدد تصانيفه كما يأتى :

التفســـير :

الملتقط : - هوتفسير القرآن فى لسان الصوفية باللغة العربية مشتمل على ١٦٠٠ صفحة. صنفه الخواجه - رحمه الله - في اثناء قيامه بدلهى خلال الفترة ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥ م - ٨٠١ هـ/ ١٣٩٨ م . و قيل انّ الخواجه كان يلقي درسه على مريديه (٢٢) و مخطوطتها فى الجزئين مخزونة في المكتب الهندى بلند. يوجد ذكره في *كشف الظنون* كما ذكر الدكتور محمد عبد الشكور ، رئيس الكلية العربية الاسلامية بكرنول بولاية أندهرا برديش، فقد قال : أظن أنه هو التفسير الذي ذكره حاجى خليفة فى كتابه " *كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون* "باسم" *ملتقط المعالم فى التفسير*" بدون ذكر المؤلف .(٢٣)

تفسير القرآن : هو على منهج تفسير *الكشاف* ، ولكن الشيخ رحمه الله صنّف خمسة أجزاء له فقط. و قيل كتب هذا التفسير خلال الفترة ٨٠٠ هـ / ٨٠١ هـ

حواشى الكشاف : هذه الهوامش على تفسير *الكشاف* للزمخشرى الّفه اثناء قيامه بدلهى ، ولكنه مفقود.

الحـــــــديث :

شرح مشارق الأنوار : هذا شرح أنيق لـ *مشارق الأنوار* في الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم، للعلامة رضى الدين حسن الصغانى ، ذ كر صاحب تاريخ حبيبى اسم هذا الشرح "*كاشارات المشارق*" وبالأسف انّه مفقود.

ترجمة المشارق : هذه ترجمة فارسية لكتاب *مشارق الأنوار* المذكور أعلاه ، و هى أيضا ليست بموجودة .

السيـرة :

السيرة النبوية صلى الله عليه وسلم : قام الشيخ رحمه الله بتاليفه فى آخر عمره كما أشار إليه معاصره الجليل السيد أشرف جهانكير السمنانى في إحدى مكتوباته (٢٤) و بالأسف انّه مفقود.

الفقـــــــه :

شرح الفقه الأكبر: هذا شرح للفقه الأكبر لإمامنا أبى حنيفة رضى اللّه عنه (المتوفى ١٥٠ هـ) و ذ كر المتر جمون انّ الخواجه كتب شرحه فى اللغتين ، العربية و الفارسية ، فى كلبركه (٢٥) ولكن لم يكمل شرحه فى اللغة العربية .

التـصوف :

أسمار الأسرار : و يعتبر هذا الكتاب أهم مؤلفات الخواجه و أشهرها تناول فى هذا الكتاب بحثا طويلا و مسائل دقيقة عن التصوف والسلوك و المعارف وبحث فيها أيضا عن الأذكار والأشغال و المراقبة و مراتب السلوك والعشق و التوحيد والحقائق وغيرها ، و قسّم الخواجه رحمه اللّه كتابه هذا إلى ١١٤ باباً ، وتقسيمه كان مبنيا على ترتيب السور كما يوجد فى القرآن المجيد (٢٦) و سنة تاليفه ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م . و قام بتحقيقه جماعة من علماء المعرفة و الحقيقة . و له عدة شروح ، و لكن هناك شرحان جميلا ن مشهوران ، أحدهما شرح إبنه الأكبر السيد أكبر (المتوفى ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) الذى قام بتاليفه خلال الفترة ٨١١ هـ و ٨١٢ هـ و سمّاه "*تبصرة الاصطلاحات الصوفية*" ركز فيه الشارح - رحمه الله - على شرح الاصطلاحات الفنيـة تتعلـق بالتصوف و على حـل حقائقـه. والآخـر "*أسرار الأسمار*" كتب فى ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م قال السيد عطا حسين مصحح "*أسمار الأسرار*" إنّ شارحه مريد حفيد الخواجه رحمه اللّه. والجدير بالذكر ان الشيخ شاه رفيع الدين بن الشيخ

شاه ولى الله رحمهما الله أيضا كتب شرحا لبعض مقامات الأسمار .

كتاب معارف العوارف فى شرح العوارف : هذا شرح أنيق عظيم الحجم يحتوى على ١٢٠٠ صفحة فى اللغة العربية للكتاب الشهير "*عوارف المعارف*" للشيخ شها ب الدين السهروردى رحمه الله المتوفى ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م فى فن التصوف ، سيأتى تعارفه المفصل فى السطور الآتية.

ترجمة العوارف : هذا أيضا شرح العوارف للشيخ شهاب الدين - رحمه الله - باللغة الفارسية قام بتأليفه سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م ، ولكنه مشهور بـ "ترجمة *العوارف*" نسخة خطية مخزونة فى مكتبة سالارجنك (٢٧) بحيدر آباد تحت رقم ١٠١ فى فن التصوف.

شرح فصوص الحكم: هذا شرح لفصوص الحكم للشيخ محى الدين إبن عربى (المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) كان الخواجه يلقى درسه على مريديه (٢٨) - قال الواعظى إنّ الخواجه كتب هذا الشرح في سلطان فور فى غجرات اثناء سفره قاصدا إلى كلبركا خلال الفترة ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) و ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م و لكن الأسف انه مفقود.

حظائر القدس: و هو معروف بـ "*عشق نامه*" فى اللغة الفارسية . ذكر فيها عن العشق الحقيقى و أسراره. الّف هذا الكتاب اثناء سفره قاصدا إلى الد كن سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م (٢٩)

شرح آداب المريدين : هذا شرح نفيس للكتاب الشهير " *آداب المريدين*" للشيخ ضياء الدين أبى النجيب عبد القادرالسهروردى (المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٨م) با للغة العربية .

شرح آداب المريدين : شرحه باللغة الفارسية للاستفا دة العامة و هناك أيضا شرح فارسى لآداب المريدين -الّفه الشيخ شرف الدين يحيى منيرى رحمه الله (المتوفى ٧٨٢ هـ) و طبع جزء منه فقط .

شرح تمهيدات عين القضاة الهمدانى: هذا شرح للتمهيدات فى التصوف لأبى المعالى عبد الله المعروف بـ " عين القضاة الهمدانى" (المتوفى ٥٢٥ هـ /١١٣٠م) كتب شرحه فى دلهى و كان الخواجه يحب التمهيدات حبّا جمّا (٣٠)

حواشى قوت القلوب : هو شرح فارسى لقوت القلوب لأبى طالب المكى (المتوفى ٣٨٦ هـ/٩٦٦ م) ألّفه الشيخ رحمه الله فى كلبركا و لكنه مفقود .

ترجمة الرسالة القشيرية : هو ترجمة فارسية للرسالة القشيرية

لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى (المتوفى ٤٦٥هـ/١٠٧٢م) (٣١)

شـرح التعـرف : هذا شرح للتعرف للشيخ أبى بكر (المتوفى ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م)

الخـــاتمـــة : هذه خاتمة لـ" شرح آداب المريدين" باللغة الفارسية

مجموعة يازده رسائل . و هى تشتمل على عشرة كتب صغيرة (٣٢) و هى

١) تفسير سورة الفاتحة

٢) رسالة در رؤية بارى تعالى و كرامة الأولياء .

٣) استقامة الشريعة بطريقة الحقيقة، كتبه الشيخ رحمه الله بسنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩ م

٤) حدائق الانس ، فيها ذكرت بعض أسرار المعرفة باللغة الفارسية . كتبه الشيخ فى كلبركا.

٥) وجود العاشقين – بحث فيها الشيخ عن العشق مجملا.

٦) رسالة منظومة فى الأذكار.

٧) رسالة فى المراقبة .

٨) رسالة أذكار چشتية .

٩) شرح بيت أمير خسرو الدهلوى .

١٠) برهان العاشقين – وهو معروف بـ" شكارنامه".

در الأسرار : مخطوطة مخزونة فى مكتبة المفتى محمود بمدراس تحت رقم ٤٩٠٨، بحث فيها عن العشق الحقيقى و قال إنه أصل لكل شىء و نسخها موجودة فى مكتبة سالارجنك و مكتبة إدارة أدبيات أردو بحيدر آباد. (٣٣)

كتب مختلفة :

أنيس العشاق : هو مجموعة شعرية – نظم الخواجه أبياتا كثيرة باللغة الدكنية والفارسية ، جمعها و رتبها مريده استجابة لطلب إبنه الثانى السيد أصغر الحسينى (المتوفى ٨٢٨ هـ/١٤٢٥ م)

ترجمة الرسالة للشيخ ابن عربى .

ضرب الأمثال.

شرح قصيده مانى.

شرح عقيدة حافظية .

عقيدة بضعة أوراق .

رسالة فى آداب السلوك .

رسالة فى اشارات محبان .

رسالة فى الذكر.

رسالة بيان رؤية ربي فى أحسن صورة .

رسالة فى المعرفة .

رسالة فى بحث الوجود .

رسالة معراج العاشقين .

جهى درسن . (٣٤)

مكتوباته : هناك مجموعة مكتوباته التى رتبها خليفة الشيخ أبو الفتح علاء الدين (المتوفى ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨م) و هى مشتملة على ٦٦ مكتوبا. (٣٥)

ملفوظاته : ذكر بعض المؤلفين أربع مجاميع تشتمل على ملفوظاته ، وفى السير المحمدية ذكر المصنف أنّ ابن الخواجه الشيخ السيد محمد أكبر رتب مجموعتين إحداهما فى دلهى وأخراهما فى أثناء رحلته إلى غجرات . (٣٦)

وفاتـــــــه :

و استفاضت بركات الخواجة فى بلدة كلبركه نحو ست وعشرين سنة و لما بلغ مائة و أربع سنوات من عمره لبى دعوة ربه و انتقل إلى حبيبه فى ١٦/ ذى القعدة سنة ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢م بين الاشراق و الضحى، و تؤرخ العبارة الآتية " مخدوم دين و دنيا" تاريخ وفاته ولعل الشاعر قال فى مثل هذه الساعة الحزينة :

و ما كان قيس هلكه هلك واحد

و لكنه بنيان قوم تهدما

التعريف بكتاب المعارف فى شرح العوارف : كما ذكرنا من قبل أن كتاب "*معارف العوارف*" (٣٧) من تصانيف السيد محمد كيسودراز قدس اللّه سرّه من أنفس شروح باللغة العربية وله نسخة وحيدة مخزونة فى مكتبة تونك بولاية راجستهان بالهند، و هذا من جميل مساعى السيد محمد محمد الحسيني – دامت معاليه - الخلف الصالح لخواجه كيسودراز و المشرف على الأمور بها أنه سعى سعيا مشكورا فى الحصول على صورته من مكتبة تونك. واخترنا الجزء الأول منها فقط و الذى يحتوى على ٢٩ بابا و يشتمل على ٥٧١ صفحة للتحقيق والتعليق عليه لنيل شهادة الدكتوراة من الجامعه العثمانية تحت إشراف فضيلة الشيخ أستاذى المحترم الدكتور محمد عبد الستارخان

النقشبندى القادرى ، بروفيسور و رئيس القسم العربى بالجامعة العثمانية سابقا. وهذا من فضل الله عليّ و كرمه أنه وفقني للاشتغال بسفر جليل و مصنف أنيق الذى قدمناه بعد تحقيق و تعليق عليه إلى الجامعة العثمانية سنة ١٩٨٨م لنيل شهادة الدكتوراة ، والحمدلله أننى فزت و نلت الدكتوراة فى السنة المذكورة أعلاه .

و لأصل الكتاب يعنى "*عوارف المعارف*" مكانة بالغة فى فن التصوف على أن كثيرا من المشائخ القدماء درسوا هذا الكتاب الأنيق و أن هذا الكتاب جامع لفنّ التصوف بتمامه .

و نظن أنّ الشيخ المخدوم السيد محمد كيسو دراز انتخب هذا الكتاب الأنيق لشرح مسائله و حل غوامضه والكشف عن دقائقه ، ولما راجعنا الكتاب رأينا انّ هذا الكتاب شامل لفوائد لا يحصى عددها

و من مميزات هذا الشرح الجليل انّ متانة البيان و براعة الكلام مع الفصاحة و البلاغة توجد فى الكتاب بأسره و هو عديم المثال فى الآداب مع جيّد الترتيب وتوجد فيه علوم الصوفية و أحوالهم و مقاماتهم و آدابهم و أخلاقهم و حقائق معرفتهم و توحيدهم و دقائق إشاراتهم ولطائف اصطلاحاتهم و أسرار التصوف ما لا توجد فى غيره من كتب التصوف

و جملة القول أنّ هذا الشرح يمتاز من حيث التبويب المنظم والتفصيل المفيد ، هو تصنيف جليل ليس له نظير ، هو يفيد سالك التصوف سواء كان مبتديا أو متوسطا أو منتهيا.

وعلى سبيل المثال نذكر ههنا عبارات شتى تشهد ما بيّناه

قبل استعراض المقتبسات من الكتاب المذكور، أريد أن ألقى الضوء على الأهداف السامية التى دلّت على تاليف هذا الكتاب و كيفية أسلوبه و من المعلوم أن الخواجة كيسودراز رحمه الله كان متمسكا بالقرآن و الحديث و طريق السلف الصالح ولم يعرض عنه قولا وفعلا ، و ما يوجد فى مؤلفاته و ملفوظاته و إرشاداته هى مستنبطات من الكتاب والسنة و من أقاويل الصوفية الأجلاء و العلماء الكبار .

فيما يلى إشارة الخواجة رحمه الله إلى ما بينا أعلاه فى الكتاب المذكور و هو يقول

> " *أشار الشيخ (٣٧/١) إلى أن اختيارى لهدى القوم ليس بظنّ و تخمين و تقليد ، بل لأجل العلم واليقين الحاصل بفضل الله و تأييده والتسديد* بقول الشيخ رحمة الله عيبه أنّ طريقتى و مذهبى و دينى و مهربى كتاب الله و سنة رسول الله . فوجدت طريقة الصوفية وأحوالهم العلية ومقاماتهم الشرفية مستنبطات من قول الله و كلام رسول الله بأقصى ما ينبغى أن

يكون فى الباب، و غيرهم كالقاعدين عن السلوك في طريق الدين، و المحرومين عن أتباع سيد المرسلين ، فبالضرورة اخترت هداهم انهم لايطلبون سوى مولاهم و لايسلكون سوى طريق رضاه يجتهد كل منهم أن يتصل أولاه بأخراه ، ويكون أخراه مشهودا فى أولاه" (٣٨)

فأمّا الأسلوب فإن الخواجة رحمه اللّه يأخذ قول الشيخ شهاب الـدين السهروردى رحمه اللّه عليه مجملة ثم يشرح مفاهيمه بكل صراحة ، و فى أثناء شرحه يأتى بالأدلّة العقلية والنقلية منبعها الكتاب و السنة ، كما ذكر أنه أيضا ا ستند فى ذلك إلى إجماع سلف الأمة

و ذكر الخواجة رحمه اللّه تسمية الكتاب فقال :

" عوارف : جمع العارفة و هى الفعل الحسن ، و أجل المنح الكتاب من أوله إلى آخره فى المعارف، فعوارفها كلها معارف ، فما معنى قول الشيخ : و أجلها عوارف المعارف ، يقال فى الكتاب بيان المعاملات و العبادات و الأحوال والمقامات، فأجلها عوارف المعارف ، أى علوم تتعلق بذاته وصفاتـــه سبحانـــه. إذا كان كتاب الشيـخ " عوارف المعارف" فيما ينمق فيــه برمــز و إشــارة يكون هى " معارف العوارف " (٣٩)

ويقول في شرح القول للشيخ شهاب الـدين السهروردى عن صفات اللّه سبحانه " المحتجب بالجلال " يقال احتجب الملك ، أى جعل نفسه فى حجاب من الناس، فلذلك قال المحتجب لا " المحجوب" فان المحجوب ممنوع مقهور ، والمحتجب هو الذى جعل نفسه فى حجاب الجلال والعظمة ، ومن احتجابه بالجلال ما اشار إليه سيد أهل الكمال : حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، و من احتجابه بالجلال كونه ذاته ، و من احتجابه بالجلال احتجاب ذاته بصفاته ، و من احتجابه بالجلال ذاته حجابه ، ومن احتجابه بالجلال ظهوره بالتمثل و التشكل ، و من احتجابه بالجــلال شهـوده بتمثل أجل و أحسن، يقال : كمال عظمة السلطان و جلالته فى الاحتجاب ، نهاية رتبة الصوفية فى الاغراب والاغتراب. أنّ القطب لو يدور فى السوق بأقبح صـورة و أذل هيئة فمن يعرفه ويدركه أنه القطب بل قطب الأقطاب ، فعظمته نبعت عن إدراك ذوى الألباب، وكذلك السلطان إذا خرج فى مظلمة بزى المتكففين الكذابين ويطوف بالأبواب يطلب كسرة و يسأل مؤونة فمن يظنّ فيه أنه السلطان مالك الرقــاب ، قال عليه السلام فى الحديث القدســى" الكبرياء ردائى " (٤٠) و قيل : الحق لشدة ظهوره خفى . (٤١)

و كذلك يشرح الخواجة كيسودراز رحمه اللّه قولا آخر عن صفات اللّه

كما ورد في "*عوارف المعارف*" ذي العز الدائم السرمدي " من أسماء الله تعالى العزيز، وله معان . منها " يقال عز الطعام في البلد أي قلّ أي قليل من وصل به و عرفه حق معرفته ، ومنها . يقال أرض عزاز إذا لم يستقر عليها الأقدام ، أي من وصل به لم يستقر عليه ، فانه كلما وصل انفصل كالدهن و الماء ، إن الدهن كلما يصل بالماء ينفصل . الدائم لفظ معناه ما يحيط به الأزل و الأبد و الوسط . (٤٢)

ظاهر الإنسان عكس باطنه كما قال الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمه الله "حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن" يشرح الخواجه كيسودراز هذا القول يقال الملك والرئيس في قالب الإنسان المضغة الصنوبرية المعلقة في الصدر من الجانب الأيسر ، اذا فسد فسد الجسد كله ، واذا صلح صلح الجسد كله، فعلى هذا إن تأدب هو يظهر أثر تأدبه على ظاهر القالب و كذلك العكس. (٤٣)

ختاماً ، أقدم شرحا ملخصا لحديث النبوي صلى الله عليه و سلم و في الأصل يقع الشرح في أربعة صفحات و الحديث كما يلي .

" لكلّ شيء مفتاح ، و مفتاح الجنة حبّ المساكين و الفقراء ، و الفقراء لصبرهم جلساء الله يوم القيامة ." (٤٤)

يقول الشارح رحمه الله عليه إنّ السلوك و المسكنة و الذبول والإنكسار و الاحتياج والافتقار من لوازم حال الطلب خصوصا إذا لمن يظفروا بمطلوبهم ، و المطلوب جليل القدر ، عظيم الشان ، بعيدالأيد ، رفيع المنزلة ، عزيز الوجود، قليل الحصول ، فأما الفقراء لصبرهم استقاموا على الطلب و حبسوا نفوسهم على التعب ففازوا على الحوائج و الأدب و هو الجلسة مع الله والقعود في مقعد الصدق ، و إليه أشار عليه السلام هم جلساء الله وبهذا الإقتراب يطلع المرء على الإرتباط بين الصانع و المصنوعات، وما أشار إليه أبومحمدرويم (٤٥) التمسك بالفقر والافتقار - الفقر هو تضيق على النفس فيما هو مجاله ومثاله الأكل بعد فاقة ، والشرب ببقاء عطشه و الملبس ستر عورة بخرقة ، والمسكن في زاوية أو غارة ، و في الجملة المنع عن كل ما فيه الفسحة و السعة و العيشة — الخ (٤٦)

الهوامش :

٤- هذه النسبة إلى سلسلة الصوفية الچشتية التي قام بتأسيسها الشيخ الخواجة أبو إسحاق

الشامي (ت - ٣٢٩ هـ) والجشت قرية بقرب هراة فى خراسان - وتشرفت أرض الهند بهده السلسلة بقدوم الشيخ معين الدين حسن السجزى (ت - ٦٣٤ هـ / سنة ١٢٣٦ الميلادية - وخلفه الشيخ قطب الدين بختيار الاوشي (ت ٦٣٤هـ / ١٢٣٦ م) ثم خلفه الشيخ فريد الدين كنج شكر (ت ١٢٦٥ م) ثم خلفه الشيخ نظام الدين أولياء محبوب إلهي (ت ٧٢٥هـ) ثم خلفه الشيخ نصير الدين محمود الأودهى المعروف بـ جراغ دهلي (ت ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) ثم خلفه الشيخ سيد محمد الحسينى المعروف ب كيسو دراز والخواجة بنده نواز (ت ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م)

S .S. K. Hussaini : ' Gisudiraz on Sufism " PP. 3-5

٥- هى مدينة تاريخية ذات فضائل جسيمة بالدكن في جنوب الهند، واستمرت كعاصمة للملوك البهمنية لثمانين سنة و كانت لها مكانة عظمى فى عهد الملك عادل شاه ولها شرف لكونها مدفنا للخواجة كيسو دراز - رحمه الله - حيث يزار و يتبرك وقا م بتأسيسها راجا كلى و سماها بكلبركى ولكن بمرور الوقت غير اسمها با سم " گلبرگا (GULBARGA) للمزيد من المعلومات عنها ، النظر مقالا تحت عنوان " گلبرگا شريف " كتبه السيد وهاب عند ليب و صدر في مجلة " شهباز " باللغة الأردوية الشهرية الصادرة في كلبركا، عدد فبرائر ١٩٦٠م ص ٥٣ - ٥٥

٦- انظر "*حياة بنده نواز*" لادريس القادري ص ١٥ و "*تذكرة الخواجة كيسودراز*" لأحمد اقبال الدين ص ٤٤- ٤٥ . نقلا من الكتاب . Gisudiraz on Sufism P. 31 و انظر "*التصوف و أصغر كوندوى*" للدكتور سلام السنديلوى ص ٣٤٤ ـ مطبعة النظامى لكناؤ سنة ١٩٧٨م

٧- وقد أجمعت المصادر التاريخية علي ذلك عد ا ماورد في تاريخ حبيبي للواعظى و اللطائف الأشرفية للسمنانى - رحمه الله ذكر الواعظى سنة ولادته ٧٢٣ هـ/ ١٢٢٣ م ، ص ٧ و السمنانى - رحمه الله - الذي كان معاصر الخواجة ذكر سنة ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م ص ٣٦٧ و لكن ما ذكرنا فى المتن فهو أصح و أرجح لأنه ماخوذ من "*السير المحمدية*" للساماني، رحمه الله الذي كان مريده الخاص وتشرف بصحبته لمدة طويلة انظر " *السير المحمدية* " ص ٧

٨- توفى رحمه الله في دلهي و دفن بمسجد اياز بها.

٩- تاريخ حبيبى ص ٨

١٠- السير المحمدية للسامانى ص ٨٠ و تاريخ حبيبى للواعظى ص ١٥

١١- السير المحمدية ص ١٤ و تاريخ حبيبى ص : ١٥

١٢ ـ كان للخواجة كيسودراز - رحمه الله . ثلاثة إخوة و أخت ، و هم السيد شاه جندن الحسينى و السيد أحمد صغير الذى توفى فى طفولته والسيد على الحسينى وكان اسم الأخت بى رانى - رحمهم الله - راجع كيفية أسرة محمد لعلى شاه العلوى ص ١٠٠ ، نقلا من الكتاب Gisjdiraz On Sufism P . 32

١٣- السير المحمدية ص ١٥ و تاريخ حبيبى ص ١٠ - ١١

١٤- و هو التصنيف و التاليف فى العلوم و ببركة مقال الشيخ نصير الدين الدهلوي - صنف

الخواجة كيسودراز رحمه الله مائة و أربعة كتب وفق عدد عمره - أفاض الله علينا من بركات علومه . امين

١٥- تاريخ حبيبى ص ١١

١٦- السير المحمدية ص ٢٩

١٧- تاريخ حبيبي ص ١٦-١٧ و خير المجالس ص ٢٨٧

١٨- التصوف في الهند ص ٢٥١

١٩- برهان الماثر للطباطبا ص ٤٤

٢٠ - اللطائف الأشرفية رقم اللطيفة ١٥ نقلا من الكتاب " تصوف " الجزء الاول للدكتور سيد وحيد أشرف "رئيس القسم اللغات العربية والفارسية والأردوية بجامعة مدراس ، ص ١٢٤ و تولى نشره دائرة المعارف حضرت مكان بويلور في ولاية تاملنادو سنة ١٩٨٨م

٢١- هناك اختلاف في عدد تصانيفه ، ذكر صاحب تبصرة الخوارقات عدد تصانيفه ١٢٥، و الواعظى ٤٧، و السامانى ٣٦ و بالأسف بعضها مفقودة وقيل بعضها منسوبة إليه كما يوجد الإختلاف بين المحققين في مصنف الكتاب الشهير "*معراج العاشقين*" باللغة الدكنية- للمزيد من المعلومات عن تحقيق معراج العاشقين انظر مجلة "سب رس" باللغة الأردوية للشهرين نوفمبر و ديسمبر ١٩٩٠م تصدر من إدارة أدبيات أردو بحيدراباد و سعيت ما سعيت لحصول على تصانيفه مخزونة في المكتبات المختلفة و مذكورة في المصادر المعتمدة و ما قدمنا فهي مصنفاته كما توجد في السير المحمدية والمصادر الأخرى

٢٢- تاريخ حبيبى ص ٦٨

٢٣ - راجع رسالة مطبوعة بعنوان " حياة سيد كيسودراز و التفسير العربي للدكتور قاضي محمدعبد الشكور ص ١٠ ، و كشف الظنون لحاجي خليفة ص ١٨١٤

٢٤- المكتوبات للسيد اشرف جهانكير السمنانى رقم المكتوب ٣٢ نقلا من الكتاب Gisudiraz on Sufism P . 39

٢٥- تاريخ حبيبي ص ٦٦

٢٦- اسمار الأسرار لكيسودراز - ص ١-٢

٢٧- تاريخ حبيبى ص ٦٥-٦٦

٢٨- السير المحمدية ص ١٤٣

٢٩ - حظائر القدس لكيسو دراز - ص ١٨٥ و تاريخ حبيبي ص ٦٥

٣٠ - و قد طبع في حيدرآباد سنة ١٣٦٤ هـ بتصحيح سيدعطاء حسين
S S K Hussaini : Gisudiraz On Sufism " P.42 .

٣١- قام بتصحيحها سيدعطاء حسين سنة ١٣٦١ هـ تاريخ حبيبي ص ٦٥

٣٢- قا م بتصحيحها سيد عطاء حسين سنة ١٣٦٠ هـ وطبعت المجموعة في حيدر اباد و تشتمل على أحدعشر كتيبا ولكن أحدا منها المسمى " رسالة توحيد الخواص منسوبة إلى كيسودراز رحمه الله و في الحقيقة ألفه الشيخ حسين الملحى - حياة سيده نوار لإدريس القادرى ص ١٠٥ نقلا من الكتاب Gisudiraz On Sufism P . 41

٣٣ - انظر فهرس المخطوطات الـذي رتبه الـدكتور محمد غوث و الـدكتور محمد أفضل الدين وقد طبع هذا الفهرس في حيدر آباد سنة ١٩٨٩ م ص ٥٤

٣٤- هو مخطوطة مخزونة في مكتبة محمود علي و قادر محىُ الدين بمدراس تحت رقم ٥٨٢٨ راجع الفهرس المذكور أعلاه ص ١٢٢

٣٥- قام بتصحيحها سيد عطاء حسين سنة ١٣٦٢ هـ بحيدر آباد نقلا مـن الكتاب Gisudiraz On Sufism P. 42.

٣٦ - و من أربع مجاميع مجموعة باسم "*جوامع الكلم*" موجودة فقط و رتب هذه المجموعة إبنه الأكبر سيد أكبر الحسيني - انظر السير المحمدية ص ١٣١

٣٧ - توجد هذه الكلمات بين الهلالين على الصفحة الأولى من المخطوطة المخزونة في مكتبة تونك بولاية راجستهان ("من شرح عوارف المعارف المسمى معارف العوارف تصنيف الحضرة المخدوم سيد محمد الحسيني كيسو دراز عاشق شهباز بلند پرواز قدس الله سرّه العزيز")

٣٧/١ - و المراد به الشيخ شهاب الـدين السهروردي صاحب "عوارف المعارف"

٣٨ - معارف العوارف ص. ٣٩

٣٩ - معارف العوارف ص ٤١ - ٤٢.

٤٠. والحديث بتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله الكبرياء ردائي و العظمة ازاري فمن نازعني واحدا منها أدخلته في النار، و في رواية قذفته في النار رواه مسلم - انظر مشكوة المصابيح باب الغضب و الكبر ص ٤٣٣ أصح المطابع بدلهي الهند

٤١- معارف العوارف ص ١٢- ١٣-

٤٢- معارف العوارف ص ١٦-

٤٣- معارف العوارف ص ١٩٣

٤٤- عن عمر رضي الله عنه الجامع الصغير . ج ٢ ، ص ١٢٦ طبع بمصر ١٣٢١ هـ .

٤٥- هو رويم بن أحمد بن زيد بن رويم (ت - ٣٢٠ هـ) صوفي شهير من أجلة مشائخ بغداد كان فقيها على مذهب داؤد الاصبهاني و كان مقرئا قرأ على ادريس بن عبد الكريم الحداد طبقات الصوفية السلمي ص ١٧

٤٦- معارف العوارف ص ١٨٦- ١٨٩

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف (الجامع الصغير ومشكوة المصابيح)

آداب المريدين · الشيخ أبو النجيب السهروردي ترجمة ملا محمدعبد الباسط إلى اللغة الأردوية و طبع بمطبعة اعجاز بحيدر آباد سنة ١٩٦٥م.

أخبار الأخيار مولانا عبد الحق المحدث الدهلوي و ترجمته إلى اللغة الأردوية ام ابه نظامي بدلهي

اسمار الأسرار المخدوم السيد محمد كيسودراز و طبع هذا الكتاب في حيدراباد سنة ١٣٥٠ هـ بتصحيح سيد عطاء حسين

برم صوفية (مجلس الصوفية) السيد صباح الدين عبد الرحمن مطبع المعارف أعظم كره سنة ١٩٧٩م

تاريخ بغداد الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المعروف بـ الخطيب البغدادي مطبع دار الكتاب العربي ببيروت

تاريخ حبيبي عبد العزيز الواعظي - ترجمة إلى اللغة الأردوية معشوق حسين خان المعروف بـ معشوق يار جنك طبع بحيدرآباد سنة ١٣٦٨ هـ

التصوف برفيسور السيد و حيد أشرف مطبعة دائرة المعارف حضرت مكان مويلور سنة ١٩٨٨م

حياة بنده نواز ادريس القادري طبع في كراتشي سنة ١٩٥٦م

حضرت گيسودراز کی مختصر سوانح حيات اور عربی تفسير پر ايك طائرانه نظر د/ قاضي محمد عبد الشكور

(نبذة عن حياة السيد محمد كيسودراز و نظرة خاطفة على التفسير العربي)

حريمة الأصفياء غلام سرور

خواجة بنده نوازكاتصوف اور سلوك د/ مير ولي الدين - ١٩٦٦م

(تصوف الخواجة بنده نواز و سلوكه)

سب رس مجلة تصدر من إدارة أدبيات أردو بحيدراباد عدد نوفمبر و ديسمبر ١٩٩٠م.

سير الأولياء أمير خورد طبع بدلهي سنة ١٣٠٢هـ.

سير محمدي (السير المحمدية) شاه محمد علي الساماني- طبع بالترجمة الأردوية سنة ١٩٨٤م

شهباز مجلة شهرية - عدد فبراير ١٩٦٠م كانت تصدر من كلبركا

طبقات الصوفية أبو عبدالرحمن محمد بن حسين السلمي، مطبعة ليدن ١٩٦٠م

عوارف المعارف الشيخ شهاب الدين السهروردي مطبعة الوهبية سنة ١٢٩٦هـ

فهرس المخطوطات رتبه د/ محمد غوث و د/ محمد أفضل وطبع في حيدر اباد سنة ١٩٨٩م

معارف العوارف السيد محمد كيسودراز رسالة الدكتوراة قدمت إلى الجامعة العثمانية بحيدر اباد - غير منشورة

Gisudiraz On Sufism" by Syed Shah Khusro Hussaini; Published by Iderah-e- Adabiyat-e- Delhi, Delhi; First Edition 1983 .

أنت وحدك ... لا غير

بقلم: الدكتور بشيشر براديب

كان قد تقرر أن زواجها سيعقد بعد ستة أشهر من الخطبة، و كان أبواهما قد رضيا بأنهما سوف لايتبادلان الرسائل خلال هذه الشهور الستة فحسب بل يلتقيان أيضا و يتجولان مجتمعين، لكى يتعرف كل منهما على الآخر و يتقرب منه.

و لم يكن قد مضى بعد إلاّ شهر واحد حتى علمت "مُكتا" أن الشىء الذى راق "سمير" أكثر من أى شىء آخر هو شعرها الطويل الفاحم . شعرها الذى يلامس ركبتيها تحت خصرها إذا كان مضفورا، و كان يغطى ظهرها برداء حريرى أسود إذا كان مسترسلا .. أخبرها بذلك صديق لـ "سمير" كان من أصدقاء عائلتها أيضا، و كان يختلف مع قرينته إلى منزلها من حين لآخر و هذا الصديق و زوجته هما اللذان بواسطتهما بدأ حديث خطبتها بسمير، و كانا بمثابة جسر بين العائلتين بعد انعقاد الخطبة كذلك ، و هما اللذان كانا قد أخبرا بأن "سمير" و أبويه و أخويه عندما رأوا "مكتا" عقدوا فى منزلهم اجتماعا خاصاً قبل الإيجاب بـ"نعم"، و كان هذا الصديق و زوجته هما الآخرين شهدا هذا الاجتماع. كان كل واحد يبدى رأيه فى حق "مكتا"، و كان الحديث يجرى حول لون "مكتا" و ملامح وجهها و قامتها و شخصيتها و ميزاتها الأخرى. و فى نهاية الإجتماع بدأت عملية الترقيم، بدءوا يعطون كل "مفرد" (ITEM) أرقاما يستحقها.

انتبهت "مكتا" و أصاغت لحديث الأرقام و سألت قائلة:

ـ كيف تمت عملية الترقيم يا عمّ؟

ـ إنهم حددّوا مائة رقم لكل "مفرد"، و كان كل واحد منهم يعطى كل مفرد ما يستحقه من الأرقام، و كان من المقرر أن تجمع أرقام المفردات و يستخرج معدلها، و على ذلك فكانت أرقام كل مفرد على النحو التالى:

القامة ـــ ٨٠ رقما من المائة

الملامح ـــ ٧٠ رقما من المائة

" نعم ! طيب " قالت أم "مكتا"

اللون ـــ ٥٠ رقما من المائة

" أجل ! ذلك خطأ، فليس لونها سيئا بهذا القدر"، وجهت أم "مكتا" اعتراضها بقوة

أسلوب التكلم ـــ ٧٠ رقما من المائة. تقدم العم فى حديثه دون أن يبالى باعتراض أم "مكتا".

و أما الشعر فكانت أرقامه مائة من المائة

ـــ " حسن جدا، أى والله " صرخت "مكتا" قائلة

ـــ " نعم يا مكتا ! لقد أعطى كل واحد شعرك مائة رقم من المائة، بل إن "سمير" أعطاه مائتى رقم من المائة

و تعالت قهقهة مجلجلة ـــ و شعرت "مكتا" كأن شعرها ليس شعرا و إنما هو تاج و إكليل، و أنها ليست فتاة عادية بل هى ملكة معظمة. إنها قفّزت كبرى ضفائرها على ظهرها بدلال و جعلتها على صدرها ـــ و انطلقت إلى حجرتها، قائلة فى نفسها: "سمير" معجب بشعرها لحد أن أعطاه مائتى رقم من المائة !!

و فى اليوم التالى كانت هى على موعد مع "سمير" لتذهب إلى صديقة لها كانت قد دعتهما على مائدة الغداء. كانت صديقتها هذه البيضاء اللون و الحادة الملامح أحسن منها بكثير، و كانت تحمل شعرا كشعر الفتيان، و كانت تنصح "مكتا" أيضا بذلك دائما، و كانت ربما تقول لها

" قصّ شعرك يا مكتا و اقصره. إلى متى ستجملينه و تنفقين له من وقتك و عنايتك؟ إن هذا الشعر الطويل سيشكل لك مصيبة، سيصبح صداعا لرأسك "

لكن "مكتا" لم تعتن بحديثها قط، و إنما سوفته ضاحكة دائما.

و فى أثناء عودتهما من منزل الصديقة قال سمير إن صديقتك هذه ازدادت حسنا و جمالا لو أنها لم تقصر شعرها إنها تحاول بقصر شعرها أن تترجّل دون جدوى.

كانت مكتا تعرف أن "سمير" سيتأثر بجمال صديقتها، و لذلك كانت مستعدة من ذى قبل لسماع مدحها بلسانه، لكن "سمير" لم يكتف بالثناء عليها فحسب بل قد استهدفها للسخرية أيضا، الأمر الذى أقنع "مكتا" و أرضاها لدرجة ما، حيث أن استنكار "سمير" لشعر صديقتها الرجالى كان يعنى فى الواقع ثناء لشعرها هى الطويل و لجمالها كذلك حقا إنّ شعرها الطويل كان أغلى ثروة عندها.

تذكرت مكتا أنها كم أولت شعرها من اهتمامها و عنايتها، و كيف رعته و ربته و صرفت له من جهد عظيم تسرحه كل ليلة و تغسله بعد كل يوم، و توصل الدهن بالأصابع إلى رؤوس الشعر و ما إلى ذلك و قد أثمر الله جهدها فكان شعرها الطويل سببا فى زيادة جمالها و بهائها

منذ أن سمعت مديح شعرها بلسان "سمير" غمرتها نشوة غريبة، نشوة يشوبها الفخر و شىء من الكبر أيضا، و كانت هى لا تتردد فى ابداء ذلك حتى أمام سمير نفسه. و مع هذه النشوة و السرور مضى الشهر الثانى من الخِطبة كذلك.

ذات يوم استيقظت "مكتا" من نومها صباحا فرأت على وسادتها عدة شعرات طويلة . وقفت مندهشة و أخذ قلبها يخفق بشدة. هل بدأ شعرها يتساقط؟ إنها جمعت تلك الشعرات من وسادتها بقلب خافق و أيد مرتعشة، و ظلت جالسة على فراشها برهـــة طويلـــة و الشعـرات بيدها. إنهـا كانت قد لاحظت منذ عـدة أيام أن أطراف شعـرها تنشق أيضـا، و لذلك كانـت قد قصت نحو بوصتين من شعرها كعلاج لذلك.

و كان قد حدث ذلك مرة فيما سبق، حيث أن شعرها أخذ ينشق من أمامه فكانت قد قصت قدر إصبع منه، فزال هذا المرض، لكنه عاد اليوم مرة أخرى و بدأ شعره يتساقط أيضا، و معنى ذلك أن يضيع الشيء الذى هو أحب شيء لدى "سمير".

ظلت كئيبة طوال اليوم، و بدأت تستخدم شتى الطرق و الأساليب لمنع الشعر من السقوط .. تارة تستخدم صفرة البيضة و أخرى تغسل رأسها بماء "آمـلا" أو تـدلكها بالزبادى، أو تمسح رؤوس الشعر بالأدهـان، و تستعمل الخضر و الثمار فى غذائها.

و فى أيام القلـق و الكآبـة هـذه التقت بـ "سمير" عـدة مرات لكنها لم تطلعه على ما تعانيه، و ظلت أمامه فرحة مسرورة، إلى أن توقف الآن شعرها من السقوط.

نعم ! توقف شعرها من السقوط، لكن ساد قلبها وهم: و هو أن شعرها يمكن أن يتساقط مرة أخرى، و يمكن أن يصبح قليلا خفيفا، و يمكن أن ينشق من الأمام فتضطر لقصّه و قصره لحد يصبـح طـوله كطول عامـة الفتيـات، و إذاً ماذا يبقى الفرق بينها و بينهن؟ و لو بدأ سمير يكرهها عند ذلك فماذا يكون؟ ماذا تصنع؟ إن سمير لايحبها هى و إنما يحب شعرها، ذلك الشعر الذى يعتبر أضعف جزء فى جسم الإنسان. و الحب الذى يتوقف على طول الشعر لا فائدة منه.

توقف سقوط الشعر لكن الوهم و الشك و الخوف الذى تمركز فى قلبه لم يكن يخرج، و إنما أخذ يزداد تأصلا و رسوخا. إنها كانت قد نجحت فى إخفاء القلق و الاضطراب الذى كانت تواجهه بسبب سقوط الشـعر، لكنهـا لم تستطع أن تخفى القلق الذى تتعرض له بسبب هـذا الوهم و هـذا الخوف، و لذلك كلما كان يلتقى بها "سمير" يسألها قائلا:

" فى أى شئ بدأت تفكرين بغتة؟"

" أراك اليوم مضطربة يا مكتا ! دلنى ماذا يهمكِ؟"

"أنا متأكد أن هناك أمرا تخفينه منّى"

و كانت تجيبه كل مرة قائلة: "أنت واهم يا سميـر. ليس هناك أمـر. لا شيء يهمنى أو يقلقنى". و بعد ذلك كان سمير يسمع ضحكة باردة و يرى شفتين ترتعشان و جفنتين تبتلاّن، فيكاد قلبه يتفطر.

و قررت يوما أنها ستقص شعرها، ستجعله قصيرا للغاية، لحد أن يبلغ درجة عامة الفتيات .. و فى اليوم الثانى قصت من شعرها ١٤ بوصـة كاملـة، و بقى شعرها حتى الخصر فقط. ظلت تنظر إلى الخصلة المقطوعة بعيون

دامعة ثم كبستها فى قبضة يديها و ضمتها إلى صدرها و انفجرت باكية
و منذ ذلك الوقت أصبح هذا الأمر موضوع حديث بيتها كله ٢

ـ ماذا فعلت يا مكتا؟ لما ذا قطعت شعرك؟

ـ ما كنا نعلم أنك حمقاء بهذا القدر

ـ ماذا سيقول زوجك و أهل بيته يا مكتا؟ فأجابت "مكتا" فى البداية تقول: "إن شعرى كان ينشق من الأمام، و كان يتساقط أيضا، فخففته، لأن ذلك يساعد على إعطائه غذاء جيدا، و هو بذلك سيصبح قويا".

و لكن لمارأت أهل بيتها لا يسكتون و لا يمسكون ألسنتهم، ثارت و غضبت و قالت باكية

"إنما قطعت شعرى أنا، و لى أن أصنع بشعرى ما بدا لى، أن أقصّه أو أحلقه، و ليس لأحد أن يمنعنى و ينصحنى".

و سكت أهل بيته ليس فى ذلك ما نخاف منه. إن جمالها قائم على حاله. عينان واسعتان، ملامح جذابة، لون متفتح، وجه برئ نزيه

و بعد يومين فحسب جاء "سمير" إلى بيتها، فالتقت به بهدوء و طمأنينة، لايبدو على وجهها خوف و لايوجد فى قلبها اضطراب، كأنها راضية و مستعدة لكل ما يعرضها

ظلت برفقة "سمير" طول النهار، فى الخيالة، و فى المنتزه، و على شاطئ النهر، و لا بد أن سمير قد نظر مرّات إليها و إلى وجهها و إلى شعرها، لكنه لم يسألها مطلقا عن شعرها و لم يبد أى حيرة، فأخبرته بنفسها تقول

ـ "هل رأيت شعرى؟ لقد قصصته"

ـ "لا يا مكتا، و لم يتوجه التفاتى إلى ذلك، بل لم أشعر بذلك إنه لا يحدث هناك فرق بقطع بعض الشعر"

ـ "بعض الشعر؟ لا يا سمير، لقد قصصت ١٤ بوصة كاملة منه

ـ إننى متعجب و الله، لم أشعر بأىّ فرق أراك فى هذه الحال أيضا جميلة مثل اليوم الذى كنت قد رأيتك فيه أول مرة، بل أراك أكثر حسنا و جمالا.

ـ "ماذا تقول يا سمير؟ أفتصدق أنت؟

ـ "صدقنى، أنا أصدقك يا مكتا فى ذلك الوقت كان يروقنى شعرك، و الآن تعجبيننى أنت بنفسك ٩

ـ "سمير حبيبى

و اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها لم تعرف ما إذا كانت دموع الفرح أو دموع الحزن.

تعريب أسعد الأعظمى

استعراض الكتب

اسم الكتاب:	**يوگ فطرى علاج كا ذريعه (باللغة الأردية) ١٩٩٢م. (اليوغا كوسيلة للعلاج الطبيعى)**
عدد صفحاته:	١٩٠ صفحة من الحجم المتوسط
اسم المؤلف:	الدكتور بدر الإسلام الكيرانوى
ثمن النسخة:	٦٠ روبية هندية
ملتزم الطبع والنشر والتوزيع:	ايجوكيشنل ايند سوشل ويلفيرسوسائتى آف انديا ، ام ١٤ أبو الفضل انكليو جامعة نكر نيو دلهى ١١٠٠٢٥ (الهند)
عرض :	**(الدكتور/ شفيق أحمد الندوى)** استاذ اللغة العربية المشارك فى الجامعة الملية الإسلامية نيو دلهى الهند.

اليوغا علم من علوم التربية الرياضية و فن من فنون الحضارة الهندية العريقة، نشأت فلسفتها منذ أكثر من عدة آلاف من السنين، وتختلف تمارينها عن تمارين السويدى في الغرب فهى تعطى و لاتأخذ. وتعطى القوة والمرونة وتقوى أعضاء الجسد الداخلية والخارجية دون أن تأخذ جهداً وعرقاً أوتسبب ارهاقاً عضلياً. اهتم بها بعض العرب أيضا فى الآونة الأخيرة. فقد تم تخصيص فصل خاص بعنوان العلاج باليوجا فى كتاب أمراض الأذن والأنف والعلاج الطبيعى من إعداد محمد رفعت رئيس تحرير مجلة "طبيبك الخاص" ونشرته دارالمعرفة للطباعة والنشر فى بيروت بأقلام نخبة من أساتذة كليات الطب بجمهورية مصر العربية ١٩٧٩م. كما تم نشر مقالة وافية شاملة و معنونة

بـ "اليوغا"، "*فلسفة انعتاق واتحاد*" في مجلة "*ثقافة الهند*" العربية الفصلية الصادرة في نيودلهى الهند عدد ١-٢/ ١٩٨٤م. بقلم الدكتور دميترى اغرينوس من جامعة دمشق فى سورية وذلك إن دل على شئ فإنه يدل على أن المثقفين العرب ملمون بهذاالفن أيضاً و راغبون فى الثقافة العربية و حضارات الشعوب الشرقية بوجه عام.

أمابالنسبة لهذا الكتاب باللغة الأردية الذى ألّفه الدكتور بدرالإسلام الكيرانوى طبيب النساء العامة سابقة فـي مستشفى العـلاج الطبيعـى بنيو دلهى الهند باللغة الأرديـة فإنـه كتاب نافـع و مـمتع جداً و هو ملئ بالمصطلحات الهنديـة السنسكرتيـة بصورة طبيعية من غير إهتمام بالمترادفات العربية الأردية و التى كانت ضرورية لقراء الأردية حبذا لو كان الإهتمام بذلك لما كان الأسلوب ثقيـلاً على اللغـة الأرديـة. أما الآن فإننا نأمل إضافـة قائمـة المفردات اللغويـة الهندية و شرحها بالأردية إلى الكتاب ملحقاً للطبعة الثانية هذا ويحتوى الكتاب على المباحث التالية:

١- دراسة تمهيدية عن اليوغا: ماهيتها وعناصرها ومراحلها.
٢- مبادىء التمارين التنفسية.
٣- رموز الإحتفاظ بشباب و تمارين صحية تنفسية
٤- أوضاع اليوغا وقواعدها الأساسية.
٥- أعمال رياضية بدنية منوعة.
٦- أساليب خاصة بالتنقية البدنية.
٧- بين السرة الصحة.

و الجدير بالذكر أن الكتاب المجلد مزين بالغلاف الجميل و بالصور والرسوم البيانية المفيدة الرائعة التى قام بها المؤلف نفسه بمجهوداته الرياضية المضنية و براعـة الفنيـة الشخصيـة فـى سبيلـه لإخراج هـذا الإنتاج العيم ولـذلك فإنـه يستحق كل التقدير و الثناء و الإعجاب. أدعو اللّه المولى القدير أن يوفقه مزيداً لما فيـه مصلحة البلاد و العباد.

لها ـ فيما يعلم هذا الباحث ـ في مكتبة عليكره ، قسم رحمة الله شيرواني، و فيه ترجمة لمأة ليلة من الكتاب.

٢- الشيخ عبدالرحيم ابن عبدالكريم الصفى بوري:

لم يظفر الباحث بتفاصيل تتصل بحياة الشيخ الصفي بوري، و نجد مؤرخي العلوم و الآداب في الهند يذكرون فضله و بعض كتبه دون أن يسردوا التفاصيل (٩) و قد ذكر صاحب *النزهة* أنه مات عام ١٢٦٧هـ / ١٨٤٩م في كلكتا، و دفن فيها. (١٠) و ممّا يتعجب له الباحث أن كتبا أمثال " *المناظـرة* " و "*براهيـن سكـون الشمس*" و "*الأنوار المشرقيـة على الأسـرار المنطقيـة*" و "*التعليقات على الأنوار المشرقية*" نسبت إلى شيخنا ، مع أنها للشيخ عبدالرحيم بن مصاحب علي الجوركبوري (١١)

و المؤلفات التي ذكرها صاحب *تذكرة علماء هند*" و كذلك صاحب "*نزهة الخواطر* معظمها مطبوعة و منها

١ - شرح المعلقات السبع:

طبع هذا الشرح للمعلقات في المطبع النـادري ، بريلي فـي عـام ١٨٨٦م و هاك نموذج من شرحه

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجمـل

[الوقوف جمع واقف و الصحب جمع صاحب، و المطى المراكب، واحدها مطية، و الأسى الحزن، و نصب وقوفا على الحال من قوله نبك، و نصب أسى على أنه مفعول له لقوله لا تهلك يقول فقابك في حال وقف أصحابي مراكبهم على رأسي يقولون لاتهلك من الحزن ، و تجمل بالصبر]

٢- منتهى الأرب فى لغات العرب:

هذا الكتاب في أربعة مجلدات كبار، انتقاها المؤلف مـن "*القامـوس*" و "*الصحـــاح*" و "*شمس العلـوم*" و " *مجمـــع البحـــار*" و "*ديـوان الأدب*" و "*تاج المصادر* و "*حياة الحيوان* و "*المهذب* و غيرها من كتب القاموس، و قد أكمله المؤلف في كلكتا في ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ، و طبع مرارا.

٣- حل الشواهد و الأشعار و الأمثال و الأحاديث:

طبع هذا الكتاب من كلكتا في ١٢٣٦هـ / ١-١٨٢٠م و فيـه تسعـة عشـر و مأة صفحة ، كل صفحة اثنتى عشر سطرا ، و يوجد مخطوطان له في عليكره ، و كتب الأول في ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م ، و الثاني في ١٨٦٠م. و كُتب الأول في ١٨٦٠م و الثاني في ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ـ

٤- ضرورة الأديب فى مباحث التذكير و التأنيث:

طبع هذا الكتاب فى كلكتا فى ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م.
يقول المؤلف فى آخر الكتاب

" *يقول العبد الفقير إلى مغفرة مولاه الغنى عبدالرحيم بن عبدالكريم الصفى بورى هذا آخر ما أردنا جمعه فى هذا المختصر تذكرة للطالبين، و الله حسبى ، و خير معين، و صلى الله على سيد المرسلين و آله و صحبه أجمعين*

٥- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك:

ألفية ابن مالك كتاب منظوم فى علم النحو، و قد ألف صاحبنا شرحا له، و طبع فى عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م ، و فيه ستة و ثمانون و أربعمائة من الصفحات، كل صفحة ستة عشر سطرا ، و المؤلف يشرح فيه تفاصيل مطنبة متصلة بمسائل النحو، و الكتاب خير دليل لسعة اطلاع المؤلف على دقائق النحو، و براعته فى التنقيب و التحليل، بأسلوب يتمير بالوضوح و السلاسة، و هذا الكتاب ـ كما يراه الباحث ـ ينبغى أن نعده من أروع ما انتجته القرائح الهندية فى علم النحو

النحو و التصريف:

يعد النحو و التصريف من العلوم الآلية بصدد تعليم اللغة العربية، وعليهما يقوم صرح اللغة ، و بناءها العلوى ، و ذلك لأن المرء لا يمكنه أن يطلع على أسرار اللغة ، و فلسفة التغير و التركيب، و لايمكنه أن يصون نفسه من الخطأ فى الكلام إلاّ إذا ملك ناصية النحو و التصريف

كان النحو و التصريف وحدة و أول من جزّءها هو أبوعثمان المازنى ، و قد بقيا وحدة إلى يومنا من حيث الغاية، إذ غايتهما الصيانة من الخطأ فى صيغ الكلمات و التراكيب، و أول كتاب يعرفه التاريخ فى هذا الفن هو ما كان ألفه " معاذ " و الشهير من الكتب الآن *التعريف فى التصريف* لابن مالك، و "*الشافية* لابن حاجب، و *التصريف* لابن جنى، و *الممتع* لابن عصفور، و *المختصر الريحانى*" لعزالدين عبدالوهاب، و *مراح الأرواح* لأحمد بن على مسعود ، و "*المختصر*" للميدانى

مما ألفه علماء أودهـ فى هذا العلم (١٢):

١- "*التعريف بضروريات علم التصريف* ، للسيد مرتضى زبيدى ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م

٢- "*الصافية شرح الشافية*"، للشيخ محمّد عليم بن موسى الإله آبادى (١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م)
٣- "*شفاء الشافية شرح الشافية*"، للشيخ عبدالباسط بن رستم علي القنوجى (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م)
٤- "*هداية الصرف*"، للشيخ عبدالعلى الفرنجى محلى بحرالعلوم (١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م)
٥- "*قسطاس الصرف*"، للشيخ محمّد أشرف بن نعمت اللّه اللكنوى (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م)
٦- "*الفصول الرصوية*"، للشيخ علي جعفر بن علي رضا الإله آبادى (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)
٧- "*شرح الشافية*"، للسيّد ظهور اللّه اللكنوى (١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م)
٨- "*تمرين المعلم*"، للشيخ حسين بن علي بن عبدالباسط القنوجي (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م)

أما علم النحو فمن أشهر علماءه عنبسة الفيل، و يحيى بن يعمر العدوانى، و عطاء ابن أسود، و أبوالحارث، و عيسى بن عمر الثقفى، و أبوعمرو بن العلاء، و خليل بن أحمد الفراهيدى، و أبوعمر عثمان سيبويه، و أبو علي الفارسى، و أبوالقاسم الزجاج و غيرهم كثير. و نجد علماء الهند أنهم ألفوا شروحالكافية ابن الحاجب، كما نجد "*لب الألباب*" للقاضى ناصرالدين البيضاوى من المقررات الدراسية فى المدارس الهندية، و ممن شرحوا كافية ابن الحاجب القاضى شهاب الدين الدولت آبادى، و حشّاها غياث الدين منصور الشيرازى، و عبدالملك الجونبورى، و علاءالدين الجونبورى، و ملاّ إله داد الجونبورى

و مما ألفه علماء أودهـ فى فن النحو:

١- "*نادرالبيان*"، للسيد أحمد بن مسعود الهرجامى (١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م)
٢- *باهر البرهان شرح نادر البيان*، للمؤلف نفسه.
٣- "*عين الهدى شرح قطر الندى*"، للشيخ عليم الدين بن فصيح الدين القنوجى (١٢١١هـ/ ٧-١٧٩٦م)
٤- "*وسيط النحو*"، للشيخ تراب علي بن نصراللّه الخيرآبادى (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م)
٥- *توضيح المرام فى تحقيق الجملة و الكلام*"، للشيخ إلهى بخش الفيض آبادى.
٦- *الرسالة فى النحو*، للعلامة فضل إمام الخيرآبادى (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨)

٧- "*إرشاد اللبيب*"، للشيخ علي محمّد بن السيد محمّد الشيعي
٨- "*تبصرة الطالبين*"، للقاصي ارتضى علي خان (١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م)
٩- "*العباب في النحو*"،للسيدمحمّدنقي بن حسين بن دلدار علي اللكنوي.
١٠- "*اختلاف البصريين و الكوفيين*"، للسيد حسين بخش الكاكوروي (١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م)
١١- "*صروريات الأدباء*"، للمؤلف نفسه.

١- السيّد أحمد بن مسعود الهرجامي:

ولد في هرجام و ترعرع فيها، و قرأ على عمه الشيخ معزالدين بن محمّد شفيع ثم اشتغل بالتدريس، و خلف آثارا علمية كثيرة، منها "*الوجيز في الفرائض*" و "*حسابا يسيرا*" و "*نادر البيان*" و مات في أحد عشر بقين من شوال عام ١١٧٥هـ/ ١٧٧٥م (١٤)

و "*نادرالبيان*" كتاب في النحو، و قد شرحه المؤلف نفسه باسم "*باهرالبرهان*" في سنة ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م، و يوجد مخطوط له في مكتبة مولانا آزاد العامة، قسم سبحان الله ٧٢٢ ١٥/٨٩١، بخط واضح، و المخطوط يحتوي على ١٣٢ ورقة، كل صفحة سبعة عشر سطرا، و النسخة - على أنها متآكلة - يمكن أن يقرءها أحد، و تم كتابته عام ١٢٣٦هـ/١-١٨٢٠م و بدايتها كالتالي

> "*أحمد الله الذي جعل الكلمة لفظا وضع لمعنى الإيمان، لئلا يسند بها فعلنا إلى إسم الكفر و حرف العصيان*"
> و نقرأ في نهايتها "*و قد فرغ العبد الضعيف الهديه (الله ديا) من تاليف نادرالبيان باهر البرهان في ليلة القدر من رمضان في سنة ألف و مائة و خمسين من هجرة سيدالمرسلين صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين*"
> و ينبغي أن يلاحظ أن "*الهديه*" في هذه العبارة إسم اشتهر به المؤلف و معناه بالأردية هبة الله

٢- الشيخ عليم الدين بن فصيح الدين القنوجي:

كان من أعلام عصره و اتقيائه المشهورين. ولد في قنوج و نشأ فيها، و قرأ على الشيخ عبدالباسط ابن رستم علي القنوجي (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م)، و بعد تحصيل العلوم أكب على التدريس و التاليف و لم نر عام وفاته في مؤلفات السير، و لكنه كان قد ألف "*عين الهدى شرح قطر الندى*" في ١٢١١هـ/ ٧-١٧٩٦م، و من مؤلفاته "*درر الفضائل في شرح الشمائل*" و "*رسائل في المنطق*" (١٥)

و "*عين الهدى شرح قطر الندى*" من أشهر مؤلفاته ، و "*قطر الندى*" كتاب شهير فى النحو ألفه العلامة أبوعبيدالله جمال الدين محمد بن يوسف بن هشام الأنصارى (٧٦١هـ / ١٣٥٠م) ، و يوجد مخطوط لـه فـى مكتبـة ندوة العلماء تحت رقم ١٦٧٧ و ألف الشيخ القنوجى شرحا له ، و يوجد مخطوطا فى مكتبة ندوة العلماء تحت رقم ١٦٨٨ ، و فيه سبعة و خمسون ورقا، كل صفحة ستة عشر سطرا ، بخط واضح ، و تتخلله حواشى، و لم نعثر على نسخة أخرى له حتى الآن

٣- الشيخ تراب علي الخير آبادي:

هو من مواليـد عام ١١٩١هـ / ١٧٨٥م فى خيرآباد ، و قرأ على الشيخ أحمـــد علي، و الشيخ غلام إمـــام الرضـــوى ، و السيد عبدالواجد الخيرآبـــادى (١٢١١هـ / ١٨٩٦م) و فاق أقرانه فى العلوم و الآداب، ذهب إلى كلكتا ، ففوضت إليه السفارة فى إيران، و سافر إلى العراق مع الإنجليز ، ثم رجع إلى مدراس ، و اشتغل بالتدريس ثم رحل إلى الحرمين فى عام ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م ، و مرض أثناء عودته ، و مات فى ميسور فى ١٧/ ربيع الأول ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م

يكتب عنه صاحب نزهة الخواطر

> *" كان صاحب قوة و رزانة و صلابة فى الدين ، طويل القامة ، حسن الهيئة ، له مصنفات منها "وسيط النحو و "الدر المنظوم" فى المنطق ، و أعطاه أمير مدراس سبعة آلاف روبية صلة لذلك الكتاب " (١٦)*

و "*وسيط النحو* كتاب فى النحو، قد طبع فى كلكتا قبل زمن طويـــل، و فيه ٢٨٨ صفحة ، كل صفحة خمسة عشر سطرا، و يشتمل على مقدمة و ثلاث مقالات و خاتمة ، المقدمة تبحث فى علم النحو و تعرفه و تذكر غايته ، و كل من المقالات تشتمل على تبصرة و مقصدين، يذكر فيها تفاصيل النحو و قضاياه المختلفة ، فى نهاية المطاف نحو رسالة مشتملة على ثمانى و سبعين صفحة يدرج فيها المؤلف الكلمات العويصة ، و يشرحها باللغة الفارسية.

العلوم العقلية ، أو المنطق و الفلسفة:

إسهامات علماء الهند فى المعارف الإسلامية كثرت كثرة كاثرة فى الفقه ، ثم فى المعارف العقلية ، أو المنطق و الفلسفة ، و العلماء يدرجون فى المعارف العقلية الالهيات و الطبيعيات، و علم الكلام ، و المنطق ، و الرياضة ، و الحكمة العملية ، و الطب (١٧). و الرياضة تشمل الهندسة و جر الثقيـــل ، و الحساب ، و الجبر و المقابلة ، و الرصد، و الاصطرلاب ، و الموسيقا ، و المساحة. و تاريخ كل

هذه العلوم قديم بآلاف السنين في الاغريق ، و أول من اشتغل بالعلوم العقلية هو لقمان الحكيم ، و ورثه سقراط الاغريقي ثم أفلاطون ، ثم أرسطاطاليس، وهذا الآخر هو الذي أصفى عليها صبغة العلم، و هو المعروف بالمعلم الأول في تاريخ المعارف العقلية

و شاهد التاريخ انحطاطا في العلوم العقلية في الإغريق ، حيث ظلت الكتب رهائن المكتبات، و لما بزغت شمس الحضارة الاسلامية أمر خالد بن يزيد الأموي (٨٥هـ / ٧٠٤م) بنقل بعض المؤلفات في الكيميا إلى اللغة العربية ، ثم نقل بعض المسيحيين مؤلفات في الفلسفة الطبيعية ، و شحن بطارية حركة النقل و الترجمة الرشيد (١٧٠هـ/٧٨٦ ـ ١٩٤/٨٠٩) و المامون (١٩٨/٨١٣ ـ ٢١٨هـ /٨٣٣م) ، و من أشهر النقلة حنين بن اسحاق و ثابت بن قرة (١٨) ثم أنجب التاريخ الإسلامي عباقره في العلوم العقليه، منهم الفارابي (٩٥٠ هـ) و ابن سينا (١٠٣٨م) و ابن رشد (١١٩٨م) و ابن صائغ الاندلسي، و الرازي، و الطوسي، وقطب الدين الرازي، و المحقق الدواني، و ميرزا جان ، و الشريف الجرجاني، و مير زاهد الهروي و حسن شاه البقال، ثم قائمة طويلة

الهند في بداية الأمر لم يشجع نشر المعارف العقلية ، و كان السيد نورالدين مبارك الغزنوي يهاجمها في خطبه في بلاط الملك شمس الدين ايلتتمش (١٩) و بقي الأمر على هذه الحال في عصور غياث الدين بلبن (١٢٦٦ ـ ١٢٨٨) و جلال الدين الخلجي (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ ـ ٦٩٥ / ١٢٩٥م) ، و لكن محمّد بن تغلق (٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ ـ ٧٥٢ / ١٣٥١م) كان من المولعين بالفلسفة ، و كان في بلاطه الشيخ علم الدين المعروف بالفيلسوف ، و كان يدور بينه و بين الملك الحوار العقلي، و يكتب ابن بطوطه

"فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة (٢٠)

و في أواخر القرن التاسع الهجري عاد الشيخ عبد الدين الملتاني بعد أن استفاد من السيد الشريف الجرجاني، و اشتهر من تلامذه الشيخ سماء الدين الملتاني و الشيخ فتح الله الملتاني، و السيد ابراهيم ، و الشيخ عبدالله التلبني، و الشيخ عزيزالله الملتاني ، و يرجع إليهم الفضل في نشر المعارف العقلية في عصر السلطان سكندر اللودهي في ارجاء الهند الشمالية ، و من تلامذة المحقق الدواني الذين أسهموا كثيرا في نشر العلوم العقليه أبوالفضل خطيب الكازروني، و أبوالفضل الاستراباذي، و الملا عماد الطاري ، و رفيع الدين الصفوي ، و خواجه جمال الدين محمود، و مير حسين ميبذي

على أن هذا الآخر (مير حسين ميبذي) لم يقدم الهند ، و لكن كتابه اشتهر في أرجاءها ، و الكتاب هو شرح *هدايه الحكمه* المعروف باسم المؤلف ميبذيٰ و خواجه جمال الدين محمود هو المرجع في نشر العلوم العقلية في

الهند ، فتلميذاه ميرزا جان الشيرازى ، و فتح اللّه الشيرازى أسهما بكثير فى نشرها، ثم ظهر أعلام فيها أمثال الشيخ وجيـه الديـن العلـوى و الكجـراتى ، و الملا عبدالسلام اللاهورى، و المفتى عبدالسلام الديوى ، و الملا عبدالحكيم السيالكوتى ، و الملا كمال الدين الكشميرى ، و الملا محب اللّه البهارى ، و الملا محمود الجونبورى و الذين تلمذوا علـى هؤلاء الأعـلام كانوا كـذلك أعلامـا، و منهم ــ من منطقة أودهـ ــ نظام الديـن السهالـوى ، و قطب الدين شهيـد، و كمال الدين السهالوى ، و القاضى مبارك الجوباموى، و حمداللّه السنديلوى ، و فضل إمام الخيرآبادى ، و فضل حق الخيرآبادى ، و عبدالعلـى بحرالعلـوم ، و محمّد مبين ، و محمّد حسن، فى قائمة تحوى عشرات من الأسماء

أما النصوص الكلاسيكية التى أثرت فى انتشار العلوم العقلية فى الهند، فهى كثيرة ، منها *"الشفاء"* و *"الحكمة المشرقية"* و *"الإشارات و التنبيهات"* للشيخ الرئيس ابن سينا، و *"مطالع الأنوار"* للشيخ سراج الدين الأرموى، و *"هداية الحكمة"* للشيخ أثيرالدين الأبهرى و *"الرسالة فى التصور و التصديق"* للشيخ قطب الدين الرازى و *"تهذيب المنطق"* للعلامة سعدالدين التفتازانى، و *"الأفق المبين"* لمير باقر داماد.

و للهند ولع شديد و إسهام وافر فى المنطق، و يكفى للتدليل أن كتاب *"سلم العلوم"* قد شرحه عدد كبير من العلماء ، و *"سلم العلوم"* كتاب كان ألفه الملا محبّ اللّه البهارى، و ممن شرحوا هذا الكتاب القاصى مبارك، و حمداللّه بن شكـراللّه ، و محمّد حسن ، و محمّد مبين ، و عبدالعلـى بحـرالعلـوم ، و نعيم الدين ابن فصيح الدين القنوجى، و الشيخ ولى اللّه اللكنوى و الشيخ تراب علي اللكنوى ، و حيدرعلي بن حمداللّه السنديلوى (٢١)

و المؤلفات التى عثر عليها الباحث ـ إما مطبوعا أو مخطوطا ـ كثيـرة ، و إذا أردنا التعريف بها و بأصحابها فذلك يتطلب مؤلفا على حدة ، و معالجة القضايا العقلية فيها مجلدات صخمة ندرج فيمايلى قائمة لما أنتجتها عبقرية أودهـ فى العلوم العقلية

١- *الرسالة فى تحقيق الجعل المركب و البسيط*، للقاصى محمّد پناه بن أمان الجونبورى، مخطوط فى قسم فرنجى محل، مكتبة عليكره ، تحت رقم ١٦١/٨٥٩

٢- *الرسالة فى العلم الطبيعى و الإلهى*، للمؤلف نفسه ، مخطوط فى مكتبة مظاهرالعلوم سهارنبور، رقم ٢/٥٩

٣ – شرح *سلم العلوم* ، للشيخ حمداللّه بن شكراللّه السنديلوى، و يوجد مطبوعا

٤- *الحاشية على شرح هداية الحكمة*

٥- *الحاشية على الشمس البازغة*

٦- *التعليقات على شرح السلم* ، كلها للمؤلف نفسه

٧- *الحاشيه على شرح هداية الحكمة للصدرا* ، لملاّ نظام الدين السهالوى
٨- *الحاشية على الشمس البازغة*، للمؤلف نفسه
٩- *شرح سلم العلوم*، للقاصى مبارك بن دائم الجوباموى، و يوجد مطبوعا
١٠- *حاشية على الحواشى الزاهدية لتهذيب الجلال* ، للشيخ أحمد عبدالحق اللكنوى (١١٨٧هـ / ١٧٧٣م)
١١- *تصورات شرح السلم*، للمؤلف نفسه و يوجد الكتابان مطبوعس
١٢- *سـدة العلوم فى شرح سلم العلوم*، للمؤلف نفسه، و يوجد الكتابان مطبوعين يوجد مخطوطاً في مكتبة رصا برامفور تحت رقم ٢٧٨٦ـ
١٣ - *الرسالة فى الحدوث الذاتى و الزمانى*، للشيخ بركت الله اللكنوى.
١٤- *اصعاد الفهوم حاشية سلم العلوم*
١٥- *التحقيق المنطقبة على شرح الشمسيه*، المعروف بالقطبى
١٦- *إقامة البرهان على بديع الميزان*
كلها للمؤلف نفسه ، و توجد مطبوعة
١٧- *تذكرة الميزان* ، لمير جارالله الإله ابادى
١٨- *الرسالة فى شبهة الاستلزام*
١٩ ـ *الرسالة فى مغالطة*
٢٠- *الرسالة فى شبهة نقيض الأعم الأخص*، كلها للمؤلف و موجودة خطية فى مكتبة عليكره
٢١- *الحاشية على التعليقات الزاهديه*، لعلام يحيى بن نجم الدين البهارى.
٢٢- *الحاشية على الحاشية الزاهديه على الرسالة القطبية*، للمؤلف نفسه
٢٣- *الحاشية على شرح هداية الحكمة*، للشيخ محمّد أعلم بن محمّد شاكر السنديلوى.
٢٤- *الرسالة فى التشكيك*، للمؤلف نفسه
٢٥- *الحاشية على مير زاهد ملا جلال*، لملا كمال الدين السهالوى
٢٦- *الحاشية على مير زاهد ملاّ جلال* ، لملا محمّد حسن اللكنوى (١١٩٩هـ / ١٧٨٥م)
٢٧- *الحاشية على حاشية مير زاهد على الرسالة القطبية*
٢٨ - *شرح سلم العلوم*
٢٩- *الحاشية على الشمس البازغة*
٣٠- *الحاشية على شرح هداية الحكمة*
٣١- *معارج العلوم*.

كلها لملا محمّد حسن المذكور.

٣٢- *الحاشية على حاشية مير زاهد على شرح التهذيب* لأحمد علي بن فتح محمّد السنديلوى.

٣٣ - *الحاشية على حاشية مير زاهد.*

٣٤- مجموعة *الحواشى*

٣٥- *شرح سلّم العلوم.*

كلها للسنديلوى المذكور.

٣٦ - *الحاشية على مير زاهد ملاّ جلال* للعلامة تفضّل حسين خان.

٣٧ - *الحاشية على شرح السلم لحمدلله* ، لمير محمّد باقر الجائسى (١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م)

٣٨ - *الحاشية على شرح الجلالية*

٣٩ - *الحواشى على شرح التهذيب للدوانى.*

٤٠ - *كشف الغين عن شرح حكمة العين.*

كلها لمير الجائسى.

٤١- *الحاشية على حاشية ميرزاهد على الرسالة*، لعبد العلي بحر العلوم.

٤٢- *الحاشية على حاشية مير زاهد على الرسالة القطبيه.*

٤٣- *الحاشية على حاشية مير زاهد على شرح التهذيب*

٤٤- *الحاشية على حاشية شرح التهذيب لملاّ جلال.*

٤٥- *الحاشية على شرح هداية الحكمة.*

٤٦- *الحاشية على ضابطة الحكمة.*

٤٧- *الحاشية على مير زاهد أمور عامة*

٤٨- *الحاشية المتعلقة على الحواشى الزاهدية الجلالية.*

٤٩- *العجالة النافعة.*

٥٠- *التعليقات على الأفق المبين.*

٥١- *شرح سلم العلوم.*

٥٢- *الرسالة فى المثناة بالتكبير.*

كلها للشيخ عبدالعلى بحر العلوم الفرنجى محلى

٥٣- *الحاشية على مير زاهد*، لملا كمال الدين السهالوى.

٥٤- *الرسالة فى تحقيق علم البارى.*

٥٥- *الرسالة فى المقولات العشر.*

٥٦- *الحاشية على شرح السلم للقاضى*

كلها للسهالوى

٥٧- *الحاشية على رسالة مير زاهد* لملاّ محمّد مبين الفرنجى محلى.

٥٨- *شرح سلم العلوم.*

٥٩- *الحاشية على المثناة بالتكبير.*

كلها لملاّ محمّد مبين نفسه.

٦٠- *الحاشية على رسالة ميرزاهد*، لمحمّد عظيم بن كفايت الله الجوباموى

٦١- شرح *سلم العلوم*. لمحمّد عظيم نفسه.

٦٢- *الرسالة في حل شبهة الاستلزام*. للقاضي نجم الدين العلوى

٦٣- *الحاشية على رسالة مير زاهد*. لعمادالدين العثماني اللبكنى

٦٤- تلك عشرة كاملة.

٦٥- *القول الثالث*.

٦٦- شرح *شرح التهذيب لليزدى*

٦٧- *العقدة الوثيقة*

٦٨- *الحاشية على الحاشية الزاهدية*

كلها للعثماني اللبكني المذكور.

٦٩- *الحاشية على مير زاهد*، لحيدر على بن حمدالله السنديلوى

٧٠- *الرسالة في حل شبهة الاستلزام*

٧١- *الرسالة في العلم و المعلوم*

٧٢- *التحريرات على شرح السلم لحمدالله*. كلّها للسنديلوى نفسه

٧٣ ـ *الحاشية على شرح هداية الحكمة للصدرا*، للسيد دلدار بن السيد معين النصير آبادى

٧٤- تقرير *معدوم النظير* للمؤلف نفسه

٧٥- تهذيب *التهذيب* ، لعبدالباسط بن رستم علي القنوجي

٧٦- *الحاشية على حاشية غلام يحيى البهارى*، للحافظ علي أصعر الفيض أبادى

٧٧ - *رسالة الجعل المؤلف و البسيط* ، لغلام حسين الإله أبادى

٧٨- نقد *الجواهر في شرح ظواهر الجواهر*، لمحمّد خيرالدين الجونبورى

٧٩- *الحاشية على شرح هداية الحكمة للميبذى*. لمحمّد اصغر الفرنجى محلى.

٨٠- *الدر المنظوم في سلك العلوم*، للشيخ تراب علي الخير آبادى

٨١- *الدوحة الشامخة في الأصول الراسخة* ، لمحمّد أشرف الصديقى

٨٢- *الحاشية على مير زاهد على الرسالة القطبية* للعلامة فضل إمام الخير آبادى

٨٣- *المرقاة*.

٨٤- *تلخيص طبيعيات الشفاء*

٨٥- شرح *ميزان المنطق*.

٨٦- *الحاشية على مير زاهد ملاّ جلال*

٨٧- *تشحيذ الأذهان*

كلها للخير أبادى نفسه

٨٨- *الحاشية على شرح هداية الحكمة للصدرا*. لمحمّد أمجد بن فيض اللّه القنوجي.

٨٩- *الحاشية على حاشية مير زاهد على شرح التهذيب للدوانى*. للقاضى ارتضى خان الجوباموى.

٩٠- *الحاشية الزاهدية على التهذيب*.

٩١- *شرح الزاهدية على الرسالة القطبية*.

٩٢- *الحاشية على الميبذى*

٩٣- *التعليقات على شرح سلم العلوم لحمداللّه*

٩٤- *حل مبحث المثناة بالتكبير*.

٩٥- *التصريحات*

كلها للقاضى ارتضى المذكور

٩٦- *الحاشية على المثناة بالتكبير* للسيد اسماعيل المرادآبادى

٩٧- *الحاشية على شرح التهذيب لليزدى*.

٩٨- *الحاشية على الميبذى* و كلاهما للمراد آبادى نفسه

٩٩- *الحاشية الظهورية*، للشيخ ظهور اللّه بن محمّد ولى الفرنجي محلى.

١٠٠- *الحاشية على مير زاهد ملا جلال*

١٠١- *حاشية الدوحة الميادة فى حدود الصورة و المادة*. للشيخ نفسه

١٠٢- *الحاشية على الميبذى* للشيخ حسن علي صغير اللكنوى.

١٠٣- *الإيقاظات فى بحث العلم*، للشيخ ولى اللّه بن حبيب اللّه اللكنوى

١٠٤- *الحاشية على مير زاهد ملاّ جلال*

١٠٥- *شرح تذكرة الميزان*

١٠٦- *التنبيهات فى التشكيك*

١٠٧- *حاشية الصدرا*.

كلها للشيخ ولى اللّه المذكور.

١٠٨- *الحاشية على شرح هداية الحكمة* ، للسيد حسين بن دلدار علي النصير آبادى.

١٠٩- *الحاشية على مرآة الشروح*. للسيد خادم أحمد بن محمّد حيدر اللكنوى.

١١٠- *الرسالة فى قاطيغورياس* للعلامة فضل حق الخير أبادى.

١١١- *حاشية الأفق المبين*.

١١٢- *الحاشية على شرح السلم للقاضى مبارك*.

١١٣- *الهدية السعيدية فى الحكمة الطبيعية*

١١٤- *الرسالة فى العلم و المعلوم*.

١١٥- *الرسالة فى الرد على القائلين بحركة الأرض*.

١١٦- *الكافى لحل ايساغوجى.*
١١٧- *الجنس الغالى فى شرح الجوهر العالى،*

كلها للعلامة الخير آبادى

١١٨- *الحاشية على حاشية غلام يحيى البهارى* للمفتى محمّد عنايت أحمد الكاكورى
١١٩- *البيان الكافى على شرح القاضى*، للشيخ تراب علي بن شجاعت علي اللكنوى.
١٢٠- *التعليق الأحسن على شرح السلم.*
١٢١- *شمس الضحىٰ لإزالة الدجىٰ*
١٢٢- *حاشية شرح هداية الحكمة لصدرا.*
١٢٣- *التحقيقات على شرح السلم لحمدالله*
١٢٤- *الحاشية على حاشية غلام يحيى البهارى*
١٢٥- *التعليق الأنيق و التحقيق الدقيق على أنوار الهدى فى الليل و الدجى*

كلها للشيخ تراب علي المذكور

١٢٦- *الحاشية على شرح السلم لحمدالله*، للسيد محمّد بن دلدار علي اللكنوى
١٢٧- *الحواشى على مير زاهد* للمؤلف نفسه
١٢٨- *كاشف الظلمة فى بيان أقسام الحكمة* ، لعبد الحليم بن أمين الله الفرنجي محلى (١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م)
١٢٩- *القول المحيط فيما يتعلق بالجعل المؤلف و البسيط*
١٣٠- *كشف المكتوم فى حاشية بحر العلوم*
١٣١- *التوضيحات.*
١٣٢- *الأقوال الأربعة فى ردّ الشبهات المورده*
١٣٣- *الإيضاحات لمبحث المختلطات*
١٣٤- *كشف الاشتباه فى شرح حمد الله*
١٣٥- *معين الفاحصين فى رد المغالطين*
١٣٦- *البيان العجيب فى شرح ضابطه التهذيب*
١٣٧- *القول الأسلم لحل شرح السلّم*
١٣٨- *التحقيقات المرضية لحل الحاشية الزاهدية*
١٣٩- *العرفان فى المنطق*

كلها لعبدالحليم الفرنجى محلى

١٤٠- *الحواشى على شرح السلم لحمدالله*، للمفتى محمّد عباس التسترى اللكنوى.

١٤١- *رسالة المغالطة* للسيد خواجه محمّد بن عبدالرحمن القنوجي.
١٤٢- *الحاشية على القطبي،* للشيخ رونق علي السنديلوى
١٤٣- *الحاشية على الصدرا* للسيد دلدار علي النصنير آبادى

و هاك تعريف ببعض العباقرة فى العلوم العقلية:

ا - العلامة فضل إمام الخير آبادي:

ولد فى خيرآباد ، فى اسرة يرتقى نسبها إلى عمر الفاروق رضى اللّه عنه باثنين و ثلاثين من الوسائط. قرأ على المفتى عبدالواجد الكرمانى ١٢١٦هـ / ١٨٠٢م ثم قصد دهلى، و اشتغل بالتدريس، و رحب به الإنجليز ، لمكانته العلمية الرفيعة، و عينوه "صدرالصدور" ثم تقاعد بعد مدة من الزمن (٢٢) و سافر إلى بتياله ، و أقام فيها مدة ، ثم رجع إلى مسقط رأسه ، و انتقل إلى الملأ الأعلى فى ٥ من ذى القعدة ١٢٤٤/١٨٢٩م ، و دفن بجنب ضريح الشيخ المخدوم *الشيخ الخيرآبادى* (٨٨٢ هـ / ٨-١٤٤٧م) ، و خلف ثلاثة بنين هم فضل حق و فضل عظيم و فصل رحمن

و خلف العلامه مؤلفات عديدة فى المنطق و الفلسفة ، و أشهرها "*المرقاة*" و "*تشحيذ الأذهان* و خلاصة لطبيعيات الشفاء الرئيس عملها أثناء إقامته فى دلهى و يوجد مخطوط لها فى مكتبه مولانا آزاد بعليكره ، قسم سبحان اللّه رقم ٣١/١١٠ ، بيد المؤلف نفسه و فيها ٢١٩ بخطٍّ منكسر يصعب القرأة و فيها تسعة عشر مقالا ، لخص فيها المباحث الفلسفية المتصلة بالطبيعيات فى كتاب الشيخ الرئيس ، و يختم الكتاب بقوله

> *فهذا آخر هذه المقالة ، و هو احر الطبيعيات ، و الحمد لواهب العقل، و مفيض العدل ، و صلى اللّه على خير خلقه محمّد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا ، قد وفق العبد الضعيف الراجى إلى رحمة ربه القوى محمّد فضل إمام ابن محمّد أرشد الخيرابادى بتلخيص طبيعيات الشفاء للشيخ الرئيس فى أواسط شهر ربيع الأول من سنة السابع و العشرين بعد المأتين بعد الألف من هجرة النبى صلى اللّه عليه و سلم، حين كان مقيما بدارالخلافة شاهجهان آباد حرسها اللّه عن الفتن و الفساد، متوليا بخدمة الإفتاء و الحمدللّه على ذلك حمدا متكاثرا "*

و ابن العلامة فضل إمام هو العلامة فضل حق الذى اشتهر بمؤلفاته الفلسفية فى الأوساط الهندية ، و من انتاجاته الفلسفية الرسالة فى العلم و المعلوم ، و الروض المجود فى حقيقة الوجود، و الرسالة فى تحقيق الأجسام،

و حاشيته على "*الأفق المبين*" لمير باقر داماد لها أهمية قصوى في تأليفه ، و هي موجودة مخطوطة في مكتبة مولانا آزاد ، قسم سبحان الله رقم ٨٥/١٦٠ ، بخط المؤلف ، و فيها ١٨٢ صفحة ، كل صفحة تسعة عشر سطرا ، و يصعب قرأتها

٢- عبدالحليم الفرنجي محلي:

ولد في ١١ من شعبان ١٢٠٩هـ / ٥-١٧٩٤م في لكناؤ ، و حفظ القرآن و هو ابن عشر سنين ، و قرأ على المفتي ظهورالله ، و محمّد أصغر ، و المولوي نعمت الله ، و المفتي محمّد يوسف ، و فرغ من تحصيل العلوم و هو ابن ستة عشر سنين، ثم اشتغل بالتدريس، و دعاه امير بانده في عام ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م ، فذهب إليه ثم رجع إلى لكناؤ ثم وفد إلى جونبور ، و درس فيها تسع سنوات، ثم رجع إلى مسقط رأسه، و بايع الشيخ عبدالوالي القادري في عام ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م ، ثم سافر لزيارة الحرمين، و استفاد هناك من كبار المشائخ و الفضلاء، ثم رجع إلى حيدر اباد ، الهند في عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م ، و توفي فيها في ٢٩ من شعبان سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م

خلف الشيخ خمسة و ثلاثين كتابا ، و أكثرها مطبوع (٢٣)

١٠- العلوم الرياضية و الطب:

راجت العلوم الرياضيه رواجا عظيما في الهند، بولوع سلاطينها بها، و كان الملك همايون عالما بالعلوم الرياضية، و كان يحب في ملاطه الرياضيين (٢٤).

بدأت النشاطات الرياضية في الهند بفضل جهود الملا مرشد الشيرازي و بدأ الناس يكبون عليها ، و كان لأودهـ قصب السبق في هذا المضمار، فقد توفرت في أوساطها العلمية الأعمال الرياضيه في حين لا تحد فيها الأعمال العقلية

العلوم الرياضية تبحث في المادد بتجريدها من الماديه ، و هي وسط بين العلم الطبيعي و العلم الإلهي، و هي اربعة اصناف

١- الهندسة

٢- الهيئة

٣- الحساب

٤- الموسيقا

ثم فيها الجمع و التفريق ، و الجبر و المقابلة ، و المساحة ، و جرّ الأثقال ، و الزيجات و التقاويم، و الأرغونة

كان العلامة تفضل حسن الكشميري اللكنوي (١٢١٥هـ / ١٨٠١م) في

مقدمة العلماء الرياضيين فى أودهـ ، و اكتشف بجهوده أشكال جديدة ، كما شرح بعض أعمال الإغريـق فـى الموضـوع ، و خاصـة ايلونيوس و ديونيـال ، و سمسن ، و كان المفتى خليل الدين خان العلوى الكاكوروى (١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م) من أعلام الرياضيات فى عصره

نذكر فيما يلى المؤلفات الرياضية التى ألفها علماء أودهـ:

١- حاشية تحرير *اقليدس*، للشيخ بركة الله بن عبدالرحمن الإله آبادى.

٢- حاشية تحرير *أقليدس* ، للسيد حسن بن دلدارعلي اللكنوى (١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م)

٣- *الرسالة فى المخروطات*، للعلامة تفضل حسين خان. (١٢١٥هـ/ ١٨٠١م)

٤- *الكتاب المعرب فى الجبر و المقابلة* ، للعلامة نفسه

٥- شرح *المجسطى*، لعبد العلى بحرالعلوم.

٦- شرح تحرير *الأصول الهندسية و الكلام*، للشيخ بركة الله الإله آبادى.

٧- نقود *الحساب*، للقاضى ارتضى خان الجوباموى.

٨- *حسابا يسيرا* ، للسيد أحمد بن مسعود الهرجامى

٩- حاشية *خلاصة الحساب*، للمؤلف نفسه.

١٠- شرح *خلاصة الحساب*، لعبدالباسط بن رستم علي القنوجى.

و هذا الأخير شرح لكتاب "*خلاصة الحساب*" للعلامة بهاءالدين محمّد بن حسين العاملى ، و قد شرحها غير واحد من العلماء فى الهند

أما الطب فقد أسهم فيه المسلمون بكثير فى جميع العصور، و خاصة فى العصور الوسطى، و نجد فى أعلامه فلاسفة الإسـلام مثل الكنـدى، و الرازى ، و الشيخ الرئيس ابن سينا، و الزهراوى، و أكب عليه المسلمون فى الهند خاصة فى القرنين الثانى عشر و الثالث عشر للميلاد. و كان السلاطين يرحبون بالأطباء من مختلف البلاد، و يكرمونهم و يخلعونهم ، و ممن نبغوا فى هذا العلم فى الهنـد محمّد حسين بـن محمّد هادى العقيلى المرشـدآبادى (١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠ - ١٧٩١م) صاحب "*مخزن الأدويـة*" و "*قـرابادين كبيـر*" و "*خلاصة الحكمة*" و رحم علي السكندربورى (١٢٢٦هـ / ١٨١١م) صاحب "*بضاعة الأطباء*" و "*بديع التجارب*" و أرشد بن عبدالباقى الدهلوى (١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) صاحب "شرح *موجز القانون*"

و كان للسلاطين الأودهيين كبير عناية بالطب و الأطباء و كان اشراف المجتمع الهندى المسلم يمتهنون بهذه المهنة، و كان السلطان نصيـرالدين حيـدر (١٨٢٧ - ١٨٣٧م) من المهتمين بها و برجالها فى الدولة.

و المؤلف الطبية التى ألفها علماء أودهـ فى هذه الفترة:

١- التعليقات على حميات القانون الموسوم بـ "*أسرار العلاج و السراج الوهاج*" لعلي شريف اللكنوى (١٢٣١هـ/ ١٨١٦م).

٢- شرح *كليات القانون*، لشفاء خان (١٢١٢هـ/ ١٨٩٧- ١٢٢٩ / ١٨١٣م)
٣- الفوائد الشافية
٤- كتاب *الحميات* و كلاهما للمؤلف المذكور
٥- *حلية الواصفين و وشاح الطالبين*، لمحمّد مهدى بن علي أصغر اللكنوى
٦- *الرسالة فى وجوب الاستفتاء عن كل أبيض الدجاجة للمجذوم*، لمسيح الدولة علي حسن خان.
٧- *أجوبة السوالات*، لمحمّد علي اللكنوي (١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م)
٨ - *الرسالة فى تحقيق الهيضة*. للمفتى خليل الدين الكاكوروى (١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م)
٩- *أنوار الحواشى على شرح النفيس على الموجز*، لأنور علي اللكنوى
١٠- *مباحث الأطباء* ، لفتح الدين الجوباموي
١١- *الدر النفيس*، لميرزا مظفر حسين حان اللكنوى (١٢٩٨هـ/١٨٨١م)
١٢- *تبيان العرفان* ، للحكيم أمضل علي الفيض آبادى

و كتاب "*تبيان العرفان*" موجود خطيا فى مكتبة مولانا ازاد بعليكره ، قسم سليمان رقم ١٤/١٩٨، و فيه أربعة عشر ورقا، و نسخ فى عام ١٢٧٠هـ ، و لا يعرف عام تأليفه و كتاب "*التعليقات على حميّات القانون*" موجود خطيا فى نفس المكتبة ، قسم سبحان الله، رقم ٢/٦١٦ ، ٥/٦١٦ . و فى النسخة الثانية (٦١٦ /٥) ١٤٨ ورقا ، كل صفحة خمسة عشر سطرا و نسخها السيد رسول بن السيد أحمد فى عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م ، كما هو المكتوب فى اخر الكتاب

تعريب محمّد ثناءالله الندوى

الهوامش:

١- راجع حياته فى نزهة الخواطر ٧/١٣٢-١٣٦
٢- المصدر نفسه ٧/١٠٣
٣- المصدر نفسه ٧/٨٨
٤- تذكره ص ٢١
٥- نزهة الخواطر ٧/١٠١
٦- راجع حديقة الافراح ص ٤٢٠ ، أبجد العلوم ٢١٤ ، تذكره ٢٠٣ ، النزهة ٧/٨٨ ٨٩ ، تنقيح الكلام فى تاريخ خطه پاك بلگرام ، لشريف أحمد بلگرامى ٢١١ - ٢١٢
و يذهب صاحب "نزهة الخواطر" - مستندا إلى تذكرة النبلاء - أنه مات عام ١١٦٥هـ ، على أنه

أكمل تأليف "نفائس اللغات" في ٧/رجب ١٢٥٣هـ و قد نشره المؤلف في عام ١٢٥٧هـ من المطبعة المصطفائية بلكناؤ ، راجع مقالة الدكتور حامد علي خان "ابتاجات أوحدالدين البلكرامي" (باللغة الأردوية ، كما يراه المعرب)

٧- أبجد العلوم ٢١٤

٨- يرى المعرب أن العبارة من أصل الكتاب

٩- راجع تذكرة علماء هند ١١٩

١٠-النزهة ٢٥٨/٧

١١- المصدر نفسه ٢٥٩/٧-٢٦٠ ، مكتبة خدا بخش تنسب هذه الكتب إلى شيخنا و هذا خطأ كبير

١٢- أنظر نزهة الخواطر ٤٢٧/٧ - ٤٤٤ ، و تذكرة ٢٢٥ ، ٢٢٣

١٣- أنظر الثقافة ٢١ ، ٢٢ تذكرة مشاهير كاكوري ١٣٢

أما "نادرالبـ ن" فهو كتيب في النحو كان قد ألفه صاحبنا لتعليم إبنيه خليل الرحمن و غلام أحمد ، ثم شرحه المؤلف في عام ١١٥٠هـ / ١٨٣٧م

١٤- نزهة الخواطر ٢٤/٦ ، أذكاء الأبرار المشهور بالنفحات العنبرية من الأنفاس القلندرية ، ص ٢٧٤

١٥ أبجد العلوم ٩٣٢ ، نزهة الخواطر ٢٣٦/٧ ، تذكره ١٤٨

١٦- نزهة الخواطر ١٠٨/٧

١٧- يرى المعرب أن هذا التقسيم قد سلكه علماء العصور الوسطى ، أما الآن فالأمر مختلف كل الاختلاف

١٨- راجع "عصرالمامون" للدكتور أحمد فريد الرفاعي لأنشطة النقل و الترجمة في العصر العباسي (المعرب)

١٩- ضياء الدين برني تاريخ فيروز شاهي ص ٤٣

٢٠- ابن بطوطه الرحلة ١٨١/٢

٢١- راجع نزهة الخواطر ٧٥/٦ ، ٢٤٨ ، ٢٩٧ ، ٤٠٤/٧ ، ٢٨٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٧ ، ١٠٥

٢٢- باغي هندوستان ١١ ، تذكره ١٦٢ ، نزهة الخواطر ٣٧٤/٧

٢٣- راجع لتفاصيلها عبدالحق الفرنجي محلي حسرة العالم بوفاة مرجع العالم، تذكره علماء هند ١٤٠-١٤٣ ، نزهة الخواطر ٢٤٧/٧ ، عمدة الرعاية في شرح الوقاية ٢٥-٢٧ تذكره علماء فرنجي محل ١٢٩-١٣١ ، الفوائد البهية في تراجم الحنفية ١٠٤ ، حدائق الحنفية ٢٨٤ ، أحوال علماء فرنجي محل ٦٨

٢٤- بايزيد بيات تذكره همايون و أكبر ٦٥-٦٦

الحلقة السابعة:

ندوة العلماء عبر التاريخ

بقلم: آفتاب عالم الندوي
استاذ ندوة العلماء لكناؤ

الدراسات الإسلامية :

١- "*الجزية فى الإسلام*" بقلم العلامة شبلى النعمانى، يكشف القناع عما اتهم به الحكام المسلمون أنهم أثقلوا كواهل الشعب بضرائب فادحة و يبرز حقيقة الجزية فى الإسلام بأسلوب علمى و بحث دقيق ، ثم نقله إلى العربية و الإنجليزية

٢- "*القضاء فى الإسلام*" للأستاذ عبدالسلام الندوى.

٣- "*الاشتراكية و الإسلام*" بقلم الأستاذ مسعود الندوى، مقارنة بين الاشتراكية و الإسلام فى أسلوب حكيم ، و عرض متين ، و قد نقله إلى العربية الأستاذ صهيب حسن السلفى و نشرته تباعا مجلتنا "*البعث الإسلامى*"

٤- "*المجاملة فى الإسلام*" بقلم الأستاذ رئيس أحمد الجعفرى الندوى الكاتب الأردى المترسل. كتاب فى الأردية فى جزئين يلقى أضواء على المجاملة الشرعية فى ضوء الكتاب و السنة

٥- "*السياسة الشرعية*" بقلم الأستاذ نفسه

٦- "*العدل و الإحسان فى الإسلام*" بقلم الأستاذ نفسه

٧- "*النظام السياسى للإسلام*" بقلم الشيخ محمد اسحاق السنديلوى الندوى. كتاب قيم فى الأردية ، يتحدث عن النظام السياسى و الإدارى فى الإسلام و عن فكرة الخلافة و مجلس التشريع و حقوق الشعب و بيت المال ، و الحرب و الدفاع و الشئون الخارجية و الداخلية ، كما يتحدث عن شتى النظريات السياسية الناجمة فى الأيام الحاضرة ، أمثال الجمهورية و الدكتاتورية ، و الديموقراطية و الشيوعية و الاشتراكية ، و ما إلى ذلك بحيدة عن التحيز الفكرى ، و التعصب المذهبى.

٨- *"الإسلام و العصر الحديث"* للأستاذ شهاب الدين الندوى. و له أيضا كتابان :

٩- *"رسالة القرآن"*. ١٠- *"الاشتراكية"*.

١١- *"منهج الحياة للمؤمنات"* للأستاذ عبدالقيوم الندوى و له :

١٢- *"التجارة فى الإسلام"* ١٣- *"قانون الوراثة فى الإسلام"*.

١٤- *"الغرض من خلق البشر هو إقامة الشريعة الإلهية"*. للأستاذ حبيب ريحان الندوى

١٥- *القانون فى انتفاع المرتهن بالمرهون"* بالعربية ، بقلم العلامة عبدالحى الحسنى ، و له ١٦- *"تعليم الإسلام"*. ١٧- *"نورالإسلام"*

١٨- *"القواعد الفقهية"* لمولانا على أحمد الندوى ، بحث علمى رزين ، نال تقدير كبار الباحثين مثل العلامة الجليل الفقيه مصطفى الزرقا ، يتناول بالبحث و العلاج لمفهوم القواعد الفقهية و نشأتها و تطورها و دراسة مؤلفاتها و أدلتها و مهمتها و تطبيقاتها

١٩- *"آراء الإمام ولى الله الدهلوى"* فى العربية ، للأستاذ سلمان الحسنى الندوى.

٢٠- *"الفقه الميسر"* للأستاذ شفيق الرحمن الندوى ، فى أسلوب سهل سائغ ، و قد قررته ندوة العلماء للدراسة فى الثانوية

٢١- *"فقه الأئمة الأربعة"* للدكتور عبدالوهاب زاهد الحلبى الندوى ، يبحث بالتفصيل فى الفقه الإسلامى المتمثل فى فقه الأئمة الأربعة أبوحنيفة، مالك ، الشافعى ، أحمد رحمهم الله

٢٢- *"مسئلة الاجتهاد"* للأستاذ محمّد حنيف الندوى ، و له

٢٣- *"أفكار ابن خلدون"*

التفسير و ما يتعلق به :

١- *"التفسير القيم"* للإمام ابن القيم الجوزية ، جمعه فضيلة الشيخ محمّدأويس النجرامى الندوى ـ أستاذ التفسير فى دارالعلوم ندوة العلماء سابقا ـ من كتب الإمام فى مختلف العلوم و الفنون ، حتى أصبح كتابا مفردا قيما فى التفسير أسماه *"التفسير القيم"* قام بالتحقيق و التعليق عليه الأستاذ محمّد حامد ، و له كتابان أيضا:

٢- *"تعليم القرآن"* بالأردية ، عرض فيه التعاليم القرآنية عرضا يتفق مع مدارك الصغار فى مدارسنا الابتدائية و الثانوية ، و قد قررت دارالعلوم تدريسها فى الثانوية منذ وقت طويل.

٣- *"كيف تدرس القرآن الكريم"* بالأردية.

٤- *"أرض القرآن"* بقلم الأستاذ السيد سليمان الندوى.

يبحث عن جغرافية العرب و عن تاريخ العرب القديم ، و يفند أباطيل المستشرقين التى تنافى كثيراً مما ورد فى القرآن الكريم من ذكر الأمم الغابرة ، و الأنبياء و الرسل و الأماكن المختلفة

و فى الكتاب دراسة مكثفة للمآخذ الحديثة و القديمة التى تتناول بالبحث عن تاريخ العرب و الجغرافيه العربية ، و فيه تأييد لمرويات القرآن ، و تحقيق للأماكن و القرى و الأمم التى جاء ذكرها فى القرآن فى ضوء التاريخ و الاكتشافات الأثرية و الروايات التفسيرية ، و الاسرائيليات و الشعر العربى ، و كتب تاريخ العرب القديم ، و كتب الجغرافية و أنساب العرب ، و كتابات الكتاب الرومانيين و اليونانيين و ما إليها

٥- "*ترجمات معانى القران الكريم و تطور فهمه عند الغرب*" بقلم الدكتور عبدالله عباس الندوى - المشرف على الشئون التعليمية لدار العلوم ندوة العلما حاليا - ، استعرض فيه ترجمات معانى القرآن الكريم فى مختلف اللغات و لاسيما الإنجليزية ، و يلقى أضواء على الترجمات باقلام المستشرقين و الأضرار التى جرّتها هذه الترجمات.

٦- "*القران و تعاليمه* فى الأردية ، للأستاذ عبدالقيوم الندوى

٧- "*علوم القران* فى الاردية للأستاذ نفسه

٨- "*الكتاب الأول للقران الكريم* (قران مجيد كى پهلى كتاب) للأستاذ عبدالسلام القدوائى الندوى

٩- "*الكتاب الثانى للقران الكريم* (قران مجيد كى دوسرى كتاب) للأستاذ نفسه.

١٠- "تفسير سورة *العصر* المعروف بـ "*نظام الصلاح و الإصلاح*" بقلم الأستاذ الكبير عبدالبارى الندوى

١١- "*تبيان القران*" فى الأردية للأستاذ أحمد حسن الندوى

١٢- "*أصول و مبادئ لدراسة القران الكريم* فى الأردية ، لسماحة الشيخ أبى الحسن علي الحسنى الندوى إن لدراسة القران الكريم ادابا و قيودا يجب ان يلتزمها كل دارس و قارئ ، فان التغافل عنها ربما يؤدى إلى حرمان كبير. و فى الكتاب هداية ذات اخلاص و إرشاد ذو عطف إلى هذه الاداب و القيود

١٣- "*الصراع بين الايمان و المادية* لسماحة الشيخ نفسه ، فى العربية ، تأملات فى سورة الكهف فى ضوء دراسة التاريخ القديم و الحديث و الاكتشافات الحديثة و الأوضاع الحاضره ، فى أسلوب يبعث الإيمان و الثقة بأن الله هو مدبر الكون و متحكم فى الأمور كلها و أنه لا نافع و لا ضار إلاّ هو ، و من كان لله كان الله له

و نقله الأستاذ محمّد الحسنى إلى الأردية ، و ظهرت فيها طبعات ، كما

نقله إلى الإنجليزية الأستاذ محى الدين و ظهر من المجمع الإسلامى العلمى - لكناؤ - باسم " FAITH VERSUS MATERIALISM "

١٤- "*الإمام أحمد بن عبدالرحيم*" للأستاذ خليل الرحمن سجاد الندوى، كتاب قيم يتسم بالدراسة العميقـة و الرزانـة ، و يبحث فى منهج ولي الله الدهلوى فى التفسير و آرائه فى مباحث من علوم القرآن.

الفكر الإسلامى :

١- "*ماذا خسرالعالم بانحطاط المسلمين*" لسماحة الشيخ أبى الحسن علي الحسني الندوى. يأتى هذا الكتاب فى رأس قائمة الآداب الإسلاميـة و الفكر الإسلامى الأصيل، و يستعرض التاريخ بوجهة نظرة جديـدة مبتكرة ، و بذلك فانه أوّل جهد علمى متناسق ناجح استخدم طريقـة العـرض الجديـــد العـــادل ، و لكنـــه لاينسى تغذية القلـب و الوجـدان. و إشعال جمرة الإيمان ، و قد اعتــرف الأستـــاذ الشهيــد سيد قطب بقيمتـــه و مكانته فى تقديم له للكتاب، فقال :

> "*إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحيـاة البشـرية ، و بهذا الإحساس المتناسق مسار فى استعراضه التاريخى و فى توجيهه للأمة الإسلامية سواء ، و من هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ*." (١)

و علق الدكتور بكهنكم - المشرف الأعلى قسم الشرق الأوسط فى جامعة لندن - على الكتاب بهذه الكلمات

> " *كان ينبغى أن ينشر هذا الكتاب من بريطانيا ، لأنه وثيقة تاريخية ، و نموذج صحيح لما يحتاجه المسلمون فى نهضهم - فى القرن المعاصر - من جهود مبذولة على وجه أفضل*." (٢)

و من خصائص الكتاب - و هى كثيرة - أنه يفيض بحب النبى صلى الله عليه و سلم ، و إنى أشهد كلمـا قرأت الكتاب ترنحت جوانحى و أعطافى و أخذتنى نشوة إيمانية لا أكاد أصفها ، و تتجلى هذه الحقيقة خاصة فى السطور التى جاءت بعنوان "*زعامة العالم العربى*".

و قد ألف هذا الكتاب فى اللغة العربية و صدرت طبعته الأولى من القاهـرة، ثم تلتها الطبعـات العشـرة الرسميـة من بيروت و دمشـق و الكويت و القاهرة ، و هى عدا ما صدرت له من طبعات غيــر رسميـة ، و ترجم إلى اللغات العلميـة المختلفة ، و أدرجته أوساط "الإخوان المسلمين" فى برامجها التربوية

٢- *"الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة العربية"* بقلم سماحة الشيخ نفسه يعرض الكتاب الصراع الفكرى الدائر فى الأقطار الإسلاميـــة ، و المشكلة التى تواجهها هذه الأقطار فى اتخاذ الموقف الصحيح نحو الحضارة الغربية الفاتنة ، و الحل الناجع لهذه المشكلة العويصة ، و فى الكتاب هداية ذات عطف إلى طريقة النهضة بالمجتمع الاسلامى الذى تقع عليه مسئولية القيادة و السيادة و الوصاية و التوجيه للعالم البشرى كله

و قد تكررت طبعاته فى الكويت فى اللغة العربية ، و صدرت طبعتان الأردية ، و طبعتان فى الإنجليزية كذلك

٣- *"حديث مع الغرب"* بقلم سماحة الشيخ الندوى نفسه دعا فيه المؤلف إلى توجيه عنايته إلى ما فيه خير الإنسانية ، و دعا الشباب الوافدين إلى الغرب إلى العيش كالدعاة و القاندين و الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية مثل الشاعر الإسلامى الدكتور محمد إقبال ، ظهرت له طبعات فى العربيـــة و الأردية و الإنجليزية

٤- *"المسلمون و قضية المسلمين"* بقلم المؤلف نفســه. مجموع محـــاضرات و مقالات ، يتحدث عن الكوارث و النكبات التى منى بها العالم الإسلامى و العربى مع البحث عن أسبابها و تحليلها تحليلا علميا أمينا

٥- *"إلى الإسلام من جديد"* بقلم المولف نفسه مجموع محاضرات ، توقظ الشعور الدينى ، و تثير الحماسة الاسلامية فى المسلمين ، و تعيد إليهم الثقة بأنفسهم و تذكرهم برسالتهم

٦- *"تجديد التعليم و التبليغ"* بقلم الشيخ عبدالبارى الندوى ، الكتاب عرض شامل ناجح لنظام الإسلامى التعليمى و التبليغى

٧- *"تجديد الاقتصاد"* بقلم المؤلف نفسه ، يعرض فيه نظام الإسلام الاقتصادى عرضا جديدا ، يبرز صدق النظام الاسلامى و أهميته فى العصر الراهن ، و يكشف القناع عن زيف النظم الحديثة الوضعية المتنوعة و النعرات الفارغة و الاتجاهات الخاطئة التى لا تسمن و لا تغنى من جوع

٨- *"تجديد الدين"* للمؤلف نفسه يذكر فيه المسلمين بهدفهم الأصيـــل ، و يشرح التدابير

تاريخ الإصلاح و التجديد و الدعوة و العزيمة :

١- *"رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام"* فى خمسة مجلدات ، بقلم الشيخ أبى الحسن علي الحسنى الندوى ، هو استعراض جديد للتاريخ الإسلامى، و كأنه وثيقة تاريخية للسلسلة الفكرية و الدعوية فى الإسلام، حيث يعرف

بكبار رجال الدعوة و الفكر و الجهاد. عبر التاريخ الإسلامى و يدرس مآثرهم العلمية و الخدمات الجليلة و جهودهم الإصلاحية ، ما أتت به من ثمار ناضجة يانعة.

أما الجزء الأول منه فتناول الفترة بين القرن الأول الهجرى إلى القرن السابع الهجرى، و الثانى بعالم القرن السابع الهجرى الكبير شيخ الإسلام الحافظ بن تيمية، نقله إلى العربيــة الأستاذ سعيــد الأعظمــى النــدوى. و الثالث يتحدث عن سلطــان المشــايخ نظام الدين أوليــاء و الشيخ الكبير شرف الدين يحيىٰ المنيرى ، و العالم الربانى الشيخ معين الدين الجشتى و حياتهم الإيمانية و جهودهم الإصلاحية. و الرابع يختص بالشيخ الكبير الإمام أحمد السرهندى مجــدد الألف الثانى ، و الخامس يتحدث عن الإمام الشاه ولى الله المحدث الدهلوى. و قد نقلهما إلى العربية الأستاذ سلمان الحسينى الندوى ، و كل من الأجزاء الخمسة قد تم نقلها إلى الإنجلــيزية باسم " SAVIOURS OF ISLAMIC SPIRIT ". و قد استقبل الكتاب بحفاوة بالغة فى كل من الأوساط العلمية و الدينية والأدبية و نال تنويها زائداً و إشادة حارة من الكتاب و الأدباء فى الإنجليزيــة و الأرديــة و العربية.

٢- "*إذا هبت ريح الإيمان*" لسماحة الشيخ نفسه كتاب يتحدث عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد و جماعتــه و يروى تلك البطوليــة ذات الإيمــان و الإخلاص بإيجاز و إعجاز ، بيد أنه تصوير صادق ، رقيق مرقق للجهاد الطويل المرير فى سبيل العقيدة و الدين. و يجمع بين الأسلوب الأدبى الرفيع و الأسلوب القصصى الجميل و الأسلوب العلمى و الدينى الرصين. فكان الإقبال على الكتاب نادرا ، و ترجــم بالأرديــة فاستقبــل بحمــاس و شوق و حنين.

٣- "*تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند*" فى العربية ، بقلم الأستاذ مسعود عالم الندوى

تحدث فيه المؤلف فــى تفصيل عــن الإســلام فى الهنــد ، كيف دخل ، و كيف انتشر، و ماذا أثر ؟ و استعرض استعراضا موسعا تلك الجهود الجبارة التى بذلها أبناء الإسلام فى الهند لمقاومة حركة الإلحاد التى قامت فى وجه الإسلام حينا لآخر ، و كيف تغلبوا عليها.

٤- "*الحركة الإسلامية الأولى فى الهند*" بقلم المؤلف نفسه. دراسة ذات تحليل لحركة الإصلاح التى قام بهــا الإمامــان السيــد أحمــد الشهيد و إسماعيل الشهيد مصحوبة بالرد القاطع على الأراجيف و الأكاذيب التى اصطنعت لتشويه هذه الحقيقة الناصعة.

اللغة العربية علومها و آدابها :

١- "دروس الأدب" في ثلاثة أجزاء ، للعلامة السيد سليمان الندوي.
٢- "مختارات" مجموعة أدبية بقلم سماحة الشيخ الندوي ، في جزئين. و هي تمثل الأدب العربي في جميع مناحيه و أساليبه التاريخية و التمدنية و العلمية و الدينية من العصر الإسلامي الأول إلى العصر الحديث ، و قد نجح المؤلف في الاختيار نجاحا باهرا حتى أقر بذلك كبار الأدباء في البلاد العربية ، و قد أدخل في كثير من المدارس و الجامعات في الهند و البلاد العربية
٣- "قصص النبيين للأطفال" بقلم المؤلف نفسه في خمسة أجزاء ، و هي قصص قرآنية عرض الأستاذ عرضا سائغا سهلا شيقا تستسيغه الخاصة و العامة نال القبول و التقدير من كبار الدعاة و الباحثين ، و قد أدخل الكتاب في مناهج الدرس في المدارس الإسلامية في معظم البلاد الإسلامية ، و صدرت له أكثر من عشرين طبعة.
٤- "القراءة الراشدة" في ثلاثة أجزاء. الكتاب - في الواقع - محاولة ناجحة لأن تكون اللغة أدبية دينيه عليها مسحة من جمال أدب الكتاب و السنة، كما أنه يهدف إلى استعمال الكلمات المستحدثة و نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة سهلة على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال و تضمين الدروس بالأدعية المأثورة و الآداب الدينية ، و قد قرر تدريسه في معظم المدارس الإسلامية العصرية في الهند
٥- "منثورات من أدب العرب" جمع فيه المؤلف أدبية نابضة بالحياة ، تغذي الملكة الأدبية في الشباب ، و تغرس في قلوبهم المعاني الفاضلة و الأخلاق المحمودة ، و قد قرر تدريسه في معظم المدارس الإسلامية العصرية في الهند
٦- "معلم الإنشاء" في ثلاثة أجزاء، الأول والثاني للأستاذ عبدالماجد الندوي، و الثالث للأستاذ محمّد رابع الحسني الندوي ، و هو داخل في معظم مدارس الهند.
٧- "الترجمة العربية" في جزئين ، للأستاذ محمّد مسعود الندوي ، كتاب لتعليم الإنشاء و الكتابة
٨- "علم التصريف" بقلم الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي" كتاب يسهل للطلاب مبادئ الصرف ، كما يسهل بقراءته فهم "شذى العرف في فن الصرف" و استساغته جيدا ، و قد قرر تدريسه في ندوة العلماء و غيرها من المدارس.
٩- "تمرين النحو" للأستاذ محمّد مصطفى الندوي ، وضعه للأطفال في المدارس الثانوية

١٠- "*تمرين الصرف*" للأستاذ محمد معين اللّه الندوى فى الصرف على طريقة تمرين النحو ، و كلاهما داخل فى المقررات الدراسيـــة فـى ندوة العلماء و غيرها من المدارس فى الهند

١١- "*لغات* جديدة" للعلامة الدكتور السيد سليمان الندوى ، و هو قاموس فى الأردية يشرح اللغات المستحدثة المستعملة فى الصحف و المجلات فى البلاد العربية عندئذ.

١٢- "*مختارالشعرالعربى*" فى حزئين ، إعداد كلية اللغة العربية لدارالعلوم ندوة العلماء مقررندريسه فى الدراسات العليا لكلية اللغـة العربيـة و آدابها.

الأدب و النقد:

١- "*شعر العجم*" بقلم العلامة شبلى النعمانى، فى أربعة مجلدات. دراسة تحليلية للشعر الفارسى فى أدواره المختلفة مع *تسليط الضوء الكاشف* على أوصاف الشعر الفارسى و خصائصه و حقيقته و عناصره ، و ما الفرق بين الشعر الفارسى و العربى بالنسبة إلى رشاشة الألفاظ و دقة الصياغة و التركيب و جمال الفكرة و حسن الأسلوب و ما إلى ذلك. كل ذلك فى أسلوب أدبى رفيع و لا غرو فقد كان العلامة أحد الأساطين الأربع للأدب الأردى ، أجمع على ذلك أدباء اللغة فى هذه الديار على اختلاف الوجهات و الاتجاهات ، و له مكانة مرموقـــة ساميـــة فى النظم و النثر فى كلتى اللغتين الفارسية و الأردية. و الكتاب مقرر دراســة و مطالعة فى كثير من الجامعات العصرية الهندية الرسمية فى صفوفها العالية من القسم الأردى.

٢- "*المقارنة بين أنيس و دبير*" للعلامة نفسه. كتاب يقارن مقارنة فنية بين أبيات الشاعــر الأردى "أنيس" و الشاعـــر الأردى الآخــر "دبيــر" و كلاهما أنجبتهما مدينة لكناؤ ، و كانا شيعيين ، يمتازان فى المراثى التى تتفق ذوقهما المذهبى و العاطفى

٣- "*كل رعنا*" بقلم العلامة الشريف عبدالحى الحسنى ، كتاب قيم يعرض تاريخ اللغة الأردية و نشأتها و بداية قرض الشعر فيها و تراجم الشعراء المفلقين فى مختلف أدوارهم مع التحليل الدقيق لأبياتهم التى تحدد مكانتهم الأدبية و الشعرية و ملامحهم الفنية ، و هو متداول مقبول فى هذه الديار لاتزال تتكرر طبعاته ، و يعتبر من المراجع الرئيسية فى تاريخ الشعراء و نقد الشعر ، و قرر تدريسه فى عدة جامعات فى القارة الهندية.

٤- "*شرح المعلقات السبع*" بقلم العلامة نفسه. لم يتمكن من إتمامه و انتقل إلى رحمة اللّه.

٥- "شعر *الهند*" فى جزئين فى اللغة الأردية ، بقلم الأستاذ عبدالسلام الندوى. الجزء الأول يتناول تاريخ الشعر الأردى مع تفصيل التطورات التى مرّ بها الشعر الأردى فى مختلف أدواره ، و الجزء الثانى يتناول جميع أصناف الشعر الأردى بالنقد نقداً تحليليا

٦- "*الأدب العربى بين عرض و نقد*" بقلم الأستاذ محمد رابع الندوى تحدث فيه عن حقيقة الأدب و قام بالتحليل و النقد و تقديم نماذج الأدب العربى فى مختلف أدواره مع بيان قيمتها الأدبية و الفنية و مكانة أصحابه الأدبية و الكتاب فى المقررات الدراسية فى دارالعلوم ندوة العلماء

٧- "*الأدب الإسلامى و صلته بالحياة*" بقلم المؤلف نفسه ، كتاب يتسم بالنقد الهادف البناء و يبحث فى الأدب الإسلامى و علاقته بالحياة مع تقديم نماذج حية من أدب الرسول صلى الله عليه وسلم و الصحابة الكرام نثراً و شعراً ، و بيان خصائص الشعر و ميزاته و استعراض أصنافه المتنوعة

٨- "*رباعيات خيام*" للأستاذ السيد أبى ظفر الندوى و له

٩- "*منتخبات أردو*"

١٠- "*معلم الأردية الجديد*"

١١- "*أدب الصحوة الإسلامية*" للأستاذ واضح رشيد الندوى رئيس تحريرصحيفة "*الرائد*" بحث علمى رزين ، يعالج موضوعا شغل الباحثين طويلا ، و يقوم استعراضا علميا أمينا لأدب الإسلامية الأدب الإسلامى الملتزم بتقديم طائفة من نماذجه المختلفة ، كما أن الكتاب يحتوى على نقد الاستشراق و الحضارة الغربية نقدا علميا و عرض الحضارة الإسلامية عرضا ناجحا يستحق كل تقدير و ترحيب .

١٢- "*تاريخ الأدب العربى*" للمؤلف نفسه ، يتناول الأدب بالنقد و التحليل و يقوم نماذج الأدب العربى فى العهد الجاهلى مع بيان قيمتها الأدبية و الفنية و مكانة أصحابه الأدبية

الجغرافية و الخطط و الآثار :

١- "*الهند فى العهد الإسلامى*" بقلم العلامة الشريف عبدالحى الحسنى يبحث عن الهند فى العهد الإسلامى جغرافية و تاريخا و خططا و آثارا و حكومة و إدارة و ثقافة و اجتماعا و ديانة ، و يلقى ضوء كاشفا على دور المسلمين فى إنهاض البلاد و ترقيتها ، و قيمة الآثار التى خلفوها و جبال البلاد و أنهارها و إقليمها ، و مناخها ، و محاصلها و مواردها ، و معادنها ، و أزهارها و رياحينها ، و حشائشها ، و عقاقيرها ،

و حيواناتها ، و دباباتها ، و مدنها ، و قراها ، و شوارعها ، و عواصمها و ملوكها ، و تراجمها و طرق حكمها منذ ما دخل الإسلام حتى ١٨٥٧م ، و كان المؤلف قد أسماه "*جنة المشرق و مطلع النور المشرق*".

٢- "جزيرة *العرب*" بقلم الأستاذ محمّد رابع الحسني الندوي. يدور حول جغرافية البلاد الإسلامية ، تحدث فيه المؤلف عن جزيرة العرب خططا وأثارا وجغرافية ومناخا، و عن جبالها و سهولها، و فصولها و مواردها، و أقوامها و قبائلها، و حضارتها و مدنيتها و ثقافتها و اقتصادها، و دولها و حكوماتها. و الكتاب حصيلة جهد كبير يستحق كل تقدير و ترحيب.

٣- "*الأمكنة المقدسة في ضوء الجغرافية و التاريخ*" بقلم الأستاذ نفسه. يشرح الأمكنة المقدسة في ضوء الجغرافية و التاريخ مما يهم الحجاج في زيارتهم لهذه الأمكنة ، و في أخر الكتاب خرائطها و صورها.

٤- "*معجم الأماكن التي ورد ذكرها في نزهة الخواطر*" لأستاذ الشاه معين الدين الندوي

السنة و ما يتعلق بها:

١- "*تعليقات على سنن أبي داؤد*" للعلامة الشريف عبدالحئ الحسني ، بدأ تاليفه في اللغة العربية غير أنه لم يتم و قد أستأثر به الله.

٢- "تهذيب *الأخلاق*" للعلامة نفسه ، كتاب مختصر في الحديث من نوع "*رياض الصالحين*" للحافظ النووي ، جمع فيه الأحاديث بحذف الأسانيد في مختلف أنواع السلوك و العادات مع بيان ما يتعلق بهذه الأحاديث من آي من الذكر الحكيم في بداية الباب.

٣- "*شرح تهذيب الأخلاق*" للأستاذ أبي سحبان روح القدس الندوي. و هو ماثل للطبع ، و تنشره صحيفة "*الرائد*" تباعا بعنوان "*على مائدة القرآن*" و "*درس من السنة*". و هو شرح مفصل لـ "*تهذيب الأخلاق*" المجموعة التي اختارها العلامة الشريف عبدالحي الحسني من الحديث المذكورة آنفا. يتناول أولا بتفسير الآيات الواردة في مستهل الابواب و شرح مجملاتها و إيضاح غوامضها إيضاحا لا يبقى معه أي غموض و خفاء ثم يأخذ في شرح الأحاديث بتوضيح خفاياها و حل مشكلاتها و شرح مفرداتها و كلماتها العويصة شرحا لغويا مفصلا و حل العبارة نحويا ، مع بيان معنى الحديث و مغزاه و ذكر نبذة من تراجم الأعلام الواردة في الأسانيد و ثنايا الأحاديث ، و تخريج الأحاديث. و من مزايا الكتاب ـ و هي كثيرة ـ أن المولّف يختم الشرح بذكر معارف نفيسة و معاني كريمة يستوحيها من الحديث مما له الأثر البعيد في بعث الهمم

و إثارة العواطف و ترويض النفس على التخلق بأخلاق الله و التحلى بمكارم الأخلاق ، و ذلك عين ما وضع لأجله أصل الكتاب "*تهذيب الأخلاق*" كما يتجلى بعنوانه

٤- "*الإمام ابن الجوزى و كتابه الموضوعات*" بقلم الشيخ محمود أحمد القيسية الندوى بحث علمي رزين يبحث فى حياة العلامة ابن الجوزى و منهجه فى الحديث و جهوده في علم الحديث ، كما يتناول بالشرح و التفصيل لتعريف الحديث الموضوع و حكمه و نشاته و بواعثه و علاماته و جهود العلماء و المحدثين الجبارة ، فى مقاومة الوضع و صيانة الحديث ، مع تقديم الحديث مختارة من كتاب الموضوعات و بيان علماء الجرح و التعديل فيها و المقارنة بينهم و بين رأى العلامة ابن الجوزى فيها

٥- "*فن أسماء الرجال مأثرة علمية عظيمة لأئمة الحديث*" بالأردية للأستاذ تقى الدين الندوى. كتاب يبحث فى تدوين و تحقيق تاريخ رجال الحديث و فن الجرح و التعديل و يتحدث عن الحديث الموضوع علاماته و بواعثه و طرق المعرفة بالوضع ، و يتناول بالتعريف و التعليق على أهم كتب أسماء الرجال و أشهرها ، و فى الكتاب إرشاد ذو عناية إلى طريقة الاستفادة من كتب أسماء الرجال

٦- "*الإمام أبوداؤد و مكانته العلمية فى الحديث*" للمؤلف نفسه بالعربية

٧- "*أبواب البخارى*" بقلم الشيخ أختر على غرستوى الندوى

٨ - "*دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى و صيانته*" لسماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى يتناول الكتاب - باسلوب جديد - ببيان قيمة الحديث العملية و دوره البناء الإيجابى فى تكوين المجتمع الإسلامى و تأسيس الحياة الإسلامية على أسس السنة و الشريعة و السيرة النبوية و صيانتها من الفساد و البدع و التحريف الدينى و الانحلال و الذوبان

و للكتاب تاثير بالغ فى إقناع العقل الرياضى الذى لا يذعن إلاّ للواقع ، و لا يقيم وزنا إلاّ لما كانت له قيمة عملية واقعة ، كما أنه يثبت أن الحديث مدرسة دائمة خالدة ، يتخرج فيها رجال مصلحون و مجددون

٩- "*أحاديث صحيحين*" بقلم الأستاذ رياست على الندوى

١٠- "*تلخيص مقدمة فتح البارى*" بقلم المؤلف نفسه

١١- "*أصول الحديث*" بقلم الأستاذ اويس الندوى

١٢- "*روائع من أدب الدعوة فى القران و السيرة*" بقلم سماحة الشيخ أبى علي الحسن الندوى مجموع محاضرات علمية هى عصارة دراسة عميقة رصينة لروائع من أدب الدعوة فى القران و السيرة ، و الكتاب - كما يتجلى بعنوانه - يدل على أن خير النماذج للداعية الإسلامى

الناجح هي ما قصه علينـا القـرآن و السيـرة النبويـة من قصص الدعـوة و التبشير و الإنذار، و ما صوراه من نماذج نفسية و اجتماعية و أدبية مختلفة ، و يتناول الكتاب الأسلوب البليغ الذى تتميز به الأحاديث النبوية و القرآن الكريم ، و بذلك فالكتاب يبرز أهمية الحديث النبوى و السيرة بأسلوب مبتكر جديد.

١٣- 'تحقيق معنى *السنة*' للعلامة السيد سليمان الندوى.

١٤- '*لآلى الحكيم*' للأستاذ عبدالرحمن نكرامى الندوى.

١٥- '*علوم الحديث*' للأستاذ الشاه عزالدين الندوى.

١٦- '*فهم الحديث*' للأستاذ عبدالقيوم الندوى و له '*التعريف بالحديث*'

١٧- '*زاد الطريق*' للأستاذ جليل أحسن الندوى و له

١٨- *سبيل العمل*'.

١٩- '*تاريخ الحديث و المحدثين*' فى جزئين بقلم الشيخ حكيم أحمد الله الندوى

٢٠- '*تدوين الحديث*' بقلم الأستاذ هداية الله الندوى.

٢١- '*دراسة الحديث*' بقلم الأستاذ محمّد حنيف الندوى.

٢٢- '*ألفاظ الجرح و التعديل*' بقلم الأستاذ اسماعيل المدراسى.

٢٣- '*الحياة الاجتماعية فى ضوء الحديث*' بقلم الشيخ عبدالوهاب حلبى الندوى

٢٤- '*مقدمة المحدث الجليل الشيخ عبدالحق الدهلوى*' قدم لها و علّق عليها الأستاذ سلمان الحسينى الندوى ، فوضع العناوين الجانبية ، و عنوان الفصـول و رقمها ، و قسّم المحتويات إلى فقرات مناسبة و علق عليها تعليقات وجيزة مفيـدة بالإضافـة إلى مقدمة فى تاريخ علم أصـول الحـديث و تعريف بالكتب المؤلفة فى هذا الفن و استعراض جهود علماء الهند أيضا.

٢٥- '*رياض السنة*' لمولانا الشاه جعفر الفلواروى الندوى و له .

٢٦- '*مكانة السنة*'

٢٧- '*معارف الحديث*'

٢٨- '*انتخاب الحديث*'

٢٩- '*خمس صحائف الأولى للحديث النبوى*' بقلم الأستاذ عبدالسلام قدوائى الندوى.

٣٠- '*دراسة كتب السيرة القديمة و مصادرها الأولى*' للأستاذ تقى الدين الندوى المظاهرى. و له كتب آخر فيما تلى .

٣١- '*الإمام البخارى سيد الحفاظ و المحدثين*'.

٣٢- '*علم رجال الحديث*'

٣٣- '*لمحة عن تعريف أهم مراجع السنة*'.

٣٤- "*الإمام أبوداؤد المحدث و الفقيه*"
٣٥- "*كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل*" حققه و علق عليه
٣٦- "*الإمام مالك و مكانة كتابه المؤطا*"
٣٧- "*كتاب الزهد الكبير للإمام البيهقي*" حققه و وضع عليه تعليقات قيمة
٣٨- " *الإمام* و دراسة عن مسنده العظيم

و هي كلها بالعربية و تتسم بالدراسة العميقه و الأمانة العلمية الدقيقه

الربانية و الإحسان :

١- "*تجديد التصوف و الإحسان* بالأردية للأستاذ عبدالباري الندوي. يكشف عن زيف الأخطاء العلمية و العمليه التي أحاطت بالتصوف و يفضح الأراجيف و الإشاعات التي أثيرت حول التصوف و يثبت أن التصوف الحقيقي هو عين كمال الإسلام و الإيمان . و أنه يستحيل تحصيل النجاح الدنيوي و الأخروي و بالتالي الفردي و الجماعي إلاّ بالتحلي بالتصوف و الإحسان
٢- "*التعليم و التبليغ* للمؤلف نفسه . يتحدث عن التدابير التي يمكن بالعمل بها إصلاح الأمة و المجتمع الإسلامي . و استعادة مكانتها السابقه و مجدها التليد
٣- "*نظام الصلاح و الإصلاح* للمؤلف نفسه يتضمن معاني رقيقة تبعث على تهذيب الأخلاق و تزكيه النفس
٤- "*العقيدة و السلوك في ضوء الكتاب و السنه و السيره النبوية* لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي كتاب يصلح لأن يكون دليلا إلى الاعتقاد السليم المطلوب و السلوك الإسلامي الجامع و دستورا للحياة للمسلم الطالب الحق الباحث عن الأسوه النبوية في الأعمال و الأخلاق
٥- *الإصلاحيات* للمؤلف نفسه . يبحث في اتخاذ السيرة النبوية قدوة مثالية حية . و في الكتاب إرشاد إلى ما يحتاج إليه الإنسان في حياته من خلق عظيم و سلوك حسن
٦- *الجوهر الثمين* للأستاذ محمّد طيب عثماني الندوي
٧- *طريق الإحسان* لمولانا السيد محمّد طه كمال الندوي
٨- *تعاليم الغزالي* للأستاذ محمّد حنيف الندوي
٩- *طريق الطالب* على أحمد شرف عالم الندوي
١٠- "*ساعة مع أهل الحق* للأستاذ الدكتور يونس نكرامي الندوي
١١- "*ربانية لارهبانية* بقلم سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي كتاب يفرق بين الرهبانية و الربانية التي اشتدت بينهما خصومات

و نزاعات ، و احاطت بهما الاوهام و الحرافات ، لسوء التفاهم و سوء الظن أو سوء الفهم و من عدم معرفتهما معرفة شديدة عميقة شخصية، و الكتاب يكشف اللثام عن هذه الحقيقة الناصعة.

١٢- "*ساعة مع أهل القلوب*" بقلم المؤلف نفســه. سجـل فيــه توجيهــات و إرشادات كان يدلى بها الشيخ العالم الربانى محمّد يعقوب المجددى فى مجالسه ، و هى تنطوى على الدعوة المخلصة إلى الإصلاح و التزكية و التربية و التوحيد ، و الدين الخالص النقى بأسلوب يتفق و الذوق العصرى ، و للكتاب تأثير بالغ فى تزكية القلوب و تهذيب النفوس.

١٣- "*ساعة مع أولياء اللّه*" للأستاذ تقى الدين الندوى المظاهرى. سجل فيه توجيهات الشيخ الكبير محمدّ زكريا بن يحيى الكاندهلوى ، التى تبعث الإيمان و اليقين و تفيض بالشوق و الحنين ، و ذلك لما تحلى به الشيخ من مكارم الأخلاق و العادات و اتباع الشريعة الإسلامية و حب النبى صلى اللّه عليه و سلم حبا تمكن من سويداء قلبه و خالط منه اللحم و الدم.

١٤- "*بين التصوف و الحياة*" بقلم الأستاذ عبدالبارى الندوى. شرح فيه التصوف الإسلامى الصحيح ، و حاجــة الإنسانيـــة إليـــه فى كل زمان و مكان ، و مركزه فى حياة المؤمن ، ورد عنه تأويل الجاهلين و انتحال المبطلين و تحريف الغالين و شكوك المتشككين نقله إلى العربية الأستاذ محمّد رابع الحسنى الندوى ، و أصدرته مكتبة الفتح بدمشق.

١٥- "*جامع المجددين*" بقلم المؤلف نفسه ، عرض فيه تعاليم الشيخ الكبير العالم الربانى الجليل أشرف علــي التهانوى الإصلاحيـــة و الدعويـــة و التربوية.

١٦- "*فضائل القرآن*" للمحدث الكبير الشيخ الجليل مولانا محمّد زكريا الكاندهلوى ، نقله إلى العربية الأستاذ محمّد واضح رشيد الندوى.

و للبحث صلـة ... ...

المشهد التاملى

بقلم : أشوكا متران

إنّ أول مخطوط للعمل الأدبى التاميلى هو بعنوان تولكا بيام أى الكلاسيكية القديمة أو الملحمة القديمه ، و لو انه ليس عملا كلاسيكيا أو ملحمة قديمة بالمعنى الذى يدل عليـــه المصطلح . فإنما هـو قاعـدة للحيـاة و الآداب ، و يمتاز بوضوح و دقة تامة للمصطلح و التعبير ، و لا يكون من الظن العشوائي القول بأن عملا كمثل تولكا بيام لو صار ممكنا قبل حوالى ثمانية عشـر أو عشرين قرنا، فكان لابد إذن أن يكون هناك نشاط أدبى ملحوظ قبل ذلك بكثير و أدى إلى تحديد القوالب و الانواع الأدبية . فمما لاشك فيه أنه كان هناك تقليد للتعليقات على الأعمال الأدبيه و التاميلية رأسا من العهود المبكرة . و اتسمت بعض التعليقات و كذلك المعلقون بعظمه أو أهميه بقدرما إنطوت عليه الأعمال الأصلية و مبدعوها من الاهتمام . فهناك تفاصيل دقيقة للتجمعات الأدبية فى الماضى . و كذلك هناك تفاصيل عن الشعراء المشهورين مثل كامبان و تيرو فالو وار الدين انتجوا أعمالا إبداعية قبل هده التجمعات فى أماكن عديدة فى تاميل نادو و ذلك قبل أن تعترف التجمعات بأن أعمالهم أدبية إن مواجهه النحاتة من مجموعات سيفست و نيبار بمجموعات جين فى القرن السابع الميلادى أيضا اتسمت بطابع مناقشة و تحديات أدبيه و أحيانا أخرى كانت المجابهة مع مثل هده الهيئات كالنار و مياه الفيضان. ان التنافس بين شاعرين تاميليين هامين و هما اوناكوبهار و بوجازيندى قد تجلى دائما كانتقاد على أعمال بعضهما البعض أو كتقييم أعمالهما من قبل شخص ثالث كما فعلت أميرة مرة فى مثل هذا الموقف فقبل حوالى اكثر من مئة سنة . كان هناك رجل تقى كبير يدعى راما ليجام فى مكان يعرف بفادالور قرب شيدامبرام . و الأدبيات التى قرضها . سماه شيرو ـ أروبتا أى الأبيات الإلهية أو المقدسة الملهمة

و قد اعترض عليها باحث اخر مؤمن بمبادئه هو . إسمه أروجانا فالار فلم تكن أبيات رام ليجام عند أروموجانا فالار إلهية و لا حتى شعرا . و أوضح ما اعتبره عيبا أو نقصا فى المضمون و التعبير . و أخيرا أُخذ نقدنا فالار على أبيات راما ليجام إلى المحكمة و تقول قصة شعبية فى التاميلية إن أميرة موهوبة كان من المقرر أن يفوز بها متقدم بطلب الزواج عن طريق قصيدة

رائعة فقط. إلاّ أن المتقدم بطلب الزواج قد أنهى حياته عند ما حللت الأميرة قصيدته و أشارت إلى النقائص فيها.

فكل هذا يدل لا على استمرارية معينة للنشاط الأدبي في اللغة و إنما على محاولة مستمـرة لقرض و تصنيف أعمال إبداعيـة جيدة و غير جيـدة ، و كذلك على المحاولة لشرح و توضيح كلمات الشعراء ، و المحاولة لوضع مقياس لتقييم أعمال أدبية . يحترم راما لينجام من فادلور لدى التاميليين كقـديس و صوفي، له قدرات فوق العادة أحرزها عن طريق تجلى الذات الإلهية بوصفه النور الأعلى ، و يقال إنه اختفى في هواء رفيع و هكذا أنهى حياته العادية ، فهل يجرؤ أحد أن يتحدى مثل هذا الشخص المبجل ؟ و لو فعل فهو بدون شك عميل خبيث كان أروموجانا فالار نفسه متعبدا لشيفا ، و إن تعبـده لشيفـا و كذلك ارتباطه المتحمس بالتاميلية قد جعله متشددا نحو راما لينجام من فادالور و حسب أروموجا ذلك جريرة بالنسبة للرب و اللغة. ترجم أروموجانا فالار الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، للبروتستانت و أعطت له مشاركته الوثيقة به فكرة بأن الأعمال الدينية الغامضة يجب أن تكون سهلة المنال بالنسبة للناس العاديين في لغة مفهومة لذا كتب مـبادئ القـراءة لطلبـة اللغــة التاميليـــة و الدين. و له الفضل في أنه اتخذ أصوات شا ، سا ، ها و جها كجزء من أبجدية اللغة التاميلية

كان أروموجانا فالار تاميليا من سريلانكا ، و كذلك كان كناكاسابهائي بيلائي الذي قيل عنه أنه كان قليل الخبرة بين جماعة من الباندیت و النقـاد ، و كان مساعدا بهيئة البريد و البرق ، و لكنه بالمواد التي استطاع أن يجمعها بموارده ، كتب كتابا مدهشا بالإنجليزية بعنوان "التاميليون قبل ثمانمئة سنة" يتميز هذا الكتاب بطابع بحث عام في الأدب التاميلي و خلاصة الملاحم.

كان هناك معاصر لكاناكاشا بهائي في أواخر القرن التاسع عشر ، و هو الدكتور يو. في سوامي ناث آئر إنه جمع العديد من النسخ و المتون المفقودة من مصادر مختلفة في طول سنوات البحث و التمحيص و نشرها في طبعات أمينة و شاملة ، و لعل تأليفه يعتبر أوضح سيرة ذاتية و أغزر مادة و أكثر متانة متاحة في اللغة التاميلية و كتب عن أساتذته المبجلين تياجراجا شترجي و ميناكشي سوندرام. و كذلك كتب عددا من مقالات أدبية ممّا يحصل الإنسان على دراية تامة و صورة واضحة للوضع الأدبي عن أيامه. إنها تعتبر بمثابة عالَم للباحثين ، و يندهش الإنسان على الأفكار النقدية المثيرة فيها.

إن السبل الحديثة لتناول النقد الأدبي ، حتى و لو كان موضوع النقد كلاسيكيا جدا، قد جاءت إلى اللغة التاميلية بعض الشيء بواسطة في. في. اس. آئر ، و تي كي شيدا مبرا ناث مودالیار ، و إس. فيابوري. بيلائي. كان شيدا ميرا ناث مودالیار أحد الناقدين البارزين على التحريف في الكلاسيكية. و لاشك أن الإشارة إليه في النص و نبذ عدد من الأبيات من الرميانا لكامبان بعد أن ترسخ التحريف بثبات في النص بل نالا. اعترافا دينيا ، يحتاج إلى جرأة كبيرة كان شيدا مبرا ناث مودالیار صاحب شخصية

عظيمة فكان محبا للجمال سريع العدوى مما نتج عن أن الكثير من مساهماته فى النقد التاميلى قد مرت مع اعتراصات بسيطة و لكنه جلب لنفسه عدم سرور المدققين حيث أنه لما بدأ يؤرخ الأعمال التاميلية العظيمة بأسلوب علمى ، لم يجعله قديما بحيث يكفى لموافقة المتعصبين و قد حدث هذا المناخ من جراء التفاعل بين فبابورى بيلانى و الهيئات التاميلية حتى نمت أعمال عدائية للحريصين على صفاء اللغة من أجل تطبيق المعيار الحديث للتقييم الأدبى

ابتداء من ١٩٢٠م ، بدأ المجتمع التاميلى يتعرض للانتقال من نواح عديد، فقد شهد المجتمع سوبرا مانيام بهارتى ، و كذلك الروح الوطنية الحديدة التى غرسها المهاتما غاندى و ذلك مع الإدراك المتنامى للتـراث الوطنـى و اللغـة ، و الاستياء ضد سيادة الأجانب و اللغات الأجنبية ، و الوعى بالمساواة بين الناس و بالتالى ما أسفر عن ردّ الفعل ضد الفئات المستجلبه للمنفعة بالاستغلال ، و كان ذلك وقت أحرز فيه النثر طابعا ممتازا كوسيلة للتعبير الذاتى الابداعى و مثلما هو الحال فى معظم اللغات الهندية كان أول ممارسى النثر التاميلى ممن تثقفوا ثقافة إنجليزية فمع صدور دوريات و كتابات رصينة قد أصبح الأدب موضع اهتمام فئات كبيرة من الناس ، إلى جانب الباحثين و الناقدين كان الشعر ميدانا للجهابذة التاميليين و لكن لم تبلغ القصة القصيرة و الرواية إلى هذا المستوى و فى حقيقة الأمر احس الباحث التاميلى العادى بالكره الشديد لبعض الأنواع النثرية الحديثة من حيث الأدب إن كبار الشعراء بالتاميلية من فئات الوار و نيار و كامبان و تيرو و فالوار قد كسبوا مرتبة القداسة على مر التاريخ منذ أيام راما لينجام هادا لور و أروموجانا فالار من جافنا حتى أن مجرد معادلتهم مع الكتاب المعاصرين قد يبدو بمثابة انتهاك للحرمات إن التاميلى التقليدى يستحوذ نفس القواعد و السلوك لاختيار الأنماط الرئيسية و سماتها فعلى الكتابة التاميليه الجديده أن تستجلب أنماط الشخصيات من الحياة من حوالبها من ثم إنها لم تستطع أن تنال الثناء مثلما نالت الكلاسيكية

إسأل تاميليا مثقفا اليوم هل هناك جو نقدى فى الأدب التاميلى ؟ يكون جواب تسعة أشخاص من العشرة لا إن مثل هذا الفكرة السائده مع تواجد الكثير من الأعمال النقدية التى نمت فى الماضى و النشاط الأدبى المستمر إلى الآن و وجود باحثين متحمسين أو إثنين على الأقل فى كل كلية يبحثون فى تاريخ الأدب التاميلى . لشيء ذو دلالة إن هناك الكثير من النشاط النقدى فى العالم الأكاديمى . و لعل اللغة التاميلية هى اللغة الوحيده التى تفوز بجائزة الأكاديمية الأدبية كل سنة على كتابات أكاديمية فى النقد الأدبى

إذن لم هذا الإحساس بالنقص حول النقد الأدبى ؟

أولا إن الكثير من الكتابات النقدية التى تم إنتاجها لا تحظى ببصيرة عميقة و لا تنطوى على العناية المطلوبة . قد يكون لها أسباب اجتماعية أيضا و كذلك مع كل المشاعر النبيلة المعبرة فى التاميليه التقليديه . لم تدخل

العمليات الديمقراطية المتتالية للقرن العشرين فى عالم الدراسات التاميلية التقليدية بطريقة ملحوظة. و فى أوائل هذا القرن ، بدأت اللغة التاميلية تكسب ظلال السياسة (فى مثل هذا الجو لم يستطع الاهتمام بالشاعرية السنسكرتية للمقاييس النقدية فى التاميلية بأن يزدهر) فكان هذا تناقضا لما كان الأفضل ، و كانت صورا ذهنية و رموزا للثقافة التاميلية فى العصور الوسطى فى حين كان المجتمع ككل يجنح نحو حقوق الإنسان فى الحركة التنويرية للقرن العشرين. و قد أدت أشياء بسيطة جدا مثل محاولة تحديد فترات الكلاسيكيات المختلفة إلى احتجاجات خطيرة من جانب المغالين فى الوطنية فى اللسانيات حتى أنهم سموا الباحثين "بأعداء اللغة التاميلية" و قد حدث ذلك فى ظروف كانت أصول النقد الأدبى الحديث تحاول أن تجد موطئ قدم لها و ذلك بسبب مساعى شخص إسمه 'كانا سوبرا مانيام .

بدأ كانا سبرامانيام الكتابة فى الثلاثينات من القرن الحالى و بعد تخرجه فورا اعد نفسه ليكون كاتبا فقط و كتب بالإنجليزية و التاميلية و كما كان طبيعيا فى ذلك الوقت ، كان عدد من الســادة الغربيــين مصــدر إلهامــه ، و لكن كل ما كتبه كان هنديا أى تجارب البراهمة التامليين من الطبقة المتوسطة و لكن كان شكلها مستوحاة من السادة الغربيين. إنه طلب تعيينه بمنصب كاتب المقالة الافتتاحية فى سن مبكرة و هكذا أصبح كاتب المقالات أيضا. و قلما حاد عن أمور دينية و كان أول من خرج بتحليل أدبى لمعاصريــه ، و كتب لبظهر ما هى كتابة جيدة و ما هى ليست جيدة بالنسبة للقراء الشرقيين كما علمهم عن كيفية تناول العمل الأدبى و ذلك بكتابته عددا من المقالات عن المؤلفين الغربيين العديدين و أعمالهم إلا أن همه كان منصبا على الكتابة التاميلية. و كذلك كتب عن الكتّات التاميليين أيضا إنه كان أو ممّن أكد فى الدوائر الأدبية التاميلية بأن العمل الشعبى لا يحتاج بالضرورة إلى أن يكون عملا أدبيا ، فيتطلب إبداء مثل هذا الرأى جرأة كبيرة حيث أن الشخصية التاميلية قد حددت هويته مع وسيلة التخاطب الجماهيرية. (و لا يزال هذا الوضع حتى الآن إلى حد كبير) كتب كانا سوبرا مانيام عددا من مقالات نقدية و كان مرتبطا ببعض معاصريه مثل سى. اس. شيلا ، على سبيل المثال ، و هو مستمر حتى الآن فى الكتابة حول الكتابة التاميلية ، و يقولون إن المقالات الهائلة التى كتبها هو عن الكتابات التاميلية مايزال يحتاج إلى جمعها فى كتاب و انه أحد الناقدين بالتاميلية الذيــن يراقبــون بصفــة مستمــرة كتابات أيامهــم و يعلقون عليها. و هكذا يستطيع الواحد أن يرى فى مقالاته التغييرات التى تمر بها الكتابة التاميلية المثالية و الرومانتيكية فى الأربعينات ، و تجارب الأربعينات ، و القنوط و التخلص من أوهام الستينات و السبعينات. فلولا ، كانا سوبرا مانيام ، لم ينل عدد كبير من الكتاب الجيدين اهتماما و لم يجدوا عناية يحظون بها اليوم ، و هؤلاء الكتاب هم آر. شانمو جاسوند رام (الذى كتب للمجلات قليلا جدا) و مونى وألا جيرى سوامى و نيلا بندمانا بهان. و قد كان كانا سوبرا مانيام أول من انتخب سوندرا راما

سوامى و جايا كانتهان فى بداية مهنتهم. و هكذا ساهم فى نموهم ككبار الكتاب فى الخمسينات. و لم يكتف كانا سوبرا مانيام بمجرد التعليق على الكتاب بل ترجم بعض أعمالهم إلى الإنجليزية و نقلها إلى أكبر عدد من القراء

بدأ النقد مع ايدولوجيات يسارية ليترك بصمته فى الخمسينات و لكن لم يحدث هذا إلا فى ١٩٦٨م عندما نشر البروفسور كى كيلاسا باتهى من سريلانكا كتابه عن الرواية التاميلية ، و يعتبر كتاب كيلاسا بهاتى عملا هاما حيث أنه كشف قلة غور الكتابات الشعبية و لكنه كان متحربا عندما بلغ الأمر إلى الكتاب الذين أعلنوا عن أنفسهم بأنهم تقدميون و قد شهدت الخمسينات و السبعينات قدرا كبيرا من المناقشات بين التقدميين و غير التقدميين إلاّ أنه كان هناك قدر كبير من المجادلة المغالية أيضا ثم جرى نشر هذه الانتقادات و المجادلات الأدبيه بين رؤساء التحرير و الكتاب فيستطيع الواحد أن تقول إن عدد التاميليين المشتغلين فى الكتابة الجدية قد ازداد كما تضاعف قراءة الكتابات الشعبية أضعافا مضاعفة

بدأ العالم الأكاديمى توجه عنايته إلى النقد الأدبى حول الكتابات التاميلية الجدية فى اكتوبر عام ١٩٨٢م نظمت الجامعة التاميلية فى تنجاوور ندوة علمية حول الشعر التاميلى و كان فيها تمثيل عن التقليديين و غير التقليديين و الشعبيين و الحديثيين و لكن فى مثل هذه التجمعات قد يجد الواحد أن النجاح الشعبى هو المعيار الأكيد أكثر بكثير بالنسبة للقيمة الأدبية الجوهرية

فكانت خلال هذه السنوات الخمسين ، مجلات صغيرة تشتمل على النقد الأدبى و لعل عمل بعض هذه المجلات يدل على أن العصر المقبل لن يأخذ وقفة خاصة متطرفة كما كان الحال أيام رواد هذه الحركة فسوف يجرى بحث و تمحيص أعمال كل الكتاب الجديد بخلاف ما كان الحال فى الماضى لما كان يحدث التجاهل عن انتاجاتهم و ابتكاراتهم بكاملها و لكن مازالت اثار اشتغال الذهن فى الموضوعات القديمة توجد إلى حد كبير و هى بدون شك تعرقل تقييم الأعمال الأدبية برمتها فقد أصدر الباحث الماركسى ، ماما مالانى من ترينو فيلى دورية مخصصة لموضوعات و أبحاث أدبية و سيكولوجية و تحت رعايـــة الدوريـــة. عقدت اجتماعـا ت و نـدوات فـى فترات حيث كانت تقدم و تناقش فيها أبحاث حول مؤلف معين و اعمالهم ، صحيح إن المناقشة كانت تتجه نحو المضمون و كان عمل الدورية مضمنا و تعتبر الدورية من المصادر الأصيلة الموثوق بها للمزيد من الدراسة و البحث حول العديد من الكتاب

و لو أعدت قائمة لنقاد الكتابات التاميلية الراهنة فسوف نكون على النحو الآتى أرونا شلم ، الباحث فى تاريخ الأدب التاملى و له كتاب فى مجلدات عديدة ، و كانا سوبرا مانيام ، و سى إس شيلا ، و ك كيلا ساباتى ، و سيفا تامبى ، و سيل ناتان و شيكا سيفا سانكاوان ، و فاليكان ، و إم راما لينجام ، و كانا كاسا باتى ، و ناكولان ، و جيسودا سان ، و بالا بالانى سوامى من كونمبتور ، و إس كريشنان

هل دفع نقده الأدبى القراء الجدد إلى قراءة كتابات جديدة ؟ هل صاغ نقده أسلوب أى كاتب أو حوّل كاتبا راهنا إلى أسلوب أحسن ؟ و ماذا كان التفاعل بين بعض النقاد و الكتاب ؟ قد تخلى كانا سوبرا مانيام و سى. إس. شيلا إلى حد كبير عن كتابات إبداعية عندما اتجها إلى النقد الأدبى ، و فى حين نجح بعض النقاد فى خلق طائفة من المعجبين و أدى ذلك إلى معركة عنيفة و تشويه سمعة الشخصيات ، و لكن لم يمتد ذلك إلاّ بضعة عشرات من الناس ، فقد كان كل من كانا سوبرا مانيام و كيلا ساباتى رغم انتمائهما إلى الكتل المتعارضة المتحاربة من النقاد الصارمين للكتاب الشعبيين مثل كالكى و أخيلال . و لكن هؤلاء الكتاب كانوا محبوبين على الدوام و نالوا اعترافا رسميا فى صورة جائزة الأكاديمية الأدبية و جائزة جنابابيت. و من الواضح أن أثر النقد على عامة الناس القراء و على الوعى الإجمالى للشعب التاميلى لا يبدو خطيرا.

يقال إن الشمس لا يمكن أن تشرق على مدراس بدون صحيفة "هندو". هـذه هـى أهميـة الجرائـد اليوميـة. فتنشر "هنـدو" بعض التعليقـات و الاستعراضات للكتب كل يوم الثلاثاء. و بعد قراءة بعض الاعداد المتتالية سوف يأخذ الواحد فكرة بأن معظم الكتب الجديرة بالاهتمام و التى نشرت باللغة التاميلية، هى تراجم للمتون الدينية و القصص التكسبية. حتى أن جريدة "هندو" اضطرت إلى أن تميل نحو الدوائر الشعبية و التجارية لدى تناولها الكتب حتى لا يلومها أحد. فعندما نشرت مجلة شعبية هجوما عنيفا على كتاب لى ، فبعكس ما شعرت به من الحزن ، قد هنأنى عدد كبير من زملائى الأدباء على أن المجلة نشرت صورتى إلى جانب الهجوم علىّ فبلغ الصيت إلى عدد ضخم من القراء فى الدوائر التجارية الشعبية و لو كان ذلك ضوء سلبى، لذا كان ذلك شيئا مرغوبا فيه.

و لى كلمة أخيرة بشأن النقد الأدبى التاميلى و السنسكريتية. و هى أن السنسكريتية، لأسباب معروفة جيدة لدى أشخاص هذه المنطقة، لاتحظى بقبول بين ذوى النفوذ من الباحثين التاميليين، كلغة و أثر أدبى وجهاز للتحكم. ففى حين يمكن اتخاذ مصطلحات سنسكريتية معينة فى المعجم التاميلى لأغراض نقدية. فانه لاينطوى على الصعوبة إلاّ قليلا التأكد بجدوى استخدام مفاهيم التقليد السنسكريتى بالنسبة للوضع الاجتماعى المتغير للتاميل اليوم على نطاق واسع و الذى يجب أن ينبع منه التعبير الإبداعى الأدبى التاميلى. فى الواقع إن التقليد الأدبى التاميلى الذى هو قديم على نحو كاف ، يوجـد بأنـه لا يلائم بطريقة مرضية مع مقاييس الكتابة التاميلية للقرن العشرين.

تعريب: د/شميم الحسن أمانة الله

اللغة الأورية فى سياق النقد الهندى

بقلم: دى. بى. بتنايك

عند الكلام عن الوضع النقدى القومى لابد من التسليم بأن الهند ليست أمة بالمفهوم الغربى كما يجب الاعتراف بأن الهند منطقة ثقافية منفرده مع حدود جغرافية معينة معترف بها منذ فجر التاريخ لذا لا يمكن الحديث عن الوضع النقدى القومى فى بلد ذى لغات مختلفة بدون علم بالمنطقة و إن العلم بالمنطقة بدون انعكاس الوضع القومى سوف يبقى فى غموض

يتضمن النقد ثلاثة عوامل المؤلف (شفهيا و كتابيا) و النص و الملتقى (المستمع /القارى) و فى بلد ذى لغات متعددة حيث يعيّن المستمع بما يستعمله من لغة فان الوعى باستعمال اللغة و الوعى الوظيفى للغة و اللغات على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للكاتب. فمع غياب مثل هذا الوعى، من المحتم أن تؤلف فى نوع منفرد أو لغة منفردة، مما تصبح ثقيلة لمستخدمى تنوعات أخرى من نفس اللغة أو مستعملى لغات أخرى. إن الألفة مع تقاليد لغات عديدة ليست سمة مميزة للعصرية فقط، بل هى شرط أساسى فى فهم الوضع النقدى القومى أيضا

فلما انحصرت السنسكريتية و اليونانية و اللاتينية أو لغة السلافيين فى زمرة محدودة من الملمّين بها، فلم يستطع الانتاج الاول فيها أن يروى الظمأ الفنى الجمالى للجماهير. هكذا يصبح النقد غير ذى علاقة بالموضوع بالنسبة لحياة الجماهير حتى و لو صورت مستويات أعلى للروعة. إن الأدب المكتوب بلغة شعبية فى أعقاب فترة كلاسيكية قد نجح بقدر ما نجح فى التعبير عن العصر، و إن الكاتب أو القارئ العصر المرتبط بالماضى بسبب قلة إدراك التقليد، قد صار منعزلا عن البيئة بسبب انعزاله لغويا و وجد نفسه منهمكا فى عدم جدوى البحث عن عالم مالوف بطريقة غامضة. فالرجل المعاصر الحساس باللغة و الثقافة فى كل عصر يجب أن يحس بمثل هذا الموقف المتناقض من المراحل المصيرية فى التاريخ

إن الناقد الذى توارث بقايا التقليد العربى، قد نشأ فى بيئة تساوت

فيها الغربية مع العصرية و قد اقنع نفسه بأن ماضيه نفسه يمثل التقليد الكلاسيكى الخفى، و يروى الحياة و الأدب مع أدوات نقدية لا تلائم حقيقة تعدد اللغات و الثقافات. فكل كاتب و ناقد ممتعض بالعالم حوله و يريد خلق حقائق بديلة، و لكنه ينتهى فى خلق نسخ مطابقة شاحبة لشظايا الحياة الغربية و الفكرة غير المتماسكة و المتكاملة.

بحسن الحظ، إنه فى وسط مثل هذا الفوضى فى التجارب المتضاربة ، هناك بعض المؤلفين يقفون إلى جانب أصالتهم و تخيلهم المندفع نحو المركز و يستخدمون لغة لها علاقة مباشرة مع القارى و يستعملون عبارات اصطلاحية تتجاوز طبقة معينة و تجذب انتباه المؤلفين و النقاد القوميين و العالميين. فباللغة الأورية يعتبر سيتا كانتا مهاباترا واحد من مثل هذا الشاعر، فانه قد قرض بتركيز على أساطير و شعارات و تخيلات هندية قصائد تكاملت فيها فئات عديدة من المعانى و التجارب و الحقائق فى شعار كامل و استرعى الانتباه إلى معاناة البشرية فى العصور التاريخية بامتداد واحد. و جوبى ناث موهانتى هو واحد من أبرز كتاب القصة، فانه قد حاك نسيجا كبيرا حول قصة حيوان و صور فيها الصيد و الحصاد و الغناء و الرقص و الاحتفالات و الطقوس و الحب و الكره و الألم و الفرح و الأحلام و الحقائق عند القبائل و أهل الريف و الحضر بكفاءة نادرة و إن منورانجان داس و جكناث براساد هما من مؤلفى روايات تمثيلية الذين لم يتناولوا فقط سمات بشرية معقدة أو تطورا معقدا لهذه السمات فى الأوضاع التى كانوا يعيشونها، و إنما كسروا العديد من التقاليد التمثيلية بنجاح و استولوا على فقدان الهوية و فقدان مركز حيوى فى أسلوب الحياة الجديد.

ليس هؤلاء الكتاب منحرفين عن الأدب الأوروى، فعند تبيان حساسية الأدب الأوروى الحديث، يستطيع الواحد أن يذكر اسم بها نوجى راؤ ، و جرو براساد موهانتى، و راما كانتا رات فى الشعر، و سريندر موهانتى و كشورى شاران داس فى القصة، و بيجويا ميشرا و بيسوا جيت داس فى كتابة المسرحية، و لكن كلهم واجهوا جوا خشنا على أيدى النقاد، فيستنكر مايادهار مانسينج العصريين فى كتابه، تاريخ الأدب الأوروى، فى حين يشيد النقاد المنشقون ذكرهم على عصريتهم، و لكن لم يكن لدى أى واحد منهم فهم واضح عن فكرة العصرية. و إذا كان دور النقد هو ربط السمة الشخصية و الإقليمية و العالمية فى كل من التعبير و المضمون و تحديد مستويات جديدة للتحكم، فلابد للواحد الاعتراف بأن النقد الأوروى لم يبلغ بعد سنّ الرشد.

و إذا كان جواب السؤال ، هل هناك جو نقدى فى البلاد، بالنفى، فله اسباب عديدة: أولا رغم أنه لم تستخدم فكرة من الأفكار السنسكرتية تماما عند البحث عن مؤلف أو نوع أدبى أو فترة أدبية فى أى أدب هندى، فإن معظم المعلمين يعتقدون بأنهم متمسكون بنهج حددته السنسكرتية. و نفس الشيء

يصدق على الانجليزية حيث مازالت أغلبية ساحقة من معلمى الإنجليزية لهم جذور فى النقد الفكتورى. و ثانيا إن الذين لهم اتجاه غربى فينقصهم الجذور فى التقليد و لهم قلة العمق فى كل من الاثنين و ثالثا، يتجه النقاد فى تطبيق قضايا إقليمية إلى نظرية نفسية تحليلية أو نظرية ماركسية بدون فحص نقدى لملابساتها و أخيرا و ليس آخرا النقد المتمركز حول الشخصية نفسها، يقنع أتباع النقاد الكبار أنفسهم بأن أسيادهم المختارين قد بدءوا عهودا جديدة و لكن العهود قد انتهى معهم لذلك لا غرابة فى أنه فى مثل هذه الظروف من الصعب الاحتفاظ بالموضوعية.

و مما يقال إن قعر المهن يكون دائما مكتظا و القمة خالية ، و لكن الصورة المذكورة أعلاه لا تشمل تلك الاستثناءات من الذين حاولوا احداث أخدود فى الأرض الجدباء فقد كان ناراسيمهيا و كنتاكا و بعض الأساتذة هنا و هناك فى ميدان النقد الانجليزى فى الهند من الذين وضعوا بصمات و خلقوا جوا مناسبا للبحث و فى كل لغة هندية يمكن تحديد اسم أو اسمين فى هذا الصدد مثل جيه ام موهانتى فانه قد ساهم مساهمة فعالة فى النقد الأورى و ذلك رغم ان العمق ينقصه فى نقده التحليلى الأخير، فمحاولة إنجاز العديد من الأشياء فى وقت واحد هو أحد الأسباب لذلك، و قد ساعدت فى اللغات الهندية ملاحظات تفسيرية مقدمة من قبل العديد من الكتاب الجدد فى بناء جو لمنهج نقدى، إلا أن التعريف بالنفس أو النقد النفسى ليس بديلا للنقد المكون المبنى على فهم التقليد أو عملية التغيير فى المجتمع

تعريب د/ شميم الحسن أمانة اللّه

وكيل المدرسة الصولتية بمكة المكرمة
(الشيخ مسعود رحمت الله)

بقلم : احمد صالح حلبي
مكة المكرمة

إننا كمجتمع إسلامي ننعم بنعم الله التي لا تحصى نجد أن من الواجب علينا أن نسجل بكل أمانة و إخلاص جهود أولئك النفر ممن ساهموا في وضع لبنات البناء في وطننا الغالي.

و إذا تحدثنا عن التعليم في مكة المكرمة و نشأته فان هناك العديد من الصور التاريخية التي خطّها المعلمون و المربون الأفاضل الذين كانت لهم إسهاماتهم الخيرة في تنشأة و إعداد الأجيال.

المدرسة الصولتية:

تبرز المدرسة الصولتية و التي أسسها الشيخ محمّد رحمت الله عام ١٢٩٢هـ على نفقة السيدة/ صولت النساء كواحدة من أوائل المدارس الأهلية التي تخرج منها العديد ممن تبوأوا الآن مراكز القمة و المسئولية.

و قد تعاقب على إدارة المدرسة العديد من العلماء الأفاضل كان آخرهم الشيخ مسعود رحمت الله والذي انتقل إلى رحمة اللّه يوم الأحد السابع و العشرين من شهر شعبان عام ألف و أربعمائة و إثنتا عشرة للهجرة. و بوفاته فقدت المدرسة الصولتية علما بارزاً من أعلامها و أستاذا فاضلاً و مربيا مخلصاً.

الشيخ مسعود رحمت الله

المولد و النشأة:

ولد الشيخ مسعود رحمت الله يوم الأربعاء الموافق ١٣٥٩/٢/٥ هـ و نشأ في احضان جده العلامة الشيخ محمّد سعيد فقرأ عليه القرآن الكريم و بعض المبادىء في الأوردية و الفارسية. و توفي جده و عمره ٨ سنوات، و رحل إلى الجامعة الملية الإسلامية في دلهي بالهند و انسلك في جملة تلاميذها.

وكيل المدرسة الصولتية بمكة المكرمة

رحلاته فى طلب العلم:

فى عام ١٣٦٤هـ عاد الشيخ مسعود رحمت الله يرحمه الله إلى مكة المكرمة و التحق بالمدرسة الصولتية و قرأ على والده الشيخ محمّد سليم يرحمه الله اداب اللغة الفارسية و الأوردية نثرا و نظماً.

كما تلقى بالمدرسة الصولتية علومها و مناهجها عن كبار علمائها و أعلامها كالعلامة الشيخ حسن محمّد المشاط و الشيخ عمر حمدان المحرس و الشيخ محتار مخدوم بخارى و الشيخ علي بكر الكنوى و الشيخ زكريا عبدالله بيلا و الشيخ عبدالله نيازى و غيرهم من العلماء الأفاضل يرحمهم الله

التدريس:

و فى عام ١٣٧٢هـ تخرج الشيخ مسعود رحمت الله يرحمه الله من المدرسة الصولتية بعد أن نال حظا وافرا من العلوم حيث تخرج من القسم العالى للعلوم الدينية و الشرعية فاجلسه والده للتدريس بها فكان يدرس مختلف الكتب، و انتسب إلى الإدارة مع والده المدير فكان معينه و مساعده و وكيله و القائم بالأعمال الإدارية و تعلم على والده الكثير من جهد و مشقة و صبر و تحمل

مسئولية الإدارة:

فى عام ١٣٩٧هـ توفى والده الشيخ محمّد سليم رحمت الله فتحمل أعباء الإدارة و تقلّد مسئوليات المدرسه الجسام و بذل حياته و وقته لخدمة المدرسة و أهلها و أساتذتها و طلابها و روادها و أثر براحته و صحته فى سبيل اسمرار المدرسة و مواصلة رسالتها

و تتصل خدمته للمدرسة منذ عام ١٣٧٣هـ حتى وفاته نحو ٤٠ عاما، منها ١٥ عاما قضاها مديرا للمدرسة

فجر الأحد الموافق ١٤١٢/٨/٢٧هـ انتقل الشيخ مسعود رحمت الله إلى رحمة الله فترك خلفه قلوبا مأسوفة و عيونا دامعة تدعو له بالرحمة و الغفران و تذكر جهوده و جهاده بالخير و الثناء و تشيد بعطائه حيث لم يعتربه اي مرض فلم يستوعب اهله و محبّوه هول الفاجعة و عظم المصيبة و صلي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة العصر من نفس اليوم و شيع إلى المعلا فى موكب مهيب و حافل بعدد كبير من محبيه و تلاميذه و معاصريه و أساتذة المدرسة و طلابها و الأعيان و العلماء و ووري جثمانه الثرى بين نفوس حزينة رحمه الله رحمة واسعة و غفر له

كلمات الرثاء

و بوفاة الشيخ مسعود رحمت الله يقف تلامذته و أبنائه الأوفياء يدونون كلمات الرثاء على وفاته و قلوبهم يعتصرها الحزن و الأسى و قد عبر الأستاذ منصور حسين عطار بكلمته فقال:

عالما فقدناه . تمضي الحياة بحلوها و مرها ، و يقضي البارى عز وجل فينا قضاءه و قدره تحقيقا لقوله عز وجل (كل نفس ذائقة الموت) ففى يوم الأحد ١٤١٢/٨/٢٧هـ فقدت أم القرى عالما جليلا هو مدير المدرسة الصولتية الشيخ مسعود سليم رحمت الله فحمدت الله سبحانـــه وتعالىٰ و استـــرجعت و تذكرت جهاده الصامت الدؤوب و التى بدأها جده الجليل العالم الداعية خليل الرحمن العثماني يرحمه الله مؤســس المدرســة الصولتيـــة بمكـــة المكرمـــة و بمساعدة السيدة صولت النساء.

و لقد كان يرحمه الله خير خلف لخير سلف فهو من أسرة عرفت بالتقوى و بخدمة الإسلام و نشر العلم و الذود عن حياضه و خدمة طلبته من خلال المدرسة الصولتية العريقة التى حظيت و تحظى بتعضيد ولاة الأمر فى هذه البلاد الطاهرة منذ عهد الملك عبدالعزيز يرحمه الله و حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز الذى شمل المدرسة الصولتية برعايته و عنايته منذ كان ، زيرا للمعارف

مواقف و ذكريات:

لقد كانت هناك مواقف و ذكريات كثيرة مع الشيخ مسعود رحمت الله يرحمه الله حيث كان دائم الحديث عن المدرسة الصولتية و كانت شغله الشاغل و تفرغ لها و وقف نفسه على خدمتها طوال حياته و من أهم تلك المواقف اننى تحدثت معه إثر عودتى من إحدى رحلاتى إلى أرض الكنانة عن انتشار عدد كبير من طبعات مختلفة و متعددة من كتاب اظهار الحق و استفسرت منه عن هذه الطبعات و الإذن بطبعها فأفاد يرحمه الله أنه يعرف ذلك و إن هذه الطبعات جميعها المصريـــة و اللبنانيـــة و المغربيـــة طبعـــت و تطبع دون إذن أو تصريح و إنه والمدرسة الصولتية و آل رحمت الله لم يفكروا فى مقاضاة هؤلاء لسبب يرونه أنه يهمهم انتشـــار الكتاب بالعـــالم العربـــى و الإسلامـــى و الغربى لتعميم الفائدة راجين من المولى عز وجل المثوبة و الأجر لجدهم المؤلف و لهم إن شاء الله.

كما أنه ذكر لى أن سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد اسعدهم بتكليفه لسعادة الدكتور عبدالله الزيد للحضور و أخذ موافقة المدرسة الصولتية على طبع

و نشر كتاب اظهار الحق فسعدت المدرسة الصولتية بذلك و ظهر الكتاب فى ثلاثة مجلدات بشكل وثوب قشيبين إضافة إلى المكتبة الإسلاميـــة ما يفيد الإســـلام و المسلمين.

و قام كذلك معالى السيد محمّد حسن كتبى وزير الحج و الأوقاف سابقا و المربى الفاضل السيد محسن باروم بطلب طبع الكتاب باللغة الإنجليزية و تم ذلك مع الشيخ مسعود يرحمه الله كما أن مركز الاعلام الإسلامى ببرمنجهام ببريطانيا قام بطبع الكتاب.

رحم الله الشيخ مسعود رحمت الله رحمة واسعة و أسكنه فسيح جنـاته و أدام الله توفيقه على المدرسة الصولتية منارة العلم بمكة المكرمة خلال أكثر من قرن ، و نرجو الله أن يوفـق ابنـه الأخ ماجـد و اخوتـه لنسيـر بالمدرسـة و تحقيق رسالتها على خير ما يرجو لها كل المخلصين لتظل المدرسة الصولتية تؤدى رسالة العلم و الدعوة إلى الله و ليكـون تاريخهـا التعليمـى موصـولا و عزائى لأبنـــاء الفقيد و لأسرته الفاضلة و لأسرة المدرسة إنا لله و إنا إليه راجعون

الكلمات عاجزة:

و مهما قيل عن الشيخ مسعود رحمت الله يرحمه الله تظل الكلمات عاجزة عن إيفائه حقه من التقدير و الثناء نظير ما قدمه من جهد متواصل لخدمة العلم و طلابه

المربى و الداعية:

و قد عبر الأستاذ مصطفى حسين عطار بكلمة قال فيها

إن فقد العلماء خسارة و فقيدنا فضيلة الشيخ مسعود رحمت الله يغشاه الله بواسع رحمته و مغفرته و رضوانه ، و الذى فقدته مكة المكرّمة فجاة فجر يوم الأحد ١٤١٢/٨/٢٧هـ نتيجة أزمة قلبية حادة و فقده ـ رحمه الله ـ العمل و التربية و العمل الإسلامي و الدعوة إلى الله فقد فتح عينيه منذ نعومة أظافره على حلقات الدرس و مجالس العلماء و فصول التحصيل ، إذ ان والده فضيلة الشيخ محمّد سليم رحمت الله الكريم و على يديه أكملـه تلاوة ، و حفظا و تجويدا و هو لم يتجاوز العاشرة من عمره و بعدها بدأ الدراسة النظامية فى المدرسة حتى تخرج فى القسم العالي من هذه المدرسة

و كان يرحمه الله يحضر أكثر حلقات و محاورات و لقـــاءات القضـــاة و العلماء من معلمى المدرسـة و قضاة مكـة المكرمـة و زوار المدرسـة الذين لا ينقطعون سواء من الحجاج أو العمار أم من داخل البلاد ، فتكونت لديه

حصيلة علمية غزيرة ، كما أثرت فى سلوكه و أسلوب عمله الوظيفى و الدعوى طيلة حياته الحافلة بالجد و العمل ، فخدم أهل العلم و طلاب المعرفة و الباحثين من أساتذة الدراسات العليا فقدم لهم ما ينشدونه و يرد على تساؤلاتهم التى تتعلق بأبحاثهم و مؤلفاتهم ، بل أنه يرحمه الله كما يذكر كثير من البـاحثين و المحققين لكتب جده من كتابه الشهير (اظهار الحق) و (المناظرة الكبرى) مع القس الإنجليزى فندر ، انهم إن احتاجوا معلومات إضافية وجدوها لدى الشيخ الجليل الذى ورث امجاد المدرسة الصولتية عني به عناية فائقة فقد أشرف على تحفيظه القرآن.

و قد دون الشيخ عبدالله الأنصارى مدير عام الشئون الدينية بدولة قطر فى طبعة اظهار الحق القطرية ثناء عطرا على الفقيد و مقدمته الضافية التى شملت السيرة الذاتية لجده العلامة الشيخ محمّد رحمت الله خليل العثمانـى و تاريخ المدرسة الصولتية و علمائها و خريجيها و أعمالهم ، و الذين تلقوا العلم فى حلقات جده بالحرم المكي الشريف.

صلته موصولة:

و يعتبر الشيخ مسعود رحمت الله يرحمه الله من القليلين الذين يختزنون فى ذاكرتهم تواريخ حياة العلماء من خريجى المدرسة الصولتية على كثرة أعدادهم وتعدد بلدانهم و مراكز عملهم سواء داخل المملكـة أم خارجهـا ، و صلته موصولة بالأحياء منهم و بأبنـاء المتوفين منهم ، كما كان يعمل والـده و أجداده بتقديم كل صنوف الدعم و كل ألوان المساعدة التى تلزمهم لتيسير عملهم الدعوى أو التدريسى أو البحثى.

أذكر اننى شخصيا حينما اعددت بحثا عن الملك عبـدالعزيز و التعليـم و اشتركت به فى المؤتمر العالمى لتاريخ الملك عبدالعزيز كنت موضحا فيه مدى اهتمامه يرحمه الله بقضايا التعليم و برجال التعليم فتفضل الفقيد الشيخ مسعود باعطائى وصفا كاملا لزيارة الملك عبدالعزيز للمدرسة الصولتية مما سمعه من والده أو نقل له عن جده ، و كانت قصة رائعة إذ وصف قدوم الملك عبدالعزيز و استعداد المدرسة لهـذه الزيارة الكريمـة بدعوة كبار العلمـاء و القضاة فى مكة المكرمة من خريجيهـا و من كبـار مسئولى العاصمة المقدسـة احتفاء بهذه المناسبة التاريخية و للمشاركة فى الفرحة الكبرى بهذا التشجيع و التقدير للعلم و رجاله.

رحم الله أخى مسعود:

وتتواصل كلمات الرثاء على فقيد العلم و يدون السيدمحسن أحمد باروم كلماته المعبرة عن حزنه قائلا:

وكيل المدرسة الصولتية بمكة المكرمة

"فوجئت كغيرى من الإخــوان بنبأ وفاة أخى الأستاذ مسعــود سليم رحمت اللّه الذى حملته إلى مكالمة هاتفية من مكة المكرمة إثر تعرضه لسكتة قلبية استلت من كيانه روح الحياة فأخذت من دنيانا أخــا فاصــلا و صديقــا كريما و مربيا مخلصا

و منذ تولى الشيخ مسعود إدارة المدرسة العتيدة بعد وفاة والده الشيخ سليم رحمت اللّه و هو يبذل من جهده القوى و فكره الدينى و خبرته التربوية فى سبيل تنشئة أجيال الطلاب من أبناء العالم الإسلامى الذين تمتلئ بهم فصول المدرسة ينهلون من مناهل العلوم العربية الإسلامية بنهم زائد و إقبال شديد كى يعودوا إلى بلادهم فى قارتى أسيا و إفريقيا بعد ما حصلوا على صروب الزاد العلمى مما يجعلهم روادا لمسيرة التربية و التعليم و الدعوة فى بلادهم فكان ذلك إيدانا بسريان روح قوية متوثبة فى جنبات هذه المدرسة العتيدة التى حملت مشعل العلم و المعرفة فى البلد الحرام أكثر من قرن من الزمن فكانت بحق منارة شامخة من منارات العلم و التربية و الثقافة صمت نخبة العلماء و المربيين المسلمين الذين أفنوا حياتهم فى تدريس علوم الديــن و اللغة العربية فى فصول المدرسة و حلقات التدريس فى المسجد الحرام بــل و فى بيوتهم أيضا

و لقد كان أخى مسعود يقود المسيرة التربوية فى مدرسته باخلاص شديد و فكر تربوى مثير و عزم قوى على أن يواصل هذه المدرسة رسالتها التربوية و الثقافية الجليلة على الوجه المرضى حتى تظل كما أراد اللّه لها أن تكون معقلا من معاقل التربية و العلم فى البلد الامين

و لست أنسى حماس اخى مسعود فى التعريف بكتاب جده الشيخ رحمت اللّه الكيرانوى المعروف بـ اظهار الحق و الذى حاز شهرة فائقة و ذيوعا قويا فى مختلف أوساط الدعوة الإسلامية فى العالم كله

و بفضل ذلك التعاون العلمى البناء استطاع العالم الباحث الدكتور محمّد عبدالعزيز ملكاوى أن يخرج طبعة محققة و منقحة و مزيده قامت بنشرها مشكورة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية و الإفتاء و الدعــوة و الإرشاد بالرياض و جعلتها وقفا فى خدمة أهــداف نشــر الدعوة الإسلاميــة و إثبات بطلان عقيدة التثليث و ألوهية المسيح

و لقد شاء اللّه لى أن أتعاون مع الفقيد قبل وفاته على طبع و نشر الترجمة الإنجليزية لكتاب اظهار الحق فى ثلاثة أجزاء بدعم مادى سخى من أحد رجال الخير و العمل الإسلامي فى بلادنا العزيزة لتسد ثغرة مفتوحة أمام رواد الدعوة الإسلامية فى البلدان الأجنبية الناطقة باللغة الإنجليزية

و كان من أهداف هذا التعاون العلمى المشترك هو اختصار هذا الكتاب من صروب الحشو و التكرار و الحواشى التى لا تلزم القارئ المثقف العــادى ، و تم الاتفاق مع العالم البحاثة الدكتور محمّد عبدالعزيز الملكاوى نفسه للقيام بهذه المهمة فوعد بانجازها فى خلال عام على أن تتم ترجمة هذا الملخص الشامل إلى لغــات أوربيـــة و شرقية مختلفـــة للرد على افتــراءات المنصــرين

و المستشرقين التى يطلقونها ضد عقيدة الإسلام و شريعته و حضارته.

و هكذا طوى الموت صفحة حياة انسان مؤمن جاهد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام دين الحق و الدفاع عن مبادئه و قيمه الروحية الخالدة بكل ما يملك من وسائل القوة المادية و المعنوية حتى لبّى نداء ربّه راضيا مرضياً عنه.

عجبتُ لطَود للمَعالى و زاخـر　　منَ الجُود أنّى صيَّر اللّحد مضجعا
فلم يلتَحدْ جُهماً وحيداً إنّمـــا　　حَوى لحدُه طودَ المكارم أجمعــا
و لم يخْتَرمْهُ الموت فَرداً و إنّما　　أصابَ به بَحر النّدى و النّدى معا

كان فضيلة الشيخ مسعود شميم رحمت الله من العلماء الأفذاذ بالحديث و التفسير و الفقه و الأدب، أصله من كيرانا (الهند) و يتّصل نسبه بالشيخ جلال الدين العثمانى الملقب بكبير الأولياء (ف ٧٦٥هـ) و المقبـور فـى بلدة بانى بت، تعلم الشيخ مسعود رحمه الله فى دلهى و مكة المكرمة و تخرج من المدرسة الصولتية ثم بدأ حياته مدرساً و تولّى ادارة المدرسة الصولتية بعد وفاة أبيه إلـى أن توفـى ، فضلا إلى ما بذلَ جهوده فـى ترقيـة المدرسـة و توسيعها و إستبقاء مكانتها الرفيعة العلمية كان قد اعتنى بنشر آثار الشيخ رحمت الله الكيرانوى (ف ١٣٠٨هـ/١٨٩١م) فى اللغات العالمية، و كان مولعاً فى الآداب العربية و الفارسية و الأردية و كان يحفظ ألوف من أبيات هذه اللغات عن ظهر قلب.

و كان رحمه الله عفيفاً زاهداً سخياً جواداً دمث الخلق ظريفاً مرحاً طروباً كثُر محبّوه فى أقطار العالم الاسلامى لأنه كان يخدم الحجّاج فى الموسم حسبةً للّه و لاسيّما ضيوف الرحمن الذين يردون من الهند. لقد أصابت نعية وفاته المؤلمة كلَّ من لقيه فى مكة المكرمة ، و لو مرةً واحدة.

إنى تشرفت بزيارة الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً و كرامة فى جماد الثانية ١٤١٢هـ (ديسمبر ١٩٩١م) لمدة أسبوعين و قضيتُ أسبوعا كاملاً فى مكة المكرمة فشاهدت منه الحفاوة البالغة و اكرام الضيوف و المحبّة لن أنساها مادُمت حيّا.

دفن فى مقابر جنّة المعلاة بمكة المكرمة بجوار الشيخ امدادالله المهاجر المكّى (ف ١٣١٧هـ/١٨٩٩م) و الشيخ رحمت الله الكيرانوى (ف ١٣٠٨هـ/١٩٩١م) رحمهم الله رحمة واسعة.

إنّى أرخت وفاته بـ "*مولانا مسعود شميم رحمت الله*" (١٤١٢هـ)

و : "*اللّهم إرحمه و أدخله فى عبادك الصّلحين*" (١٤١٢هـ)

نثاراحمد الفاروقى (رئيس التحرير)

المحدّث الأعظم حبيب الرحمن الأعظمى
مآثره و آثاره

بقلم : سراج الحسن
الباحث بقسم اللغة العربية و آدابها
بجامعة دلهى ، الهند.

["أشهد بأنه إن كان فى العالم كله أحد يستحق أن يلقب بـ المحدث الأعظم فهو المولانا حبيب الرحمن الأعظمى"]

الدكتور عبدالحليم محمود، شيخ الأزهر الأسبق

[المولانا حبيب الرحمن الأعظمى - كما رأيت من عمله - من أعظم العلماء فى هذا العصر"]

المحقق المصرى الكبير محمود محمّد شاكر

فى الحادى عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٤١٢هـ الموافق السادس عشر من مارس عام ١٩٩٢م انتقل العالم المحقق و المحدث الكبير و الفقيه الجيد - عن ٩٥ عاما - إلى رحمة اللّه بعد أن عاش من أجل العلم و المعرفة و وصل إلى القمة و خاصة فى مجال تحقيق كتب الأحاديث النادرة و إخراجها إلى النور و وضع تاليفات كثيرة فى مختلف المواضيع الهامة بالعربية و الأردية تاركا وراءه آثارا تشهد له بالفضل و الألمعية، آثارا اعترف له بها علماء الهند و البلاد العربية فعكفوا عليها يدرسونها و يفيدون منها كما قدرت الهند جهوده فتوجتها بمنحه جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٨٥م اعترافا بخدماته الجليلة فى مجال الحديث و العلوم الإسلامية الأخرى

كان هذا العالم الكبير هو أبوالمآثر المولانا حبيب الرحمن بن الشيخ

المولانا محمّـد صابر عناية الله الأعظمـــى الذى اتّصف بالشخصيـــة الوقورة و الذكاء الخارق و الإيمان القوى بدينه و مذهبه. و بكل مقومات الإنسان العبقرى من عقل و موهبة و عمل و جهـد و اعتـداد بالنفس و حافظـــة قويـــة و شغف بتحصيل العلم و الانتاج العلمى العزيز.

نشأته و ثقافته:

ولد المولانا حبيب الرحمن الأعظمى سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م فى مدينة مئو، بولاية يوبى بشمال الهند. و نشأ و ترعرع فى بيت تشمّ منه رائحة الدين زكية و يغلب عليه الجد و التحفظ حيث أن والده أيضا كان عالما من علماء الهند. فكان هذا البيت مدرسته الأولى بل أهم مدرسة تكونت فيها عناصر خلقه و روحه.

فقد روى لى زائر له

> "*زرته مرة فى بيته (فى مئو، البلدة الصناعيةالتى معظم سكانها من المسلمين و هم من طبقة العاملين فى معامل النسيج) و هو جالس على سريره ، عليه المهابة و الوقار و هو نحيف و عجوز، قليل الكلام ، أسمر اللون مسنون اللحية و حوله بعض تلامذته جالسون فى هدوء و صمت، و لمست هناك بساطـــة فـــى العيش و عدم الاحتفاء بزينة الحياة الدنيا*"

أتم دراسته الابتدائية و مبادئ العربية و التجويد و الخط على أساتذة فى بلدته ثم تلمذ على كبار العلماء فى عصره مثل الشيخ عبدالغفار بن عبدالله و هو من أجلّ تلامذة العارف بالله الفقيه المحدث الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى و تعلم منه اللغة العربية و آدابها و المنطق و الفقه و الحديث و كان متفوقا فى دراسته. ثم التحق بدارالعلوم ديوبند. فأخذ العلم على العلامة أنورشاه الكشميرى و المولانا سيّد أصغر حسين و المفتى عزيزالرحمن الديوبندى، و المولانا شبير أحمد العثمانى و المولانا كريم بخش السنبلى فى الحديث، و التفسير، و المنطق، و الأدب، و الهيئة.

و فى عام ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م لما فرغ من تحصيل العلوم الإسلامية و حصل على الإجازة من كبار الشيوخ و العلماء فى الحديث و التفسير انتدب لتدريس الأدب العربى و الفقه الإسلامى بمدرسة دارالعلوم بمدينة مئو، ثم انتقل إلى جامعة مظهرالعلوم بمدينة بنارس كرئيس لهيئة التدريس فيها. و فى عام ١٩٤٩هـ تولى التدريس بمدرسة مفتاح العلوم، مئو و قام بتطوير هذه المدرسة حتى أنشأها نشأة جديدة و جعلها جامعة للعلوم الإسلامية و ذلك إلى جانب

توليه إدارتها و قد درّس فيها صحيح البخارى و سنن الترمذى لمدة عشرين عاما و أيضا قام بالتدريس لمدة سنة بندوة العلماء فى لكناؤ أيضا يدرس فيها البخارى الشريف.

رحلاتــــــه:

زار المولانا البلاد العربية مرات، إلا أن هدفه من هذه الرحلات لم يكن النزهة أو السياحة و إنما كانت للبحث و التحقيق و للإشراف على طباعة ما حققه من المصنف لعبد الرزاق، كما سافر إلى الحجاز للحج مرات و زار الكويت و دمشق و صيدا و بعلبك ثم قام برحلة أخرى إلى حلب و زار اللاذقية و بلاد الشام و زار البحرين و قد حوّل كل هذه الرحــلات إلى حركــة فكريــة و علمية ينتفع و ينفع بها. فقد استجازه كثير من أهل العلم و أسندوا الحديث عنده و اجتمع فى هذه الرحلات بعلماء الإسلام من أمثال الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق و الشيخ عبدالعزيز بن باز و الشيخ حسن المشاط و الشيخ محمّد حسنين المخلوف و العلامة خيرالدين الزركلى و الشيخ مصطفى الزرقاء ، و مفتى الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد (الذى استقبله فى دارالإفتاء استقبالا حارا و أهداه تأليفه "الشهيد فى الإسلام".

العمل العمومى:

لم يكن المولانا فى معزل عن العمل العمومى تماما فقد احتاره حزب المؤتمر الهندى لترشيحه لعضوية المجلس التشريعى بولاية اترابراديش لخمس سنوات (١٣٦٩هـ / ١٩٥٢م) ، كما كان عضوا لمجلس الشورى بدارالعلوم فى ديوبند (١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م) إضافة إلى عضويته بجمعية علماء الهند و الهيئات العلمية الأخرى فى العالم

مآثره و آثاره العلمية:

كان المولانا - كما قلنا - عالما عبقريا و فقيها فذا و محدثا كبيرا فقد ترك وراءه مؤلفات كثيرة طبعت و نشرت فى الهند و البلاد العربية و من سوءحظنا لم يطبع بعضها حتى الآن

إننا نستطيع أن نقسم آثاره العلمية إلى أربعة أقسام

أولا: مقالاته العلمية التى نشرت فى المجلات الأدبية و العلمية الكبرى باللغة الأردية مثل مجلة "المعارف" الصادرة فى مدينة أعظم كره ، و مجلة

"البرهان" الصادرة فى دلهى و مجلة "دارالعلوم" فى ديوبند، و مجلة "العدل" فى كوجرانوالا، و مجلة "الفرقان" فى بريلى و لكناؤ ، و مجلة "البلاغ" فى بومبائى و مجلة "النجم" فى لكناؤ.

ثانيا الكتب التى حققها المولانا و قام بالتعليق عليها هى:

ا - المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، للحافظ بن حجر العسقلانى

ظفر المولانا بهذا الكتاب بعد جهد جهيد من تركيا و ذلك فى صورة نسختين لمخطوطين واحدذ منها مجردة و الثانية مسندة. و قد جعل النسخة المجردة أساسا لتحقيقه. فحققه و رتبه و علق عليه مع تصحيح ألفاظ غير الصحيحة فى المجردة باستعانة النسخة المسندة. و تعويض ألفاظ غير الصحيحة فى النسختين بألفاظ ذى معنى صحيح و وضع اللفظ الخاطئ فى

> *حضرة الأخ العلامة الكبير المحقق الأستاذ حبيب الرحمن الأعظمى*
>
> *جاءنـى كتابكـم الأول النفيس أما استدراكاتكم فكلها نفيسـة عاليـة ، و لا أقول هذا مجاملة و أشكركم خالص الشكر على هذه العناية الجيدة ، و أرجو أن تزيدونى من إشاراتكم و إرشاداتكم حدمة للسنة النبوية المطهرة و أنتم كما رأيت من عملكم من أعظم العلماء بها فى هذا العصر فالحمد لله على توفيقكم ثم أكرّر الرجاء أن لا تحرمونى من أرائكم النيـرة و تحقيقاتكم النفيسـة حفظكم اللّـه و بارك فيكم*
>
> *كتبه المخلص أحمد محمّد شاكر*

الحاشية. إنه اختار اللفظ الصحيح حينا بنفسه و حينا آخر باستعانة الكتب المكتوبة فى هذا الموضوع. و أحيانا ترك اللفظ فى النسخة الأساسـة كما هو و لكنه كتب فى الحاشية لفظا كان أكثر صحة فى رأيه.

و قد تحدث المولانا فى هذا الصدد عن الرواة و علق عليهم. و توجد مثل هذه التعليقات بوفرة كثيرة. و فى بداية الكتاب مقدمة فيها تذكرة عن الحافظ ابن حجر أحمد بن على العسقلانى (المتوفى سنة ٨٥٢ هـ) ، مؤلف هذا الكتاب و مخطوطاته و كذلك فى الكتاب صور شمسية لبعض الصفحات من المخطوطتين. و يشمل هذا الكتاب على أربعة مجلدات فى أحجام كبيرة. و فى نهاية كل مجلد تحقيق و تعليق على محتويات الكتاب مع ذكر أسماء المراجع التى استعان بها.

و موضوع هذا الكتاب هو استعراض لأحاديث ثمانية مسانيد كاملة هى. مسانيد الطياسى و الحميدى و ابن أبى عمر و مسدد و ابن منيع و ابن أبى شيبة و عبد بن حميد و ابن أبى أسـامة. و أضاف إليه من مسند أبى يعلىٰ و مسند اسحاق بن راهون ، فاستخراج الأحاديث الزوائد فيها على ما فى الكتب الستة و مسند أحمد ثم رتب تلك الأحاديث على ترتيب الأبواب الفقهية خلافا لترتيب المسانيد المستمدة فيها و هى بذلك تساعد فى استنباط الأحكام الفقهية إلى حد كبير

يعد هذا الكتاب أغنى ما الف من كتب السنة ثروة و أغزرها فائدة لاحتوائه على زوائد تلك المسانيد الثمانية تاما و على شىء كثير من زوائد مسندين أخرين ثم لجمعه فى مكان واحد على الترتيب الفقهى ما كان مبدّدا فى ثمانية أمكنة بل عشرة من غير مراعاة لهذا الترتيب و لاشتماله فى كثير من المواضيع على بيان درجة الحديث من صحة و ضعف و اتصال و انقطاع.

يهم هذا الكتاب كثيرا ذوى العناية بعلم الحديث و ذوى الاهتمام بالعلوم الشرعية و هواة الثقافة الدينية فهو مرجع يعين أولائك و هؤلاء على تخريج الاحاديث و نقدها و هو فوق ذلك محاولة لجمع السنة النبوية المطهرة على طريقة تكون سبيلا لصنع موسوعة حديثة.

قامت بنشر هذا الكتاب وزارة الأوقاف و الشئون الإسلامية فى الكويت فى سنة ١٣٩٠هـ

٢- المسند للحميدى:

يعد الحميد من شيوخ البخارى و كتابه المسند يعتبر كتابا ذا قيمة كبيرة فى المسانيد و قد طبعه الشيخ الأعظمى بعد التحقيق و التعليق عليه مع مقدمة جامعة مفيدة و طبع هذا الكتاب فى حيدرآباد فى عام ١٣٨٣هـ / ١٩٥٢م

٣- كتاب الزهد و الرقائق لعبدالله بن المبارك :

يعتبر كتاب الزهد و الرقائق لعبد اللّه بن مبارك المكتوب فى القرن الثانى الهجرى من أقدم و أهم الكتب التى ألفت فى الزهد و الرقائق كان هذا الكتاب غير مطبوع و لم تكن توجد النسخ الخطية لها إلا فى مكتبات معدودة فى العالم فقد نشره المولانا بعد تصحيحه و التحقيق فيه و التعليق عليه و موازنته بالنسخ المختلفة و فى بدايته مقدمة علمية جامعة و فى الكتاب تذكرة عن مؤلف الكتاب و مآثره و كذلك فيه تراجم لرواته. و قد تحدث المولانا فى الحواشى و التعليقات عن الاختلاف فى النسخ، و تحقيق

الرجال و الأسناد و شرح الكلمات العربية الصعبة.

و الكتاب كله يشتمل على ١١ جزءا و ١٦٢٧ حديثا و في نهاية الكتاب إضافة لزيادات النسخ الأخرى. إن هذا الكتاب تحفة نادرة لذوى العناية بعلم الحديث و العلوم الإسلامية. و قد طبع من مطبعة علمى ماليكاؤن فى عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٤- مسند أحمد:

نشر هذا الكتاب المحقق المصرى الشهير الشيخ أحمد محمّد شاكر مع تعليقات له. فعقب عليه المولانا الأعظمى و صحح النسخ الخطية و زين الحواشى بتعليقاته العلميـة الدقيقة فنالت قبـولا و استحسـانا لدى معظـم المحققين و علماء الحديث و اعترفوا له بفضله و تبحّره فى هذا الفنّ.

٥- المصنف لعبدالرزاق:

المصنف لعبدالرزاق من نوادر كتب الحديث و موسوعة فريدة للأحاديث لم تكن توجد لها نسخة مطبوعة. فقام الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى بالبحث عن نسخة خطية لهذا الكتاب حتى ظفر بها. فقام بالتحقيق فيه و التعليق عليه و نشره فى ١١ مجلدا و طبع من مطابع دارالقلم فى بيروت فى عام ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

٦- **سنن سعيد بن منصور** "فى مجلدين" طبع فى ماليكاؤن ، فى الهند فى عام ١٣٨٨هـ.

٧- **انتقاء الترغيب و الترحيب لابن حجر**، طبع فى ماليكاؤن، الهند عام ١٣٨٠هـ.

٨- **تلخيص الخواتم جامع الأصول، للمحدث محمّد ظاهر الفتنى**، طبع فى ماليكاؤن ، الهند.

٩- **كشف الأستاذ من زوائد مسند البزار للهيثمى** "أربع مجلدات" نشرتها مؤسسة الرسالة، دمشق، عام ١٣٩٩هـ.

١٠- **كتاب الثقات لابن شاهين** " معد " للطبع

١١- **المصنف لابن أبى شيبة** ، صدر منه إلى الجزء الخامس، نشرتها المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة.

١٢- **المصنف لابن أبى شعبه** (لم يكن مقدرا لهذا الكتاب أن يرى النور حيث أن الأجل وافاه فحال دون ذلك).

ثالثا الكتاب المؤلفة له بالعربية

١- الحاوى لرجال الطحاوى (هذا عمل مبتكر فانه لم يسبقه أحد إلى التعريف برجال مشكل الآثار)
٢- الاتحافات السنية بذكرى محدثى الحنفية (لم يطبع)

رابعا: الكتب الأردية للمؤلف فى ردّ المعارضين

١- نصرة الحديث، فى الاحتجاج بالحديث و الرد على منكرى الحديث
٢- أعيان الحجاج (فى مجلدين)
٣- ركعات التراويح
٤- ركعات التراويح مذيل برد أنوار مصابيح
٥- الشارع الحقيقى
٦- أحكام النذر لأولياء الله
٧- الأعلام المرفوعة فى حكم الطلقات المجموعة
٨- الأزهار المربوعة فى ردّ الاثار المتبوعة
٩- تحقيق أهل الحديث
١٠- دفع المجادلة عن آية المباهلة
١١ إرشاد الثقلين بجواب اتحاد الفريقين
١٢- التنقيد السديد على التفسير الجديد
١٣ بطال عرا دارى
١٤- تعرية دارى
١٥- دليل الحجاج (رهبر حجاج)
١٦- ردّ تحقيق الكلام (لم يطبع)
١٧- أهل دل كى دل اويز باتيں
١٨- رجال البخارى (ألفه بناء على طلب العلامه السيد سليمان الندوى)
١٩- دست كار اهل شرف

يؤكد المولانا فى هذا الكتاب بان المعيار الحقيقى لمكسب شرعى و شريف بموجب أحكام الهى هو الخوف من الله و التمسك بصراط رسمه سبحانه و تعالى و يدحض المولانا معايير الشرف التى وضعها العرب

المولانا شاعرا:

و مما لا يفوتنا ان نذكر ان المولانا حبيب الرحمن الأعظمى كما كان

متضلعا من العلوم الدينية كذلك كان له إلمام تام و رغبة شديدة بالأشعار الأردية و العربية. فأمامنا رسالة جاءتنا (عن طريق الدكتور رشيد الوحيدى) من نجله المولانا رشيد أحمد الأعظمى يخبرنا فيها عن أشعاره التى قرضها باللغة العربية و كذلك بالأردية.

يقول :

[يا اقبال، يا شاعر الملة ، يا محبوب الأمة ، يا فخر الجماعة
و يا مادح خاتم الرسل، صلى اللّه عليه و سلم
لقد كتبت نعتا صادقا، رفيع الشأن لطيفا جدا
نعت النبى صلى اللّه عليه و سلم
إن هذا النظم يحمس الروح و يقوى الإيمان،
لذا أصبح كل واحد يردد ، صلى اللّه عليه و سلم
فبارك اللّه فيك بهذه الموهبة و أدعو لك أن تستظل بفئ اللّه
و تنعم بنعمه و يرضى بك هادئ العالم صلى اللّه عليه و سلم]

و له ايضا أبيات فى مدح الرسول صلى الله عليه و سلّم فيقول:

[إنه رمز لوجود العالم، و نظام لدوران الكواكب
و اللّه انه مظهر تام لروعة جمال الله
أذكروا معركة البدر ، و اقرءوا واقعة فتح مكة
فتلك كانت مظهرا لغضب اللّه، و هذه كانت رحمة لنبيه
إن مكانة الانبياء كلهم أعلى و أرفع من جميع المخلوقات
و لكنهم كلهم مثل الهلال فى السماء ، أما نبينا فهو مثل البدر التام
إن أحاديثه المطهرة غذاء للروح و طمأنينة للنفوس
و كلامه شفاء لمرضى القلوب
إن كل ما أتانى من علم و معرفة فهو ليس إلاّ بفضله
فكل ما أقوله و أكتبه ، هو من فيضه الذى لا ينقطع]

قصة قصيرة :

الجـــــــدة

بقلم : جوغيندرا بال

بدا أن بيت الجدة كان تقادم عليه الزمن دون سنها بأكثر من مائة سنة و إنها دائما أظهرت له الإحترام عن طريق تغطية وجهها بثوب الرأس كانت هى وحدها تسكن فى هذا البيت القديم. كان توفى زوجها قبل أعصر. و إن الموت زار بيتها للمرة الثانية، و ذلك بدون طرق الباب تنذيرا لها، ليأخذ معه دهاني رام ، إبنها الوحيد و بعد ذلك بعامين إنتقلت روحة دهاني رام إلى جوار ربها تاركة للجدة إبنها الوحيد رام تشاند عاش رام تشاند مع الجدة حتى قبل سنتين و عندما أعطته الحكومة بيتا حكوميا فانه تحرك إلى ذلك البيت مع عائلته و لكن الجده لم بعتمد هذا التحرك و رفضت بتاتا أن تذهب معه إلى البيت الحكومي الجديد و هى كانت مصرة بأنها لن تتخلى عن البيت

تعالى معنا ' ، قال لها حفيدها "و سنؤجر هذا البيت"

هذا إقتراح جيد فى الحقيقة ، قالت الجدة بشعور من الإستياء مادة ظهرها فى نفس الوقت للإستراحة متى ما يصبح المس ضعيفا، سيكون بالإمكان حتى فى ذلك الوقت استرار المزيد من المال منه لا ، أبدا ، إننى لن أخرج من هذا البيت ربما تؤجرنى أيضا ، إن أمكن لك ذلك

شمل بيت الجدة تسع غرف من بينها لثلاث من الغرف لم توجد السقوف كان أن يبقى السقف الثالث لوقت و لكن فى ليلة أراد سارق أن يدخل هذا البيت و ثقب الجدار بينما كان السارق يعمل ثقبا فى الجدار، أظهر البيت إحتجاجه على ذلك بإطلاق السعال و تضرع أمام السارق حتى لا ينفذ فكرته الكريهة و متى رفض السارق الإمتثال للطلب فان الجدار خاطر بحياته و انهدم على السارق و تبعه السقف كان السارق جرح شديدا لكنه تمكن من الخروج من تحت الحطام

سكنت الجدة فى هذا البيت لوحدها و لكنها مع مضى الوقت كانت

أصبحت جزءا لا ينفك لهذا البيت إلى حد أنها إذا ذهبت إلى غرفة أخرى، وجدت نفسها موجودة هناك للترحيب بها .

". كيف أنت أيها الجدة ؟ ' تقول جدة للجدة الأخرى " يبدو أنك مشغولة بتنظيف و قطع الخضار"

"إنني تعبت كثيرا من هذا الباذنجان. فانه يستمر فى التملس من يدى"

"نعم . نعم. أعطينيه إنك أسن من أن تعملى"

"شوفى ، لا تمدى يدك إلى هذه الجهة أ لا ترين أننى أمسك الباذنجان فى اليد الأخرى ؟ ".

"أيها الجدة ! إن عينى الآن قد أصبحتا ضعيفتى البصر".

"هل ذلك يهم أيها الجدة ، إن لم يعد بإمكانك أن تبصرى شيئا. فانك لن تحيى طويلا الآن"

"يا إننى لا أود أن أفقد بصارتى لغاية ذلك الوقت".

متى دخلت الجدتان فى المطبخ مع الخضار فانهما وجدتا هناك جدة ثالثة تحاول إشعال النار.

"تحوّلى قليلا إلى جانب ، أيها الجدة. أعطينى أنبوب النفخ."

لا ، لم تكن تسكن فى هذا البيت جدة واحدة فقط لم يكن بإمكان جدة واحدة أن تنفذ كل الأعمال المنزلية على الرغم من وجود جدات كثيرات فانها كانت تتعب كثيرا و تخرج إلى الفناء. و هنا وجدت أنها كانت مستلقية من قبل على السرير محاولة أن تنام فإن هذا المنظر كان يثير غضبها

"أيها الجدة ، هل أصبحت مسنة لحد أن يتعبك النوم أيضا ؟ قومى من الفراش ، قومى بسرعة. هذه نوبتى للإستراحة على السرير."

ثم إن الجدة تشعر بالعطف للجدة المستلقية على السرير مسكينة ! إنها بالتاكيد تستحق جرعة من الراحة بعد عمل النهار الشاق

إن الجدة المستلقية على الفراش قامت بصورة مفاجئة لتجلس على حافة السرير و تنحنى لكبس رجليها المتعبتين

"هل أنت متعبة أيها الجدة ؟ دعينى أكبس رجليك."

كانت الجدة تناهز تسعين. كانت خرساء للغاية و لإسماعها كان على المتحدث إليها أن يضع فمه على أذنها و يتحدث بأعلى صوته. عندئذ فقط كانت تسمع. و لكن فى بعض الأحيان عندما لم تتمكن من النـوم فـى الليل و بقيت ساهرة حتى عميق الليل فكانت الجدة ترى قمرية ــ و كانت هذه القمرية نفس القمرية فى جميع الأوقات ــ آتية إلى بيتها فى ضوء القمر لتجلس على شجرة المنجة المتواجدة فى فناء بيتها. و يا للعجب ! فكان بإمكان الجدة أن تسمع بوضوح صوت هذه القمرية الرقيق. كانت موسيقى صوت القمرية تتسلل إلى أعماق روحها مثل قطرات زيت الخردل الساخن فى

أذنيها (فى الأيام القديمة كان الهنود عند الإحساس بالألم فى الأذن، يصعون زيت الخردل الساخن فى الأذن موقنين بأن ذلك يزيل الألم و الزيت الساخن فى نفس الوقت كان يخلق إحساسا بالراحة ـ المترجم)

" هه ' فقد جئت تزوريننى ' "

وقفت الجدة على كل باب البيت القديم كان يطل على الفناء

" من ؟ ألست كيسارى ؟ "

" إن لم تكونى أنت فمن الآخر ؟ "

كانت كيسارى صديقة الجدة منذ وقت مبكر فى أيام صباها كانت الجدة فى تلك الأيام سمراء اللون غضة البدن و موسيقية الصوت مثل القمرية

" يا كيسارى ' إن الله تعالى خلقك بنتا فى لحظة عدم تفكير " كانت الجدة تقول. أقول لك إنك فى يوم ستنبت لك الأجنحة و ستطيرين بعيدا مثل قمرية

" و ستذهبين للسكن فى بيت زوجك " ، كانت كيسارى تكمل جملتها ضاحكة مقهقهة "

و فعلاً طارت كيسارى إلى الجنات السبع قبل زواج الجدة بكثير فى أوائل أيام زواجها السارة كانت الجدة نسيت تماما عن كيسارى و لكن فى الأيام الأخيرة متى شعرت الجدة بدنوها إلى وفتها الأخير تنزلت عليها كيسارى من فوق و جلست على شجرة المنجة فى فناء بيت الجدة. و متى سمعت الجدة صوتها المتناغم تذكرت فجاة أيام كانت فى ريعان شبابها و ركضت ذاكرتها إلى قرية والدها

بمناسبات الزواج كانت كيسارى ترسم شوارب طويلة على وجهها بالمسحوق الأسود بينما ربطت ثوب رأسها على الرأس على غرار العمامة و هكذا كانت تلعب دور عريس الجدة إنها كانت تركض من هنا إلى هناك و تجرى مقهقهة بين البنات المجتمعات للإحتفال بالمناسبة و هى فى نفس الوقت كانت تضايق الجدة بإجراء المحاولة لرفع لثامها كانت الجدة تتمتع كثيرا بهذه اللعبة و لكنها فى نفس الوقت أظهرت عدم الرضاء و حاولت الأفلات من يديها. و لكن جاء الوقت المناسب و رفع لثامها والد دهانى رام و فى ذلك الوقت إحمرّ وجهها من الخجل إنها حاولت إخفاء وجهها بيديها و لكنها فى نفس الوقت شعرت بالموسيقى ترنّ أوتارها فى عمق قلبها مثل الأسورة الزجاجية فى يديها

كو . كو .

أحست الجدة كأنها كانت موجودة فى غرفتها و فى فناء البيت فى وقت واحد ، حيث تحولت إلى أزهار المنجة فى ضوء القمر التى طرقتها كيسارى بمنقارها.

" أيها الجدة ، إلى أين تسرعين . .؟ "
" أيها الجدة . . ! أخرجي إليّ."

بدا أن الجدات بدأن يجتمعن خارج كل باب مادات أعناقهن إلى الأمام مستطلعات. و في الخارج كان تكدّس ضباب الشتاء حتى أنه ابتلع فناء بيت الجدة. أرهفت الجدة أذنيها حتى تسمعَ جيداً رفرفة أجنحة كيسارى بين أوراق شجـرة المنجـة و لكنها على الرغم من كل محاولاتها سمعت فقط مأمأة قطة.

ابتسمت الجدة و نظرت إلى نفسها ، كل جدة رأت نفسها في شكلها.

" إننى بلا ريب قد أصبحت مجنونـة ! هـذا قلبى الذى يغنى و لكنى أحاول أن استكشف مصدر صوت الغناء . . ! "

كانت عشرينات من العصافير بنت أعشاشها في غرفة الجدة. حلّقت هذه العصافير حولها فى كل غرفة متزقزقة و مشكّلة مظلّـة كثيفة فوق رأسها.

" أغربن بوجوهكن يا بنات البراهمة ، طرن بعيدا ! إننى لم أقدم هنا لسماع غناءكن. إننـى أبحث عن قطعـة الحجـر لسحـق التوابـل. فأين أخفيتنّها . . ؟

كانت العصافير تنزل مرفرفة أجنحتها تحت السقف و تنحط على قطعة حجر موضوعة فى ناحية من الغرفة لا تدركها الأبصار فى أول وهلة ، متصارعة بعضها البعض للجلوس على قطعة الحجر الصغيرة.

" نعم . نعم . إننى قد رأيتها الآن. و لكن كيف يمكن لى الآن أن استعملها و أنتن جالسات عليها. يجب أن تتخلين عنها !.

و لكن العصافير تبقى جالسة عليها غير عابئة بما قالته الجدة.

" لا . لا ، أيها البنات ! ما عندى وقت لأضيعه فى الدردشة غير المفيدة."

تشو تشو . تشو !

" أيها الجدة ، لا يمكن لك أن تطرديهن هكذا" ، قالت لها جدة أخرى.

" ينبغى أن تجلسى إليهن و أن تتحدثى إليهن لوقت قليل"

" أيها الجدة ، إنهن ثرثارات. إنهن لن تدعنك إذا جلست إليهن متحدثة."

و أخيرا استسلمت الجدة أمام هذه العصافير. "كوشاليا ، كيف صغيرك الآن . ؟ "

فظهر صغير كوشاليا متوثبا أمام أمها قبل أن تجيب بشيء فى الموضوع.

" شوفى ، أيها الجدة ، إننى طيب و بخير. و توثب الصغير من ناحية الغرفة إلى الناحية الأخرى و طار قليلا ليؤكد من بيانه."

" لا تتكبـر كثيـرا . .... ! و أخذت الجـدة تبحث عن حافـة ثوب رأسها و تتفقد عن العقدة فيها حيث كانت ربطت بعضا من حبوب الأرز للعصافير.

كانت العقدة هنا" قالت الجدة ، هل انحلت العقدة و سقط الأرز ؟

" و لكنك دائما تربطين العقدة بشدة و احتياط " ، قالت الحدة المرافقة لها. " كيف يمكن أن تخطىء هذه المرة ؟

" أى نعم ، هى هنا ! لقد وجدتها "

أخذت الجدة حفنة الأرز من حافة ثوب رأسها و قبل نثرها الأرز على الأرض، هاجمت عليها العصافير حتى من الغرف المجاورة للمقاسمة فى الغنيمة. عاينت الجدة بتساهل سرعتها و فروغ صبرها و شعرت كأن روحا جديدة كانت نفخت فى أجسامها

" شوفى أيها الجدة ، إنها أصبحت الآن منهمكـــة للغايـــة لا تلوى شمـــالا و لا يمينا إنها أصبحت مشغولة عن الدنيا كلها و ما فيها و لكن يجب أن نذهب الآن هناك عمل كثير فى إنتظارنا

كانت الجدة تعرف أن أفعى سكن فى غرفة خلفية للبيت القديم كان يسكن هذا الأفعى فى نفس المكان عند أن وردت إلى هذا البيت لأول مرة قبل طويل و فى نفس اليوم الثانى لمجيئها فى محمل الزواج كانت رأت هذا الأفعى قرب جحره حيث استلقى متكورا فى نوم عميق فأطلقت صرخة عالية عند رؤيتها الأفعى فهرولت إليها فى جهة الصرخـــة والـــدة زوجهـــا و عندما رأت الأفعى الملك أسرعت المرأة العجوز إلى حجب وجهها بثوب الرأس بينما قالت للعروس الحديدة أن تغطى وجهها مثلها

" أيها العروس ! إنه جد زوجك ، همست الحماة فى أذن الجدة إنه قد خرج من جحره ليباركك. ينبغى لك أن تقدمى له احتراماتك

لدى سماعه الصرخة المطلقة من العروس الجديدة كان استيقظ الأفعى الملك الرحوم. و رفع رأسه كأنه يقول للعروس الجديدة

"بارك اللّه فيك و أنعم عليك كل الخيرات

فقالت الحماة ، يا بنت ، من المؤكد أن حماك الأكبر يباركك و يتمنى لك أن تغتسلى باللبن و أن يولد لك عدد كبير من الأولاد و الأحفاد

منذ ذلك الوقت كانت الجدة بدأت تضع بانتظام كوب لبن قرب جحر الأفعى قبل ذهابها للنوم بالليل و كانت تجد هذا الكوب خاليا فى الصباح

"أظن أن قطة تشرب هذا اللبن ، كان زوجها دهانى رام يقول لها بلهجة المزاح و لكن بالنسبة للجدة فكانت هذه العملية جدية للغاية و إنها لم تكترث بمزاح زوجها و حتى تكفر عن خطأه على الدين ، دعت الجده خمسة نفر من البراهمة و قدمت لهم الطعام الجيد.

ما اذا وجد لها اللبن أو لا فانها لم تكترث بذلك و لكنها أخذت عليها أن تضع كوب لبن كل ليل لجد العائلة الأكبر. إنها لم تتجاوز عن هذه العادة ألبتة

"و لكن فى مساء يوم كنت فقدت صوابى على وجه التقريب بسبب

ارتفاع الحمى" ، روت الجدة هذه الحكاية لمرات لا يمكن عدادها. "لم أكن قادرة على جلب كوب اللبن لكبير العائلة." "حوالى نصف الليل عندما عدت لصوابى شعرت بأن الحمى كانت انخفضت و كنت أحس كأن جسمى كان أصبح خفيفا للغاية. ما كنت شعرت قبلا بهذه الخفة و التحسن. و إذ ذاك تذكرت فجأة بأننى نسيت أن أضع كوب اللبن لجد زوجى. فقمت فوراً و تركت سريرى لأرى أن كبير العائلة كان واقفا قرب السرير برأسه مرفوعا إلى فوق. فأسرعت إلى حجب وجهى و طويت يدى لتقديم احترامى له. بدا أنه كان هناك منذ طويل يمرضنى حتى أعود إلى صحتى و لم أكن أعرف ذلك. و عنده فقط تحول إلى الوراء و تسلل إلى جحره و هرولت إلى المطبخ لجلب اللبن له.

لم تكن الجدة تسكن لوحدها و لكنها فى بعض الأحيان كانت تتمرغ فى وحل التعاطف الذاتى و تتجول فى المتاهة حيث ضاع لها عدد كبير من أقرباءها الأعزاء. إنهم دخلوها و لم يعودوا. خلال المطر متى بدأت السقوف القديمة تتقطر فكانت الجدة عندئذ تندب قسمتها و تقول :

"هل ترين هذا أيها الجدة ؟ كانت هذه السقوف عمادى الوحيد. و لكنها أيضا بدأت الآن تدمع و الآن قد أصبحت هى ضعيفة للغاية."

"تشجعى ، أيها الجدة" ، تقول لها جدة أخرى مسلية إياها. "نحن لا نزال موجودات هنا و نحن لا نزال قويات."

"تقلن إنكن قويات حتى الآن. فى بعض الأحيان أود أن أضمكن إلى صدرى بقوة و أن أمزق لحمى حتى أموت. هل هذه هى الحياة ؟."

"و لكن لا تستطيع أن نفعل شيئا فى هذا الشأن، أيها الجدة. ينبغى أن يحيى الإنسان حتى آخر نفسه."

"نعم ، و لذلك لا أزال أبقى متنفسة."

كان ذلك يوما ماطرا خلال موسم الأمطار. و مثل السماء كان دماغ الجدة مغطّى بالغيوم السوداء المليئة بالأفكار عن أقرباءها الأعزاء. و فى مثل هذه المناسبات بينما كانت الجدة مثقلة بالأفكار عن الأقرباء فان الجدة نادت بقية الجدات إلى غرفتها حيث جلسن سويا مبرقعات و عندئذ بدأن يندبن مدمعات إحياء لذكرى الأيام القديمة السارة التى ضاعت فى الماضى و التى لن تعود أبداً.

اليوم ، كانت الجدة تشعر بأن قدميها لا تساعدانها فمشت كأنها تجر نفسها و ذهبت بصعوبة إلى داخل البيت و تبعتها الجدات الأخرى. و على غرار الجدة جلسن على الأرض و وضعن الخمار على وجوههن فإنهن صفقن أياديهن فى وقت واحد و أخذن يغنين نادبات :

أمى . يا أمى .... !
مع من أقاسم أسرارى .. .. !

أمى العزيزة .... تعالى !

شوفى . . أن بنتك العزيزة تحن لرؤيتك !

أمى العزيزة . أملئى فمى بالقشدة !

أملئى فمى بالقشدة قبل أن يرانا الآخرون !

أمى العزيزة . قفى و لا تتشاجرى مع زوجات إخوتى و تعالى إلىّ

تسليدنى !

و تمسحين دموعى !

رفعت الجدة الخمار قليلا عن وجهها قليلا و استرقت النظر إلى بقية الجدات " يا . أنتن قاسيات القلوب ! " ، قالت الجدة على سبيل الشكوى " ينبغى أن تندبن بصوت أعلى" ، و سحبت ثوب الرأس إلى الأمام لحجب وجهها و هذه العملية كشفت عن شعرها الفضى من الخلف على قفاها

يا أبتى !

يا أبتى العزيز !

يا أبتى الحزين !

على الرغم من عرجك حملتنى إلى كل نواحى القرية كنت تحبنى من عميق قلبك ، يا كبير القرية !

على الرغم أنك أطعمت بنتك الزبدة و أشربتها اللبن و لكنك حولتها إلى الأجانب لسمعتك الزائفة

لماذا فعلته يا رئيس الهيئة الريفية !

لماذا !.

كان ذلك كبيرك فيك و ليس والدى الذى فعل ذلك يا أبتى العزيز !

كانت عينا الجدة تتقطر مثل سقوف بيتها

و بعد ذهاب بنتك من يضع الآن الزيت فى شعرك و يديك رأسك ؟

بعد عودتهم من العمل فان إخوتى يذهبون مباشرة إلى زوجاتهم

و الأم من المؤكد ، تكون مشغولة بالأعمال المنزلية أعرف أنه لا يوجد هناك من يكبس رجليك المتعبة من العمل الشاق

من المؤكد، أنك ارتكبت خطأ بترسيلك إياى إلى الأجانب

يا أبتى العزيز !

فقامت الجدة ضاربة صدرها و لكنها فى نفس الوقت كانت تشعر بالضعف فى رجليها و لذا فانها جلست مدة أخرى

يا والد دهانى رام !

نسيت أن تأخذ معك مظلتك

ذهبت بدونها فى الأمطار الغزيرة

تلاشيت فى عالم مجهول للأبد بدون رجعة

يا حماتى . لقد دعوت إبنك إليك بدون إخبارى
إنك سرقتها منى بدون معرفتى .
كان عليك أن تطلبينى قبله
لكنت غسلت قدميك
و أجلستك فى مكان عال
إن زوجات الأبناء فقط يساعدن الحموات و ليس الأبناء
يا ابنى العزيز .. يا ابنى الوحيد ... !
يا ضرغامى !

و متى فكرت الجدة فى دهانى رام ، بدأ السقف يتقطر أكثر و أخذت القطرات تنزل على رأسها

إبنى .. شجاع مثل أسد ، إبنى الوحيد ... !

لم يكن بإمكان أى شخص أن يقول من أين جاءت إليها القوة. أخذت الجدة تضرب صدرها بشدة بينما فشلت الجدات الأخــر أن يضاهينها فتوقفــن و بدأن يشاهدنها باستغراب و بعد قليل استسلمن أمام التعب.

" قفى أيها الجدة قفى . ! "

" يا إبنى . أود إطعامك اليوم الأرز المطبوخ مع اللبن."

" توقفى أيها الجدة .. .. !

" تعال يا إبنى تعال . .. ! "

مدت الجدة ذراعيها و وضعتها على صدرها فوق قلبها. سكتت لوقت قليل محاولة استعادة النفس.

دهانيا .. . أين أنت .. ؟

" أيها الجدة . ..... أ لن تتوقفى عن ذلك ....؟

" صه .. .. ! أ لا ترين أن الطفل قد نام الآن . ! "

سكتت الجدة. و توقف السقف عن التقطر. فجلست الجدة و بقية الجدات ساكتات لطويل ثم ألقت الجدة نظرتها إلى الخارج و رأت أن العالم كله كان يتحمم فى الشمس اللامعة فرفعت اللثام عن وجهها. بعد عودتها من أقرباءها الأعزاء ، شعرت الجدة بالراحة و أضاء وجهها بالسرور.

"يا رب " قامت الجدة بسرعة. "كيف نسيت ذلك ؟ " لقد تركت قدر الخضار على النار. لابد أن الخضار احترق و تحول إلى الفحم.

هرولت الجدة إلى الباب بنشاط جعل بقية الجـدات يستغربن من ذلك و فغرن أفواههن. كان عليها المرور فى الفناء حتى تصل المطبخ. بينما كانت تنزل بسرعة رهيبة السلم المؤدى إلى الفناء ، أخطأت الجدة درجة و سقطت على رأسها فى الفناء. و متى كانت تتنفس نفسها الأخير فانها لم تنس أن الخضار لابد أن احترق بسبب إهمالها و تحول إلى الفحم.

كان رام تشاند ، حفيد الجدة ، يسكن على بعد ستة أميال من القرية ،

فى منزل حكومى و لذا كان من الصعب له أن يعرف أحوال الجدة و ما حصل بها. إن الكلبة جيوان و التى كانت تزور الجدة فى مساء كل يوم بانتظام لتأخذ قطعة الخبز المعتادة ، كانت هى الأولى التى عرفت الكارثة و حيث أن مصراعى الباب الخارجى لم يلتقيا جيدا لذا فان الكلبة جيوان كانت تدخل الفناء من الثقب الكائن تحت الباب و فى ذلك المساء أيضا ، تسللت الكلبة إلى الداخل من هذا الثقب و عندما رأت الجدة مستلقية على الأرض فانها أطلقت نبحة. و بعد ذلك اقتربت باحتراس شديد من الجدة و دارت حولها دورتين بينما لم تفهم الذى كان حصل للجدة ثم كانها فهمت شيئا و خرجت بسرعة من الفناء و هرولت إلى بيت رام تشاند

كان رام تشاند يعرف جيوان جيدا إنه لم يفهم الذى كانت الكلبة تحاول أن تقوله له بنباحها المستمر و لكنه حسّ أن شيئا غير عادى كان حدث و تبعها إلى بيته القديم ربما توفيت الجدة فبدا يشعر بالندامه أنه لم يكن معها فى آخر وقتها إنه كان ذهب إلى منزله الحكومى الجديد ليسكن فيه خلاف إرادتها و كان الفراق مريرا

" أيها الجدة إن لم تريدى أن تاتين معنا فلا أستطيع أن أرغمك على ذلك "

" و لكن لماذا لا تبقى معى هنا ؟ "

" لا يا جدتى ذلك لا يمكن و لكن يمكن لك أن تبقين هنا لوحدك "

كان خادم رام تشاند يوصّل إلى الجدة مؤنها مرة فى الشهر و لكن الطعام فقط لا يكفى إنسانا و حتى أن حيوانا لا يعيش على الطعام فقط إنه يحن إلى الرفاقة.

كان رام تشاند يجرى متلهفا للأنفاس كان دماغه مثقلا باحساس من الندامة. والهفاه . ! إذا توفيت قبل وصوله البيت ! لو أنها توفيت و لم يكن واحد منا بجانبها فاننا لسنا شيئا غير تماثيل من الحجر

إن الباب القديم المتآكل سقط على الأرض على دفعة خفيفة و سقط معه على الأرض حفيد الجدة إن كبير العائلة رفع رأسه ليباركه و يرحب به بهسهسة و بعد ذلك اختفى بسرعـــة حاول رام تشانـــد حتى يبقى متنبها و حاضر الدماغ و لكنه متى دخل الفناء بعد عبوره درجات السلم المترجرجة ، تحول إلى قطعة حجر.

كانت الجدة مستلقية على الأرض بدون حراك و اكتنف جثتها الهامدة عدد من أشكالها الأخر فى ضوء البدر

تعريب : سيد احسان الرحمن

تقرير:

ندوة علمية حول الامام الفراهى (رحـ)

اعداد: أبونافع الفلاحى
باحث فى قسم اللغة العربية
جامعة دلهى - دلهي - الهند

نظمت جمعية أبناء مدرسة الاصلاح القدماء ندوة علمية تاريخية عن شخصية و مآثر المفسر الهندي العظيم العلامة حميد الدين الفراهي المعروف بعبدالحميد الفراهي (١٢٨٠هـ - ١٣٤٩هـ) بمدرسة الاصلاح سراى مير اعظم جراه اترابراديش الهند فى فترة مابين ٨ - ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) الماضي و كان هذا العالم العبقري ، ابن تيمية العصر فى ألفاظ العالم المعروف السيد سليمان الندوى، قد وُلد فى "نريها" قرية صغيرة بمديرية خصبة علمية تسمى اعظم جراه، و كان ابن خال العالم المؤرخ الاسلامى شبلى النعماني و هو كان أكبر منه زهاء ٦ سنوات، فتعلم اللغتين العربية و الفارسية و العلوم الدينية كعادة أهل زمانه على أيدى العلامة شبلى النعمانى و فيض الحسن السهارنفورى و عبد الحى الفرنجي محلى و غيرهم من العلماء و لم يبلغ من عمره ٢٠ عاما حتى تمّهر فى اللغة العربية و العلوم الدينية و أما الآداب الأجنبية فقد حذق فيها حذاقة كاملة خلال تعلمه فى جامعة عليجراه، و بذلك أصبح عالما للعلوم القديمة و الحديثة.

و منذ شرخ شبابه جعل الامام القرآن الكريم محورا لتدبره و تفكره و اعتاد نفسه للغوص فى معانيه و أساليبه و ألفاظه و وقف نفسه لمطالعة القرآن الكريم حتى نضج فيه و أخرج لأهل الدنيا دررا لامعة بصورة تصانيفه القرآنية، و الميزة التى جعلته فريدا بين المفسرين الكرام هى أنه قدّم فلسفة نظام القرآن على أسس متينة ثابتة من خلال كثرة مطالعة القرآن الكريم و السنن و الأحاديث النبوية و العلوم الدينية و الأجنبية، و ان لم يكن له السبق فى ايجاد هذا الفن اى فن نظم القرآن فانه أعطى له شكلا نهائيا، و جاء بمؤلفات قيمة مثل *تفسير نظام القــرآن، و دلائل النظام و أساليب القــرآن و التكميل فى أصول التاويل.*

و هنا جدير بالذكر ان الفراهي كان مؤسسا فكريا لمدرسة معروفة تسمى مدرسة الاصلاح الواقعة ببلدة سراى مير اعظم جراه و جعلها مركزا لفكره الخاص و معهدا لتفسير القرآن الكريم و هذه المدرسة من أكبر مدارس الهند، التى أنجبت جهابــذة العلماء و الدعــاة و القـادة الاسلاميين مثل العلامـة أمين أحسن الاصلاحى ، و الأستاذ أختر أحسن الاصلاحى و الأستاذ صدرالدين الاصلاحـى و الأستــاذ أبوالليث الاصلاحـى، و كان رحمــه الله من مؤسســى دارالمصنفين بمدينة اعظم جراه التى تعد مـن أهم المؤسسات الاسلاميـــة للبحـــث و النشر في الهند و كان الفراهى أول رئيس لهذه المؤسسة.

و لإبراز فكره و ترويج آرائه القيمة عقدت هذه الندوة التى شارك فيها أبرز علماء الهند و الباكستان و على رأسهم حضرة العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوى افتتح جلستها البدائية بخطابه المؤقر ، أشاد فيه بمآثره التفسيرية و أظهر له قدرا و احتراما كبيرا و وصف بأنه امام المفسرين لهذا القرن و استعرض منهجه التفسيرى و عدّ العديد من ميزاته التفسيرية منها تمهيد الطريق لفهم القرآن، و الربط فيما بين الآيات و البحث فى أقسام القرآن. و ذكر الأستاذ الندوى من بين مصنفاتــه كتاب "*جمهرة البلاغة*" خاصة و هذا الكتاب قد تعذّر حصوله لأصحـاب العلم لطبعه مرة واحدة و هى قبل سنة الأربعين من هذا القرن. و قال ان هذا الكتاب يجب أن يعم بين علماء العرب أيضا و أبدى أسفه الشديد على عدم تعارف شخصيته و مآثره فى العالم العربى.

و من الشخصيات العلمية التى شاركت فى هــذه النـدوة، هم الشيخ نجم الدين الاصلاحى من بقايا تلامذة الفراهى و الأستاذ صدرالدين الاصلاحى صاحب كثير من المؤلفات الدينية الهامة و الأستاذ بدرالدين الاصلاحى مدير مكتبة الدائرة الحميدية و البروفسور عبيد الله الفراهى حفيد الامام الفراهى و أستاذ الأدب العربى فى جامعة لكناؤ.

و المقالات التى عرضت فى هذه الندوة اكثرها فى اللغة الأردية و نذكر هنا عناوين بعض أهم المقالات كما تلى:

١- "علم التفسير و العلامة الفراهى" للسيد جلال الدين أنصر العمرى نائب أمير الجماعة الاسلامية الهندية و مدير دائرة التحقيق و التصنيف بعليجراه.

٢- "الامام الفراهى من خلال خمس ميزاته التفسيرية" للأستاذ عنايت الله السبحانى (جامعة الفلاح بلريا غنج اعظم جراه)

٣- "الدراسة المقارنـــة لتفسيـــر ســـورة الاخـلاص للفراهـــى" للأستاذ غياث الدين الندوى، كلية الطب لكناؤ.

٤- "نظرية نظم القرآن و الفراهـــي" للأستــاذ محمـــد عـارف العمـــرى ،

دار المصنفين شبلى اكاديمى اعظم جراه

٥ - "أصول التفسير عند الفراهى" للحافظ أشهد رفيق الندوى (عليجراه).

٦- "منهج الفكر الفراهى فى ضوء كتابيه جمهرة البلاغة و أساليب القرآن" للأستاذ نعيم الدين الاصلاحى جامعة الفلاح بلريا غنج اعظم جراه

٧ - "الروايات التفسيرية و العلامة الفراهي" للدكتور رضى الاسلام الندوى كلية الطب جامعة عليجراه الاسلامية.

٨ - "علم الحديث و العلامة الفراهى" للدكتور ألطاف أحمد الاعظمى جامعة همدرد دلهى الجديدة

٩ - "أراء الفراهي فى التفسير بالرأى و التفسير بالمأثور" للأستاذ نسيم أحمد الاصلاحى مدرسة الاصلاح سراى مير اعظم جراه.

١٠- "حواشي الفراهى على الرسائل لإبن تيمية" للأستاذ ضياءالدين الاصلاحي رئيس دار المصنفين شبلى اكاديمى اعظم جراه.

١١- "تاثير الامام الفراهى فى كتاب سيرة النبى لشبلى النعمانى" للدكتور يسين مظهر صديقى الندوى أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة عليجراه الاسلامية.

١٢- "الفكر الفراهى فى ميزان الشبلى" للدكتور مسعود الرحمن خان الندوى أستاذ فى كلية لدراسات الأسيوية الغربية بجامعة عليجراه الاسلامية.

١٣- "فكرة الامام الفراهى حول الحكمة الالهية" للأستاذ نظام الدين الاصلاحى رئيس جامعة الفلاح بلريا غنج اعظم جراه

١٤- "فكرة الفراهى حول الحاكمية و الخلافة" للدكتور عبيد اللّه فهد الفلاحي جامعة عليجراه الاسلامية.

١٥- "مسلك الفراهي في الحديث" لسلطان أحمد الاصلاحى . دائرة التحقيق و التصنيف الاسلامي بعليجراه.

١٦- "نظرية الامام الفراهى فى الشعر و الأدب" للدكتور عبدالبارى شبنم السبحانى.

١٧- "أفكار الامام الفراهى النقدية فى الأدب و البلاغة" للدكتور محمد راشد الندوى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليجراه الاسلامية

١٨- "الامام الفراهى حياته و مآثره " لظفر الاسلام الاصلاحى أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة عليجراه الاسلامية.

١٩- "أساتذه الفراهى" للأستاذ شرف الدين الاصلاحى ، باكستان،

٢٠- "المسلك الاقتصادى للفراهى" للدكتور عبد العظيم الاصلاحى أستاذ الاقتصاد بجامعة عليجراه الاسلامية.

٢١- "العلامة الفراهى فى ضوء مكاتيب شبلى النعماني"للدكتور أبوسفيان الاصلاحى أستاذ اللغة العربية بجامعة عليجراه الاسلامية.

٢٢- "الامام الفراهى و نظرته الثاقبة الحساسة" لمترجم القرآن فى اللغة الهندية السيد محمد فاروق خان ، دلهى، و قد بقى عديد من المقالات التى لم تعرض فى الندوة و من أهمها " الثروة الغير المطبوعة لتصانيف الفراهى" للدكتور أجمل أيوب الاصلاحى أستاذ فى جامعة المدينة المنورة.

وبالاضافة إلى هذه المقالات، عرض عديد من المقالات فى اللغة العربية و هى :

٢٣- "مكانة الفراهى بين المفسرين" للبروفسور معين الدين الاعظمى رئيس قسم اللغة العربية فى دائرة اللغات الأجنبية بحيدر أباد.

٢٤- "المقارنة بين شعر الفراهى و الشعر العربى الجديد" للدكتور محمد أسلم الاصلاحى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كاشمير

٢٥- "الأستاذ الفراهي من خلال كتبه في القواعد" للدكتور شميم الحسن أمانة اللّه ، جامعة جواهر لال نهرو دلهى الجديدة.

٢٦- "المفسرالملهم" لمحى الدين الغازى طالب جامعة الفلاح بلريا غنج اعظم جراه.

و بهذه المناسبة أقامت مكتبة الدائرة الحميدية التى تهتم بتاليف الفراهى، معرضا لتصانيفه و من آثاره التى طبعت من هذه المكتبة ، هى كما تلى:

(١) تفسير نظام القرآن - (٢) مفردات القرآن - (٣) الامعان فى أقسام القرآن - (٤) الرأى الصحيح فيمن هو الذبيح (اثبت فيه ان اسماعيل عليه السلام هو الذبيح و ليس اسحاق عليه السلام على رأى اليهود) (٥) جمهرة البلاغة (يرفض فيه علم البلاغة المنقول عن اليونان و يضع أساس علم بلاغة اسلامى جديد) (٦) أسباق النحو (فى جزءين بالاردية) (٧) دلائل النظام (حول النظم أى تسلسل المعانى فى سور القرآن الكريم) (٨) أساليب القرآن (حول أساليب البيان) (٩) أصول التاويل (التى ينبغى مراعاتها عند تفسير القرآن) (١٠) القائد إلى عيون العقائد (حول العقائد الاسلامية فى ضوء القران) (١١) فى ملكوت اللّه (حول النواميس الكونية فى ضوء القران) (١٢) ديوان أبى أحمد الانصارى (ديوانه للقصائد العربية) (١٣) ديوان حميد (مجموعة قصائده بالفارسية) .(١٤) حجج القرآن (فى الفلسفة القرآنية) و هذا الكتاب لم يطبع حتى الأن. (١٥) "كتاب الحكمة" (حول الحكمة في القرآن و طرق استنباطها" و هو أيضا غير مطبوع. و غير هذه التصانيف له رسائل قرآنية لم يكتملها الامام في حياته و لم تتحلّ بحلية الطبع حتى الأن.

Thaqafatul Hind · Statement of ownership and other particulars.

FORM IV

(See Rule 8)

	Place of Publication	Indian Council for Cultural Relations, Azad Bhavan, I P Estate, New Delhi-110002
'	Periodicity of its Publication	Quarterly
I	Printer's Name (Whether citizen of India?) (if foreigner, state the country of origin) Address	Smt Veena Sikri Yes Director General, ICCR, Azad Bhavan, I P Estate, New Delhi.
i	Publisher's Name (Whether citizen of India) (if foreigner, state the country of origin) Address	Smt Veena Sikri Yes Director General, ICCR, Azad Bhavan, I.P.Estate, New Delhi.
)	Editor's Name (Whether citizen of India?) (if foreigner, state the country of origin) Address	Nisar Ahmad Faruqi Yes ICCR, Azad Bhavan, I P.Estate, New Delhi.
	Names and addresses of individuals who own the newspaper and partners or share holders holding more than one per cent of the total capital	Smt Veena Sikri Director General, ICCR, Azad Bhavan, I P. Estate, New Delhi

Smt Veena Sikri hereby declare that the particulars given above are true to the best of my knowledg d belief

ted 14.2 1990

Veena Siki
Publishe

مجلة علمية، ثقافية، جامعة، فصلية

ثقافة الهند

المجلد ٤٣ العدد ٢

١٩٩٢م

المجلس الهندى للعلاقات الثقافية

آزاد بوان، نيو دلهى

إن المجلس الهندى للعلاقات الثقافية منظمة حرة تحت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية، أنشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى، و كجزء من برنامج مطبوعاته الموجه لتحقيق هذا الحوار الثقافى بين الهند و البلدان الأخرى، ينشر، بين ما ينشر، عدة مجلات ففى الانكليزية "Indian Horizons" و "Africa Quarterly" و فى الفرنسية "Rencontre Avec l' Inde" و فى الاسبانية "Papeles de la India" و فى الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات فى السنة. وبدل الاشتراك السنوى للمجلات فى الانكليزية و فى الهندية مطبوع فى العمود المقابل *إلا ان مجلات المجلس فى اللغات العربية و الفرنسية و الاسبانية توزع مجاناً* و المراسلات المتعلقة ببدل الاشتراك و دفع الثمن و بشئون الطباعة و النشر توجه إلى :

The Programme Director (Pub)
Indian Council for Cultural Relation,
Azad Bhavan,
Indraprastha Estate
New Delhi - 110002

بدل الاشتراك

(للمجلات فى الإنكليزية و فى الهندية فقط)

عدد واحد - ٥ روبيات، £1.00 - $2.50
سنويا - ٢٠ روبية، £4.00 - $10.00
٣ سنوات - ٥٠ روبية، £10.00 - $25.00

نشرها و طبعها السيدة ڤينا سيكرى المديرة العامة المجلس الهندى للعلاقات الثقافية، أزاد بوان، نيو دلهي - الهند. طبعت فى مطبعة ڤاب انتربرائسيز جرين بارك، نيو دلهي.

توزع مجاناً

رئيس التحرير: البروفسور نثار أحمد الفاروقى

مجلـــة ثقافة الهند فصليـــة

المجلـــد ٤٣ العـــدد ٢

١٩٩٢م

محتويات هذا العـــدد:

الحلقة الأولى :

حياة العلامة شبلي النعماني

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي

شهد القرن التاسع عشر المسيحي في العالم الإسلامي بأسره صراعاً بين القديم و الحديث ، صراعا اذن بانصرام عهد و استهلال عهد جديد، و انقلاب الموازين الفكرية و المقاييس النظرية ، و تطور القيم و المثل و تبدل الوجهات و الآراء ، و تحول القيادة من المزعمين للدين إلى حملة لواء التحرر و الانحلال

أما الغرب المسيحي فقد خضع لهذا الوضع الجديد و استسلم أمام الثورة الفكرية الحديثة المعارضة للدين و المعادية له ، و لكن العالم الإسلامي - بناء على الاختلاف الجذري بين طبيعة المسيحية و طبيعة الإسلام - لم يستسلم للحضارة الإلحادية الناهضة بل حاول التوفيق بينها و بين مبادئه الأصيلة المحكمة ، و اختلف مواقف القادة المسلمين و الزعماء الدينيين نحو مواجهتهم لهذا السيل الجارف و التيار العرم للحضارة الغربية

انقسم العلماء و القادة المسلمون في هذا الوضع العصيب القاسي نتيجة لما يواجهه العالم البشرى من صراع مرير عات إلى طائفتين طائفة تمسكت بمنهجها القديم و اعتبرت الانحراف عنه ردة و مروقا من الدين ، و طائفة أمنت بكل حديث مستورد من الغرب مهما عارض العقل و النقل و ناقض المأثور الثابت و المعهود المؤيد بالمنطق و البرهان إيمانها بالغيب ، فكان العالم الإسلامي في أمس حاجة إلى شخصية بارزة فذة تتصف بالفكر السليم و الدراسة الواسعة العميقة الناقدة لكل قديم و حديث ، تعيد إلى الطبقة المثقفة ثقتها بالدين و تعاليمه الثابتة الخالدة و تميز بين الطيب و الخبيث مما تمخض عنه العهد الحديث في عالم الفكر و الثقافة و التعليم ، و تقضى على هذا الصراع الذى وزع العالم الإسلامي و مزقه شر تمزيق

برز العلامة شبلي النعماني على مسرح الوجود في النصف الثاني من هذا القرن بفكره الشامل الدقيق و المتزن العميق و هو في الواقع نقطة بداية لعهد جديد لا في الهند وحدها بل في العالم الإسلامي بأسره كان متخصصا

فى العلوم الدينية والفنون اللغوية و الأدبية و العقلية القديمة، و خبيرا بالآراء و الأفكار و الثقافات و الصناعات الحديثة . صحب العلمــاء و الأساتذة الكبار القدامى، و المثقفين العظام و خبراء التعليم الحديث. كان محققا ، باحثا ، أديبا ، شاعرا ، منشئا، خطيبا ، كاتبا قديرا ، مؤرخا ، متكلما ، مفكرا ، مصلحا ، سياسيا محنكا، إخصائيــا فـــى التعليم و ثوريا تجاه كثيـر من متطلبــات و مقتضيات العصر الراهن ، فكأنه باقة أزهار منوعة ذات ألوان زاهية جميلة.

موطنه:

ولد العلامة شبلى النعمانى فى إحدى قرى مديرية "أعظم كره" بولاية اترابراديش شمالى الهند. و تمتاز أرض "أعظم كره" من بين بقاع الهند بما أنجبت من رجالات العلم و الفن و الشخصيات البارزة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ و لاتزال أرضا خصبة منجبة.

القرية التى ولد فيها تسمى "بِندَول" كان يسكنها "راجبوت" (و هى طبقة الفروسية و الحكم و السيادة) ينتمى إليها العلامة شبلى.

نسبــه:

اعتنق جده الأعلى من طبقة "راجبوت" الإسلام قبل أربعة قرون تقريبا ، و كان إسمه شيو راج سينغ ، ثم سمى "سراج الدين" يتصل إليه العلامة شبلى بثلاث عشرة واسطة ، و نسبه كما يلى.

العلامة شبلى النعمانى بن الشيخ حبيب اللّه بن المنشى الشيخ حسن على بن الشيخ عباداللّه بن الشيخ كريم الدين بن الشيخ محمّد رضا بن الشيخ محمّد فخر جهان بن الشيخ أمان اللّه بن .لشيخ محمّد اسماعيل بن الشيخ مهدى بن الشيخ لال محمّد بن الشيخ أحمد. بن الشيخ سهراب بن شهباز بن شيو راج سينغ (سراج الدين).

قصة إسلام سراج الدين :

يحكى عن إسلام سراج الدين أنه خرج يوماً إلى بعض مقاطعاته فى صباح مبكر، و استغرق ذلك وقتا طويلا ، فتأخر رجوعه و وصل إلى بيته عند الظهيرة بعد ما قطع أميالا مشيا على الأقدام و كان قد بلغ الجوع و الظمأ منه مبلغهما ففقد وعيه و قوته و نزل عن فرسه و دخل المطبخ من دون أن يخلع نعليه (يعتقد الهندوس أن دخول المطابخ فى النعال يدنس الطعام، و أما الإسلام فقد رفعه اللّه عنه هذا الإصر) و كانت زوجة أخيه تنتظره ، فغضبت عليه و قالت: أصبحت تركيا ؟ (و كان الهندوس يسمون المسلمين آنذاك أتراكا) حتى دخلت المطبخ فى نعليك ، قد دنست الطعام.

ففعل فيه كلام المرأة ما لا تفعله الخطب المثيرة و المناظرات و المجادلات العلمية و الدلائل البرهانية و قال . " إذا كنت ترميننى بالتركية فأنا تركى

منذ الآن" و خرج من بيته تواً ، و دخل مسجد الزاوية حيث أشبع جسمه و روحه و دخل الدين الحق ، و سمى سراج الدين

والده :

كان لجده أربعة بنين حبيب الله ، و مجيب الله و عجيب الله و نجيب الله. و أبوه هو الشيخ حبيب ، تعلم المقررات الدراسية البدائية ، و برع فى اللغة الفارسية ، و كان يتذوق بها ، و كان يحمل مكانا مرموقا بين الناس ، و له يد كبير فى إطفاء نار كثير من الحروب و الفتن ، و الإصلاح بين الناس و كان متصفا بالكفاءة العلمية و الكرامة و الأخلاق و العزة الدنيوية و القبول بين الناس ، و كان ذا ثروة و مال يمتاز بالورع و التقوى و الصلاح

والدته:

كانت أمه إمرأة صالحة متدينة ، تقوم الليل ، و كان العلامه شبلى يثنى عليها و يشيد بذكرها ، كان يقول إنما تعودت على النهوض مبكرا بحسن تربيتها ، و استأثرت بها رحمة الله قبل سنة ١٨٨٦م

مولده:

ولد العلامة شبلى النعمانى فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٧٤هـ الموافق لشهر مايو سنة ١٨٥٧م و صادف ميلاده الثورة الهندية الكبرى التى قادها المسلمون ضد استيلاء الإنجلير على الهند الإسلامية

سماه أبواه محمّد شبلى، و كان العلامة كذلك يسمى نفسه محمّد شبلى ، ثم اقتصر على شبلى و أضاف إلى إسمه نسبة النعمانى" و لقد أخطأ من ظن أن نسبه ينتهى إلى الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت ، بل الواقع أن العلامة كان فى بداية أمره متصلبا فى المذهب الحنفى و مفتخراً به و معتزاً و كان يحب الابتداع و الابتكار فى كل شىء فلقب نفسه النعمانى بدل الحنفى

طفولته:

عاش طفولته فى نعمة و رفاهية و هناء ، و كان مطبوعا على الذكاء و الذاكرة القوية ، و كان يتذكر كثيرا من قصص طفولته و يحكيها ، ذكر مرة أنه كان مضطجعا فى فناء بيته و هو صغير، فى ليلة مقمرة ، فحاولوا أن يحملوه إلى المظلة و لكنه امتنع . وقال بعضهم انهض و أسرع فالسماء تمطر، فقال كيف تمطر و القمر طالع فضحكوا على ذلك و عجبوا منه

دراسته :

كان العلامة بكرة أولاد أبيه ، و لم يكن إلى ذلك الوقت اطلع على الثمار الشهى الحديد و الحضارة الغربية الحديثة ، فوقفه على اكتساب العلوم

و المعارف الدينية ، تعلم قراءة القرآن الكريم و اللغة الفارسية البدائية فى قريته على الطبيب عبدالله المتوفى سنة ١٣٠٧هـ الموافق لسنة ١٨٩٠م. و هو من سكان "جيراج فور" المجاورة لقريته ، ثم قرأ على المولوى شكرالله المتوفى سنة ١٣١٥هـ الموافق لسنة ١٨٩٧م.

نبوغه الطبيعى:

كان مطبوعا على الذكاء النادر و النبـوغ و الفضـل و حب العلم و الأدب و كان الذوق الأدبى متوافرا فيه منذ الطفولة. إذا رأى منظومة رائعة أكب على دراستها و لم يتمالك نفسه ، و اهتز و طرب لشعر بديع استمع إليه.

و كان يقضى أوقاتا طويلة فى مكتبة تجارية فى طفولته يقلب أوراق الكتب، و يتصفح دواوين الشعراء ، و كانت الأبيات الرائعة تعلق بذهنه.

بعض أساتذته:

قرأ بعض الكتب العربية على المولوى فيض الله المرحوم صاحب الشيخ سخاوت علي الجونفورى الذى كان قد عين مدرسا أعلىٰ فى مدرسة العلوم العربية بأعظم كره.

و تلمذ على المولانا علي عباس الجريّـاكوتى، و كان أحد المنطقيين الكبـار و المجادلين المعروفين ، و شاعراً أديباً باللغة العربية ، و توفـــى سنـــة ١٣٠٢هـ و على المولوى هداية الله خان الرامفورى فى المدرسة الحنفية بجونفور لمدة قصيرة.

مولانا محمّد فاروق الجرياّكوتى:

يدين العلامة شبلى النعمانى فى تكوينه الشخصى للشيخ المربى الأستاذ المولانا محمّد فاروق الجرياكوتى ، و كان يدرّس فى مدرسة "چمشهء رحمت" فى غازيفور فأرسله أبوه إليه ليستفيد منه.

كان العلامة شبلى النعمانى طالبا مطبوعا على الذكاء النادر والفهم القوى كما كان الشيخ محمّد فاروق الجرياكوتى معروفا بتبحره فــى العلـوم و اضطلاعه من الفنون ، و منهجه التدريسى البديع. و لم تمض مدة يسيرة من الزمن حتى طلع العلامة شبلى النعمانى نجما متلألئاً ، و مفخرة عظيمة لأستاذه الجليـــل ، كان المولانا محمّد فاروق الجرياكوتـــى يقول لـه " أنا أسـد و أنت شبلى"

ركز مولانا محمّد فاروق الجرياكوتى اهتمامه الكبير على تعليم الفلسفة و بذل العلامة شبلى جهده المستطاع فى طلب هذا العلم يكتب فى إحدى رسائله :

" درست الفلسفة بعناية بالغة و اجتهاد كبير و دقة عظيمة

و ظلت مقبلاً عليها مشغوفا بها مدة طويلة "

رحلاته :

أتم دراسته على أستاذه الشهير مولانا فاروق الجرياكوتي ثم حمله الحنين إلى العلم و الشغف به على أن ينهل من منابع العلم المنتشرة في أرجاء الهند حتى يوسع دراسته و يعمق نظره و فكره ، و أراد أن يرحل إلى أساتذة الأدب و الفقه و الحديث الذين ذاع صيتهم و عرفوا كمراكز علمية تشدّ إليها الرحال

و كان من بين هؤلاء العلماء الجلة و الأعلام الأفذاذ الشيخ مولانا عبدالحئ الفرنكي محلي المحدث الكبير في لكناؤ ، و الشيخ أحمد على المحدث في سهارنفور ، و الشيخ المولانا محمّد قاسم النانوتوي في ديوبند

اجتلبه أولا صيت الإمام اللكناوي مولانا عبدالحئ الفرنكي محلّي إلى لكناؤ ، و لكن لم يعجبه منهجه في التدريس لما طمع عليه من النقد الفكري و الإجتهاد النظري ، و كان الإمام اللكناوي إمام الحنفية مجادلا عنهم

فتوجه إلى رامفور و تلمذ على مولانا إرشاد حسين المجددي و درس عليه الفقه و أصوله و مكث لديه سنة

ثم سافر إلى ديوبند و استفاد من مكتبها العلميه ، و لاتزال كثير من الكتب بها مكتوبا عليها إسمه بخطه

كان الشيخ مولانا فيض الحسن السهارنفوري الأستاذ بالكلية الشرقية في لاهور قد بلغ في الأدب العربي دوره عالية و همة سامقة ، لم تنجب أرض الهند مثله منذ القرون ، فأراد العلامة شبلي النعماني أن يرحل إليه و يرتوي من نميره العذب الفياض ، و شمر عن ساق الجد للسفر إلى البنجاب ، و لم يوافق أبوه على هذه الرحلة أول الأمر ، و لكن عزيمته أحرزت الانتصار و خرج ببضاعة مزجاة ، و اقام بلاهور محتملا المشاق و المصاعب في سبيل العلم

كان مولانا فيض الحسن أستاذا موظفا في الكلية الشرقية بلاهور ، و كان التدريس الوظيفي يستغرق معظم أوقاته ، و اما بقية أوقاته فقد كان يدرس فيها عليه الطلاب الوافدون من مختلف نواحي الهند، فكانت أوقاته كلها مشغولة ، و لكن الأستاذ - نظرا إلى شوق العلامة العلمي - لم يستطع أن يرفض طلبه و يحرمه ، فامره أن يرافقه من بيته إلى الكلية و يدرس عليه كتب الأدب طول الطريق و استمرت الدراسة على هذا المنوال حتى جاء وقت الإجازة ، فأراد مولانا السهارنفوري أن يقضي إجازة شهرين في وطنه بسهارنفور ، و رغب العلامة كذلك في مرافقته حتى يواصل الدراسة

و لاشك أن مرافقته لمولانا فيض الحسن تركت فيه اثارا كبيرة بعيدة المدى ، و أنشأت فيه ذوقا أدبيا رفيعا و نمت فيه ملكة أدبية و شعرية و نقدية لم تتوافر في أحد من أقرانه

كان أستاذه مولانا محمّد فاروق الجرياكوتي مولعا بالابتكار و الابتداع

و التفلسف و التدقيق ، فكان يقدم المتأخرين من الشعراء و على رأسهم أبوالطيب المتنبى على شعراء الجاهلية ، و كان العلامة شبلى كذلك يذهب هذا المذهب.

و لكن رحلته إلى لاهور أحدثت انقلابا فى فكره و تغييرا فــى اتجاهــه و تجاوبت نفسه مع الشعراء العربى الجاهلى الصادق الواقعى حتى حفظ ديوان الحماسة و كان يتغنّى بشعره إلى آخر أيام حياته.

و اطلع على كتاب جمهرة أشعار العرب عند المولانا فيض الحسن السهارنفورى ، و استعار الكتاب منه ثم أعطاه لمولانا محمّد فاروق حتى يطالعه.

اختار الكتابة بالاسلوب العربى الساذج المترسل بعد ما طالع كتب الجاحظ فى كلية عليجره ، و لكن مرافقته لمولانا فيض الحسن السهارنفورى هى التى بذرت فيه البذرة الأولى.

من أكبر مآثر مولانا فيض الحسن السهارنفورى إدراكه للبيان القرآنى المعجز و تذوقه به ، و كان يلقى على تلامذته دروس ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية وفق منهجه الخاص المعتمد على الإشارة إلى المناحى البيانيــة ، و كان يطلعهم بنكات الفصاحة و البلاغة و دقائق البيان و الإعجاز و ظل هذا الذوق و الاتجاه مسيطرا على العلامة شبلى طول حياته ، و له خطاب مطبوع فيه إيعازات إلى هذا المنهج الفريد ، و ألقى دروسا أمام بعض طلاب دارالعلوم ندوة العلماء حول دقائق الإعجاز و البيان فى القرآن الكريم.

استأثرت رحمة الله تعالى بمولانا فيض الحسن سنة ١٣٠٤هـ الموافق لسنة ١٨٨٢م ، تلقى العلامة هذا النبأ المؤلم المفجع و هو يلقى المحاضرة فى بعض الفصول فى كلية عليجره الإسلامية ففاضت عيناه و أشار على الطلاب أن يقوموا عنه ، ثم كتب رثاءً عليه باللغة الفارسية يفيض تفجعاً و ألماً.

رحلته إلى المحدث مولانا أحمد على السهارنفورى :

كان من العادة فى ذلك الوقت أن يعنى الطلاب بالحديث النبوى الشريف و علومه بعد أن يضطلعوا من غيرها من العلوم و الفنون و الصناعات ، و طبقا لهذا المنهج فــان العلامــة اهتــم لطلب الحــديث بعد أن تخــرج من العلــوم و الصناعات السائدة فى زمنه و كما أنه اختار فى كل علم و فن عالمه الفريد الفذ المتخصص فيه ، كذلك قصد بطلب الحديث أشهر المحدثين فى عصره.

كان مولانا أحمد علي يلقب بإمام الحديث ، و لم يكن فى الحنفية أعلم منه بالحديث ، و من مآثره عدا تدريسه أنه تتبع كتب الحديث و علومه الخطية ثم قام بطبعها بعــد مقابلتهــا و تصحيحها ، أخــرج جامــع الإمــام الترمــذى سنــة ١٢٦٥هـ ، و صحيــح الإمام البخــارى سنــة ١٢٦٧هـ ، يقــول العلامــة شبلى النعمانى :

"إنه قضى عشرين سنة بكاملها فى تصحيح جامع البخارى و التعليق عليه ، و قد تلمذ عليه معظم علماء الحنفية و كان قد أوتى علما جما و عملا صالحا و رزقا واسعا ، و كان متواضعا تقيا صالحا توفى فى سهارنفور سنة ١٢٩٧هـ"

المناظرة و المجادلة :

الجهد الذى بذله مولانا محمّد فاروق الجرياكوتى فى سبيل تدريس العلامة شبلى المنطق على المنهج التطبيقى كان من تاثيره أنه أصبح ولوعا بمراعاة النظام المنطقى و الاستدلال المنطقى و مبادئ المناظرة و أصولها ، يضعها بين يديه فى كتاباته و خطبه و محادثاته ، و كان معروفا بهذه الميزة بين الطلاب إذا وصل إلى مجلس من مجالس الطلاب ناقشوه حول موضوع من المواضيع او مسأله من المسائل ، و كان هذا منهجا سائدا فى ذلك الزمان ، يجتمع الطلاب و يعقدون بينهم المناقشات و المباحثات العلمية ، و من فائدة ذلك أن الطلاب الأذكياء كانوا يريدون به فى تدريبهم العملى و التطبيقى و حفظ المسائل عن ظهر القلب ، و كانت هذه المنافسات و المسابقات تحمل الطلاب على دراسة شروح الكتب و تعليقاتها و المحاورات العلمية

إكمال الدراسة :

كان المحدث الكبير الشيخ مولانا أحمد على السهارنفورى المدرسة الأخيرة للعلامة شبلى النعمانى ، كان يقرأ عليه سنن الإمام الترمذى إذ نوى أبوه و بعض أقاربه الحج إلى بيت اللّه الحرام و نشأ فى قلبه كذلك الشوق و الحنين إلى هذه الرحلة الميمونة المباركة فتأرجح بين حنين إلى دراسة الحديث النبوى الشريف و حنين إلى زيارة الموطن النبوى الشريف مهوى قلوب المؤمنين ، فاستشار أستاذه و شيخه فقال

" تمكنك الدراسة و الطلب متى أردت ، لكن هذه الرحلة الميمونة لن تتهيأ دائما

فعزم على الرحيل و غادر سهارنفور إلى بلدة بومباى ، و كان ابن تسعة عشر عاما تبلغ مدة دراسته نحو أربعة عشر عاما . واصل الدراسة منذ سنة ١٢٧٩هـ الموافق لسنة ١٨٦٣م حتى سنة ١٢٩٣هـ الموافق لسنة ١٨٧٦م

رحلته للحج :

سافر إلى الحجاز مع الركب الكريم من الحجيج بقلب ملئ بالحب و اليقين و حنين إلى التشرف بزيارة الأمكنة الإسلامية الشهيرة و المشاهد النبوية

و المراكز و المكتبات العلمية ، و زار جميع المكتبات في المدينة المنورة ، يقول .

"لم أر في مكان من كنوز الحديث الشريف و علومه ما رأيته في المدينة المنورة."

إعجابه بالأخلاق العربية :

و لقد أعجب خلال رحلته إعجابا كبيرا بأخلاق العرب و سخائهم و كرمهم و بساطتهم و أنفتهم و فضائلهم ، و يحكى قصة لجماله يقول فيها.

"إذا قدمت طعاماً أو شرابا إلى جمالى لم يتناوله وحده، بل قال هلموا و دعا من حولـــه من البدو ثم وزعه بينهم و أخر نفسه "

و يقول العلامة :

" أردت مرة أن أختبره ، فقدمت إليه قطعة لحـم صغيـرة ، فدعـا رفقتــه و زملاءه و قسمها بينهم ، فسألته ما فائدة ذلك ؟ إنها قطعة لحم صغيرة لا تكفيك وحدك فلما قسمتها لم تستلذ بها أنت و لا أصحابك ، فأجاب بالرد الكريم الذى هو منبع كرم العرب و شرفهم وقال "يا شبلى! هذا عار علينا أن نأكل وحدنا."

قال مرة و هو يشرح الفرق بين لغة الكتابة و لغة الحديث :

" كنت خلال إقامتى بالحجاز إذا نطقت باللغة العربية تقيدت بقواعد النحو و الإعراب فقال لى الجمـال مرة. يا شبلى ! أنت نحوى ، فظننت أنه يمدحنى و يشيد بعربيتى، و لكن انكشف لي فيما بعد أنه إنما عرض بلهجتى و تكلفى بالعربية لا أنــه أشاد بها."

أول مشاركة فى عمل قومى :

العهد الذى أكمل فيه العلامة دراسته كان العالم الإسلامى يشهد فيه حركة قوية كبيرة ، و هى حركة الوحدة الإسلامية (الجامعة الإسلامية) و كان السيد جمال الدين الأفغانى من أسبق الدعاة إليها، و كان أخيرا قد أقام بقسطنطنية أو كان قداضطر إلى الإقامة بها، واستغل السلطان عبدالحميد خان هذه الحركة و عرف خليفة للإسلام و أميرا للمؤمنين فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى و ذكر فى الخطب و على المنابر إسمه ، و خلال هذه الفترة نشبت حرب بين روسيا و تركيا سنة ١٨٧٧م و أشعلت هذه الحرب النار فى أنحاء العالم الإسلامى ، و أقبل المسلمون على الدعاء لنصرة السلطان و غلبته و جمع التبرعات و المساعدات المالية للجرحى و المصابين ، و إلقاء الخطب الحماسية المثيرة و إخراج الكتابات فى تأييد السلطان ، و كان ذلك و العلامة

شاب يافع ، فألهبت هذه الجمرة قواه ، و بذل جهده المستطاع فى سبيل جمع التبرعات فى أعظم كره ، و بعث بالمساعدات المالية بواسطة سفير تركيا فى بومباى حسين حبيب أفندى إلى قسطنطنية.

أشغاله العلمية والأدبية قبل احتكاكه بالسيد أحمد خان :

أقام العلامة شبلى النعمانى إلى سنة ١٨٨٢م فى أعظم كره و نواحيها و أخذ خلال هذه الفترة امتحان الحقوق و اشتغل ببعض الوظائف و التجارة و عنى بالشئون الزراعية ، و لكن - رغم هذه الأعمال الشاغلة - واصل أعماله العلمية و الأدبية و الدينية و القومية.

كتب المرحوم الشاه منير عالم الغازى فورى مقالة عن حياة العلامة شبلى النعمانى فى مجلة "Muslim Review" فى عدد أغسطس سنة ١٩١٢م يقول فيها

> "*قضى سنتين بعد إتمام دراسته مدرساً و مناظراً و واعظاً و درّس خلال هذه الفترة ابن خاله إمام المفسرين العالم الصالح التقى مولانا حميدالدين الفراهى - رحمه الله تعالى - و المولوى محمّد سميع المرحوم ، و هو من أخص تلامذته و غيرهما*

و كان يقول الشعر باللغتين الفارسية و الاردية ، و ناظر المعارضين للتقليد و كتب الرسائل و المقالات فى الردّ على مذهبهم و ألف كتاب *ظلّ الغمام فى مسئلة القراءة خلف الإمام* باللغة الأردية سنة ١٢٩٢هـ

كان العلامة شبلى يرى - اتباعا لعامة علماء الحنفية - قراءة الفاتحة خلف الإمام مكروهة ، فألف رسالة باللغة العربية فى أربع و عشرين صفحة أسماها *إسكات المعتدى على إنصات المقتدى* و نالت هذه الرسالة قبولا كبيرا ، و اخترقت حدود الهند إلى مصر و الشام و الروم و لما زار بلدان العالم الإسلامى سنة ١٣٠٩هـ أكرمه علماءها و أجلوه من أجل تأليفه هذه الرسالة ، و كان قد كتبها بلغة فصيحة قوية متينة

و كان حريصا على البحث عن الكتب و المصادر النادرة البديعة القديمة و دراستها ، و كان يقضى معظم أوقاته فى مكتبة فى أعظم كره ، يطالع الكتب العلمية و دواوين الشعراء

و كان لدى العلامة نسخة خطية للكتاب "*ديوان الصبابة*" لإبن أبى حجلة التلمسانى الحنفى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ جمع فيه أفضل ما قاله المحبون و المتيمون العرب فى النسيب و الغزل ، و هذه النسخة موجودة الآن فى مكتبة دار المصنفين و فى طياتها رسالة للعلامة نقدمها فيما يلى حتى يطلع القراء على أسلوبه فى اللغة العربية فى العهد الذى كانت الصناعة تغلب عامة الكتابات

سلام عليكم:

" **هذا *ديوان الصبابه* يصل إليكم ، و اما إنى فلا يمكننى حضور لديكم ، لا لأنى اشتغلت بامور عيـــر طائلـــة، و قعـــدت همتـــى ، و صرفت عيون العناية إلى الدنيا الدنيئة و برأت من تحصيل كمال العلم و الأدب دمتى ، فانى بحمدالله خلقت و كسب الفضل سليط من دمى، فهو لا يفارقنى إن شاء الله تعالى فـــى حالتـــى وجودى و عدمى ، بل لأنى لملازمتى هذه العهدة الرذيلة أدوم أتفكر فى حالتى فيزيد همى و يزداد ملالتى ، وبيدكم الإنصاف ، مـــا هذا إلاّ الجور و الاعتساف ، فصبر جميل ، و هو حسبى و نعم الوكيل.** "

(١٢- ش النعمانى)

دراسة الحقوق :

أخذ امتحان الحقوق خلال سنتى ١٨٧٩م و ١٨٨٠م و اشتغل بوظيفة المحاماة لمدة يسيرة.

رحلته إلى عليجره :

كانت حركة عليجره التعليمية قد نالت قبولا كبيرا فى ذلك الوقت فى الأوساط العلمية و الثقافية ، و كان من هدفها تحلية المسلمين بالثقافة الحديثة و صبغهم بالحضارة الغربية الراقية و رفع مستواهم العقلى و الفكرى استقاء من المنابع العقلية و الفكرية الأوربية و إلحاقهم بركب العلماء الأوربيين ، كأن هذه الحركة كانت محاولة لعزل المسلمين عن ماضيهم التليد و حضارتهم الإسلامية العريقة و جعلهم متطفلين على مائدة الغرب.

كان أخو العلامة شبلى مهدى حسن يدرس فى كلية عليجره ، فسافر أبوه مرة معه إليها للقاء ابنه ، و كتب العلامة بهذه المناسبة قصيدة فى مدح السير سيد أحمد خان ، أعجب بها إعجابا بالغا ، و أشاد بها و طبعها فـــى صحيفة "*على كره جازيت*" فى عدد ١٥/اكتوبر سنة ١٨٨١م، ندرج هذه القصيدة فيما يلى:

المجد يصحــب علمـــا حيث يصـــل	و العلم عن قومنـــا لا يـــزال يرتحـــل
نالوا من الـــذل مـــا لا نالـه أحــد	إذ لا يـــرى فيـــهم علـــم و لا عمـــل
و لا تـــزال ترى ينشـــت شملـــهم	فى كل يوم و قد ضـــاقت بهم حيـــل
لا يرغبـــون إلـــى مـــا كان ينفعـــهم	فجـــل صنعتـــهم للغـــى و الخطـــل
تراهم اليوم فى كـآب و فى قـلـق	فلا أفـــاد فتيـــلا ما بـــه اشتغلـــوا
لا ينتهـــون و قـــد ذاقـــوا وبالـــهم	عن سوء صنع فقد باءوا بما عملـــوا
و هـــل يجازيـــهم إلاّ بمـــا اكتسبـــوا	من كان من عنده الأحكام تنفصـــل

فمن سعى اليوم فى إصلاح بالهم	فالله جازيه يوما بقطع الأمل
إن كنت تسألني من هذه صفته	قلت الإمام الهمام السيد البطل
هو الذى فاق فى الآفاق منزلة	و نال ما لم تنله الأعصر الأول
من أقبل الدين و الدنيا عليه معا	و الآن فى نجح ما قد رام مشتغل
نال المكارم من آبائه و مشى	فى المكرمات على اثار ما فعلوا
فجده سيد الأعراب و العجم	قد قال يا أمتي لما دنا الأجل ،
و هكذا صنع هذا السيد العلم	يقول بالهف قومى يسيء ما عملوا
يا خير من سبط حب القوم من دمه	أحسن و لاتبتئس من سوء ما عملوا
أحسن إليهم و لو جازوك سيئة	و لا تبال بما قالوا و ما فعلوا

كلية عليجره :

و بعد سنة و نصف من زيارته لعليجره شعرت الكلية بحاجة إلى أستاذ للغات الشرقية . فقدم العلامة طلبه ، و اختاره السيد أحمد خان لسابق معرفته و الاطلاع على مواهبه

عين العلامة شبلي أستاذ مساعدا للغة العربية فى يناير سنة ١٨٨٣م على راتب أربعين روبية شهريا ، و أخذ يدرس اللغة الفارسية و اللغة العربية فى الكلية

احتكاكه بالسيد أحمد خان :

كان العلامة نازلا فى البلدة خارج محيط الكلية فقلما يتيسر له لقاء السيد أحمد خان . و لكن منذ أن تعارف كل واحد منهما على صاحبه عرف فضله ، و أدرك مكانته و قيمته و كان العلامة يحب مكتبة السيد أحمد خان و كان السيد أحمد خان يبحث عمن يحل له عقد المسائل العقلية الصعبة. فأنزله السيد أحمد خان بمكان قريب من مقره . و أصبحت المجالس تدور بينهما كل يوم ، يتبادلان الأفكار و الآراء العلمية و الثقافية و الأدبية يقول العلامة شبلي النعماني

> " *كان السيد أحمد خان ذات مرة ينظر فى كتاب الإشارات" لأبي علي سينا ، و اعترضت له مشكلة عجز عن حلها ، إذ وصلت إليه . فقال السيد أهلا ، هذه مشكلة أعيانى حلها ، يقول العلامة فابتدر لساني قائلا و أنى تستطيع ذلك ؟ قلت ذلك ثم ندمت على نفسي ، ثم شرحت له المسئلة ، فتهلل وجهه بشرا*

رأيه فى الثقافة الحديثة :

كان العلامة حتى الآن يسمع عن الثقافة الحديثة و محاسنها و مثالبها و هو بعيد عنها و عن مراكزها ، و لكن لما وصل إلى عليجره تهيأت له الفرصة

أن يشاهدها عن كثب و يختبره ما فيها من محاسن و مثالب، كتب بعد إقامته بعليجره شهور، رسالة إلى عزيز له يقول فيها:

> *" قد تأكد لى و تحقق عندى أن الطبقة المثقفة بالثقافة الإنجليزية و دراسة اللغة الانجليزية طبقـــة فارغـــة ، دع الديـــن و علومـــه و شعائره ، لا عهد لها كذلك بسعة الفكر و تنوره و الحرية الصادقة و الطموح و الهمة العالية ، و حماس الرقى ، و التقدم ليس هنا إلا معرض للملابس و المظاهر الجوفاء كان الناشئون فى بلدنا يزعمون لنا أن الفائزين بدرجة البكالوريوس يفندون المعتقدات الدينية و يدحضون المسلمات الإسلامية إن هؤلاء البؤساء المساكين لا يفهمون حركة الأرض و دورانها ، و قد قال لى السيد أحمد خان غير مرة أنه ليس بين المسلمين المثقفين بالثقافة الإنجليزية الحديثة شخص واحد يقدم رأيا له أو فكرة فى محفل من المحافل خطابة أو كتابة "*

يتبين من هذا الانتقاد الحر الواضح الصريح أن بريق الثقافـــة الحديثـــة و الحضارة الغربية المادية لم يبهر عينيه ، و لم يسلبه لحظة واحدة بصيرته للتمييز بين الحق و الباطل ، الأمر الذى يدل على أن العلامة شبلى النعمانى إنما أخذ من الثقافة الحديثة جانبها النافع للبشرية من علومها و معارفها التجريبية ، ثم ضمه إلى التراث القديم الصالح ، و فكره هذا المعتدل المتزن المتسم بالدقة و الشمول تجسد فى صورة دار العلوم لندوة العلماء.

الشعور بالحاجة إلى الثقافة الإنجليزية :

و كان من فضل إقامته بعليجره أن اتضحت له ضرورة الثقافة الإنجليزية، فاستلفت أنظار أقربائه و استرعى انتباههم نحوها و أسس مدرسة إنجليزية فى بلده أعظم كره فى ٢٠/يونيو سنة ١٨٨٣م.

و إنما ضمت مادة اللغة الإنجليزية فى مقررات المنهاج الدراسى لدار العلوم ندوة العلماء بإلحاح منه سنة ١٩٠٣م.

الذوق التاريخى :

يعتبر العلامة شبلى النعمانى أول رائد للتأريخ المتفلسف فى العصر الحديث فى الهند ، و لكنه يدين فى ريادته هذه لكلية عليجره ، فلم يكن ذوقه التاريخى بارزا قبل اتصاله بعليجره ، و لما وصل إلى الكلية نمى ذوقه التاريخى و هذبه و أضفى عليه لون الفلسفة ، و لعل مرد ذلك إلى اطلاعه على كتاب الدكتور " G.W. Laitnen " عن التاريخ الإسلامى ، و كان مؤسسا و أستاذا للكلية الشرقية بلاهور و عالما باللغتين العربية و الفارسية ، و كان العلامة شبلى يطالع هذا الكتاب و يفرح معجبا بمآثر التاريخ الإسلامى.

و اطلع خلال إقامته بعليجره على مكتبة السيد أحمد خان الحافلة بالكتب الفريدة النادرة من الجغرافيا و التاريخ الإسلامي و العربي المطبوعة في أوربا و مصر و الشام و استنبول ، و من هنالك ابتدأ عهد جديد لدراسته للتاريخ الإسلامي.

ذوق التأليف :

كان مطبوعا على ذوق للتأليف ، و كان من قبل قد طبعت له رسالة *إسكات المعتدي* و الرسائل الأخرى ، و لكن لما وصل إلى عليجره بهذب ذوقه للتأليف و ذلك بفضل مكتبة السيد أحمد خان

و كان السيد أحمد خان أذن له بالاستفادة من مكتبته فكان يقوم بين يدي الرفوف ساعات ، و قد يجلس على الأرجل ، فلما رأى السيد أحمد خان ذلك أمر له بمقعد يجلس عليه و يدرس الكتب

الاطلاع على البحوث و الدراسات العلمية الغربية :

كانت الكلية مجمعا لأساتذة الشرق و الغرب ، و كانوا يتبادلون بينهم أحدث ما وصلت إليه المعارف و البحوث و الدراسات ، فكانت أتيحت له الفرصة للاطلاع على أفكار الغرب و بحوثه و دراساته العلمية و ساعدته على ذلك مكتبة السيد أحمد خان و حظي بوجود الأستاذ ارنولد في الكلية ، يقول الأمير العالم حبيب الرحمن خان الشيرواني أحد المؤسسين لندوة العلماء

> *و من سعادة حظ العلامة شبلي النعماني أنه عاصره في الكلية الأستاذ الباحث البروفيسور ارنولد ، فامترج هذان العرفان بالعلم امتزاج أشعة الأضواء المختلفة الألوان التي تنشر النور في العالم ، اطلع البروفيسور ارنولد العلامة شبلي على مبادئ الثقافة الحديثة و أسسها ، و وسائل المجلس العلمي الغربي و أسبابه و الاعتراضات و الشبهات و المطاعن الموجهة نحو العلوم القديمة ، و كان من ثبات العلامة شبلي النعماني و قوته العقلية أنه لم ينبهر ببريق المبادئ الحديث بل أعمل فكره فيها بهدوء و رزانة و أخذ بالصالح منها بل اتخذها زادة لحياته و رفض المظاهر الجوفاء ، و أما البروفيسور ارنولد فدرس اللغة العربية على العلامة شبلي ، و استفاد منه في الجوانب المضيئة من التاريخ الإسلامي و تاريخ الدعوة الإسلامية ، الأمر الذي حدا به إلى تأليف كتاب دعوة الإسلام و تعلم العلامة شبلي اللغة الفرنسية من البروفيسور ارنولد*

بركات إقامته بعليجره :

لا شك أن العلامة شبلى كان منذ طفولته مطبوعا على الذكـــاء و الذهــن و كفاءات الانتقاد و النظر و مواهب الكتابـــة و التأليـــف و الشعــر و الأدب ، و لكنه يدين فى تنمية هذه الكفاءات و توجيهها نحو التقدم و الازدهار لجو عليجره العلمى و الأدبى و مجالس السيد أحمد خان ، و أقام فى عليجره نحو ستة عشر عاما ، استفاد خلال هذه الفترة فى نواحى الثقافة المختلفة و استقى من مصـــادر الفكــر الحديثــة ، تعرف على الأوضـــاع و الظــروف السياسيـــة و الاجتماعية و العلمية و الحضارية للعهد الحديث و مقتضيــاته و متطلباتــه و وسع فى دراساته ، و هذب صناعة الكتابة و أسلوب التأليف ، أدرك قيمة تراثه الإسلامى العلمى و الحضارى ، عرف الغــرب و درس انتاجاتــه العلميـــة و الأدبية و رسم حدود محاسنها و مساوئها. ملخص القول إنه ظهر فى عليجره مؤرخا ، مؤلفا ، كاتبا ، شاعرا و أديبا ، بل و شمسا للعلمـــاء و علامـــة للزمـــان و قد صرح بذلك فى إحدى خطبه التى يقول فيها:

" الواقع أنه إذا كان جزء من حياتى يستحق أن يسمـــى علميـــا و تعليميا فان هذه الكلية هى التى يرجع إليها الفضل فى مبدئه و منشئه و نموه و ازدهاره و تقدمه.

لا أقول إنى لم أدخل فى مجال التأليف و الكتابة من قبل ، فقد طبع لى كتابان بل ثلثة كتب قبل مدة طويلة ، و لكنها لم تكن تهدف إلا إلى تأجيج نار الخلاف و النزاعات الدينية و المذهبية ، و تشتيت شمل المسلمـــين و تمزيــق جمعــهم و الزيادة فى الفوضى السائدة من قبل."

و قال :

" فانى أدين فى كل ما تعلمت أو جميع ما تقدمت به لهذه الكلية ، فانى تلميذ لهذه الكلية و طالب من طلابها كما انى أستــاذ بهـــا و معلم."

إن ما صرح به العلامة شبلى النعمانى عن نفسه لا يشوبه شىء من المبالغة ، قصد عليجره و ليس له ذكر فى الدوائر العلميـــة و الأدبيـــة و لكــن لم تمض خمس سنوات حتى اخترق صيته حدود البلاد ككاتب ألمعى و مؤلف قدير بارع ، و دبج يراعه أحسن مقالاته التاريخية و سيره القيمة و منظوماته البديعة و هو مقيم بعليجره.

و قام العلامة شبلى بمشاركة عملية فعالة فى نشاطات الكليـــة العلميـــة و الأدبية و الثقافية و حركة السيد أحمد خان الإصلاحية و التأليفية ، و وقف

مؤلفاته على الكلية حتى تعود منافعها إليها ، و ظل يعمل مساعدا للسير سيد أحمد خان.

و لكن العلامة شبلى النعمانى كان يحمل عقلا كبيرا و دراسة عميقة للإسلام و تاريخه ، فلم يقبل من السيد أحمد خان آراءه الشاذة التى تعارض المعتقدات الإسلامية و الأسس الدينية ، بل انتقدها انتقادا حرا أداء للفريضة الدينية و الخلقية التى تعود عليه.

كان السيد أحمد خان و أتباعه قد انبهروا بالحضارة الغربية و الثقافة الحديثة فاقبلوا عليها و أخذوها على علاتها و مفاسدها ، و قاموا بتأويل الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و المعتقدات الدينية فى ضوء المعارف الغربية ، بينما كانت الطبقة القديمة للعلماء قد أغلقت على نفسها كل باب ، فحرمت على نفسها حتى الاستفادة من العلوم الغربية الإنسانية و التجريبية ، و لكن العلامة شبلى بفضل تربيته الخاصة و عقليته الإسلامية المتفتحة اختار طريقا وسطا ، فلم يحرم المعارف الحديثة و لم يؤمن بها إيمانا أعمى ، بل استفاد منها بعين مفتوحة و عقل واسع ناقد ، كأن الله تعالى تولى تربيته و إعداده فى أكبر معهد علمى حديث فى الهند لذلك العمل الجليل الذى حققه بمؤلفاته القيمة و مقالاته البديعة الغالية ، و أدائه دورا بارزا فى حركة ندوة العلماء و رسمه خطة دار العلوم لندوة العلماء ، و صياغته المنهاج التعليمى الجديد المستمد من تجارب المناهج التعليمية العالمية

و كان من سعادة حظه أن وفقه الله تعالى لجولة للبلدان الإسلامية أكسبته تجارب واسعة و نضجا فى العقل و الفكر

• للبحث صلة

تعريب محمد أكرم الندوى

مولانا حسين أحمد المدنى

بقلم : سماحة الشيخ
أبى الحسن علي الندوى

كان الزمن زمن سنة ١٩٢٨م ، و كان مؤتمر متعددى الأحزاب يمارس إجراءاته و برامجه فى مبنى المعروف "باره درى" الأبيض بلكناؤ، و كان تقرير "نهرو" فى دور البحث و النقاش، و ألقى الشيخ تصدق أحمد خان الشروانى خطبته حول أى اقتراح، و عرض فيها بعض إحصاءات، فبرز عقب خطبته رجل وقور، عليه قباء عربى و عمامة هندية ، و لكن الذى يبعث على الدهشة و الاستعجاب أنه تناول بالضبط و التصحيح بعض الاحصاء الذى قدّمه الشروانى رغم أنه كان زعيما سياسيا محنكا، فكان الجواب المنتظر للأنظار المتفقدة هو "مولانا حسين أحمد المدنى".

ثم استمعت لخطبة الشيخ و ابتدرته أبصارى فى حفلة سرور و شكر بمناسبة نهاية مقدار الدرس المقرر في السنة للقرآن عقدها طلبة صف من صفوف دار العلوم لندوة العلماء فى رحابها، وجدت فيها كلمته علمية دينية قيمة ، تناول فيها بذكر فضائل و آداب القرآن الكريم و التنبيه للطلبة إلى احترام القرآن و احترام الذين خدموه، و التوجيه و بيان السبب فيما أن بعض الفرق لايتأتى لها حفظ القرآن المجيد، و قراءته عن ظهر القلب، كما تناول بالتشريح و الانتقاد لزيادة قسط المنطق فى منهاج الدرس القديم و توغل العلماء فى هذا الفن و بخسهم لنصيب القرآن العظيم و الحديث الشريف، و كيف أدال اللّه بعد ذلك للقرآن و الحديث من هذا الفن الطارىء الشاغل من الفكر و الدراسة مكانا لا يستحقه، و تشرفت بزيارة الشيخ لدى عودته من الحج عند ما كنت طالبا فى لاهور، رجعت إلى ذاكرتى و تفقدت أحوالى فاذا بها أول معرفتي بالشيخ وصلتي به، فطالب لايزال شبابه غظا طريا و ثوب عمره أبيض نقيا. نشأ و ترعرع بعيدا عن جو الاصلاح و التربية ، و لا يكون لديه ميل طبيعى الى المجال السياسى، و لا عمر طبيعى يقتضيه، فمثل هذا الطالب لايمكن له أن يتشرف أكثر من هذا بزيارة عالم جليل معروف جل همه و شغله الشاغل خدمة الشعب و الوطن.

عاد بيتنا منزلا مستقلا لإقامة الشيخ في لكناؤ سنة ٣١ ـ ١٩٣٠م و كان أخ كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبد العلي من المتخرجين من دارالعلوم ديوبند و تلاميذ فقيه الاسلام شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي رحمه الله، و كان لبيتنا البيت الحسني بفضل السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد أواصر و أرحاما دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في كل ناحية من نواحي الهند خصوصا المتسببين منهم إلى مدرسة شيخ الاسلام ولي الله الدهلوي الدينية و العلمية و منهم علماء ديوبند، و يكتسب بها بيتنا ودهم و التفاتهم و عطفهم و عنايتهم، فلم يزل أخي ممتعا بحدب شيخ الهند و عنايته مادام يقيم في ديوبند، و كلما أراد أن ينتمي الى مصلح رباني لإكمال ناحية التزكية و الاحسان لم يقع اختياره الا على شيخ الهند، و لم تحقق هذه الرغبة حتى اعترض لشيخ الهند السفر إلى الحجاز و واجه مرحلة مالطا و لم يسنح له الفرصة لتحقيق ذلك في العودة كذلك، فشاء الله ان تحقق هذه الرغبة بشيخ كان من المقدر أن ينجز و يحقق كثيرا من رغبات و مشاريع ذلك الشيخ

كانت لكناؤ ـ لأسباب و خصائص عديدة ـ مركزا كبيرا بل و كبرى المراكز للحركات السياسية و القومية، فكانت تنعقد فيها احتفالات حزب المؤتمر الوطني حتى الجمعيات و الهيئات السياسية الدائمة المجددة، و كان كثيرا ما يتفق الشيخ أن يحضرها، و لم يستطع الانهماك السياسي و لا الحضور المتكرر الدائم لمؤتمرات و احتفالات حزب المؤتمر الوطني أن يغير شيئا من طبعه و أشغاله و واجباته، كانت مقرات الزعماء السياسيين و المدعوين في لكناؤ دائما هي الفنادق الفخمة أو المنازل القديمة لقصر باغ أو أعيان البلد، لكن الشيخ لم يتلاءم طبعه مع هذا الجو الأنيق المزخرف، فكان منزل بسيط مخلص قريب من المسجد يسهل به إتمام و إنجاز مشاغله و لا يكون به التصنع في المأكل و المسكن كان ذلك أحب إليه ألف مرة، و كانت حارتنا ـ سوق جهاؤلال ـ امتازت دائما بأن يسكن فيها المسلمون الأصحاء العقيدة، المتمسكون بالدين و الشريعة، و لم تزل هذه الحارة و مسجدها مركزا للعلماء و الباحثين بفضل والدنا - العلامة السيد عبد الحي الحسني ـ و العلاقة البدوية، فاختار الشيخ لإقامته هذه الحارة و بيتنا، و لم يتخلف عن ذلك طوال هذه الفترة، و قد اتفق أنه ساهم لساعات في مناقشات و احتفالات القصر الفخم لسليم بورهاؤس و باره دري الملكي، لكنه تناول الطعام على مائدتنا الشيرازية مهما أدى ذلك إلى تأخير و وقت طويل، كما حدث أنه زار بعض مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلامية و عاد في الليل مؤخرا و هو لم يتناول الطعام بعد، فتناول عندنا ماحضر و استراح، هذه هي البساطة و عدم الاحتشام لبيتنا كان الباعث على إعجابه و تفضيله، و كلما حاولنا شيئا من التكلف و الاصطناع شكاه، و وجد في نفسه من ذلك شيئا

نزل الشيخ عندنا و أقام فى بيتنا أياما و ليالى متوالية بل و أسابيع بمناسبة الهيئة البرلمانية الاسلامية و حركة مدح الصحابة و غيرها، اذا عرفت ذلك و أنت تعلـم كثـرة أسفـاره، فلاتسأل عـن حديث يدور و مجالس تنعقد و اجتماع يحصل ، و لا تسأل عن سرور و أنس و لا تسأل عــن بركـــة و خيـر، و لا عما يتسنى من دراسة و مشاهدة الضيوف الكرام عن كثب في منزل محدود و عيشة بسيطة، و عن البحر حدث و لا حرج !

و الشئى الذي لاحظته بصـورة خاصــة هو بشاشتــه و طلاقـــة وجهــه، و نشاطه و تيقظه و إعطاء كل ذي حق حقه من العناية و الالتفات، و التزام الأوراد و المشاغل و الاشتغال بالليل، و قد شاهدت عيناى مناظر مدهشة متعارضة ، حيث رأيت فـــى جانب عاطفـــة الحب و الانقيـــاد و روح التضحيـــة و الفداء فى بعض الحركات المحلية، و فـــى جانب أخــر رأيت اشتعـــال غضـب و استياء الجماهيــر الذين سرعـــان مـــا ينفعلـون و يتضايقون، و سمعت المسئولين يؤنبّونهم و يؤبخونهم وجها لوجه ، و لكنى وجدت الشيخ قائما على حالة واحدة ، و شاهدت أن الأعلام و المشاهير يحضرون إليه و يمثلون بين يديه بكل أدب و احترام و يستكتبون منه رسائل التعريف و الوسطية، و لمست فيهم طبيعــة النكـران للجميـــل و ســوء الأدب و شـــدة اللهجـــة و الضـراوة و التعسف، و قد شعرت ـ سواء عبروا عن ذلك بعقلية النقد أو مشاهدة الواقع و وضع الشي في نصابه ـ بأن الواردين و الحاضرين فى مجلس الشيخ قل منهم من استفاد من ذوقه الأصيل و انتفع بفنـــه الخاص، و إنما كان جل وقته ينقضى فى ذكر الأشخـــاص أو الجماعـــات أو التعليمات الفارغـــة أو طلب التمائـــم و التعاويذ و الدعــاء، و كان الشيـخ بفضـل كـــرم طبعـــه و أريحته المعروفـــة و حفاوته النادرة المثالية يتحمل كل ذلك و يتكلف الطلاقة و البشر و لايبدى أى عبوس أو فظاظة بل يبقى بهيىء الطلعة و ضيئى الجبين دائم البشر طليق المحيا، و كان لايلبث أن تنبسط أساريره و يتهلل وجهه بشرا إذا ما وجّه أحد سؤالا من التزكية و الاحسان أو أثار بحثــا علميـــا أو طـــرح ذكـــر الربانييـن و الصالحين و المصلحين، فاذا به طلق الوجه مشرق المحيا ، كأنما ضرب على وتر القلب و أثيرت قيثارته.

لم يكتف هذا العاجز بمشاهدة الشيخ فى الخارج و السفر فحسب و إنما شاهده فى منزله كذلك ، فقد أقمت عنده فى ديوبند لأربعة أشهر، أقمت حوالى شهر عنده في منزله بصورة خاصة، ثم تحولت باصرارى و إلحاحى إلى غرفة لدار الشفاء تتصل بباب الشيخ و تقع على الممر، عز ذلك على الشيخ كما ظهر على وجهه، و لكنه تنازل إلي رغبتى و أذن لي بالتحول. و كانت هى الأخيرة أيضا تحت عطفه و كرمه، فقد كنت ألتقى به ذهابا و أيابـــا و قيامـــا و قعودا و تنزها و تفرجا فى الحديقـــة صباح مساء و لـــدى تصفح الجرائـــد و الحضور لشأى الصباح الذى اشترطه عليَّ ، فكنت ألتزم ذلك، و رأيت بأم عينى أثناء

إقامتي هذه أيضا أريحيته المعروفة و حفاوته النادرة و بشاشته الشهيرة و درست كتابا جليلا و طالعت صحيفة ذات فصول و أبواب منها الدين و منها الأخلاق و منهاالسياسة ، صحيفة حية ناطقة صحيفة عنوانها الحسن و الحمد ، و ليس لي إلاّ أن أكرر ما كتب كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدى أحمد الشريف السنوسي فى حواشيه على حاضر العالم الاسلامى قد رأيت فى السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله و حقّ لي و الله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا — عن جعفربن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا و الله ماسمعت — أذنى بأحسن مما قد رأى بصري

و وجدت منزل الشيخ مضيفا عامرا بالضيوف، من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء و سياسيين و متصوفين و متطوعين يذهبون إلى السجون - و الزمن زمن الحكومة الانجليزية و الأيام أيام حركة التحرير و الجلاء - و من أعضاء الجمعية و العاملين الشباب و رجال المخابرات و الراغبين في البيعة و الاصلاح و الطالبين للتعويذ و الدعاء، وجدت مائدة واسعة و وجدت قلبا أشمل و أوسع من المائدة ، قلبا لايعرف السآمة و الفتور و لايمل من كثرة الوفود و حشد الضيوف، و وجدت بيته زاوية دينية ومدرسة سياسية و ناديا علميا تأتيه الصحف و المجلات من جميع أنحاء الهند، و يتهافت عليها الطلبة الذين قد تأثروا و فكرته السياسية الشاملة تهافت الضمآن على الماء، لأنهم لايجدون الصحف فى غير هذا المكان ، ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث و يتبادلون وجهات الأنظار، و قد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ، و هكذا يتلقون ثقافة سياسية و يخرجون رجالا متحمسين و أحرارا ثائرين.

هنالك تعارفت بالسياسي النابغ مولانا محمد سجاد البهارى نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار (BIHAR) الذى رزيء به المسلمون حديثا، رحمه الله رحمة المجاهد الذى مات بالميدان، و كان الشيخ عظيم الإكرام و الإجلال له كثير الاستشارة منه، و هناك تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء، و تعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث فى بيته، و قد كانت تنعقد مجالس منبسطة بعد صلاة المغرب فى حديقة الشيخ الصغيرة و بين أشجار الزهور أمام حجرته.

وكان يحضر فى بعض الأحيان عالم وقور عليه مهابة الشيوخ الكبار و روعة المعلمين السلف، كثير السكوت قليل الكلام إلاّ أنه إذا تكلم تكلم بكلام متين فصل، وكان ممتازا فى هذا المجلس كأنه من أشد الناس حبا لصاحب البيت و أكثرهم إجلالا له و إنصاتا لكلامه، يملأ قلبه من حبه، و أذنه بكلامه و لا يكاد تملأ عينه منه ، غاض الطرف من غير مرض، مطرق الرأس من غير حياء، صامتا من غير عيّ ، سألت بعض الإخوان عنه فأخبرني أنه مولانا إعزازعلي.

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئا، فقبل و سمح لي بالاشتراك في درس شرح النقاية، كان الشيخ مهتما بهذا الدرس جد اهتمام، و اختار عددا من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص، و أذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درسا في *نور الأنوار* بعد صلاة العصر.

و كنت أشترك في درسين آخرين مهمين، يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث و رئيس الأساتذة في دارالعلوم بنفسه، و يواظب عليهما، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي و درس الجزء الثاني من صحيح البخاري، فسرعة و بداهة خاطر الشيخ و قوة ذاكرته و العلاج الشامل الكافي للمسئلة ليس حديثا على الذين يطلعون على مشاغله السياسية و كثرة أسفاره، و قد كان تقريره حول مسئلة واحدة يستمر ثلاثة أو أربعة أيام - اعتبارا من ستين دقيقة لحصة تعليمية واحدة - و يعالج مرتجلا كل ما يتعلق بثناء المسئلة و نقدها و اختلاف المذاهب و الأئمة و دلائلهم و مصادرهم و المتن و رجال الأسناد، فكانت له روعة في قلبي ، و كانت تغشى دار الحديث غاشية من الدين، و سحابة من الروحانية ، و لايزال يرن في أذني صوت الشيخ العذب الرنان و لحنه العربي الجميل.

و كانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة و مقدار الدرس المقرر لم ينته بعد، فكانت دروس متوالية و يكاد يكون النهار كله درسا، درس بعد صلاة الصبح و كذلك درس بعد صلاة العصر و فترة بعد المغرب، و درس بعد صلاة العشاء يستمر إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، و ذلك في الشتاء في البرد الشديد، و لكن الطلبة قلما كانوا يملون لفكاهة الشيخ و نوادره و دعابته.

كان الزمن زمن سنة ١٩٣٢م ، و كانت برامج أسفاره تعد مسبقة، و أكثر ما يقضي جمعته في الخارج، و إن اللّه تعالى قد ذلل له السفر مثلما ألاَنَ لداؤد عليه السلام الحديد، حيث قال " و ألنّا له الحديدَ" فكان مصداقا لقول الشاعر. "ما آب من سفر إلاّ إلى السفر" ، كنت مشغوفا بمطالعة تفسير القرآن الكريم، و أواجه فيها مشكلات ربما يستعصى عليّ حلها بأى كتاب، فكان الشيخ خص لي وقته بعد كل جمعة لأعرض عليه ما يشكل عليّ من مطالعة تفسير القرآن المجيد. و لكن لم يتأت لي سوى بعض الجمعات، و منحني للدراسة و المطالعة بعض كتب سياسية مثل "حكومت خود اختياري" (حكومة الاستقلال) لمؤلفه طفيل أحمد و رسائل مولانا محمد قاسم نانوتوي رحمة اللّه عليه، و كان من بركة الإقامة في ديوبند أن اشتدت فيّ عاطفة كراهة الانجليز التي كانت تتوفر جراثيمها في قلبي وراثة، و قد تصاعدت هذه النزعة فيّ كثيرا فيما بعد حتى عدت اعتقد عن صميم القلب أن ليس إنجليزي واحد فقط بل أوربا كلها داعية للإلحاد و المادية ، و لا يمكن ازدهار الدين و الأخلاق و لا انتشار الدعوة الاسلامية و انتعاشها إلاّ إذا انهارت أوربا و دبّ فيها دبيب التدهور و الانحطاط، و ليس

الأمر أمر حكومة و عبودية دولة أخرى فحسب، و إنما هو أمر حضارة متكاملة و منهج فكر مستقل و دعوة شاملة لها أسسها و مناهجها و أساليبها الخاصة و هي تعارض التعاليم النبوية و الوصايا الدينية و اثارها و مقتضياتها في نهاية المطاف و طول الخط، فلم أدرك و لم أتفطن للجو و البيئة التي دعا فيها موسى عليها السلام بغاية من العجز و الاضطرار ربنا إنك اتيت فرعون و ملأه زينة و أموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم الخ لم أتفطن لذلك إلاّ بعد ما بسطت أوربا نفوذها و سيطرتها على العالم، و أحرزت تقدمها الهائل المدهش ، لقد كان الانجليز وسيطا متحمسا و عميلا ناجحا لأوربا المادية اللادينية في الشرق، و كنا نحن أهل الشرق أول من واجهوه ، و أكثر من تعرضوا لهجماته الشرسة فاشمئزازنا و تقززنا منه أمر طبعي، لكن الكفر ملة واحده فتتبنى هذه الحضارة و دعوتها و تتحمس لها أمريكا و روسيا و الدول و الأقطار الاسيوية اللادينية نفسها التي اعتنقت فكرة أوربا و نظام حياتها بجملته و احتضنته بحذافيره و على علاته، كما ان الواقع ان الخسارة الدينيه و الإيمانيه و الخلقية التي تصيب العالم الاسلامي من أوربا أعظم و اخطر مما تصيبه من الخسائر المادية من الحكومة الاجنبية، على كل فقد كان هذا التعزز الخاص يحتل أهمية خاصة في حين من الأحيان، و كان في ذلك - دونما شك - نصيب للسنة التي عشتها و فضل كبير لصحبة الشيخ و المطالعة

لم يكن أثناء إقامتي في ديوبند ما يبعث على السلوان و مسكن الخاطر إلاّ الشيخ وحدها، و ذلك لأن نشئتي و تربيتي العقلية و التعليمية قد تمت في بيئة قلّت معها رغبتي في البيئة الدرسية و المدرسية هناك، و لكن نظرة عناية منه و طلاقة و بشاشة له و سؤاله عن شئ بكل عطف و كرم في حين من الأحيان كان كفيلا بأن يخفف وطأة الثقل و ضغط البيئة كله، و اتلذذ به طويلا

رجعت إلى البيت في نهاية شهر رجب او بداية شهر شعبان، و استمر أيابه و ذهابه و إقامته عندنا و بذلك لم يزل يتسنى لنا شرف خدمته، و اتفق لي أن صحبته في السفر فانكشف لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الانسانية و قرأت صفحة جديدة من صفحات حياته - أطالها الله - و الانسان في السفر غيره في الحضر، و لكن رأيته عين ما رأيته في بيته بل و أجمل ، نزاهة أخلاق و عفة بطن و علو همة و شهامة نفس، و صبر لا يعرف السامة و الملل ، و همة لاتعرف الفتور و الكسل ، سهر في طاعة و يقظة في شغل و نومه في اقتصاد، و أكلة في اقتصاد، و حياة كلها جد و اجتهاد و تضحية و جهاد، اتفق لي أن صحبته في إحدى مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلاميه، و كان الشيخ من برامجه أن يقوم بالجولة في منطقتنا (راي بريلي) و كان مجهودا مكدودا قد بلغ منه الإعياء كل مبلغ للأسفار المتواصلة، و الناس إنما يهمهم شأنهم أنفسهم ، لايبالون بصحة الآخرين و راحتهم، فجعلني أجئ مع الشيخ -

بعد ماشعر باعيائه و تعبه الشديد ـ لكي أوفر للشيخ الراحة و الاستجمام عندي في "دائرة الشاه علم الله" براى بريلى ليوم أو يومين ، وأحاول أن يقضى الشيخ بعض أوقاته فى الراحة و الاستجمام و فراغة البال، كانت الجولة المخططة فى منطقة جائس (نصيرأباد) و السفر بالسيارة، و كان معنا كذلك المرشح الذى هو محام مسلم معروف لاترابراديش، فانكشف لي بهذا السفر أن الشيخ يمارس هذه المهمة و هو يعتقدها وظيفة دينية خالصة يدفعه الى ذلك اعتقاد جازم و عاطفة دينية قوية، يتحلى بنزاهة أخلاق و عفة بطن و يقظة ، مخاطرة تتوفر فى الجندى و هو فى ساحة الحرب، أدى صلاة الجمعة فى جامع قرية، و كان الخطيب من المكفرين لأبناء ديوبند فاغتنم الفرصة و قال عن بعض علمائها الكبار شيئا كثيرا، جلس الشيخ بعدما فرغ من السنن يستمع إلى الخطيب هادئا، و انصرف ساكتا بعدما قضيت الصلاة، و لم يتكلم عن الخطيب شيئا إلى نهاية السفر و لو سهوا، نظم المرشح طعاما لذيذا ذا ألوان و فنون ، كما هو عادة المرشحين و كما يرجوه خطباء الدوائر الانتخابية ، أشركنى الشيخ معه فى صفيحة واحدة و لم يلبث أن نزع يده حتى ظننت أنه لايعتقد حل هذا الطعام إلاّ سداً للرمق ، أقام الشيخ فى راى بريلى ليلة ، و اعتكف وحيدا فى مسجد الشيخ الشاه علم الله جد سيد أحمد الشهيد طويلا يراقب ذكر الله ، و بعد ما خرج منه وعظ فى البيت قليلا لم يكن يتصل إلاّ بالآخرة و البرزخ و عالم الأرواح ، و أبدى مشاعره و انطباعاته القلبية عن هذا المكان المتبرك التاريخى لدى المغادرة، و أعرب عن رغبته فى طول الاقامة ، الذى لم تكن تتسع له حياة الشيخ النشيطة الشاغلة إلاّ قليلا.

ثم توترت الأوضاع و الملابسات و جاء الزمان الذى كان فيه رأى الشيخ و حنكته السياسية معارضا فى طول الخط لرغبات و عواطف جماهير المسلمين و الفكر السياسى للزعامة المقبولة السائدة آنذاك، صدع الشيخ بوجهته بكل قوة و جراءة ، و بيّن الخسائر و الأخطار المحدقة بالانفصال، و لم يقتصر على ذلك، بل قام بجولات موسعة في أرجاء البلاد لبث دعوته و إنعاش حركته و ترويج آرائه و خطب في مختلف الأماكن و نشر لذلك كتيبات و مقالات عديدة، و كان المسلمون أنذاك عرضة لصراع عقلي و توتر ذهنى عنيف مرجعه سببان أحدهما تزمت أبناء الوطن و جبانتهم و نفسية الذعر التى طالما ظهرت زمن الحكومة الإنجليزية، و لأجل ذلك لم يكن فى مقدمة هذه الحركة إلاّ الطبقة التى احتكت بهم فى المكاتب و الدوائر الرسمية و المعاهد و المرافق الحضرية الأخرى، و الثانى يرجع إلى طبيعة القيادة الوطنية للمسلمين، إن هذه الزعامة المتطرفة أشعلت عواطف المسلمين و بلغت بحماستهم مبلغا أصبحوا به يتقلبون على الجمر ثورانا و هيجانا و فقدوا كل صلاحية للاستماع إلى أى رأي معارض و تحمله و اعمال الفكر فى أى قضية بقلب سليم و ذهن فارغ و تقليبها على جميع وجوهها ، و لكن إخلاص الشيخ و عزمه الصميم و شعوره بالواجب

أبى أن يخضع لهذه الظاهرة المؤسفة و أن يستسلم لها، و اعتبر أفضل الجهاد و عد من واجباته أن يصمد فى وجه هذه الظاهرة المتفشية و يصدع بكلمة الحق أمام قوتها الهائلة وفق ما يملى له ضميره و عقيدته الثابتة، مما أدى إلى أن حدث فى الأسفار و الاجتماعات و الحفلات ما لم يكن بالحسبان، و لقى فى ذلك ما لم يكن يليق بتاتا بشخصيته البارزة و خدماته السالفة المشكورة و مكانته العلمية الدينية، و كانت هناك طبقة يدرك حقائق الأمور الباطنة بجانب الأمور الظاهرة، و كانت هذه الطبقة تتألم و تتضايق بالأحداث التى كانت تظهر فى مختلف الأماكن، و تشهد شهادة ظاهرة بعلو مكانة الشيخ و نزاهته و اخلاصه و ربانيته، و تعتبر هذه الأحداث المؤلمة شؤما و خسارة فادحة للمسلمين، أتذكر أنه لما كان يقرأ علينا أحد منا فى أى مجلس من مثل هذه المجالس حادث محطة "سيدبور" لم يتمالك الشيخ الربانى مولانا عبدالقادر الراى بورى و شيخ الحديث مولانا محمد زكريا اللذان كانا موجودين فى ذلك المجلس، من البكاء من شدة التأثر بهذا الحادث المفجع، و لم يبق أحد منا إلاّ و ابتلت عيناه ، فأصبحت الثقة آنذاك بحب الشيخ و الهيام به و خلوصه و نزاهته شبه جزيرة يحدها من كل جانب بحر زاخر من الغضب و الاستياء، و سوء السمعة و الفضاحة ، و التوسعية و الارتزاق و النفعية و المصلحية تصطدم أمواجه العاتية بشاطىء هذه الجزيرة ثم تنصرف ، و كانت هذه الجزيرة عامرة بآلاف بل عشرات الآلاف من المسلمين المتطوعين الذين كانوا يضعون الثقة ـ حتى فى تلك الساعات الحرجة الشائكة ـ فى خلوص الشيخ و عفته و نزاهته التى لاترتقى إليها الشبهة ، و كانوا يؤمنون عن قرارة القلب بأن الشيخ يمكنه أن يجتهد فيخطىء شأن جميع أصحاب الاجتهاد، و لكن الله رفعه عاليا عن كل من الانتهازية و التوسعية و الاعجاب بالنفس و حب الفخفخة و الظهور، و بيتنا فى لكناؤ إنما كان يقع على نفس الجزيرة ، و بناءا على أن لكناؤ كانت من المراكز الهامة لهذه الحركة الشعبية اتفق لنا أن نحتك بهذه الموجات العاتية من الغضب و القلق و نصطلى بنيرانها الصاعدة.

و بالجملة فقد جاء الزمان الذى انسحب فيه الزعماء و القواد من الميدان و خذلوا المسلمين الذين أشعلوا عواطفهم و أثاروا حماستهم و التزموا عالمهم الذي بنوه، مما أدى إلى تعرض المسلمين لليأس الشديد وقطع الرجاء عن المستقبل و عدم الثقة و الاعتداد بنفوسهم و مركب النقص فهم حائرون متشاكسون تغشاهم غاشية من الذعر و الهوان و الاهمال، لايجدون من يعزّيهم و يسليهم، حتى كأنهم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، هنالك برز الشيخ و أتباعه ليعيدوا إلى المسلمين ثقتهم و اعتمادهم و يبعثوا فيهم الرجاء و الطمانينة إلى المستقبل و يثيروا هممهم و يشحذوا عزائمهم لمقاومة الاوضاع الحرجة و الصمود في وجهها صمود الجبال الراسيات و البقاء فى

أوطانهم، مهما أدى ذلك إلى الخسائر الروحية و المالية. و ثبات و بقاء المسلمين لشمالى الهند و لا سيما لاترابراديش - التى تحتل مكانـــة المركـــز العقلـــى و العلمى و السياسى لمسلمى الهند - انما كان يتوقف على بقاء و ثبات المسلمين فى المديريات المتآخمة لغربي أترابراديش أى سهارنفور، مظفر نغر، ميرت ، فلو كان المسلمون لسهارنبور التى هى واسطة مديريات اترابراديش و شرقى بنجاب زلت أقدامهـم و فتـرت هممهم لتعسـر للمسلمين الثبـات و البقاء فى أى مديرية، و كانت سهارنبور و المديريات المجاورة لها تشهد تحت ضغط الأوضاع المحلية و قربها من شرقى بنجاب كانت تشهـد حركـــة عنيفـــة و دافعا قويا إلى النزوح و الانفصال ، فمن فضل علماء ديوبند و سهارنبـــور و صنيعتهم الجديرة بالتقدير و الثناء أنهم قاوموا حركة النزوح أشد المقاومـة، و اعتبروه احتضار المسلمين دينيا و سياسيا، و شمروا عن ساق جدهم و بذلوا قصارى جهدهم فى الأخذ بحجـز المسلمين و بعث هممهـم و تثبيت أقدامهـم، و كان فى ذلك أيضا نصيب كبير لجهد الشيخ المتواصل، فقيامه نفسه و خطبه الملتهبة الحماسية لعبت دورا بارزا فى نفخ الروح الدينى فى مسلمى هذه المديريات و تشحيذ عزائمهم و إثارة عواطفهم ، حتى هدأت الموجات و توقف النزوح ، و قد يشعر كثير من الناس كنفسى أنه لو كانت فى صحة الشيخ بقية من الجد و الجهد و ساعدته الأوضاع و عاضده الرفقاء و الأتباع، و لم تكن الأوضاع و الملابسات - على العكس مما كان يرجى - أنهكت قواه و أضعفت جوارحه لاستطاع الشيخ أن يعالج الأوضاع المتغيرة المتدهورة و يوجهها توجيها رشيدا و يسدد خطاها و يقاوم الاتجاهات المنحرفة بنفس الهمة و الطاقة

و لو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت و لكن الرماح أجرّت

بذل الشيخ أنفس طاقات شبابه و فتوته و أروع صلاحيات عقله و قلبـه و جل شهامة نفسه و علو همته القلبية في مقاومة الإنجليز و إجلائهم، الأمر الذى قد أعدته لذلك صحبة شيخ الهند و تجربته و دراسته، فلما ظهرت طلائع ثورة ١٩٤٧م الحديثة بمقتضياتها الطريفة و متطلباتها المتنوعة كان يواجه انحطاط السن و اضمحلال الأعصاب و القوى و تضخم الأشغـال و الواجبـات، و كان الرأى السائد أن مجرد بقاء المسلمين فى هذه البلاد فى خضم الأوضاع الشائكة آنذاك نوع من الفتح و الانتصار العظيم. و أنه قد جاء دور أولائك الذين يعثرون على الآثار البعيدة لهذه الثورة و يقدرون على الصمود فى وجهها علميا و فكريا.

إن شخصيته تجمع أشتاتا من الفضائل و المتناقضات من الخصائص. يتعسر علينا أن نقدر الميزة التي تتصدر المقدمة و تحتل أبرز المكانة و أروعها من بين مزاياها و خصائصها، و التي يمكننا أن نعتبرها قطبا لتلك الشخصية تدور حوله جميع مواهبها و مزاياها و تسهل به معرفة حياتها و خصائصها. إن

كثيرا من الناس يعرفون الشيخ كعالم و محدث، و آخرون كمصلح و عارف رباني و منهم من يعرفه كموجه سياسي و مجاهد، و لا شك ان الله تعالى وفقه أن يتحلى بأشتات هذه الفضائل و المتناقضات من الخصائص و الأعمال . و لكن ميزتين لحياته تحتلان - في رأني الناقص - المكانة الرئيسيـــة فـــي حياتـــه و تميزانه من بين أقرانه و معاصريه و هما العزيمة و الأنفة و الحمية . و أي دليل أكبر على عزيمته أن تجاوز و تخطى دائرة العلمـــاء و أهـــل التدريس ، و اعتنى بالقضية التي كانت من أهم و أخطر القضايا انـــذاك، و أحرز شرف أفضل الجهاد لـ "كلمة حق عند سلطان جائر" بما أعلن الحق مدويا و رفع كلمته عاليا أمام حكومة الإنجليز و هي في ريعان شبابها و شمسها في رابعة النهار، قضى أيامه أسيرا في "مالتا" و اقتفى السنة اليوسفية بأسارته في المعتقلات الهندية شهورا و أسابيع، و صمد في وجه أعظم و أقوى دولة العالم صمود الجبال الراسيات سنين طوالا، حتى حقق الله غايته المنشودة، ثم إن هذه العزيمة تتجلى بأروع أشكالها في جميع نواحي حياتـــه، فالقيـــام بالواجبـــات و المحافظة على السنن و المندوبات و التزام الأوراد و الوظائف إستقامة عظيمة في هذا الزمان ، كما أن إيفاء العهود و المساهمة في الاحتفالات و الاجتماعات النائية و تحمل كل صعوبة و مشقة في سبيلها استقامة مستقلة، ثم إن المواظبة على دروس دار الحديث و إكمال المقـــرر الدراسي جهاد كبيـــر، و إكرام الضيوف و لقاء الزوار بوجه طلق و حسن معاملته مع الأشخاص المختلفي الطبائع و العادات و تحمله و صبره على خصائصهم الطبيعية المتنوعة أيضا جهاد كبير، و زد على ذلك تربيته لمعتقديه و مراقبتهم و رده على الرسائل الكثيرة، و كل ذلك في خضم أشغاله و واجباته و ضعفه و نقاهته ، أفليس كل ذلك دليلا على عزيمته المدهشة الخارقة و علو همته المعجز الباهر؟ الواقع أنه برهن على العمل بالحديث الشريف "إن الله يحب معالـــي الأمـــور و يكره سفاسفها" . و أثبت صهر هذا الحديث في جميع نواحي حياته

و الحمية أروع و أزهر عنوان لصحيفة حياته، فهي التي أثارت فيه عاطفة معارضة الإنجليز و مكافحتهم التي لم يشبع منها إلا بعد ما طوى الإنجليـــز بساطهم من هـــذه البلاد . و هـــي التـــي كانت تدفعـــه إلى الحماســـة و الانتعاش في شئون حركة الخلافة و جمعية العلماء، و هي التي جعلته شابا متحمسا و منتعشا في كل حين و آن، و هـــي التي أثارت حماســـة مئات بـــل و ألوف من الناس ، و كانت هي الحمية التي حملته على أن يقرأ القنوت شهورا ضد القوى المعادية للاسلام مدويا مجلجـــلا بشـــيء كثـــر مـــن الحماســـة و النشاط حتى يظهر أن المحاريب قد تتصدع و أن ليست هناك كلمات تنطـــق و إنما هي شررات يقذفها القلب قذفا، و كان من نتيجة هذه الحمية نفسها أن لم يتحمل قط - و لو للحظة - أن ينظر أمامه منكرا يرتكب أو عملا منافيا للسنة يقترف، و كثيرا ما كان جلساؤه و الحاضرون حوله يشعرون بحرارة هذه

الحمية، و قد استغلّه أحيانا أناس عرفوا فيه هذه العاطفة النارية، و أدركوا مدى سراية هذه الحمية فى شرايينه و سيطرتها على نفسه، كما أن كثيرا من الناس استغلّو كرم طبع الشيخ و مروءته في ميراث الآباء و من شيم السادات الكرام، و بذلك تسببـوا فـي خـزى محبيـه المخلصين و معتقديـه البار يـن، و برهنوا بتحقيق أغراضهم النفسية و رغباتهم الشخصيـة على توسعيّتهـم و انتهازيّتهم و نفعيتهم و مصلحيتهم و ألحقوا الضرر بشخصية الشيخ و آذوه.

مهما كان الشيخ رفيعا من الناحية العلمية و السياسية، فلا أنكـر ذلك، و سيكتب عن ذلك الكاتبون و يتابعه المتابعون، و لكن الناحية التى هى أروع و أشرق نواحي حياته و أكثرها جدارة بالتقدير و الإعجاب إنما هى مروءته السامية و عظمته الانسانية.

إن دنيا العلم و الأدب لاتخلو من الشخصيات الفذة و الباحثين البارعين المتبحرين ، و يمكنهم أن يختلفوا في آراء الشيخ السياسية، فكم أحرز الشيخ النجاح و الصواب فيما عقد رجاءه بتحرر البلاد ببعد نظره ، و فيما قدره عن أغلبية هذه البلاد بكرمه الفطرى و نزاهته النفسيـة، و مالقـى الشيخ اليأس و القنوط فى آخر عمره من تأمين الضمان و منح الشرعية ـ الذى ضمنه قرار حزب المؤتمر الوطني و دستور الهند ـ للأحوال الشخصية و اللغة و الثقافـة و التعليم الديني، و مالقى تجارب مرة مؤسفة عن زملائه و رفقائه ـ بعد ما شغلوا المناصب و حصلوا على السلطة و النفوذ ـ فى المعتقدات و الجهود السياسية، كل ذلك من الظواهر التى مهما عجزنا عن إظهارها لكن قلم مؤرخ المستقبل لن يمنعه شيء عن تسجيلها و إبرازها أمام العالم عن مجاهل التاريخ، على أن الشئ الذى لاترتقى إليه الشبهة و لا يقبل أى بحث أو نزاع و جدال هو سمو خلق الشيخ و قداسة شخصيته و نزاهة نفسه وعفة بطنه و خلوص جهده و صفاء حياته و شفافية قلبه و مكارم أخلاقه التى جعلت شخصيته ذهبا خالصا و جوهرا صادقا، و بلغت به إلى قمة العظمة الخلقية و السمو الطبيعى الذى تمثل به شاعر الدور الأول العربى قائلا :

هجان الحى كالذهب المصفى صبيحة ديمة يجنيه جان

وفق اللّه كاتب هذه السطور أن يشاهدالشيخ عن كثب وفي مختلف الأحوال من السفر والاقامة والرضى و الغضب و الشغل و الفـراغ و الخلوة و الاجتماع، وقدراللّه أن يتخذ الشيخ بيتنا منزلا له في لكناؤ منذ سنة ١٩٣٠م في أسفاره و هى كثيرة تكاد تكون مستمرة، و هذه السعادة يرجع فيها الفضل إلى شرف بيتنا ومجد أسرتنا حضرة الد كتورالسيـد عبـد العلـى مديـر ندوة العلماء، فان له خصائص اكتسب بها ودّ الشيخ وعنايته الزائدة، كما تسنى لي أن أتعرف على كثير من نواحى حياة الشيخ و أشغاله وخصائصه الطبيعية أثناء إقامتى البدائية الطويلة فى ديوبند و مختلف الإقامات فيما بعد.

تذوق السير و التراجم و دراستها و لاسيما المطالعة المتكررة و الخدمة المتواصلة لاكبر كتاب يعرف فى شبه القارة الهندية فى السير و التراجم "نزهة الخواطر"(١) لمؤلفه والدى الجليل العلامة السيد عبد الحى الحسنى مدير ندوة العلماء السابق عودنى ذلك على مشاهدة الشخصيات بدقـــة و رصانـــة و دراسة سيرهم و خصائصهم بنظر دقيق و تحديد و تعيين و اختبارهم بمعايير السلف الثابتة، و انطلاقا من هذه الوجهة و الطبيعة كلما رأيت الشيخ وجدته القمة فى الكرم و الشرف و المروءة و سمو النفس و هضمهـا و الخلوص و النزاهة و السيرة و الأخلاق ، و قد ترك ذلك على نفسى أثرا عميقا لعلـــوه و سموه، بحيث كلما اعتذر ذوقى و عقلى عن التجاوب مع أى رأى سياسى للشيخ أو تحقيق و اتجاه علمى له و لم يستسغه عقلى تماما فقد حالت دونى جاذبية شخصيته و سمو سيرته و خلقـــه و نزاهة نفســـه و شفافية قلبــــه، و أطللت على حبيبى فاذا بقلبى عامر بود الشيـــخ و هيامـــه و يفيض حبــا و حنانا، لم ينقص منه شيئا

وجدت الشيخ كاملا على المعايير السامية للعظمة الانسانية و السمو الخلقى، فكان الخلوص و الصفاء جوهر حياته و الدافع لجميع أشغاله و جهـوده و نشاطاته، فكما أن بعض الانتهازيين يصعب لهم أن يكونوا مخلصين على أى حال و فى أى عمل مهما تكلفوا ذلك و اجتهدوا فيه ، بناءا على أنه قد أصبحت الانتهازية و التوسعية و حب الظهور بمثابة الطبيعة الثانية لهم، كذلك إن المخلصين الذين طبعهم الله على النزاهة و الاخلاص يستحيل لهم أن يكونوا غير مخلصين، و تندفع طبائعهم بدافع من نفسها إلى الاخلاص و التقى ، حتى أن العمل الذى تتم مزاولته مدفوعا بالأغراض في عامة الأحوال، من مزايا الصالحين المخلصين أنهم يقومون بهذا العمل أيضا مترفعا عن الأغراض الخسيسة و مدفوعين بدافع من الاخلاص و الاحتساب. فالدور الريادى المدهش الذى لعبه الشيخ فى حركة تحرير الهند، و ما حمل المشاق و الصعوبات فى سبيل ذلك، إنما قام بذلك كله مدفوعا بدافع قوى من بغضه الشديد و كراهيته للإنجليز ـ الذين كان يعدهم من أعدى أعداء الاسلام و معاديه ـ و تحرير الهند ، و تمهيد الطريق بذلك لتحرير الدول الاسلامية ، و زد على ذلك عاطفته ـ و لعلها كانت تعدل سابقتها ـ للطاعة و الاتباع لمشائخه و أسلافه و لاسيــمـا مربيــه و مرشده الحبيب شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندى ، و لم تخطر بباله سوى ذلك أى خاطرة من النفع المادى و المصلحة الشخصية، و لذلك لما نالت استقلالها و قامت الحكومة النيابية اعتزل الشيخ السياسة العملية، و عكف على الدرس و الافادة ، و أكب على الدعوة إلى الله و تربية النفوس، لايتصل بالحكومة و رجالها، كأنه قد أدى وظيفة و انتهى دوره، و أعتقد أنه لم يكن فى الزعماء و قادة الدرجة الأولى إلاّ هو وحده الذى لم يتسلم أدنى قيمة لتضحيـــات الجسيمـــة و حياتـــه السياسيـــة السابقـــة، حتى أنعـــم عليه

رئـس الجمهورية في جمادى الأولى ١٣٧٣هـ برتبة فخرية فرفض ذلك قائلا إنه لا ينسجم مع طريقة سلفه، و بقي في "ديوبند" يدرس الحديث الشريف ، و يتجول في الهند ، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين، و اتباع الشريعة الغراء و اقتفاء السنن النبوية و إصلاح الحال، و لم يقتصر الشيخ على أنه لم ينسلم أدنى قيمة لخدماته و جهوده السياسية بل لم يطلب أى قيمة لأي ميزة له و لا أى صلاحية و لا موهبة و لا براعة فنية له، و قد يشهد من يعرف الواقع و يتابع الأحداث أن الراتب الذى كان يتقاضاه في ديوبند - و الذى كان يظهره و يعلنه كدليل على أنه دنيوىّ - لم يكن ليغطى نفقة مائدته الواسعة لأسبوع بل و لنصف أسبوع، و قد كان ينتقض جله لعدم الحضور بالأسفار و الجولات ، الواقع أنه قضى حياته كلها في الأخلاص و الاحتساب، و إنما ألقى عليها إخفاءاً لها ستار راتب المدرسة ، و قد كان يمكن أن يتقاضى تلاميذه راتباً أضخم منه بكثير.

و كان الشيخ نسيج وحده في العمل بمعيار آخر للسمو الانساني و الخلقي و هو " *خُذِ العَفْوَ وَ أمُر بِالْمَعْرُوفِ وَ أعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ* " و " *ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أحْسَن* " و الصبر على المكاره و المسامحة للأعداء بل إسداء الخير إليهم و التزام الدعاء في صالحهم ، فلم يشتك و لم يبد شيئا مما لقيه في محطة جالندهر و بريلى و سيد بور من الأحداث المخزية المحزنة التى تخطت حتى الحدود البدائية للانسانية و الشرافة و التى بمجرد ذكرها يتندى جبين الانسانية حياءً و تكاد تتصدع الأكباد بحسبانها، بل سمعه الناس - على ما أعلم - يدعو بهولاء الكفورين في سحره و تهجده بالضراعة و الابتهال، و كلما دعت الحاجة هولاء الطاعنين المتهمين المستهزئين و طلبوا هم أو أقاربهم من الشيخ رسالة شفاعة، لم يبخل عليهم بحفاوته و بشاشته، و ودّه و عنايته و شفع لهم عن طيب الخاطر و البشاشة الكاملة بكلمات صافية عالية، و إن حاول أى خادم من خدامه أو رفيق من رفقائه بهذه المناسبة أن يعرّفهم به و يذكّره مأجرياتهم السالفة طرده طردا و أنبه تأنيبا شديدا، الواقع أنه كان يقتفى بالأسوة النبوية العطرة " و أنْ أعفُو عَمَّن ظلمَني وَ أصلُ مَنْ قَطعَنِى وَ أعْطِى مَن حرمني "

لم يكن الشيخ ينتمى إلى بيت غنى و ثرى نسبيا و عائليًا، و لكن اللّه وهبه همة الملوك و سماحتهم - سامحنى اللّه لقد أخطأت - بل و سماحة الأتقياء و العارفين و ورثة الأنبياء وسعة صدرهم و رحابة ذرعهم، فكان عمله فى الحياة بطولها طبقا لـ " اليَدُ العُليا خَيرٌ مِنَ اليَد السفلى " و قل أن أصبح مدينا لفضل الآخرين ، بل - على العكس من ذلك - أنعم على عالم بأسره و أفضى إليه الخير، فقد كان مضيفه من أوسع مضيفات الهند، و كانت مائدته من أوسع موائدها، و الواقع أن قلبه كان أوسع من مائدته، و يقدر أن كان يجلس حول مائدته حوالى خمسين رجلا كل يوم ، من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء

و سياسيين و متصوفين و متطوعين يذهبون إلى السجون أو منها يعودون، و كانت حفاوة الشيخ و بشاشته و نشاطه و تحمسه و نطمه و اهتمامه ينم كل ذلك عن مدى سروره و أنسه، و انبساطه و ابتهاجه، و لذته و حلاوته الروحية

لقد كان أصبح إكرام الضيوف و النزلاء و تأمين راحاتهم و إطعام الطعام غذاءه الروحي و طبيعته الثانية، ثم إن التواضع و الانكسار و التكريم و الاحترام و الحفاوة و البشاشة التي كان يلقى بها ضيوفه يذكرنا بشعر الشاعر العربي القديم

و إني لعبد الضيف ما دام نازلا   و ما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

و لم يكتف بذلك بل حاول في كل مناسبة و فرصة أن تكون يده عالية و تسنح له فرصة النفع و الافادة بدل الانتفاع و الاستفادة، فإن أحسن إليه احد شيئا أو خدمه في أي أمر حاول بأقصى وسعه أن يسدي إليه جزاءا و يوفي حقه ، فكل ما قرأت عن سماحة أهل البيت و شهامتهم و جزاءهم و بسالتهم وجدت عكسه و ملامحه بارزة متجلية في حياة الشيخ و سيرة بعض أقرانه و معاصريه الكبار

إن سوء الظن بنفسه و استحضار معايبه و إعلانها مع التحلي بمحاسن الخلق و مكارمه و شهامته لدليل على سمو المروءة و كمالها و برهان على أن الانسان قد ارتفع عن سيطرة النفس الأمارة و تنزه عن الاصرار بالنفس و الاعجاب بالنفس، قد تجلت هذه الخصلة في حياة الشيخ و ازدان بها عمله دون قوله

كان الشيخ يكتب اسمه مقرونا بـ سبّه الأسلاف و قد استهزأ بذلك بعض الصحفيين القساة، لكن الذين يعرفونه عن كثب و يعثرون على أحواله الواقعة لايشكون أن هذه النعوت و الأوصاف يمكن ان تكون عادات و تقاليد للآخرين لكن كان ذلك إيمان الشيخ و اعتقاده في نفسه و لم يكن يشوبه شئ من التكلف و الاصطناع، فكان يعتبر نفسه سبة الاسلاف و يؤمن بذلك عن قرارة النفس و بشاشة القلب، بينما جعله الله خير خلف لأسلافه و مصداقا لـ نعم الخلف لنعم السلف

و إضافة إلى هذا اللقب المتواضع - سبه الأسلاف - كان الشيخ كثيرا ما ينشد بشئ كثير من التلهف و التأوه و الزفرة المتصاعدة أشعارا تنم عن مدى ندامته و خجالته من نفسه و إنكار الذات و عدم اعتبار نفسه شيئا أذكر أنني ذات مرة - و كنت انذاك في سن صغير - اسكب الماء على يد الشيخ أو كان يتوضأ فكان ينشد البيت التالي بحسرة زائدة و لهفة كبيرة و زفرة متصاعدة

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   بقي الذين حياتهم لا تنفع

كما كان ينشد البيت الفارسي التالي

نه گلم نه برگ سبزم نه درخت سايه دارم
درين حيرتم كه دهقان بچه كار كشت مارا

يقول الشاعر: لست بزهرة و لا ورقة خضراء و لا شجرة مظلّلة ، فأتحير على أن الفلاح لأى غرض زرعنى و أنبتنى؟

و يمكن أن أقدم كثيرا من مقتبسات رسائل الشيخ، تدل على أنه كان لا يعتبر نفسه شيئا و أن الله بلغ به إلى القمة فى التواضع و انكار الذات و كسر النفس ، لكننى التزمت فيما كتبت ما يتصل بمعرفتى الشخصية و ما شاهدته عيناى عن كثب لا عن كتب، و شتان ما بينهما.

لقد كثر المتأسفون على ماوقع بوفاته الفراغ فى نادى العلم و السياسة، لكن قل من يتألم و يشعر بالفراغ الذى وقع فى مقدمة الأخلاق و الانسانية و قطبها الرئيسى، و لعل السبب فى ذلك أنهم لايعتبرون المروءة ميزة يزنون بها شيخا أو عالما فيشعروا بأى فراغ بوفاة " شيخ ربانى" لكنى أعتقد ـ على العكس من ذلك ـ أن فاجعة وفاة الشيخ المدنى فى هذا العهد الذى يعانى من جفاف ينابيع الانسانية و يشكو من قحط الرجال ليس إلاّ خسارة خلقية فادحة و رزيئة إنسانية لاتعوض:

و ما كان قيس هلكه هلك واحد
و لكنّه بنيان قوم تهدما

تعريب: آفتاب عالم الندوى

الهوامش:

١ - أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية فى تراجم الرجال الذين نبغوا فى الهند من القرن الاسلامى الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطى المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى ، و المساحة المكانية من ممر خيبر فى الشمال العربى من الهند إلى خليج بنغال فى الشرق، و من قلل كشمير إلى "مالابار" و "كالي كوت" فى الجنوب ، و الأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية و اتجاهاتهم العلمية، و اختصاصاتهم الفنية، فجاء فى ثمانية مجلدات كبار، يحتوى على أكثر من أربعة آلاف و خمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم، صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند-

الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي و أسرتـــــــه

بقلم: المفتي نسيم أحمد الفريدي
شيخ الحديث بالمدرسة الإسلامية امروها، آنغا

إن الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي - رحمه الله - من عظماء الهند الذين تعتز بهم الهند بحق، و إن بركات هذه الشخصية العظيمة لم تقتصر على الهند و السند بل نفذت إلى الدول الأخرى و العالم الإسلامي بأسره أيضا فقد كان محدثا نابغا و فقيها منقطع النظير في جانب، و خبيرا برموز علم التصوف و صوفيا محققا و مفكرا و متكلما ذا مكانة عالية في جانب آخر و كانت دائرة تلاميذه واسعة جدا، منهم مولانا نور الدين البوداسوي، و الخواجة أمين الله ولي اللهي الكشميري، و الشيخ محمد عاشق الفولتي، و العلامة السيد مرتضى البلغرامي ثم الزبيدي مؤلف "*تاج العروس في شرح القاموس*"، و الحاج نواب رفيع الدين الفاروقي المراد آبادي صاحب مؤلفات جمة.

كان الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رجلا عبقريا، و يتصل نسبه عن أبيه بأمير المؤمنين عمر الفاروق - رضي الله عنه -، كما ينتهي نسبه عن أمه إلى خليفة الرسول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، و قد كان في عمومته و خؤولته شخصيات مجيدة و أصحاب العلم و حملة العلم

و قد نسي كل من تصدوا لترجمة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي أنه ولد في قرية "فولت" (PHULAT) بمحافظة مظفر نغر في عام ١١١٤هـ. و كان الشيخ محمد الفولتي، جدّه لأمه، صوفيا و درويشا ملحوظ المكانة، و كان نابغ الشيخ عبد الرحيم. و كانت بنته فخر النساء والدة الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان نجله الشيخ عبيد الله الفولتي حماه و خاله الحقيقي، و كان يتمتع بمكانة مرموقة بين مشائخ فولت

كان الشيخ عبد الرحيم الفاروقي والد الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا قد حوى فضلا جما، فقد تلقى العلم على نابغة العلوم العقلية ميرزا زاهد الهروي،

كما أخذ عن شقيقه أبو الرضاء و الخواجه خورد. و استفاد مـــن الحافظ السيـــد عبد اللّه الأكبر آبادى فى السلسلة الآدمية المجددية، و الخليفة أبى القاســم الأكبر آبادى فى السلسلة الأبى العلائية، والسيد عظمة اللّه الجشتى الأكبر آبادى فى السلسلة الجشتية. و الشيخ وجيه الدين والد الشيخ عبد الرحيم أيضا كان عالما متدينا و شجاعا ثابت الجنان. إن البيئة العلمية و الروحانية لخؤولة الشيخ ولي اللّه الدهلوي و عمومته قد أثرت تأثيرا حسنا فى سيرته و سلوكه، و لم يال والده الشيخ عبد الرحيم الفاروقى جهدا فى تعليمه و تربيته، فلم يكن بلغ السنوات العشر من عمره حتى استظهر القرآن الكريم و فرغ من تحصيل العلوم العقلية و النقلية و هو ابن ستة عشر عاما. و لما استأثرت رحمة اللّه بأبيه حل محله و هو فى سنته السابعة عشرة من عمره، و نقع غلة مئات من ظامئى العلم و طلبته، و قام بترقية المدرسة الرحيمية، كما طور طرق التعليم فى دهلي، و بعد نحو اثنتى عشرة سنة منذ وفاة أبيه غادر فى عام ١١٤٣هـ إلى الحجـاز للحـــج و تحصيل علم الحديث، و مكث بها عامين، و قرأ على الشيـــخ أبى الطاهر المدنى الكردي و غيره من المحدثين الكبار، و قد سرّ أساتذته بذكاءه الموهوب سرورا بالغا، و أثنوا عليه ثناء عطرا.

و على رجوعه من الربوع المقدسة أقبل على التدريس، و لكنه الآن أخذ يعنى بالتأليف عناية أكثر. و من مؤلفاته "*إزالة الخفاء*" و "*حجة اللّه البالغة*" مما يصعب أن يوجد لهما من مثيل.

و إلى ذلك ألّف عشرات من الكتب و الرسائل، و كان قد حوى براعة فى كل فن، و خاصة فى علم الحديث و التفسير و الفقه و التصوف كانت له ضلاعة أي ضلاعة. و تلوح سمات الاجتهاد التحقيقى فى كتبه التى حررّها حول التصوف، كما كتب فـــى قضايـــا "*التوحيد الوجودى*" و "*التوحيد الشهودي*" و جعل هذا الخلاف خلافا لفظيا. و حاول فى جميع مؤلفاته ما وسعته المحاولة أن يبعث الظن الحسن بجميع مشائخ التصوف. و إن كتبه من أمثال "*الانتباه فى سلاسل أولياء اللـــّه*" و "*القـــول الجميـــل*" و "*الهمعـــات*" و "*الهوامـــع*" و "*التفهيمات الإلهية*" و "*خير كثير*" و "*البدور البازغة*" و "*قرة العينين*" و ما إلى ذلك، خير شاهد على موهبته الفائقة. كما نقل القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية و سماه "*فتح الرحمن*"،وهو من المستوى العالي بحيث يندرله مثيل بين الترجمات الفارسية، و لا يستطيع أن يدرك أسرار هذه الترجمة الفارسية و فوائدهـــا إلاّ من درس عـــدة تفاسيـــر القرآن الكريم و ترجماته

و دبج رسالة صغيرة فى حجمها و جليلة فى معانيها فى أصول التفسير، و سماها "*الفوزالكبير*"، و قد ترجمت أيضا فى اللغة العربية، و هى تدل دلالة واضحة على نبوغ الشيخ ولي اللّه الدهلوي فى تفسير القرآن الكريم.

و عاصر الشيخ ولي اللّه الدهلوي عديدا من الملوك المغول، و دعاهم ببصيرته السياسية إلى إقامـــة العـــدل، و قدّم إليهم خطة القيـــام علـــى المال

و العباد. و إن رسائله التى تنم عن سياسة ذلك العصر تدل على أنه كان أوتى حظا موفورا من النباهة الدينية و الكياسة الدنيوية

و تكاثر المسترشدون منه، و لكنه امتاز من بينهم الشيخ محمد عاشق الفولتى و كان الشيخ أبو سعيد الحسنى الرائى بريلوى جد السيد أحمد الشهيد لأمه أيضا قد أخذ عنه و تدرب عليه، و كان خليفته و مجارا منه

و حمل نجله الكريم الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي عنه جميع علومه الظاهرة و الباطنية، و انتشرت بعد على يديه و على يد الشيخ محمد عاشق الفولتى علوم الشيخ ولي اللّه الدهلوي أكثر فاكثر

كان الشيخ محمد عاشق الفولتى ابن خال الشيخ ولي اللّه الدهلوي، كما كان أخا زوجته و تلميذه و مريده و خليفته، و كان حضر معه دروس الحديث بالحجاز و من أكبر مآثره أنه جمع مسودات كتب الشيخ ولي اللّه الدهلوي و قام بتبييضه و ترتيبه بجهد جهيد فى حياته و بعد مماته أيضا و كان بدوره مؤلفا، و رسالته *سبيل الرشاد* من أحسن كتبه فى علوم التصوف

و قد عني الشيخ محمد عاشق الفولتى بجمع رسائل الشيخ ولي اللّه الدهلوي أيضا، و كان بادىء ذى بدء يقوم بجمعها إبنه الشيخ عبد الرحمن، و لكنه بعد وفاة إبنه أقبل على هذا العمل بنفسه، و أنجزه بجهد و تعب بالغين

و قد التزمت ندوة المصنفين بدلهى بطبع الرسائل السياسية لهذه المجموعة مصحوبة بالترجمة الأردية لهذا العبد المتواضع، و قدم لها البروفيسور خليق أحمد النظامي و وضع عليها تعليقات و سوف تقوم المؤسسة الهندية للدراسات الإسلامية بدلهى الحديدة بطبع أكثر من منتقى رسائله الدينية و العلمية الأخرى مع ترجمة هذا العبد المتواضع و مقدمته و تعليقاته إن هذه الرسائل أيضا تلقى ضوءا على حياة الشيخ ولي اللّه الدهلوي، و نتعرف فيها ببعض ما لا نعثر عليه فى مؤلفاته سوى هذه المكاتيب و الرسائل

و ساهم الشيخ محمد عاشق الفولتى فى تعليم الشيخ عبد العزيز و إخوته و تنشئتهم مساهمة كبيره فلما توفي الشيح ولي اللّه الدهلوي عام ١١٧٦هـ كان الشيخ عبد العزيز انذاك ابن ستة عشر عاما، و مع أنه كان قد أخذ عن أبيه شيئا كثيرا و لكن تنشئة الشيخ محمد عاشق الفولتى قد جلت مؤهلاته العلمية و الروحانيه

كان الشيخ عبد العزيز أكبر أولاد الشيخ ولي الله الدهلوي من زوجته الثانية، و كانت ولدت له زوجته الأولى إبنه محمد الذى استوطن (بودانا) (BUDHANA) من محافظة مظفر نغر و توفى بها و دفن فى ركن من المسجد الجامع هناك.

و كان للشيخ عبد العزيز ثلاثة أشقاء اخرون، و هم الشيخ رفيع الدين عبد الوهاب و الشيخ عبد القادر و الشيخ عبد الغنى

إن هؤلاء الإخوة كلهم كانوا أفذاذا فى مواهبهم العلميـة و توقـد ذكاءهم

علو أخلاقهم و التزامهم بالشرع الحنيف. خلف الشيخ عبد العزيز أباه فى جلس العلم و قام بأداء حق خلافته خير قيام. و قد ترك عددا لا بأس به من لاميذه و أتباعه و الشخصيات البارزة منهم. أشقاءه الثلاثة، و ابنا أخيه لشيخ محمد اسماعيل الشهيد و الشيخ مخصوص الله، و سبطاه الشيخ حمد اسحاق الفاروقي المحدث (المهاجر) و مولانا يعقوب الفاروقي المحدث المهاجر)، و الشيخ غلام على الدهلوي، و مولانا المفتى الهى بخش نشاط لكاندهلوي، و رشيد الملة مولانا رشيد الدين الدهلوي، و مولانا كرم الله لمحدث الدهلوي. و مولانا سلامة الله كشفى البدايونى ثم الكانفوري، و مولانا حسين أحمد المليح آبادى و غيرهم - و من الذين تلقوا إجازة الحديث من لشيخ عبد العزيز الشيخ فضل رحمن كنج المراد أبادي

إن مؤلفات الشيخ عبد العزيز و رسائله أيضا تدل على موهبته العلمية لفائقة، فإنه لايوجد مثيل لكتابيه *التحفة الإثنى عشري*" و "تفسير عزيزى". . كتبه الأخرى أيضا مفعمة بالعلوم و المعارف. و من الأسف أن كثيرا من سوداته و كتاباته قد سقطت من يد الزمان.

و قد عمّر الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي طويلا حتى عاش ثمانين سنة، و كان كف بصره فى أخريات أيامه، و تكالبت عليه الأمراض الأخرى حتى اقته عن التدريس. فخلفه أخواه الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبدالقادر فى سند الدرس، و لم يدعا أن يخالط أي فتور فى النشاطات التعليمية . التدريسية و التصنيفية التى كان بدأها الشيخ ولي الله الدهلوي.

و كان الشيخ عبد الغنى أصغر أشقاءه الذى لم يشتهر بنفسه، و لكن طار كره بسبب نجله الكريم الشيخ محمد اسماعيل الشهيد الدهلوي. و ترجم لشيخ رفيع الدين و الشيخ عبد القادر أيضا معانى القرآن الكريم إلى اللغة لأردية، و تملأ هذه الترجمات بنكات و مزايا ما لا تخفى على العلماء، و قد كثرا من استخدام الكلمات الهندية فى هذه الترجمات.

و الجدير بالذكر أن الذى آخر من رأى نور الدنيا بين هؤلاء الإخوة لأربعة، كان أول من انتقل إلى الدار الآخرة، و كذلك توفى الشيخ عبد القادر ولا ثم الشيخ رفيع الدين - رحمهم الله رحمة واسعة -.

و بعد وفاة الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي خلفه سبطه الشيخ محمد إسحاق المحدث الدهلوي، و قام بمهمته خير قيام، و لكنه هاجر قبل ثورة ١٨٥١م المصادف لـ ١٢٧٣هـ بخمسة عشر عاما فى ١٢٥٨هـ.

إن قائمة تلاميذه النبغاء أيضا طويلة جدا، و يدخل فى عدادها المفتى عبد القيوم بن مولانا عبد الحيء البودهانوي، و الشيخ عبد الغنى المهاجر لمدني، و المقرى عبد الرحمن المحدث البانى بتى، و الأمير قطب الدين خان لدهلوي مؤلف "*مظاهر حق*"، و مولانا أحمد علي المحدث السهارنفورى، و مولانا شيخ محمد المحدث التانوي، و مولانا عالم علي التكينوى ثم

المرادأبادي، و مولانا نذير حسين المحدث الدهلوي. و انتفع خلق كثير بمولانا عبد الغني الفاروقي المجددي. و قد كان تلقى منه بالذات مولانا محمد قاسم النانوتوي و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي دروس الحديث في زاوية الشيخ غلام علي.

و قد تابع تدريس الحديث الشريف إلى زمن طويل مولانا أحمد علي السهارنفوري في سهارنفور، و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي في كنكوه، و مولانا محمد يعقوب النانوتوي في ديوبند، و مولانا محمد قاسم في ميرث، و مولانا عالم علي في مراد آباد، و مولانا حسن شاه المحدث ثم مولانا محمد شاه المحدث في رامفور. ثم أخذ مولانا سيد أحمد حسن المحدث الأمروهي و شيخ الهند مولانا محمود حسن المحدث الديوبندي تلميذا مولانا خليل أحمد و مولانا محمد يعقوب يروى عطشى علم الحديث من حوض الشيخ ولي الله الدهلوي. و قد عمت بجهودهم بركاته في جميع مقاطعات الهند و أقطارها حتى خارج البلاد. و في الزمن الأخير كان من المنتمين إلى أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي العلمية مولانا أشرف على التانوي، و مولانا الحافظ عبد الرحمن الصديقي المفسر الأمروهي، و وقارالمحدثين مولانا محمد أنور شاه المحدث الكشميري، و شيخ الإسلام مولانا سيد حسين أحمد المدني، و مولانا عبيد الله السندي، و المفتي محمد كفاية الله الشاهجهانفوري ثم الدهلوي، و مولانا شبير أحمد العثماني، و مولانا سيد فخر الدين أحمد المحدث، الذين نفعوا المسلمين عربا و عجما بمؤلفاتهم و خدماتهم التدريسية و ليس عدد مسترشديهم الروحانيين بأقل من الذين أفادوهم في حقل التعليم. و إلى جانب دارالعلوم في ديوبند، و مظاهر العلوم في سهارنفور، و دارالعلوم لندوة العلماء في لكناؤ، و المدرسة الإسلامية العربية في أمروهة، و مدرسة شاهي في مرادآباد، إن جميع معاهد تدريس الحديث و المدارس الشهيرة في ميرث، و مظفر نفر، و جولاوتي (GULAOTHI) ، و خورجه، و سنبهل، و عليجر، ونجيبنة، (NAGINA) وبريلي، وشاهجهانفور، و مئوناث بهانجن، و غوسي، (GHOSI) و مباركفور، و سرائي مير، و بنارس، و مقاطعات بيهارو بنجال و غجرات و حيدر آباد الدكن، و بوفال و تونك (TONK) و مدراس و دولة باكستان، كلها تتدرج في سلسلة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي. و قد قال شيخ الحديث مولانا محمد زكريا-رحمه الله - : إنه لا يوجد أي معهد ديني و مؤسسة تعليمية و مدرسة لأهل السنة و الجماعة حيث يدرس القرآن الكريم و الحديث الشريف في شبه القارة الهندية لا تمت إلى الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي.

تعريب : ولي أختر الندوي

الشريفُ الرّضي
الشّاعر الأبي والأديب العبقري

بقلم: مروان العطيّة
دير الزّور ـ سوريا

عصـــره:

ولد الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري، و قد لقي هذا القرن من الباحثين في العصر الحديث عناية فائقة، و اهتماماً كبيراً، و حرصاً على كشف جوانبه المختلفة من سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية، لأسباب عدة أظهرها أنه كان العهد الذي بلغت فيه الحضارة الاسلامية ذروتها، و استوت فيه على سوقها، و الباحثون تغريهم دائماً الفترات المضيئة في حياة الأمم، لأنها بضوئها و التماعها تجذبهم إليها فإذا ما فرغوا من التعرف على أسرارها ثنوا عطفهم إلى ما هو أقل التماعاً منها في سائر العصور.

و كانت حياة الرضي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و السنوات الست الأولى من بداية القرن الخامس، في بغداد، و عاصر في تلك الفترة من خلفاء بني العباس المطيع للّه و الطائع للّه و القادر باللّه، و لم تؤهله سنّه للصلة بالمطيع للّه، و إنما كانت له أعظم العلائق بولده الطائع للّه، ثم لم يتح لعلاقته بالقادر باللّه النجاح، بل قام بينهما نوع من العداء.

و كان البويهيون المتسلطون على العراق خلال هذه الفترة هم: معز الدولة و عز الدولة و عضد الدولة و صمصام الدولة و شرف الدولة، و لم تكن سن الرضي تؤهله لعلاقة بالأربعة الأول ، كما كانت علاقته بشرف الدولة بسيطة، لا تتعدى شكره على إطلاق والده من سجنه، أما بهاء الدولة، فقد كان أمله، فلما فقده لم يجد في نفسه ما يدفعه إلى علاقة مماثلة بخلفه سلطان الدولة.

و كانت الخلافة الفاطمية في غرب الدولة الاسلامية قد استقرت في مصر و شمال أفريقية، و بسطت سلطانها على مناطق من الشام و الحجاز

و اليمن، و قد عاصر الرضي من خلفائها العزيز بالله و الحاكم بأمر الله، كما كان الحمدانيون في شمال الدولة الإسلامية بالموصل و حلب يدفعون عنها عادية الروم، و قد ضعف أمرهم، فاستولى العقيليون خلال هذه الفترة، على إمارة الموصل منهم، و استولى الفاطميون على حلب في السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري.

و على أطراف الشام و العراق، و في نجد و سواحل الخليج، كانت تنتشر قبائل الأعراب من خفاجة و أسد و غيرهما، تسد الطريق على قوافل الحجاج، أو ينتصربها قوم على قوم، مما جعل لها ثقلاً في الميزان السياسي لهذه الفترة.

و قد أدى الصراع السياسي الذي عاشه العراق خلال هذه الفترة إلى اضطراب عظيم في شؤون الحياة، من فتن قامت بين أهل السُنَّة و الشيعة، و بين الأتراك و الديلم، و من شغب يثيره العيارون و الشطار، و غلت الأقوات، و وقعت المجاعات حتى اضطر الناس إلى أكل الجيف، و بينما كانت ثروات بعض الناس مثل محمد بن عمر بن يحي العلوي عظيمة جداً، لدرجة أن بهاء الدولة صادر بعضها، فوصل إلى مليون دينار عيناً، كان البعض الآخر لا يجد قوت يومه، و قد أدى هذا التفاوت إلى مصادرات من جانب ملوك بني بويه، و ثورات من عامة الناس.

و لكن هذا العصر باضطرابه كان أحفل العصور بالرقي العلمي و الأدبي، و يكفي أنه أنجب هؤلاء الأعلام المتنبي، و أبا فراس الحمداني، و الرضي، و المعري، و ابن العميد، و الصاحب ابن عباد و أبا حيان التوحيدي، و الصابي، و بديع الزمان، و أبا علي الفارسي، و السيرافي، و ابن جني، و الآمدي، و القاضي الجرجاني، و ابن فارس، و أبا هلال العسكري، و الثعالبي، و ابن سينا، و الباقلاني، و القاضي عبد الجبار، و أبا حامد الإسفرايني، و أبا بكر الخوارزمي، و الشريف المرتضى، و الشيخ المفيد ابن النعمان.

و منذ مقتل المتوكل سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين للهجرة، أخذت الدولة العباسية تزداد وهناً على وهن. فتمشت في مفاصلها و أوصالها عوامل الانحلال و التفكك، و تهدم المجد الباسط الظل، و لم يكد القرن الثالث يشارف غايته، حتى انتكث فتل الدول العربية، فاذا هي وحدات سياسية متباعدة لاتجمعها إلاّ أوهى الروابط، و لا تصل بينها إلاّ أوهن الصلات، و ما انقضّ هذا البناء العظيم إلاّ لأن الخلفاء العباسيين قربوا الدخلاء الأجانب، و اعتمدوا عليهم، فكان منهم الوزراء و الجند و العمال، و ضنّوا على العرب أبناء أرومتهم و أصحاب البلاد الأصلاء، أن يسوسوا بلادهم و يصرّفوا شؤونهم و يذودوا عن حماها.

ذلك مصير كل دولة تعتمد على عناصر ليست من جنسها في حياتها السياسية والادارية والحربية، ومن هذه الدويلات التي صارت إليها الدولة العباسية وأبعدها شأناً، دولة بني بويْهِ الفارسية التي غلبت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، على بغداد مدينة الشاعر العربي البطل الشريف الرضي.

و قد تعصب بنو بويه للفرس تعصباً شديداً، فأحيوا عاداتهم و تقاليدهم و أدابهم، و احتفلوا بأعيادهم احتفالات فخمة، و لقبوا أنفسهم بأرفع الألقاب، ليس «شاهنشاه» ملك الملوك إلاّ واحداً منها، و استحال الخلفاء العباسيون دمى في أيديهم، تتحرك كيف يشاؤون، ليس للملوك بني بويه إلاّ الأمر و ليس على الخلفاء إلاّ الطاعة و التنفيذ و الخضوع.

في هذه الفترة من حياة الأمة العربية في العراق طغت الروح الفارسية طغياناً شديداً على كل شيء و كان لها أثر كبير في الأدب العربي، فقد هجر الشعراء الفخر و الاعتزاز بالنفس العربية، و التغني بالبادية، و الوقوف على أطلالها، و الإشادة بتقاليد العرب من فروسية و شجاعة و نجدة و كرم و مروءة إلى أدب الترف و الميوعة و الانحلال و المدح المفرط في الغلو، و أطلت الأفاعي الدخيلة من حجورها تفح في وجه النبل الجريح و الكرامة المهدرة و الشهامة المطعونة، معتزة بالفرس مفتخرة بآثارهم و مآثرهم، متحاملة على العرب تنعى أمجادهم و تصيب منهم كل يوم مقتلاً

حتى إن ديوان الشاعر مهيارالديلمي يوشك أن يكون جميعه - على طوله - فخراً و اعتزازاً بقوميته الفارسية، و هو الذي يقول

قومي استولوا على الدهر فتى	و مشوا فوق رؤءس الحقب
عممـــوا بالشمس هاماتهـــم	و بنـوا ابياتهـم بالشهـب
و أبـــي كسـرى عــلا إيوانـــه	أين في الناس أب مثل أبي؟

إن غلبة العنصر الفارسي في العراق و شيوع الروح الفارسية في الأدب العربي، كان لها رد فعل عنيف في نفوس الأدباء العرب الأقحاح فجاء أدبهم معبراً عن الروح العربي بكل ما فيه من شجاعة و فروسية و مروءة و ترفع عن الصغائر، و رفض للواقع المهين الذي يحيا فيه الشعب العربي في العراق. من أبرزهؤلاء الأدباء الشاعر العظيم الشريف الرضي. فقد حملته سيادة الروح الفارسية، و بسط ظلها على الحياة العربية في عصره، على التعلق بقوميته تعلقاً شديداً. يدلنا عليه حنينه الأسوان إلى الوطن العربي الأول في الجزيـرة، و الوقوف على أطلاله و التغني ببواديه منبت العز و الشهامة، و الاعتزاز بالعروبة و تقاليدها و السخط الشديد على هؤلاء الملوك من الفرس الذين حجروا على خلفاء بني العباس، و تبرمه بالعيش في بغداد التي تئن تحت وطأة الدخلاء، حتى يمكن أن نعد أدب هذا الشاعر تصويراً لما كان يختلج في نفوس العرب المغلوبين على أمرهم في ميادين الحياة السياسية و الاجتماعيـة و العسكرية، من سخط على الدخلاء و مقتهم، و احتقار لمؤيديهم، و تطلع إلى مستقبل عزيز، و أحلام بالظفر، و أمال عريضة بالعودة إلى الأمجاد السابقة.

حياته و شعره:

هو أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى الكاظم من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب. و قد كان أبوه نقيباً للطالبيين (رئيساً دينياً لآل البيت الشريف).

ولد الشريف الرضي في بغداد (٣٥٩ هـ = ٩٧٠م) و نشأ فيها و برع في علوم الفقه و اللغة و الأدب، و قال الشعر و عمره خمس عشرة سنة. و في (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) اعتزل أبوه نقابة الطالبيين فخلفه هو فيها نائباً عنه. و في ذي القعدة (٤٠١هـ = ١٠١١م) منحه الأمير البويهي بهاء الدولة لقب الشريف. ثم إنه عين نقيباً أصيلاً يوم الجمعة في (١٦ المحرم ٤٠٢هـ = آب ١٠١٢م) بعدئذ ضمت إليه الأعمال التى كان يقوم بها أبوه و هي النظر في المظالم و الحج بالناس.

و كان الشريف الرضي عالي الهمة طموحاً إلى المعالي لم يقبل صلة من أحد و لا جائزة. و قد ردّ جميع الصلات التي كانت جارية على أبيه من قبله، فخافه الخليفة القادربالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) فاتهمه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عن المظالم و الحج.

و توفي الشريف الرضي في السادس من المحرم ٤٠٦هـ = (١٠١٦/٦/٢٤م) و دفن في بيته في محلة الأنباريين إحدى ضواحي الكرخ (الكاظمية اليوم).

ألقابه و مناصبه:

لقبه بهاء الدولة سنة ٣٨٨ هـ بالشريف الأجلّ، و في سنة ٣٩٢ هـ بذي المنقبتين، و في سنة ٣٩٨ هـ بالرضي ذي الحسين، و في سنة ٤٠١ هـ أمر أن تكون مخاطباته و مكاتباته بعنوان « الشريف الأجل » و هو أول من خوطب بذلك من الحضرة الملوكية.

إن المناصب و الولايات كانت متكثرة على عهد الشريف من الوزارة التنفيذية و التفويضية، و الإمارة بقسميها العامة و الخاصة، و العامة بضربيها: استكفاء بعقد عن اختيار، و استيلاء بعقد عن إضطرار. و الإمارة على جهاد المشركين بقسميها: المقصورة على سياسة الجيش و تدبير الحرب، و المفوض معها إلى الأمير جميع أحكامها قسم الغنائم و عقد الصلح، و الإمارة على قتال أهل الردة، و قتال أهل البغي، و قتال المحاربين، و ولاية القضاء، و ولاية المظالم، و ولاية النقابة بقسميها: العامة و الخاصة و ولاية إمامة الصلوات، و إمارة الحج، و ولاية الدواوين باقسامها، و ولاية الحسبة، و غيرها من الولايات. فمنها ما كان يخص بالكتّاب و الأدباء، و أخر بالثقات و رجال العدل و النصفة، و ثالث بالأماجد و الأشراف و المترفين، و رابع بأباة الضيم و أصحاب البسالة و الفروسية، و خامس بذوي الآراء و الفكرة القوية و الدهاة،

ي سادس بأعاظم الطالبيين و أعيان العترة النبوية، و سابع بالفقهاء و أئمة العلم و الدين. و هنا ما يخص بجامع تلك الفضائل، و مجتمع هاتيكم المآثر كالشريف ذلك المثل الأعلىٰ فـي الفضائـل كلهـا فعلـى الباحث عـن مواقفـه و مقاماته و نفسياته الكريمة أن يقرأ و لو بصورة مصغرة دروس المناصب التي كان يتولاها الشريف فعندئذ يجد صورة مكبرة تجاه عينيه ممثله من العلم و الفقه و الحكمة و الثقة و السداد و الأنفة و الفتوة و الهيبـة و العظمـة و الجلال و الروعة و الوفاء و عزة النفس و الرأي و الحزم و العـزم و البسالـة و العفة و السؤدد و الكرم و الإباء و الغنى عن أي أحد قد حليت بالأدب و الشعر و لا يراها إلاّ مثال الشريف الرضي.

تولى الشريف نقابة الطالبيين، و إمارة الحاج و النظر في المظالم سنة ٣٨٠ هـ و هو ابن ٢١ عاماً على عهـد الطائع، و صـدرت الأوامـر بذلك من بهاء الدولة و هو بالبصرة سنة ٣٩٧هـ ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٢هـ بولاية أمور الطالبيين في جميع البلاد فدعي « نقيب النقباء » و يقال إن تلك المرتبة لم يبلغها أحد من أهل البيت إلاّ الإمام علي بن موسىٰ الرضا سلام الله عليه الذي كانت له ولاية عهد المأمون، و اتيحت للشريف الخلافة على الحرمين على عهد القادر كما في المجلد الأول من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و كان هو و الولايات كما قيل

لم تُشيِّد الولايـــات مجـداً ... لا و لا قيل رفعت مقداره

بل كساها و قد تحزمها الدهـ ... ـر جلالاً و بهجة و نضارة

شعـــــره :

و أغراض الرضي الشعرية حافلة، و قد تعاظم قدر المدح في شعره حتى ليربو على ثلث ديوانه، ثم يليه الرثاء و الفخر و الشكوى و النسيب ثم بقية الأغراض

و أول هذه الأغراض المدح و التهنئة، و مدائحه لأسرته يجمع لهم فيها بين شرف النسب و علو الهمة، و كرائم الأخلاق من مثل قوله في أبيه

و أين مثـل الحسين إن حسنت ... صنائع البيض و القنا القصد

أبلج إن صاحـــت المطـي بـــه ... فدى التنائـي بعيشه الرغـد

و قوله فيه

تتزاحم الأضيـاف في أبياتــه ... فرقاً تحن إلى القرى و تتوق

و إذا رآهـــم لم يقـــل متمثلاً ... أبني الزمان لكل رحب ضيق

و في مدائحه للخلفاء العباسيين، يعدد لهم صفات المجد و علو النسب و إحكام الخلافة، من مثل قوله في الطائع لله

ملك إذا حصر السماط به   كثر العثار و طبق الزلل
و إذا السرير سما بقعدته   غربت بظاهر كفه القبل
جلت الأئمة عن مناقبه   و استودعته نورها الرسل

و في مدائحه للبويهيين، يصفهم بالقوة و استلاب الملك قهرا، و البأس و الكرم ، يقول في بهاء الدولة:

إذا ابتدر الرهان مبادروه   تمطر دونهم يوم الجراء
و إن طلب الندى خرجت يداه   خروج الورق من خلل الغماء
حذار إذا تلفع ثوب نقع   حذار إذا تعمم باللواء
حذار من ابن غيطلة مدل   يسد مطالع البيد القواء

و في مدائحه للوزراء و الكتاب و أصحاب الجاه و المتغلبين على البلاد و الأصدقاء و العلماء، يبين خصائص مدحه لكل طائفة، و له قدرة على تمييز ما يمدح به كل فريق

و قصائده في الرثاء و التعزية، تظهر تفجعه على من فقدهم من أسرته، أو من الخلفاء و الملوك و الوزراء و الكتاب و الأعوان و الأصدقاء و العلماء، انظر إلى لوعته في رثاء أمه.

فارقت فيك تمسكي و تجملي   و نسيت فيك تعززي و إبائي
و صنعت ماثلم الوقار صنيعه   مما عراني من جوى البرحاء
كم زفرة ضعفت فصارت أنة   تممتها بتنفس الصعداء
لهفان أنزو في حبائل كربة   ملكت علي جلادتي و غنائي

و تفرده في هذا اللون من الفن، و امتزاجه بمأساة الموت، و بكاؤه الملتاع، كل ذلك استحق به أن يسمى النائحة الثكلى .

و كان الفخر الميدان الذي يجلّي فيه الرضي و يكشف عن آماله، و يبين عن منازعه العالية، و يظهر قدرته على التصور حين يرىٰ نفسه بطلاً يقود الفرسان، و قد كشف شعره في هذا الاتجاه عن أخلاق الفرسان كما يراها، و عن صفات الجواد الاصيل الذى لا يمتطي ظهره إلاّ صناديد الرجال و قصيدته التي يبدؤها بقوله:

نبهتهم مثل عوالي الرماح   إلى الوغى قبل غموم الصباح

توضح ذلك. كما كانت الشكوى متنفسا له يبث فيها متاعبه في دنيا الأقارب و الأصدقاء و محاربة الدهر له و انتكاس أمانيه و شعره في الفخر و الشكوى ذاتي خالص، ينبع من نفس قلقة وثابة حساسة. كما أن شعره الوجداني في النسيب و طيف الحبيب غايــة في الرقــة و الافصاح عن الأخــلاق العاليــة، و النفس التي صقلها الوجد و هذبها العشق، و أصبحت حجازياته بما تحمل من معالم فنية طريقا ممهداً للشعراء بعده و هام الناس بها لعذوبة وقعها و رقة حواشيها و قد عارض الشعراء كثيراً قصيدته الكافية.

ياظبية البان ترعى في خمائلـه   ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

و قصيدته الميمية:

يا ليلة السفـح ألا عدت ثانيـــة   سقى زمانك هطال مـــن الديم

كما أن بكاءه الشباب و نفوره من المشيب، فتح لـه بابا مـــن القــول الطريف و نفّس عن ما تحمله نفسه المكروبة من هم – عن طريقه – في شعره.

و كانت صداقات الرضي ميدانا رحبا لشعره، أبان فيه عن معرفة بطبائع الرجال و حرص على الصورة المثلى للمجتمع و هو يمثل واحة له في هجير صحراء الحياة كما يمثل نوعاً من الحكمة في معالجة عوج الاصدقاء يدل عليها قصيدته

و كم صاحب كالرمح زاغت كعوبـه   أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

وميسم الهجاء عند الرضي حاد لاذع، لكنه غير فاحش و هو يجمع لمن يهجوه المثالب التي تبعده عن طريق العلا و لا يصفه بما يصف الهجاؤون به الناس مـن هتك لأعراضهـم، و تعريض بمعايبهـم الجسميــة، مما يؤذي النفـس و يجرح الحس، و لذلك فان أهاجيه تبلغ ما تريد، و لا يتحرج المرء من روايتها أو التمثل بها و انك لتحس في قصيدته.

أبيعـــك بيــــع الاديم النغـــل   و أطوي و رادك طـــي السجــل

ثورة الغضب و لذعة الهجاء و الم المثالب :

و الشريف الرضي شاعر وصاف ، و لكن وصفه لاياتي غالبا الا استطرادا و هو حين يصف يخلط الوصف بنفسه و يمزجه بخطرات قلبه و لذلك لا ترى فى وصفه عناية بابراز الحسيات و قد وصف الطبيعة و ما يعيش فيها كما وصف الحرب و الصراع السياسي.

و قد اقتضته ظروفه التى عاشها أن يتقلب في أحضان السياسة و أن يشهد مؤامراتها و دسائسها و أن يكتوى بنارها و شعره في هذا الجانب يعطي ملامح عصره و يشترك مع النصوص التاريخية في الكشف عنه و ينبيء عن

القيم السياسية التى كان الناس يتعاملون على أساسها في تلك الفترة من شراء المناصب إلى المكائد و الدسائس التي تفتك بالناس إلى الغدر بمن كان محل الثقة إلخ

و الرضى رقيق في عتابه، يدعو إلى البقيا و لم الشمل ، و لكنه عنيف في تهديده لا يبقي و لايذر و لايرعى مقام خليفة أو ملك يهدد بالقطيعة و الرحلة ، و الحرب و القراع كما يهدد بأسلات شعره و له نظرات خاصة في الحياة كونتها لديه تجاربه و هو لايبخل بتقديم نصائحه للساسة أو لعامة الناس، حتى تستقيم الحياة على وجهها ، و له في هذا الجانب أبيات تسير مسير الأمثال و لكن أمثاله لم تشتهر شهرة غيره من الشعراء كالمتنبي مثلاً و يتصل بهذا قصائد و مقطوعات للرضي، يتزهد فيها و ينذر الناس بالآخرة و ينفّر من الركون إلى الدنيا بعد ما أبدت من غير و يشكر الله على نعمه و هو في هذا كله لا يعبر عن فلسفة خاصة لها منهاجها و انما هي شذرات مفرقة أقرب إلى الحكمة و الموعظة

و الرضي ممن لايقبل على ما يعتذر منه و رغم ذلك فله مقطوعات و قصائد رقيقة في هذا الجانب و له قصيدتان في استعطاف بهاء الدولة، يشينان الصورة التي يرسمها سائرة شعره في إبائه و أنفته ، و لعل قهراً سياسياً هو الذي دفعه إلى هذا الموقف ، كما أن له بعض الشعر في الاقتضاء و انجاز الوعد وله قصائد و مقطوعات و أبيات مفردة لاتستطيع أن تخضعها لغرض بعينه

و الرضي أشعر الطالبيين حسب ما وصل إلينا من شعرهم و أشعر قريش اذا نظرنا إلى اكثاره في فنون الشعر المختلفة و اجادته لها أما في الجانب الذي اختص به عمر بن أبي ربيعة و هو وصف النساء و أحوالهن و أحواله معهن فلا تصح المقارنة بينهما

نثر الشريف الرضي :

القدر الذي بين أيدينا الآن من رسائل الرضي المطولة و القصيرة لايمكننا من الحكم على نثره و تطوره و مكانته في عصره حكما مفصلا و لكنه يتيح لنا رؤية لبعض ملامح نثر الرضي إلى أن يجود علينا الزمان بماضاع منه.

و الرسائل الطوال التي بين أيدينا تنتظم أغراضا متعددة من تهنئة و معاتبة و تعزية و عهود و نقد شعر.

و رسائل التهنئة كتبها الرضي إلى ثلاثة من الوزراء الذين عاصرهم و كانت الأولى إلى سليمان ابن أحمد الأبرقوهي يهنئه بالنجاة من حادث ، ربما كان سياسيا و قد ذكر الرضي في أولها مابينهما من علائق الاخاء و غرائس

الصفاء ، و قلقه عليه من هذا الحادث و توالي سؤاله عنه في مدته و الدعاء له حتى عاد إلى وطنه مكنوفـــا بالسلامـــة ثم يصف ســـروره الخالص بعودتـــه و سلامته.

أما الرسالة الثانية فكانت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكار يهنئه بما صار إليه من العودة إلى العليا و نجاته مما ألم به ، و لعله يعني العزل عن الوزارة ثم العودة إليها و قـــد بدأ رسالتـــه ببيان برمـــه بالليـــل و النهار و سخطه بواقع الأقدار لعجزه عن الوصول إليه لمرضه و علته و كان أمله أن يبادر إليه ليقوم بالواجب نحو تهنئته بنجاته مما أصابه، و يذكره بما يفعله الزمان بعظام الرجال في تقلب أحوالهم في الخير و الشر و أن العواقب دائما لمن يصبر ، و يبشره بالأجر على ما أصابه و زيادة النعمـــة و اضطرادهـا و يحمد الله على أن جعل محنته محنة أدب لا محنـــة غضب و نكبة استصـــلاح لا نكبة اجتياح و يصفه بالعلو و الأدب.

و الثالثة كانت إلى الوزير سابور بن أردشير يهنئه بعودة الوزارة إليه في الدفعة الرابعة و يذكر في أولها أن هذه نعمة شملت الناس عموماً و شملته خصوصاً و أن خلو الوزارة منه كان غمة على الخاصة و العامة و يدعو الله أن يديم عليه هذه المنة و لاينقله عنها إلاّ إلى ما هو أجل منها و يضعف كفايته و ما وصل إليه من تدبير الوزارة أربع مرات، مما لم يحصل عليه أحد في ذلك الزمان ثم يذكر ما جمع الله فيه من الخلال الحميدة و يدعو الله أن يتم له ما خوله و يعينه على ما قلده

و نلاحظ أن هناك معاني تتردد في رسائل التهنئة هذه مثل بيان ما بين الرضي و بين هؤلاء الوزراء من علائق و ما يشعر به نحوهم من الولاء أو الأخاء و إنها تهنئه بنعمه جاءت بعد نقمه، أو بتوليه بعد عزل، كما يلاحظ كثرة الدعاء فيها بدوام النعمة و اضطرادها

أما رسالته إلى الصابي في الردّ على تهنئته له بعيد الفطـــر في سنـــة ٣٨٤ هـ فقد ذكر الرضي فيها أنه سعد بهذه التهنئة من بين التهاني كلها لما يعلمه من أنها تهنئة صادرة من قلب غير متقلب و يدعو الله له بطول البقـــاء و يواسيه عن علته بأنه أرسى لنفسه على تطاول الزمن مجدا و يقبل عذره في نيابة الرسالة عن حضوره لتهنئته ، و يطلب منه الصبر لأن الزمن لا يطالب بالمناصفة و يصف مكانه المكين من قلبه و يشكره على ما أرسله إليه من الشعر و يذكر ردّه عليه

و قد وجّه الرضي رسالته في العتاب إلى أحد أصدقائه و يذكر شوقه إليه و يعتب تأخر مكاتباته و يذكره بما بينهما من عهود و بما مضى لهما في ربيع الأيام و شباب الدنيا و يبين عذره في شدة لومه لتبدل حاله فقد كان خصيصا به و كان أقاربه يعلمون خبره عن طريق الرضي ثم انقلب ذلك إلى صده، و يذكره بالعودة قبل أن يحول بينهما الزمان ، كما فعل في سلبه صديقا

الحميم أبا إسحاق الصابي ثم يصف صداقته له و لواعجه في فراقه و مكاتبه الأدبية و السياسية و مادار بينهما ، و ما رثاه به ، و يدعو الله أن يحفظ مهجة صديقه و أن يثني عطفه نحوه.

و الرسالة اخوانية رائعة تكاد تذوب رقة و وجدا:

و رسالة الرضي إلى الصابي في تعزيته عن ولده سنان في ربيع الآخر سنة ٣٨٠ هـ رسالة فريدة وضع فيها الرضي خلاصة حب لصديقه، و حدبه و اشفاقه عليه و ذكر فيها أنه عاد من تعزيته و قد أضيف إلى حزنه على الشباب قلقه على ما صار إليه صديقه من الحزن و الحرق ثم يذكره بما لا ينساه من الصبر و ما يعرفه من تقلب الأيام و الاعتبار بمن مضى من القرابة و الخلان و أن المرء سائر إلى مصيره فلو كل هذا الحزن ، وفي الأيام خلف من الغائب و يسأل الله أن يزيد سروره بمن بقي من أولاده و أن يبارك فيهم و قد عدل الرضي في هذه الرسالة إلى الحجاج في أكثر من موضع ، رغبه في أن يصل بصديقه المكلوم إلى اقتناع يسرى عنه و يصرف عنه الحزن

و قد كتب الرضي إلى الصابي رسالتين أخريين في سنتى ٣٨٠ هـ ، ٣٨١ هـ يبين له فيهما ما يريد توكيده في العهدين الصادرين من دار الخلافة و كان الأول بمناسبة تقليده نقابة الطالبيين و النظر في أمور المساجد بمدينة السلام و النيابة عن والده في المظالم و الحج و كان الثاني في تقليده بعمل جديد لم يتم أمره

و لم يكتب الرضي إلى الصابي لقصور يعرفه فيه و انما اراد أن يوضح له أمرين

الأول الحفاظ على مكانة أبيه و تعظيمها فقد كانت القضية شديدة الحساسية ، ذلك أن الطائع لله ولى أبا أحمد النقابة و الحج و المظالم في أوائل سنة ٣٨٠ هـ ثم ولى ولده في رمضان من السنة نفسها و الأمر يقتضي في كتابه المرسوم كياسة لابد أن ينبه الرضي صديقه الصابى الكيس إليها زيادة فى الحيطة و تبرئة للنفس

و الثاني رغبة الرضي في اسباغ مظاهر التكريم عليه في هذين المرسومين و قد أشار على الصابي بالاطالة في مواطن خاصة يرى فيها اظهار الكرامة و الرفعة

و الرسائل التي بين يدى تشيع فيها ظاهرة الموازنة بين السجع و الازدواج و قلما يكتب لأحدهما الغلبة على الآخر و يدرك القارىء لها أن الرضي لم يكن يعمد إلى احدهما و انما كانت المعاني تسوقه فيضعها في القالب الذى يناسبها فبينما يلجأ الرضي إلى السجع في قوله و بينما هذه الدنيا ترضعنا درتها و تصرح لنا عن زبدتها و تلحفنا فضل جناحها و تغرنا بركود رياحها إذ به يعود إلى المراوحة بين السجع و المزاوجة فيقول و تغذونا بما

نستمرئه برهة و نستمره مدة و نستحليه أوانا و نستوبيه اونة حتى تعطف علينا عطف الضروس و تضرحنا صرح الشموس و تريق ماحلبت من النعيم بضروب ما جلبت من الهموم

و قد يعمد الرضي إلى تضمين رسائله بعض شعره كما فعل في ختام رسالته لسابور فقد ضمنه الأبيات ٢٩، ٣١ ـ ٣٣ من القصيدة (١٣٠) أو تضمينه شعر غيره كما فعل في رسالته إلى احكار حيث ضمن قول القائل

و للدهر في صم الصلاب نصيب

وضمن قول الآخر

كل حبس يهون عند الليالـي بعد حبس الأرواح في الأجساد

و يكثر الجمل الدعائية في رسائل الرضي مثل دعائه بطول البقاء و العز و التمكن الخ و قد يداخل الدعاء في الكلام بما يفصل بين أجزائه مثل قوله لسابور فان رأى سيدنا الوزير ـ أدام الله علوه ـ أن يأمر ـ أعلى الله اجره ـ باجاسي

كما يفصـل أحيانـا بين جزءي الجملة لحشـد كـل ما يتعلق بالمعنـى و لم شتاته كما في قوله و بعد فبيننا من مناسبة الخلائق و مشاكلة الطبائع ثم من المؤدة التي ألفت بين شخصينا و ضربت برواقها علينا و ما كنا نتهاداه من الطاف الفضائل و نتشاراه من اعلاق المناقب ، ما يعذرني في أن أفرط جرعي عليه

و كما تقدم في اخر رسالته لسابور الذي تقدم نقله

و الفصول القصار التي ساقها الشيزري فى أخر جمهرة الاسلام و ساقها ابن معصوم في *الدرجات الرفيعة* و نشرتهـا *مجلة العرفان* قبل طبع *الدرجات الرفيعة* لاتخرج في جملتها عن رسائله المطولة فهي في ظني فقرات من رسائله الطوال و ليست رسائل مستقلة، ذلك لأن كـل رسالة منهـا لا تستقل بغرض و انما هي نبذ من انشاء الرضي كما نص على ذلك ابن معصوم و قد فتشتها فلم أجد فيها خروجا عما سبق بيانه من المعاني في الرسائل الطوال كما انها تتضمن الخصائص الفنية التي سبقت الاشارة إليها.

شاعـــريتـــه :

نظم الشريف الرضي الشعر فى عهد الطفولة و لما يزد عمره عشر سنين فأجاد و نظم في جميع فنون الشعر فأكثر ، و جاء محلقاً محرزاً قصب السبق ، بغير منازع ، و لم يكن في ناحية من نواحي الشعر أشعر منه في غيرها مما دل على عزارة مادته، و إنه كان ينظم قصائده بمنحة نفسانية قلما تؤثر بها

العوامل الخارجية و امتاز الرّضي بأن شعره على كثرته لابس كله ثوب الجودة و الملاحة و هذا قلما يتفق لشاعر مكثر ، بل لم يتفق لغيره ، فاننا نرى تلميذه و خريجه مهيار الديلمي قد أكثر من نظم الشعر و لكن قصائده لم تكن متناسقة متناسبة في الجودة بخلاف قصائد الرّضي. و إذا نظرنا إلى شعر المتنبي المتقدم عليه في العصر نجده مع ما للمتنبي من المكانة السامية في الشعر يشتمل على سقطات لا تقع من أداني الشعراء فلاغرو إذا فضل مفضل شعر الرضي على شعر المتنبي.

و إذا تأملنا في شعر الشريف الرضي وجدناه منطبعاً بطابع لايوجد في غيره و يعسر علينا وصفه و التعبير عنه، فان حسن الشعر بمنزلة الجمال في الانسان، فمن نظر إلى الوجه الجميل من أهل الأذواق علم أنه جميل ، و لكن يعسر عليه أن يبين أسباب جماله، و تفاصيلها، و كذلك إذا استمع ذوالطبع المستقيم إلى القصيدة الجيدة عرف أنها من الشعر الجيد و صعب عليه أن يفصل الأسباب في جودتها و لعله إلى ذلك ينظر إلى كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه حين سئل عن أشعر الشعراء فقال إن القوم لم يجروا في حلبة واحدة فيعرف السابق منهم، فإن كان ولابد فالملك الضليل. فشعر الرّضي مطبوع بطابع من البلاغة و البداوة و البراعة و عذوبة اللفظ و الأخذ بمجامع القلوب و غير ذلك من المميزات لاتكاد تجد في غيره و لانكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الشريف الرضي بين الشعراء أمة برأسه و مما امتاز به شعر الشريف أنه نقي من كل مايتعاطاه الشعراء من الغزل المشين و الهجاء المقذع و التلون بالمدح تارة و الذم أخرى . و لايليق بنا أن نمدح الشريف الرضي بأن شعره خال من المجون الذي كان شائعاً في ذلك العصر فهو أجل قدراً و أرفع شأناً من أن نمدحه بذلك كما أن شعره خال من وصف الخمرة ، و إن وصفها كثير من الشعراء الذين لايتعاطونها، و لكن الشريف لم يصفها إلاّ بسئوال من سأله ذلك على لسان بعض الناس. فوصفها بعدة أبيات لم يصفها بغيرها.

و شعر الشريف الرضي مرآة تنعكس عليها الملامح السابقة فتكشف لنا بوضوح كل ما فيها من جوانب و تفصيلات و هو الذى يعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحية ، و سمات عصره و بيئته و ثقافته من ناحية أخرى بحيث يصلح الكثير من شعره أن يكون من الوسائل القيمة التي تعين على فهم كثير من أحداث هذا العصر و أخباره

و أول ما يطالعنا في هذا الشعر، في قوة و وضوح ، هو ارستقراطية الشريف الرضي العربية التي تحدثنا عن أسبابها و مقوماتها، و هي تطالعنا في الفنون و الأغراض التي طرقها.

صفاته الخَلقية و الخُلقية :

ليس بين يدي وصف خَلقي للرضي ؛ اللهم إلاّ ما قاله الدكتور زكي مبارك ' من أنه كان جميل الوجه جداً ، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول أنه لم يستبح النظر إلى وجهه إلاّ بعد أن اخضرّ شاربه، و نبت عارضاه ، و لست أدري عمن نقل الدكتور زكي هذا القول فإنه لم يعين مرجعه في هذا، و قد نقل أديب التقي كلام الدكتور زكي . و زاد على ما أورده أن الشيخ صاحب المقالة هو شيخه المفيد، و لم يكن له مصدر في هذا إلاّ كلام الدكتور زكي مبارك

و قد شكا الرضي و هو في الثالثة و العشرين غزو الشيب لرأسه بالقصيدة

عجلت ياشيب على مفرقي و أيّ عذرٍ لك أن تعجلا

و استنتج أديب التقي من قصة شمّه لحيته أمام القادر بالله أنه كان مسدل اللحية حتى ليصل طرفها إلى أنفه .

و زعم الدكتور زكي مبارك أن الرضي كان يشكو مرضاً يكتمه عن الأطباء ، و عزا إليه قصر عمره و سرد كثيراً من شعره في ذكر الموت ، الذي يتسم بنظرة متشائمه و يدل على إدراكه - في زعمه - قصر عمره . و يدرك المتصفح لهذا الشعر أن تلك دعوى لايقوم لهذا دليل ، و إنما هي خواطر الشعراء مشى الرضي في دربها حين رثى الناس

أما صفات الرضي الخُلقية، فإننا لوتركنا شعره و ما يحمله من إباء و عزة ، و ما يدل عليه من وفاء و اخلاص و ما ينضح به من احساس مرهف، و فرغنا إلى ما سار من صفاته في كتب المترجمين له، فسنرى أن ابن الجوزي وصفه بأنه « كان عفيفاً ، عالي الهمة ملتزما بالدين و قوانينه، و لم يقبل من أحد صلة و لا جائزة حتى أنه ردّ صلات أبيه، و ناهيك بذلك شرف نفس ، و شدة ظلف ، فاما بنو بويه فانهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل . و كان يرضى بالاكرام و صيانة الجانب، و اعزاز الأتباع و الأصحاب» كما ذكره ابن عنبة فقال « ذوالفضائل الشائعة و المكارم الذائعة ، كانت له هيبة و جلالة و فيه ورع و عفه و تقشف ، مراعاة للأهل و العشيرة »

و نرى من خلال هذه القول ، أن الرضي يوصف بالعفة و الورع و التقشف و التدين كما يوصف بشرف النفس و علو الهمة ، و أنه لم يقبل من أحد صلة ، و يوصف أيضا بالجود و الحدب على قومه و مراعاتهم . و يروى في عفة الشريف و ورعه و تدينه ، أنه اشترى في بعض الأيام جزازاً من امرأة بخمسة دراهم ، فوجد فيه جزءاً بخط يد أبي علي بن مقلة ، فقال للدلاّل. أحضر المرأة ، فأحضرها ، فقال قد وجدت في الجزاز جزءاً بخط ابن مقلة ، فان

أردت الجزء فخذيه و إن اختـــرت ثمنـــه سهــذه خمســـة دراهم فأخذتها ودعت له و انصرفت.

وهذا مايدل على التصون ، و مراقبة الله عزوجل ، و نقل الخوانساري عن صاحب حدائق المقربين ، أنه « كان رضي الله عنه في غاية الزهد و الورع ، صاحب حالات و مقالات و كشف و كرامات »

و يحكى أنه اقتدى يوماً بأخيه المرتضى في بعض صلاته فلما فرغ قال لا أقتدى بك بعد هذا اليوم أبداً قال كيف ذلك؟ قال لأني وجدتك خائضاً في صلاتك خائضا في دماء النساء فصدقه المرتضى و أنصف و التفت إلى أنه أرسل ذهنه في تلك الصلاة إلى التفكر في مسألة من مسائل الحيض . أقــول و في بعض المواضع أنه انصرف من صلاته المذكورة ، بمحض أنه انكشف له الحال المزبورة و أخذ في الويل و العويل و أظهر الفزع الطويل في تمام السبيل إلى أن بلغ المنزل في هذه الحالة فلما فرغ المرتضى أتى المنزل من فوره. و شكا ماصنع به إلى أمه ، فعاتبه على ذلك فاعتذر عندها بما ذكر ، و أنه كان يتفكر في مسألة من الحيض سألـه عنها بعض النسوة في أثناء مجيئه إلى الصلاة و هذا خيال مجنح، لفقه حول من ظن أنه لا قدر للرجال إلاّ إذا سيقت في سيرتهم الكرامات، و لو كانت على هــذا النحــو المقـــزز من ذكــر الدمـــاء و الصراخ و العويل

إن المتتبع لحياة الرضي لايستطيع أن يجد مغمزاً في دينه ، فلم يؤثر عنه أنه انتهك حرمة من الحرم ، أو أخذ فيما كان يأخذ فيه الناس في ذلك العهد من متاع الدنيا حيث يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه، و لست أميل إلى صحة القصة التي يرويها الحصري من أن كوران المغني شرب عنه الشريف الرضي ، فافتقد رداءه ، و زعم أنه سرق ، فقال الشريف ويحك ، من تتهم منا؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه ، فقال انشروا هذا البساط آخذ ردائي و اطووه إلى يوم القيامة

ذلك أن الخبر سيق على سبيل الدعابة ، و هو يحمل في طياته عوامل تكذيبه ، فالرضي لايشغل بنقاش مع كوران المغنـــي من أجـل ثوب مسروق ، و لايعقل أن يظن كوران بالشريف - مع جلالة قدره و عظم محله - أنه أو أحد جلسائه سرق الثوب . إن هذا لو قيل في مجالس الفتاك و الصعاليك اكان له محل من التصديق ، أما في مجلس الرضي فلا يرد مثل هذا. و لم يسر في شعر الرضي وصف الخمر و حين وصفها بقوله

راح يحـــــول شعاعهـــــا بين الضمائـــــر و العقـول

دكر في مقدمتها أنه سئل القول في ذلك ، و كذلك حين جعل ذكر الخمر مقدمة لقصيدته في الغزل و وصف الروض ، و كانت من أول قوله فقال

اسقنـــي فاليـــوم نشـــوان و الربـى صـادٍ و ريّـان

ذكر في مقدمتها أيضا أنه قالها على لسان بعض الناس ، مما يشعر بتحرجه من ذلك و كان الرضي شديد النكير على من يشرب الخمر ، و قد نفى خبراً جاء في « مختصر الكرخي » مفاده أن عبد الرحمن بن أبي ليلى شرب نبيذاً عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و قال في التعقيب عليه « و لأن المعلوم الظاهر ، و المنقول المتداول ، أن أمير المؤمنين و الأخيار من ولده عليهم السلام، لم يزنوا قط بمثل هذه الفعلة ، و لا أن عرفوا بهذه الخلة » . فكيف يخرج نفسه من زمرة هؤلاء الأخيار ؟

و قد التزم الرضي هذا الخلق الصارم منذ شبيبته ، و أعلنه في أوائل ما قال من الشعر ففي أول قوازفه كما ورد في صدر القصيدة يقول

بُرْدي عفيف إذا غيـري لفجرتـه كانت مناسج بُرْديه على التُّهم

و في سنة ٣٧٧ هـ و هو في الثامنة عشرة من عمره يقول

أنا المرء لا عرضي قريب من العدى و لا فيَّ للباغـي عليَّ مقـال

وما العرض إلاّ خير عضو من الفتى يصاب و أقـوال العداة نبـال

و في السنة التالية يقول

و إنّي لمأمـون علـى كلِّ خلـوة أمين الهوى والقلب والعين والفم

وغيري إلى الفحشاء إن عرضت له أشدمن الذّؤبان عـدواً علـى الدّم

و في تلك السن يصف نفسه فيقول

و أعرض عـن كأس النّديم كأنهـا وميض غمـام غائـر المـزن خلّـب

وقور فلا الألحـان تأسر عزمتـي و لا تمكر الصّهباء بي حين أشرب

و لا أعرف الفحشـاء إلاّ بوصفهـا ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

هكذا كان الفتى في صدر شبابه و للهوى فتون و للشاب جنون ، و قد دعته النقابة إلى أن يكون أشد صرمة مع نفسه ، لتحمد صرامته على من ولي عليهم ، و ذلك قوله لهم :

وفطمتكم بالزجر عـن عاداتكـم ورددت منكركـم إلـى المعـروف

عفّ السّريـرة لم تلطّ لريبـة يوماً عليّ مغالقي و سجوفـي

و هكذا شغله جدّه عن لهو الحياة ، و نأى به مجده عن لذائذها:

شغلت بالمجـد عمـا يستلـذ بـه و قائم الليل لا يلوى على السّمر

و قد وصف الرضي بالزهد و التقشف ، فهل كان هذا الرجل الذى شغل بالسياسة منذ عقل الدّنيا ، و أرّقته هموم المجد منذ شبابه ، و اصطرع على المناصب ، خاض غمار الحوادث في سبيل الخلافة ، هل كان هذا الرجل زاهداً متقشفا؟ لقد كان زهده ينحصر في السّمت الهادىء و البعد عن البهرج الذي كان يتميز به كـل من تصدر في هذا العصـــر ، فقـد كان من علماء عصـره و فضلائه . و لكنى أميل إلى أن الرضى بعد وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ قصر من نشاطه الذى كان يملأ الدنيا و يشغل الناس ، و لم يعد يسعىٰ إلى ساحة سلطان ، أو يجرى وراء مغنم سياسي ، بل إنه ترك قول الشعر ، في الملك البويهي الجديد شرف الدولة حتى اقتضاء ذلك ، و هذا الإرتداد العنيف من الإقبال على الدنيا إلى الصد عنها زهد ما بعده زهد ، و فى الديوان عدة مقطوعات و قصيدة واحدة معنونة بأنها قيلت فى الزهد، و المقطوعات جميعها تتضمن معنيين ، السخرية من تعلق الناس بالدنيا ، و قرب نهاية الحياة من بدايتها . و لم تدرك هذه النقمة الرضي و هو يصارع الدنيا ، و انما هى نغمة من تركها، و مضى يبحث عن أخواه ، و قصيدته الزهدية وعظ و ارشاد و فيها يعلن طلاقه للدنيا

طلّقتهـــا ألفاً لأحسـم داءهـــا و طلاق من عـــزم الطلاق ثلاث

و لايقع طلاقه هذا إلاّ في تلك الفترة القصيرة من نهاية مسيرة حياته منذ سنة ٤٠٣ هـ ، و حتى بداية سنة ٤٠٦ هـ و قد بكاه مهيار لهذا مرثيه .

أبكيك للدنيــا التى طلّقتهـــا و قد اصطفتك شبابها و عرامها

و رميت غاربها بفضلة معرض زهداً و قد ألقت إليك زمامهــا

و مما وصف به الرضي شرف النفس و علو الهمة و أنه لم يقبل من أحـد صلـة و سأبين فى علاقة الرضي بشيخه الطبري خطأ ابن أبي الحديد في النقل عندما ذكر أنه لم يقبل صلات أبيه، و بالتالي خطأه فيما بناه مـن أحـكام على هـذا . و أبادر إلى القول بأن الرضي كان يحمل نفساً عظيمة ، لم تتصاغر تصاغر غيره من الشعراء فتقف بباب الخلفاء و الملوك تنتظر جزاءً على الشعر، ذلك أنه كان لا يرضى بميسم الشعراء حيث يقول مخاطباً أباه :

و عـــــلاك لا يرضى بأنـــي شاعـــر

و إنما كـــان يخطـب ود الخلفاء و الملوك و الوزراء و الرؤســاء بشعره، و يجعله وصلة إلى مايريده من مجد، و لم نجد في أخباره أنه قصـد خليفـــة أو ملكاً أو غيرهما لينال رفده و يحصل على جائزته، و إنما كانت قصائده مهوراً لعقائل المكرمات ، و طريقا توصله إلى مايريد من مكرمة و رفعة ، و قد عبّر عن أنفته من التكسب عن طريق المديح في مقطوعته التى يقول فيها:

كم عرضوا لي بالدنيا و زخرفها — مع الهلوك فلم أرفع بها رأســـــا
وكيف يقبل رفد الناس محتملا — ذلّ المطالب من لايمدح النّاســـــا

كما وعد بتجنب الشعر إذا وصل إلى آماله في قوله

و ما قولــي الأشعار إلاّ ذريعـــة — إلى أمــلٍ قـــد آن قود جنيبـــه
و إنّـــي إذا ما بلّغ اللّه منيتـــي — ضمنّت له هجر القريض وحوبه

هذان البيتان من قصيدة ثائرة يقول فيها

فواللّه لا ألقــى الزمـــان بذلّــة — و لوحطّ في فوريّ أمضىٰ غروبه
قنعت فعنـدى كلّ ملك نزولـــه — عن العزّ و العلياء مثـل ركوبـــه

و موقف العزة هذا الذى وقفه الرضي رفع مكانته في الدولة ، و أسبغ عليه أرفع المناصب و هو في العشرين ، كما أن من يتصل بقصر الخلافة وسدة الملك على هذا النحو لابد أن تجـرى عليـــه الأرزاق ، دون أن يسألهـا بشعـره أو نثره ، و قد أعلن الرضي في إباء ، في مدحته لأبيه و هو بعد شاب لم يبلغ العشرين، ردّه منحة الملوك إذ كانت لاتليق بمكانته

و كنــت إذا منحتنــي الملـوك — نزاراً مــن النائـــل الغامــــــر
أبيــت القليــل و لكننـــــــي — رددت الرّذاذ علــــى الماطـــــر

و قد أعلن الرضي الطائع للّه منذ اتصل به ، أنه لا يبغى مالاً و لا ثروة ، و انما

مدحت أميـر المؤمنين و إنـــه — لا شرف مأمـول و اعلـى مؤمّـــم
أريد الكرامة لا المكرمـــــــات — و نيل العلا لا العطايـا الجسامـــا

و كانت استجابة الطائع للّه لرغبته صادقة ، فقد وصله بالكرامة قبل العطاء

مدحـت أمير المؤمنيـن وإنـــه — لا شـرف مأمـول و أعلـىٰ مؤمّم
فأوسعنـــى قبل العطاء كرامة — و لا مرحبـــا بالمـال إن لم أكــرّم

و كان الرضى يجمع إلى إباء النفس حسن الشكر لصنيع المنعّم ، و لذلك فقد أرسل إلى الطائع للّه قصيدة يستكره على تكرمة خصه بها و ثياب و ورق ، أولها

أنا للركائب إن عرضت بمنـزل — و إذا القنـوع أطاعنـــي لم أرحـل

و كما كانت الأرزاق تجري عليه من قصر الخلافة أيام الطائع للّه ، كذلك كانت تجري عليه من بهاء الدولة الملك دون أن يسألها أيضا ، و قد بدأت صلته الرسمية به حين استخلفه علـــى بغـــداد سنـــة ٣٨٨ هـ ، ثم قويت حين ولـــي بهاء الدولة أبا أحمد الموسوى نقابة الطالبيين و الحج و المظالم سنة ٣٩٤ هـ ،

فأقام ولداه الرضي و المرتضى بهذه المهام ، ثم اشتدت قوته حين ولاه بهاء الدولة النقابة و أمارة الحج سنة ٣٩٧ هـ و استحصدت بعد ذلك على مرّ السنين حتى توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٢ هـ و في خلال ذلك كله كانت الأموال تغدق على الرضي لمركزه و مناصبه فلم يكن الرجل يقدم قصائده لينتظر من وراء إنشادها بدرة أو كيساً من المال .

وفاة الشاعر الشريف الرضي :

إن الشريف الرضي ودع آماله حين سوي على بهاء الدولة التراب سنة ٤٠٢ هـ ، و قد اتضح هذا من هجره القريض ، إلى الحد الذى جعل سلطان الدولة يواصل اقتضاءه منه ، حتى اضطر إلى أن يكتب قصيدته في صفر سنة ٤٠٤ هـ و فيها يقول :

رام منّي قود القريض و لولا ... هُ لقد جاذب الزّمام الأكفّا

هبَّ من رقدة الفتور إليه ... بعدما غضّ ناظريه و أغفى

بل إنه كان يدرك أنه يودع الحياة نفسها، ففي شعبان سنة ٤٠٥ هـ رثى صديقه البتّي ، فختم مرثيته بقوله :

ما أخطأتك النائبا ... تُ إذا أصابت من تحبَ

و لم يمض على هذا إلاّ أكثر قليلاً من أربعة شهور حتى لقي ربه في بكور يوم الأحد ، لست خلون من المحرم سنة ٤٠٦ هـ / ٢٦ يونيو سنة ١٠١٦م.

المراجع و الهوامش :

(تاريخ بغداد ٢/٢٤٧ ، المنتظم ٧/٢٨٢ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الكامل حوادث سنة ٤٠٦ هـ ، المحمدون من الشعراء ٢٤٤ ، إنباه الرواة ٣/ ١١٥، تاريخ ابن الوردى ١/ ٣٢٧ ، تاريخ أبي الفدا ١/ ١٤٥ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٦٥، عمدة الطالب ٢١٠ ، روضات الجنات ٥٤٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٧٨ . و في نسخة من وفيات الأعيان ، « توفي بكرة يوم الخميس سادس المحرم ـ و قيل صفر ـ سنة ست و أربعمائة » ، وعنها نقل الصفدى في الوافي بالوفيات ٢/٣٧٨ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٣ / ١٨٤ ، و في البداية و النهاية لابن كثير ١٢ / ٣ أنه توفى فى خامس المحرم سنة ٤٠٦ هـ و تفرد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١ / ٤٠ بأنه توفى في المحرم من سنة أربع و أربعمائة. و كذلك ذكر الخوانسارى في روضات الجنات ٥٤٩ ، بعد أن ذكر التاريخ الأول من صفحة ٥٤٨ و القول الأول هو المعتمد في

أقرب المراجع التاريخية إلى الرضي و هو الذى يتفق مع ما جاء في ديوانه فى رثائه البتّي المشار إليه فيما سبق ، و ما جاء في ديوان أخيه المرتضى و تلميذه مهيار في رثائهما له) عن سبع و أربعين سنة

(جاء في كتاب الدكتور إحسان عباس عن الشريف الرضي ١٤٤ أنه توفى عن قرابة اثنين و أربعين عاما و هو خطأ)

و قد تساءل أديب التقي عن السبب فى قصر عمر الرضي ، و هو من أسرة معمّرة فوالده بلغ السابعة و التسعين ، و أخوه مات عـن إحـدى و ثمانين سنـة. و عزا هذا ـ فى تقديره ـ إلى مرض مفاجئ دهمه بالموت قبل أن يعالج ، ثم ساق ماذكره كرنكو ، من أن الشريف كان ضعيف البنية (الشريف الرضي ١٠٤ ، ١٠٥)

و ذكر كرنكو أيضا أنه شكا الشيب و هو في الحادية و العشرين

(دائرة المعارف الإسلامية ١٣ / ٢٨٥) و هذا خطأ لأن الرضى شكا الشيب و هو في الثالثة و العشرين ، كما جاء في قصيدته (٢٧٠) .

و لست أدري من أين استقى كرنكو قوله إن الرضي كان ضعيف البنية، بل إنه ذكر أيضا أن المرض اشتد عليه اشتدادا خطيرا سنة ٤٠٣ هـ ، في جمادى الأولى حتى يئس الناس من حياته ، بيد أنه ما أن انقضى شهران حتى أبلّ من مرضه ، إلى حد أنه استطاع أن يرسل فى شهر رجب قصيدة أخرى إلى سلطان الدولة فى أرّجان (المرجع السابق)

و واضح من هذا أن الأمر اختلط على كرنكو ، فالذى مرض حتى يئس الناس منه هو بهاء الدولة لا الرضي

و قد ساق ابن معصوم و الخوانسارى قصته فى إنشاء الرضي لبيتين أكمل بهما عمل أخيه المرتضى ، (روضات الجنات ٥٤٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٦٨ ، ٤٦٩)

ورواها عن أبي الحسن العمري ، و جاء فى آخرها في رواية ابن معصوم أن المرتضى قال « يعزّ عليّ أخي ، قتله الذكاء فما كان إلاّ يسيراً حتى مضى لسبيله » و في رواية الخوانسارى يعز على أخي ، يقتله الفهم بعد أسبوع ، فما دار الأسبوع إلاّ و جاء نعي الرضي ، و مضى لسبيله ، و القصة ـ كما ذكر أديب التقي و الدكتور إحسان عبـاس ـ (الشريف الرضـي ، لأديب التقـي ١٠٢ ، ١٠٣ ، و للدكتور إحسان ٢٥٨ ـ ٢٦٠) صيغت على مثال قصـة أبي تمـام مع الكنـدي ، ، صيغت لبيان بديهة الرضي ، و قوة حدس المرتضى و قد ذهب الخوانسارى ، بعد رواية القصة ، بعيدا في أن ذلك حدث لاحتراق خلط السوداء ، أو لتوجيه الحواس الباطنية بكليتها إلى التأمل (روضات الجنّات ٥٤٩)

و ليس لهذا كله يومي أجل انتهى ، فلكل أجل كتاب

و لما توفي الرضي حضـر الوزير فخـر الملك و جميـع الأشـراف و القضـاة و الشهود و الأعيان ، و صلى عليه الوزير في الدار مع جماعة أمّهم أبو عبد الله بن المهلوس العلوي ، ثم دخل الناس أفواجاً عليه ، و دفن في داره بخط مسجد الأنباريين بالكرخ (المنتظم ٧/ ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الوافي

بالوفيات ٣٧٨/٣ ثم بعض المراجع التى سبقت في وفاته)

و لم يستطع أخوه المرتضى أن ينظر إلى تابوته و دفنه ، فمضى إلى مشهد موسى الكاظم بمقابر قريش ، و ركب فخر الملك في آخر النهار، فعزاه و الزمه العودة إلى داره ففعل و قد حفظ له المرتضى هذا الصنيع ، فقال فى رثائه لأخيه

من مبلـغ فخـر الملـوك أننـي   للفضل من نعماه لست بناس

ستردّت عنـي كربهـا من غمـة   و عدلت لي الاحداث بالإيناس

وفلستني منها و قد صنّمت علـى   جلدي الرّواحـل اىّ يـوم خلاس

إن كان فرعي قد مضى و بقيت لي   فالفرع مسدول على الأسـاس

(ديوان الشريف المرتضى ٢ / ٢٣٥)

و هذه الأبيات ، و ما تدل عليه من عظم المصيبة لدى المرتضى فى أخيه ، تمحو الظن الذى ظنه أديب التقي ، حيث قال « إن تعليل هذه الحادثة لا يقنع ، فالمرتضى إلى ذلك الحين ، كان قد ذرف على الخمسين ، و ما هو بالفتى الحدث الذى يجزع لرؤية الموت ينزل بعزيز عليه ، و لم يكن من ضعف الإيمان بالحالة التى لا تتحمل قضاء اللّه ينفذ فى أخيه ، و ربما كان لهذه الحادثة باعث غير باعث الجزع ، و قد يكون الباعث نفسانيا لم نطلع عليه ، و بين الرضي و أخيه وحشة سالفة، استدعت العتاب و المراسلات بالشعر و غير الشعر » (الشريف الرضي ١٠٥)

و قد دفن الرضي ـ كما سبق ـ فى داره بخط مسجد الأنباريين الكرخ ، و يذكر ابن خلكان و ابن العماد نقلاً عنه ، أن الدار خربت ، و أن القبر دثر

(وفيات الأعيان ٤ / ٤١٩ ، شذرات الذهب ٣ / ١٨٤)

بينما يذكر ابن عنبة أنه نقل بعد ذلك إلى مشهد الحسين عليه السلام بكربلاء ، فدفن عند أبيه ، و قبره ظاهر معروف. (عمدة الطالب ، ٢١٠ ، ٢١١)

و يقول ابن معصوم « ثم نقل الرضي إلى مشهد الحسين بكربلاء فدفن عند أبيه » (الدرجات الرفيعة ٤٧٨)

أما الخوانسارى فقد زاد في النقول عن ابن عنبة بعد قوله « و قبره ظاهر معروف » ، قوله « هناك قريبا من الروضة المنورة » ثم نقل قول الطباطبائى « و الظاهر أن قبر السيد ـ يعني المرتضى ـ و قبر أخيه و أبيه ، في المحل المعروف بإبراهيم المجاب ، و كان إبراهيم هذا هو جد المرتضى ، و ابن الإمام موسى عليه السلام و قبر إبراهيم المجاب في الحائر معروف مشهور » ، قال الخوانسارى « و كأنه القبر الواقع في أواخر ـ كذا ـ رواق فوق الرأس من الحرم المطهر ، و قيل إنه الآن في المسجد المتصل بالحائر من جهة خلف الحضرة المقدسة فليلاحظ ». (روضات الجنات ٥٤٩)

و فى الكاظمين ببغداد قبة قائمة على قبر ينسب إلى الشريف الرضي ، و قد

جزم السيد محسن الأميني بأن هذا القبر ليس قبر الرضي
(أنظر الشريف الرضي لأديب التقي ١٠٨)

و قد لقب بالرضي جماعة ذكرهم ابن عنبة (عمدة الطالب ٧٥)
فلعل القبر لواحد منهم
ورثى الرضي أخوه المرتضى بقصيدة باكية ، مطلعها

قدني إليك فقد أمنت شماســـي ‏ و كفيت منّي اليوم صدق مراسي

و فيها يقول

يا للرّجال لفجعة حدمت يـــدي ‏ و وددتهـا دهبت عليّ براســـي
مازلت أحذر وردها حتى أتتــه ‏ فحسوتها في بعض ما أنا حـاس

ثم يصف مكارم أخلاقه ، و عظيم صفاته ، فيقول

و يـعى إليّ وليتــه لم ينـع لـي ‏ عنت القـروم و فاصــخ السّوّاس
و معثّر النجباء خلـف ترابــه ‏ و معجّر النظــراء و الأجنـاس
من قاد شوس الفخر بعد تقاعس ‏ و استاق شمّ الذّكر بعد شمــاس
مـــن كان مرجواً لكل حفيظـــة ‏ تدعـــى و مدعواً ليوم عمـــاس
من كان يأبى فضله العالى الذّرا ‏ من أن يقاس إلى الورى بقيــاس

و يشير إلى اختطاف الموت له

واهاً لعمـــرك من قصيـر طاهرٍ ‏ و لربّ عمرٍ طـال بـالأرجـاس

كما يبلغ به الأسى مبلغه في قوله

يا موت كيف أخذت نفسي تاركاً ‏ نفسـاً عليهـا جمّة الأنعــاس
(ديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٣١ - ١٣٥ و قال الصفدى في الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٨ « و رثاه المرتضى بمرات كثيرة » ، و قد فتشت في ديوانه فلم أعثر له إلاّ على هذه المرثية)
كمارثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصيدة ميمية، أبان في آخرها عن لوعته لفراقه

لأساهـرنّ الليل بعـــدك حسـرةً ‏ إن ليلةً عابـت حزينـاً نامهـا
و لأشرجنّ عن العذول على الأسى ‏ أذناً محرمـةً علــى من لامهـــا
و لأسدلنّ الصبــــر عنك بقرحـــةٍ ‏ في الصدر لايجد الدواء لحامها
أبكـي لأطفئهـــا و أعلـم أنـــي ‏ بالدمع محتطب أشبّ ضرامها

(ديوان مهيار الديلمي ٣ / ٣٧٠)

و هي قصيدة طويلة ، أجاد فيها مهيار في رثاء أستاذه ، فغاظ ذلك قوماً ممن كان يحسد الرضي بالفضل، و نسبوه إلى السّرف في ادّعاء علاقته بالرضي (الدرجات الرفيعة ٤٧٩ ، و مقدمة القصيدة الدالية في ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩)

فقال قصيدته الدالية

أ قريش لا لِعمِ أراك و لا يـــــد   فتواكلي غاض النّدى و خلا النّدي

و قد حدا حدو استاذه الرضي في رثائه أباطاهر بن ناصر الدولة بالقصيدة

ألقى السلاح ربيعة بن نزار   أودىٰ الردى بقريعك المغــوار

و يقول مهيار مخاطباً قريشاً

خلاّك ذو الحسبين أنقاصاً فتــى   تجذب على حمــل المذلّة تنقــد

تمر الدّنا أصحـت سماؤك بعده   أرضاً تداس بحــائرٍ و بمهتـد

ثم يذكر أمجاد الرضي

عادت أراكة هاشمٍ من بعــده   خوراً لفأس الحاطب المتوقّـد

فجعت بمعجز ايــة مشهـودة   و لربّ ايــاتٍ لها لم تشهـد

كانت إذا هي في الإمامة نورعت   ثم أدّعت بـك حقّها لم تجحـد

رضي الموافـق و المخالف رغبة   بك و اقتدى الغاوي برأي المرشد

تبعتك عاقـدة عليـك تميمها   وعرى تميمك بعـد لمّا تعقــد

و رآك طفلاً شيبها و كهولهـا   فتزحزحوا لك عن مكـان السيّد

و لاينسى مالمزه بـه اللامرون عند إنشاده القصيـدة الأولى، فيصمهم بالتقصير و العجز

أحسنت فيك فساءهم تقصيرهم   ذنب المصيب إلى المعير المقصد

و يختم المرثيّة بهذا الدعاء و تلك اللوعة

لاغيّرتك جنـاب تحت البلى   و كساك طيب البيت طيب الملحد

و قربت لا تبعـد و إن علالـة   للنفس زوراً قولـي لا تبعـد

(ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٣)

و رثاه أبوالقاسم الوزير المغربى بقصيدة ، منها

أذكرتنا يا ابن النبىّ محمـــدٍ　　　يوما طـوى عنـــا أباك محمـــدا

و لقد عرفت الدهر قبلك سالبـاً　　　إلاّ عليك فمـا أطــاق تجـــلّدا

مازلت تصل الدهر تأكل غمـده　　　حتى رأيتك فـي حشاه مغمـــدا

(دمية القصر ١ / ٩٧)

و رثاه سليمان بن فهد بقصيدة ، مطلعها

عذيرى مـــن حادثٍ قد طـــرق　　　أمـــات الهـدوّ و أحيـــا القلـــق

(مقدمة حقائق التأويل ١١٢ ، الشريف الرضي لأديب التقي ١٠٦)

و فى هذه المراثي بعض الوفاء للرجل كان يعظّم ألمَ الفقد ، و يبكي على كل صديق فارقه ، بل إن كان يبكي على أناس لا يفتقدهم أحـــد ، رقة قلـــب ، و سموّ عاطفة ، حتى عرفه الأدباء بالنائحة الثكلى (انظر الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٤)

مذكرة رحلة الحجـــاز
لسمو الشيخة سلطان جهان بيكم أميرة بوفال

بقلم : احسن علي خان
بوفال

سلطان جهان بيكم حاكمة إمارة بوفال قد رحلت إلى أرض الحجاز المقدس، فألفت مذكرة شيقة ممتعة بها نعرف الفرق الواضح بين حج اليوم و الأمس. كان الحاج يمرّ من المصائب العظام و الخطوب الحالكة شديدة السواد قبل قرن من الزمان ، و كان يسافر و قلبه خفقان من الخطرات المحدقة به، و فيها عبرة للحجاج الكرام الذين يظعنون إلى تلك البقعة المباركة هذه الأيام بيسر و سهولة.

إمارة بوفال الإسلامية :

أذكر قبل البدء فى الموضوع الأصلى سطورا عن إمارة بوفال الاسلامية المرحومة كمدخل للبحث الشيق

أسست هذه الإمارة بوسط الهند على يد قائد أفغاني دوست محمد خان فى بداية القرن الثامن عشر و كانت دولة المغول تحتضر و تكاد أن تنمحي من الوجود. و أحوال الهند تنتقل من سيء إلى أسـواء و لم يبق من الاستقرار و النظام شئ. و كانت هذه الامارة محاطة من جميع الجهات بأقوام همهم القتال و الاغارة مثل المرهتا و البندارة

استمرت الحروب بأقوام مجاورة حتى بعد تأسيس الإمارة بقرن. و انخرطت الإمارة فى معاهدة مع شركة الهند الشرقية توقف القتال و انتهت الحروب. و لم تبق إلاّ الحرب الأهلية بين بعض أسرة الطبقة الحاكمة.

فى عهد سكندر جهان بيكم و شاجهان بيكم وصلت الإمارة إلى أعلى درجات الرقى و التطور و الازدهار، و فى عهد سلطان جهان بيكم تطورت الإمارة إلى أعلىٰ معدل للحضارة و الثقافة.

عهد الأميرة سلطان جهان بيكم :

توفيت الأميرة شاجهان بيكم فى ١٦ يونيو ١٩٠١م فى الساعة الثانية عشر ظهرا ، و دفنت فى حديقة نشاط ، و كانت المرحومة قد انهت مسئلة ولاية العهد لإبنتها سلطان جهان بيكم و بعد وفاتها اخبر المستر جي لينج الوكيل الانجليزى لدى الإمارة وزير الإمارة المولوى عبد الجبار خان ان حكومة الهند المركزية قد اعترفت بحكومة الأميرة سلطان جهان بيكم

عزمها للحج قبل تولى السلطة :

و كانت سلطان جهان بيكم تعتزم الحج منذ ان كانت ولية للعهد، و كان وراء هذا العزم شينان الأول كانت علاقتها بأمها قد تكدرصفوها لأسباب سياسية و الثانى كانت متدينة و صاحبة استطاعة تخاف فى تأخير اداء هذه الفريضة، و هى تشير إلى السبب الأول فى كتابها "جوهر اقبال" فى عهد شاجهان بيكم كنت اعتزمت ان أهاجر إلى مكان آخر بضغط المشاكل و المصائب التى كنت اتحملها ، فقد اشرت إلى ذلك فى رسالـــة بعثتها إليهـا، و كنت اعتقد أن آمن بقعة على وجه الأرض هى بيت اللّه الحرم ".

و أشارت إلى السبب الثانى فى نفس الكتاب " كنت أناقش زوجى النواب احتشام الملك بهادر فى أكثـر الأوقات فـــى مسئلة أداء فريضـة الحـــج و كنت أوكد عليه اننا مستطيعون و نسئل عن التأخير يوم القيامة " وللّه على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " (١)

و لما تولت زمام الحكم لم يبق مانع من الزوج و لا حاجة بقيت للاستئذان من أمها و اشتاقت و تاقت نفسها مرة أخرى للحج ، و هى تكتب بعد وفاة زوجها " و كنت احترق شوقا للحج و لزيارة روضة الرسول صلى اللّه عليه وسلم المقدسة " (٢).

الاستئذان من الحكومة بدلهى :

و كانت تحتاج للحج باذن من حكومة اهند المركزية فقدمت طلبا إليها فى ٣ من مارس سنة ١٩٠٢م للاستئذان للسفر و لاصطحاب ابنيها الصغيرين محمد عبيد اللّه خان و محمد حميد اللّه خان ، و كذلك طالبت أن يرافقها مسئول طبى كبير إلى جدة كما رافق الدكتور لاسين مع الأميرة سكندر جهان بيكم. و أرسلت هذا الطلب عن طريق الوكيل السياسى إلى حاكم الهند العام.

الاذن بعد جلوس الملك على العرش :

و اطلعت الأميرة من قبل الحكومة المركزية بدلهي فى ١٦ يوليو ١٩٠٢ ، انها تجيز لها السفر إلى الحجاز بعد مهرجان جلوس الملك على العرش بدلهى ، و تسعى الحكومة ان تكون فى مرافقتك مسئول طبى إلى جدة. فعليها أن تؤخر

سفرها، و كانت كلها شوق ، و كانت تستعجل الذهاب. و لكنها أجبرت إلى مابعد مهرجان جلوس الملك على العرش.

و عقد مهرجان الجلوس بأوائل شهر يناير ١٩٠٣م بدلهى و اشتركت فيه وبعد الفراغ منه فورا بدأت الاستعداد للسفر و كتبت إلى الميجور ل اسى الوكيل السياسى بامارة بوفال ان الحكومة المركزية اذنت لي بالسفر للحج بعد مهرجان الجلوس على العرش. و لكن كان في الاذن إشارة أن يطلب مرة أخرى بعد الجلوس فيناسب أن تحصل على الاذن الجديد بأقصى سرعة ممكنة و اطلعنى بذلك، فاطلعت فبدأت الأميرة استعدادها.

استعداد السفر للحج :

و كان أهم شيء فى هذا المضمار من يتولى شئون الإمارة فى غيابها، فقررت تعيين ابنها الأكبر محمد نصر الله خان، و كتبت له الدستور و ذكرت فيه كيف يرعى شئون الرعية و البلاد و سلمت إليه هذه الوثيقة للعمل عليها كما أخبرت الحكومة المركزية عن هذا التعيين

و كانت تريد الاستعانة من الحكومة الانكليزية المركزية فى الأمور الآتية.

١ ـ ان تعين الحكومة مسئولا كمرافق لها فى السفر إلى ينبع و جدة و المدينة المنورة و مكة المكرمة و الاياب منها

٢ ـ طالبت الأميرة طلبا من الحكومة المركزية لإرسال بريدها مى مكان سفرها و اقامتها.

٣ ـ طالبت الأميرة تهيئة السفينة التى تنقلها إلى الحجاز.

٤ ـ مسئلة القرنطينة، كانت تجرى للمسافرين الهنود مرتين، الأولى فى ميناء المغادرة و الأخرى فى ميناء قامران تبعاً لمعاهدة الأمم المتحدة لحفظ الصحة. كانت الأميرة تريد الاستثناء من التطويل ، و قد طلبت اجراء جميع مراحلها في بوفال لوكانت ضرورية، و كذلك كانت تبتغى الاستثناء من قرنطينة قامران، و استمرت مراسلات طويلة بينها و بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية بهذا الخصوص.

٥ ـ مطالبتها الحراسة من الحكومة التركية ، طالبت الأميرة من الباب العالى عن واسطة سفارة الحكومة الانكليزية ان تسمح لها باصطحاب الجنود المسلحين، و الباب العالى لم يسمح بذلك و لكنه وعد بحراستها بواسطة جنوده.

٦ ـ تسهيل عملية الجمرك، كتبت الأميرة إلى الميحور ايمسى ان يكتب رسالة تصديق إلى مسئول الجمرك ببومبائى أو إلى محافظ المدينة أن أمتعتى ليست بها أشياء ضارة للصحة أو المخدرات.

الوصية قبل السفر :

الوصية شيء مهم في الاسلام و جاءت أهميتها و تأكيدها في الحديث النبوي، فرأت أن تملي وصيتين قبل سفرها للحج إحداها عامة و الأخرى خاصة. طلبت الأميرة للوصية العامة اثبات توقيعات كل من السادة معالي الوزير المولوى عبدالجبار خان، و قاضي الإمارة المولوى عبد الحق ، و مفتي الإمارة المولوى يحيى و أودعتها عند أبنائها الثلاثة و قاضي الإمارة و مفتيها.

أما الوصية الخاصة فقد سلمته إلى معتمده الخاص و قالت له إن رجعت سالمة فردها إليّ و إلاّ سلمها إلى الأمير نصر الله خان.

الأمور التي لم تحل كانتبت بخصوصها مرارا و تكرارا حتى حلت معظمها و لم تحل بعضها إلى مغادرتها.

الحكومة الانكليزية المركزية عينت الميجور ر . س ميكورات موظف شئون الصحة الهندية ليرافقها في سفرها للحج و كان يريد ان يصطحب زوجته في السفر فعلقت الحكومة الأمر على رضاء الأميرة ، و كتبت في كتابها روضة الرياحين "كنت استفدت كثيرا سياحيا بسبب الميجور و زوجته تمتعت بالسفر و لا أنساها مشكورة" .

و مسئلة البريد حلت كما شاءت الأميرة. أما مسئلة السفينة و أجرتها و نظافتها وغيرها من الأمور استمرت في ذلك مراسلات طويلة بينها و بين مسئولي الحكومة فاستأجرت سفينة أكبر لنفسها و لرفاقها من الحاج قاسم و تم اتفاق في ذلك حتى لاينشأ النزاع عند زيادة عدد المسافرين، و كان معها ثلاثمائة مسافر و أربعون فرسا و أشياء أخرى و كانت السفينة ذات ثلاث درجات الأولى و الثانية و الثالثة ، و كانت متسعة جدا.

و اطلع الميجور المسى عن حراستها من قبل الحكومة التركية و أخبر انه استلم برقية الوزير الهندى ان الحكومة التركية تهيئ لها الحراسة عن طريق جنودها و تقدم تسهيلات في الجمرك و تستطيع أن تصطحب رجالها و شرطتها و لكن بدون أسلحة و أما اذا كانت في حوزتهم الأسلحة فيجب أن يتركوها في السفينة ، و كتب الميجور أيضا انك لو سلمت الشروط المتعلقة عن الشرطة فأطلب من الأميرة المحترمة أن تكتب إليّ رسالة تذكر فيها ان شرطتها تدخل بدون أسلحة و انهم كلهم مسلمون.

فكتبت الأميرة إلى الميجور التحرير التالي انا أطمئنك ان جنودى غير مسلحين إلاّ بعض مسئولي الإمارة الكبار يحملون أسلحة خفيفة و هي ضرورى لهم لأنها حلية الرجال. و لأجل اتفاق الأمم المتحدة كان يجب أن تمر الأميرة على القرنطينة و لكن ببوفال بدل بومبائي و في بورسعيد بدل قامران.

مراسلة بعض الشخصيات الحجازية المهمة :

بعد أن تمت هذه المراحل راسلت الأميرة ببعض الشخصيات المهمة

بالحجاز حتى لا تتعب فى السفر هناك و القيام بها فأرسلت الهـدايا لبعضهـم و كانت الأميرة أرسلت قبل سفرها المولوى ذوالفقار احمد النقوى و المولوى عنايت اللّه و المولوى أعظم حسين و حمد شكرى أفندى الذين كانوا موظفين بالإمارة أرسلتهم إلى السادة الآتى ذكرهم :

السيد شريف عون الرفيق باشا أمير مكة ، و كانت له علاقة مع إمارة بوفال منذ عهد الأميرة سكندر جهان بيـم

السيد دولتلو احمد راتب باشا حاكم الحجاز ، و كان قبل تعيينه حاكما زار بوفال و كانت علاقته مستمرة بها

السيد عثمان باشا شيخ الحرم المدنى

السيد حسن مظفر شاه حاكم المدينة المنورة

كانت الأميرة كتبت إليهم الرسائل و أرسلت التحف و الهدايا و ألف روبية لكل من أمير مكة و حاكمها و شيخ الحرم المكى و حاكم المدينة.

القرنطينة الأولى :

كانت الأميرة تريد مغادرة بوفال فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٠٢م و لم تعلم هل تجرى القرنطينة ببوفال أو بومبائى ، و أخيرا اطلعتها حكومة بريطانيا بقرار يناسبها احتراما لها أن تهجر هى و أصحابها المدينة و تقيم فى مكان بعيد عن المدينة عشرة أيام . فلم تبق بعد ذلك ضرورة للقرنطينة ببومبائى.

و كانت القرنطينة لازمة للهنود لأن بلاد الهند كانت مشهورة بمرض الطاعون و الأوبئة الأخرى و كانت الحكومة تحذر المسافرين أن يذهبوا إلى تلك الديار حاملين فيروس الأوبئة . فلو لم تمر بسلامة من القرنطينة التركية ترحّل إلى الهند و تتعب و تلزم عليها الانفاق و اذا أبيح لها السفر تسبب نشر الطاعون هناك.

و كانت الحكومة التركية اشترطت حيال قرنطينة القافلة السلطانية ما يلى .

- ان تجرى ببوفال .
- أن يغسل القطار لإزالة الاثرات السامة و توقد البخور به
- يجب أن تكون السفينة بحجم الضوابط المقررة المطبقة من الحكومة التركية.
- ابادة جميع الفئران بالسفينة.
- ان كان الوباء إلى الآن فيطلع بذلك إلى الحكومة التركية

فلما أبيح للأميرة باجراء قرنطينتها ببوفال ، قسمت أصحابها إلى فئتين . عدد الأول منها مائة شخص تقريبا. و أقاموا بحديقة نشاط افزا التى بنتها الأميرة شاجهان بيكم و حديقة حيات افزا التى عمرتها الأميرة نفسها الملحقتين و يفصل بينهما جدار فيه مدخل . أما الفئة الأخرى كان فيها بقية

الأصحاب. و كانت قرنطينتها بقرية ديب تبعد عن بوفال اثنى عشر ميلا فى الجنوب وتمر بها سكة الحديد أيضا، و هذا الركب ذهب إلى ديب فى ١٨/ اكتوبر ١٩٠٢م و أقامت بميدان هناك لعشرة أيام حسب ضوابط القرنطينة و عين المنشى عنايت حسين و الميرزا كريم بك مسئولين عن هذا الركب.

و الأميرة انتقلت مع ابنيها عبيد الله خان و حميد الله خان من قصرها بصدرمنزل إلى الحديقة بعد صلاة الفجر مباشرة، و مرافقوها وصلوا إليها من قبل.

فأقامت الأميرة مع ابنيها و النسوة فى حديقة نشاط افزا و أما بقية الرجال فأقاموا بحديقة حيات افزا.

و فتحت ادارة البريد مكتبا مؤقتا هناك، و كانت ترد إليها الرسائل تباعا و كانت تدير شئون الإمارة من هناك و كان مسموحا للأمير نصرالله خان و كبار رجال الحكومة لقاءها

،الطبيبة السيدة مكلان تفحص النسوة و الميجورمكورات يفحص الرجال و كذلك كانا يذهبان إلى ديب لفحص المقيمين هناك

و هكذا انتهت مدة عشرة أيام للقرنطينة

من بوفال إلى بومبائى : فى ٢٨/ اكتوبر ١٩٠٢م ركبت الأميرة القطار من محطة مؤقتة قرب الحديقة شيدت لأجلها ، مع ابنيها و ركبها فى الساعة الثانية عشر ليلا، و كان سبب فتح هذه المحطة مراسلتها مع وزارة المواصلات عن طريق الميجور ايمسى

الميجور مكوارت و زوجته ركبا من محطة بوفال، ثم وقف القطار فى محطة ديب فركبت القافلة من هناك. و وصل القطار برعاية الله إلى بومبائى فى الساعة السابعة صباح الجمعة فى ٣٠ / اكتوبر ١٩٠٢م.

استقبالها فى بومبائى :

و كان بمحطـة وارى بندر كثير من مستقبليها من أهمهم الأمير نصرالله خان الذى وصل هناك لترتيب السفر، و الميجور ايمسى الذى وصل هناك لاستقبالها و سكرتير حكومة بومبائى الكابتن جودراج و موظفو إمارة بوفال و بعض التجار و أصحاب الأعمـال و بعض الأوروبيين و الأوروبيـات. و كانت المراسم العسكرية فى انتظارها و حينما نزلت من القطار قدم إليهـا السلام و المراسم الرسمية العسكرية و المدنية ، و اطلقت المدفعية من قلعة بومبائى طلقاتها و بعض الحضور قدموا الزهور و الباقات.

المغادرة من بومبائى :

باخرة "أكبر" التى استأجرتها الأميرة كانت ملاصقة للرصيف على الميناء فركبت هي و من معها و الوكيل الانكليزى و بعض الرجال الأوروبيين

ودّعوها من الميناء
المراسلات الطويلة التى تمت بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية ما حلت جميع مشاكل السفر، و كانت تبغى الايضاحات فى بعض المشاكل و خاصة عن القرنطينة الثانية. فاطلعت ان تفاصيل ذلك ستعلمين عنها بعدن.

فى الساعة الرابعة حضر الأمير نصر اللّه بغية اللقاء بها، و فى الساعة الخامسة رفعت الباخرة مرساها فرددت هى و مرافقوها التلبية و تلوا " بسم *اللّه مجريها و مرساها*".

رسو الباخرة بعدن :

و كانت النظافـــة بالسفينـــة تماما، فلم يحس شخص بالقـــىء و الدوخ، و الأمير عبيد اللّه خان أحس بالقىء فى بداية السفر و لكن بتوجه الدكتور ميكوارت انتهى كل شئ.

رست الباخرة بميناء عدن فى الساعة الحادية عشر ليلا فى السابع من نوفمبر سنة ١٩٠٣م و قد استلم قبطان السفينة برقية المستر ديوى قنصل جدة محتواها ان باخرة سمو الشيخة لا توقف بقامران بل تصل إلى جدة مباشرة

القرنطينة ببئر سعيد :

فى الحادى عشر من نوفمبر وصلت الباخرة قرب جدة و رأى الكابتن انه لايناسب وصول السفينة بجدة ليلا و نبقى تعوم فى البحر و ترسى بالميناء صباحا.

فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٣م الموافق ٢١ شعبان رست الباخرة بميناء بورسعيد التى كانت جزيرة جميلة و قد تقرر ان القرنطينة الثانية للأميرة تكون هناك و هى محاذية لجدة بينهما البحر الأحمر و رست باخرة الأميرة قريبة من جهة جدة حتى تسهل عملية الحمل و النقل.

بايعاز من الحكومة الهندية قبلت الحكومة العثمانية بشرط التزام القواعد الصحية المقررة لاتكون حاجة للقرنطينة الثانية، و قد قبلت ذلك وزارة الصحة بقسطنطنية أيضا و لكن بسبب وباء الطاعون ببوفال طالبت وزارة الصحة بقسطنطنية مصرة على قرنطينة عشرة أيام، و هى اما فى قامران أو فى بئر سعيد و لكن سمحوا للأميرة أن تبقى بالسفينة أو تنزل على البر حسب ما تشاء.

نائب القنصل البريطانى الدكتور محمد حسين حضر مع بعض المسئولين و اقترب من الباخرة و لم يدخلوها بسبب كونها فـــى القرنطينـــة.
و أخبرها الدكتور أن القنصلية البريطانية بجدة ابرقت إلى الباب العالى أن يعفى سموها عن القرنطينة فى اليوم الثانى حضر القنصل البريطانى

بنفسه و اطلع بذلك البرقية . و لكن بسبب تأخر الردّ من القسطنطنية بقوا في القرنطينة ستة أيام، و في اليوم السابع وصله الخبر عن اعفاء القرنطينة. و الخبر الرسمي عن الاعفاء وصل إلى الميجور ميكوارت في صورة رسالة فانزل الرجال على البر و طهروا بالبخور.

حسب البرنامج المقرر ارسلت الأميرة خمسين شخصا في رياسة الحافظ عبد الرحمن إلى مكة المكرمة و هم أودعوا خمسة آلاف روبية معدنية امانة عند القنصلية البريطانية

دعوة سموها إلى مكة :

كانت سمو الشيخة تريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة و من ثم إلى مكة المكرمة و بقي في حلول رمضان المبارك يومان فقط ، فلما حضر القنصل و نائبه لزيارة سموها أخبرتهما انها تريد أن نقضي معظم أيام رمضان بالمدينة المنورة و لذلك اريد أن أصل إلى جدة بسرعة ممكنة. و أخبرها القنصل ان السيد شريف وجه إليك الدعوة ان تحضر إلى مكة المكرمة أولا و من هناك يرسلك و مرافقيك إلى المدينة المنورة بالتكريم و الاعزاز ، و كان قد أرسل محملا لركوبها و أربعة لحراستها و مرافقيها

و لكن الأميرة قالت انها نوت الذهاب أولا إلى المدينة المنورة حسب برنامجها ، و لم تحرم من " يلملم " ميقات أهل الهند ، فتريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة ، وردت المحمل ، لأنها اصطحبتها من الهند ، مشكورة و لم ترد الاشراف

حراستها من السلطان المعظم :

حضر بعض العسكريين و السيد علي يمني القائم باعمـــال الحاكم بجـدة و المسئول الطبي على السفينة للسلام عليها. و هؤلاء استفسروا حالها عن طريق نائب القنصل و أخبروها أن السلطان المعظم أكد لحراستها و الاهتمام بها و أمر بارسال مدفعين و سبعمائة جندي تركي معك.

و لكن لأجل اعفائك من القرنطينة لم تغادر الجنود من المدينة المنورة فاذا أردت الانتظار فانتظريهم و اذا تريدين السفر بسرعة نرسل في رفقتك مائتي جندي من جدة و مائتي جندي من ينبع.

في اليوم الثاني ركب أحمد أفندي و سليمان أغـــا باخرتهـا مع خمس و عشرين مسئولا و ١٩٤ جنديا ، و كذلك الاشراف الأربعة المرسلون من قبل السيد شريف مع خمسة عشر شخصا.

وصولها إلى ينبع :

غادرت الباخرة ميناء جدة يوم الجمعة ٢٠ نوفمبر ١٩٠٢م الموافق ٢٩ شعبان

١٣٢١ هـ، و بعد أربع و عشرين ساعة كاملة رست الباخرة فـــى ينبـــع البحـــر، و كان هناك الهواء شديدة و تلاطم الأمواج هديرة، ابتلى الناس بالقىء و الدوخ و كان سفرها بدون اطلاع مسبق فلم يعرف أحد بقدومها و لكن المسئولين الأتراك لما رأوا الباخرة جمعوا العساكر و اصطفوا و قدموا اليها السلام الرسمى على الميناء و كان القائم باعمال ينبع السيد مصطفى آفندى جاء إلى الميناء و اجتمع كثير من الناس لاستقبالها. و لقى بها الاشراف فـــى السفينـــة و كان أول يوم من رمضان فلم تصم و كانت مسافرة حل لها الفطر.

الاقامة بينبع :

نزلت الأميرة من الباخرة فى عبرة ذات حجاب، و لما وصلت إلى الميناء اطلقت ٢١ طلقة من المدفعية و قدموا الجنود المصطفون تحية لها و سلاما

و أرسلت الأميرة المولوى أعظم حسين و المولوى ذوالفقار أحمـد النقوى و المولوى عنايت الله و شكرى إلى ينبع مسبقا حتى يتعين إقامتها هناك، فهم قرروا استئجار بيت قرب الساحل بستمائة روبية فأقامت.

و كان للحراسة جنود و لكن لابداء الاهتمام و التكريم عين الحراس من الجيش التركى. و كان مصطفى فرحت باشا أرسل إلى سموها مياه المدينة المنورة و رمانها و تمورها.

و المسئول الطبى الدكتور الميجور ميكوارت و زوجته الذين رافقاها من الهند رجعا إلى جدة بالباخرة " أكبر " بعد أن نزلت سموها بينبع ثم أقامت هناك خمسة أيام.

من ينبع إلى المدينة :

فى السابع من رمضان المبارك غادرت قافلة الأميرة إلى المدينة المنورة فى الساعة الثانية عشرة ظهرا على الإبل فقد استؤجر مائتا إبل و حضر الجنود من جدة معها، و زاد الجنود من هنا أيضا ، و كان عدد الجنود الترك أربعمائة سوى المدفعية.

الإقامة بمحصلى :

وصلت الأميرة إلى محصلى فى الساعة الرابعة فأقامت هناك و كانت صائمة ، و كان موقع محصلى على الجبل الشاهق و كان ماءها أحمر و طعمها غير جيد ، و الماء المحمول الذى كان فى معية القافلة ضربها الجميع حتى الحيوانات شربت منه. و لما أقامت القافلة هناك ضرب الجيش التركى حلقة لحراستها و نزلت الأميرة بالخيمة، فى الساعة التاسعة ليلا أطلقت المدفعية طلقتها ايذانا بعدم دخول أحد فى الحلقة و كانت حلقة الجيش بحيث قام كل جندى تركى بعد عشرة أذرع ، و كان حاملا بندقيته و ظهره إلى القافلة، انقضى الليل بالراحة.

الإقامة ببئر سعيد :

في اليوم الثامن غادرت قافلة الأميرة في الساعة السابعة صباحا ، و كان الحراسة مثل السابق. كان في الحلقة الداخلية الجنود المرافقون لها. و في الحلقة الخارجية الجنود الاتراك ضربت البوقات قبل بدء السفر. المنزل الثاني لم يكن مثل السابق، و كان الأرض سهلا يسهل المشيء عليها و لم تكن أرض جبلية ذات حجارة صلدة.

في هذا المنزل حدثت حادثة ، ذهب الأمير عبيد الله خان مع خيله إلى جهة لقيه في الطريق ثلاثة بدو ، بعد التحية قدموا إليه خبزا و بصلا و جبنة ، و الأمير قبل منهم ذلك مشكورا ، و من عادة العرب إذا لم يستجب أحد لدعوتهم يعتبرون ذلك مهانة لهم ، فقبل منهم شيئا ، قال البدو اثناء الطعام "الله لطيف بعباده". فقرأ الأمير "يرزق من يشاء و هو القوي العزيز " فسألوه هل أنت حافظ قال نعم فلما همَّ بالرجوع قدموا إليه هدية التمر.

القافلة اضطربت لغياب الأمير لكنه رجع بعد مدة قصيرة فاقنعه السيد حلمي أفندي بأن عليك الحيطة و الحذر لأن التجول هكذا خطر.

توقفت القافلـة فـي بئر سعيـد و كان الجنـد ضاربـا حلقته كالسابـق، و اطلقت المدفعية، و جاء شيخ بئر سعيد و طالب الهدايا و العطايا و المنح فقيل له نقدم إليك في الرجوع.

و قـال المولوي أعظم حسين إمامه "فقد انقضى هذا السفـر بالراحـة و الأمـن و في السنة الماضية نشبت هناك حرب كبيرة و مات سبعة أشخاص من قافلتي"

الإقامة بعين حمراء :

غادرت الأميرة في ٩ من رمضان من بير سعيد ، و كان الطريق جبليا وعرا ملتويا و مررنا بحديقة التمر المثمرة عند العصر و كان بها بئراً حلـوا. و توقفت القافلة عند المغرب في " عين حمراء " و كانت أرضا سهلة صغيرة حولها الجبال ، و كانت بها حدائق التمر و مسجد قديم و نهر صغير ، و كان عدد السكان قليلا. و قد أرادت الأميرة أن تقيم هنا ليوم واحد لأن أرضها كانت مخضلة الربا معتلة الصبا، و لكن حدثت حادثة فغيرت رأيها و اسرعت بالخروج من هذا المكان و الحادثة هي انهم سمعوا طلقات البندقية في الساعة الثامنة من جهات كثيرة ثم جاءت رسالة شيخ البدو إلى مرافقي الأميرة السيد شريف أحمد بن منصور و السيد أبو جود المدني ، كان المكتوب يشتمل على ما يأتي

"إن كنتم من قبيلة كلب علي خان فاعلموا أنهم وعدوا باعطاء خمسمائة روبية بعد مرورهم من هنا سالمين و لكنهم بعد

رجوعهم اخلفوا الوعد، اعطوا هذا المبلغ و أكدوا الوعد لإعطائـه مستقبلا، و ان كنتم من قبيلة أخرى فأرسلوا مبلغـا مناسبـا و إلاّ فنحن مقيمون فى ممر حذيفة و لا نترك قافلتكم تمرّ بدون قتال ".

فاستشارت الأميرة بالسيد حلمى أفندى و قررت عدم اعطاء شىء لأن القبائل اذا علموا ذلك فكلهم يطلبون ، و لكن الأكثرية فى الركب كانت تريد اعطاء المبلغ المناسب ، و كانوا فى خوف و رعب . ثم قررت الغاء القيام هنـاك و أخذوا الحيطة و الحذر بقدر الإمكان.

القيام ببئر عباس :

فى العاشر من رمضان المبارك غادرت القافلة فى الساعة السابعة صباحا مـن " عين حمراء " و تغيرت طريق الحراسة و اقترب الجنـود مـن الأميـرة و ضربوا حلقة حول القافلة ، و كان كل جنـدى مستعـدا و محتاطـا و يده على زناد أسلحته.

و كان المقدمة من الجيش التركى ركب الجبال الوعرة و قرر الجنود أن يشيروا إلى القافلة إذا كانت الطريق خالية من الخطر حتى تتقدم القافلة بعد ذلك و كانت الجبال شاهقة و لكن الجيش التركى كان ماهرا فى تسلقها. و كانت القافلة ماشية على هذا المنوال اذ رأى الناس بعض البدو يركبون جبال خيف . ثم بدأوا يمطرون الطلقات من أعالى الجبال، و مرت طلقة من قرب الأميـر عبيد اللّه خان كاد أن يهلكه و لكن اللّه انقذه من براثن الهلاك. و مرت الطلقات الكثيرة من قرب محمل الأميرة أيضا و لم يتضرر أحد باذن اللّه. تسلق الجيش التركى على الجبل بسرعة فائقة فهرب البدو و كتبت الأميرة فى رحلتها (٥) . " فى السنة الماضية ١٩٠٢م وقعت حرب شديدة فى نفس المكان بقبيلة حامـدة ، و لذلك كان الحرس التركى حذرا جدا".

و لما زال الخوف و الخطر نزل الأتراك من أعلى الجبل فرحين مستبشرين يغنون الأغانى . و أطلعت الأميرة و عبيد اللّه خان عن المسئولين الأتراك ان المنطقة ذات خطر قد أنقضى و لم يبق داع للخوف و دعت الأميرة السيد حلمى أفندى فشكرته و الجنـود و السلطان المعظـم ، فقال إن لنا أوامـر لحراستك و سلامتك و نحن فى خدمتك و اعتبرى الجنود أولادك و نحن نخدمك هنا كما يخدمك اهلوك فى امارتك

و كانت هنا قرية مهجورة و كان بها عيون الماء كثيرة و الحر كان على اشده، و الجنود تعبوا و حان وقت الظهر فقررت الاستراحة قليلا هناك. ثم وصلت قافلتها إلى خيف ، و كانت قرية بها المنازل ذات الأدوار المختلفة و كانت سوقا كبيرة للشعير و لكنها لم تسترح هناك

و وصلت القافلة إلى بئر عباس عند المغرب ، و أقامت بميدان رملى واسع، و كانت هناك قلعة بقرب البئر العميقة و كانت بها ثكنة الجيش التركى و عددها خمسون جنديا. و كانت الأميرة تريد القيام بالقلعة و لكن الجيش اشار إلى القيام بالخارج فى الميدان لأن البدو اذا نزلوا و حاصروا القلعة و اغلق الباب فستكون مشكلة و قبلت الأميرة هذا الرأى المناسب فاقامت فى الميدان.

و جاء شيخ القبيلة و قال للأمير عبيـد الله خـان ان ؛ يـوخ القبائـل و أفرادها اجتمعوا و فيهم أولائك الذين اطلقوا البنادق و هـم يريدون الهدايـا و العطايا و إلاّ يحاولون اتعاب القافلة

فقال الأمير ان الذين اطلقوا النيران و تسببوا فى احراج الأميرة كيف يستحقون الجوائز و التحف فأجاب ان مطلقى النارحلفوا على تطليق زوجاتهم ان لم يطلقوا. فى هذا الاثناء دخل أحمد بن منصور الذى كان مشاركا فى جرائمهم قال للأمير عليك بوعدهم ان لم يتعبوا فاشفع لهم بأربعة آلاف روبية و على حضرتك ارضاء الأميرة بوفاء وعدك . و لما علمت الأميرة بتفصيل الكلام قررت ان هؤلاء عرب يستحقون الخير و ان أساؤا فتبرعـت بالمبلـغ المذكـور و عينت منصور بن أحمد موزعا لهذا المبلغ ، بعد ذلك تحاربوا فى توزيع المبلغ. و غادرت القافلة فـى صبـاح ١١/ رمضـان من بئـر عباس و كانت الطريق آمنة

استقبالها بالمدينة بالجيش التركى :

علم الأمير عبيد الله خان عن طريق مسئولى الجيش التركى ان بعض مسئولى الجيش و الجنود و المدفعية حضروا لاستقبال سموها، فذهب الأمـير و الميجور كريم بك و الكابتن محمد حسين خان للقاء بهم، و قال الأمير ان قافلة الأميرة قد اقتربت من هنا فأرى أن يصطف جنودك للاستقبال ، و كان رأيا مناسبا قبله الجميع ـ فاصطف الجنود و وضعت المدفعية على مكانها.

في قرية بئر عروة جاء القاضى و المفتى و غيرهم لقاء بها و كانت الحراسة أشد من ذى قبل ، و علمت ،لأميرة بعد أن المكان كان قريبا من الروافض.

فى ٢ من ديسمبر ١٩٠٣م الموافق ١٣ رمضان المبارك جاء ختن شيخ الحرم للقاء بها فى الساعة الثامنة صباحا. و الكلام بينها تم عن طريق المترجم السيد يسين ، بعد السؤال عن الأحوال قال ان شيخ الحرم فرح بمجيئك ـ و وصلت البرقيات تباعا من السلطان المعظم انه يهتم بك كثيرا.

فشكرت الأميرة و قال ختن الشيخ ان شيخ الحرم يطلعك ان السيد شريف قرر اقامتك عند السيد صافى و هو مغضوب عند السلطان ، فلا تقيمى عنده و لو اقمت هناك سوف اعتذر من الحضور عندك.

فأجابت الأميرة اننى ضيف عليكما و مقصدى زيارة المسجد فاقيم أولا

فى بيت رتبه لي السيد شريف ، و ان كان بعيداً من الحرم و كانت مشقة فى الايتان إليه سوف انتقل إلى بيتك الذى رتبت لي

استقبال حار بالمدينة :

بعد لقائها بختن شيخ الحرم غيّر الركب أثوابه و وضعت الشالات على الإبل و توجهوا إلى المدينة المنورة و كلهم شوق و كان الناس يأتون فى الطريق لاستقبال القافلة ، و جميع اتراك القافلة اجتمعوا حولها. و الطبول معهم أيضا. و دخلت مراكبهم بالمدينة محتشمة ، و مراسم الاستقبال و الزينة كان عند باب العنبرية في الساعة الحادية عشرة

و كان خارج الباب حاكم المدينة حسن مظفر باشا ، و مالك خزائن الحرم الشريف و هما من أهم مستقبليها ـ و اصطف الجنـود و قدموا اليهـا سلامـا و اطلقت المدفعية إحدى و عشرين طلقة و كانت قافلتها تشتمل على افراد بطول ميل واحد و فكر الأمير عبيد الله خان ان أفراد القافلة ان لم يعلموا ان المدفعية اطلقت لاستقبال الأميرة ربما خافوا و تحاربوا فأرسل من يخبرهم بذلك و لكنه حصل ما كان فى حسبانه و أصحاب القافلة و المرافقون استعدوا للقتال لما سمعوا طلقات المدفعية.

و الجيش الذى حصر للاستقبال كان فيه مسئولان كبيران و ستة من المسئولين الصغار و مائة و خمسون جنديا

اقامتها ببئر درويش :

أقامت القافلة ببئر درويش بعد العشاء ، و فى ١٢ من رمضان المبارك سنة ١٣٢١هـ غادرت تحت حراسة مشددة فى الصباح الباكر و كانت الطريق آمنة و ان كانت تلال كثيرة فى الطريق ، و لما وصلت القافلة ببئر علي آثار المدينة المنورة . و أهلها صعـدوا إلى الجبال بشدة الشوق و كان الجـو روحيـا و كانوا يردون الصلاة و السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم و يدل ذلك على حقيقة مشاعرهم. و كتبت الأميرة فى رحلتها عن ذلك " كنا نشم رائحة زكية فى هذا الميدان تعطر أذهاننا و لما تقدمت القافلة ظهرت آثار المدينة المنورة جليا واضحا و أكثر أصحاب الركب ترجلوا احتراما، فى الطريق كانت قرى صغيرة و فى بعضها مسجد مشيد.

قيامها ببئر عروة :

أقامت القافلة عند بئر عروة فى الساعة التاسعة ليلا، و المكان يبعد عن المدينة بميلين ، و الأمير عبيد الله خان ذهب إلى المسجد النبوى للسلام فى الساعة العاشرة ليلا.

و كان الجيش مع الطبول و المدافع واقفا لاستقبال لها ، و كذلك علماء

المدينة و مشائخها و اطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة سلاما عليها، و نزلت الأميرة فى خيمة نصبت خصيصا لها و قابلت فيها مشائخ المدينة.

و قالت الأميرة فى ردّها لمستقبليها ألفاظ الشكر للحاضرين و خصوصا السلطان المعظم على اهتمامه بها و تكريمها و ضيافتها، و مدحت الجنود الأتراك لقوتهم و صلابتهم و حرصهم على حراستها

و دخلت بعد ذلك المدينة ، و كان على باب المسجد النبوى عثمان باشا و شيخ الحرم و قاضيها و مفتيها و غيرهم من المسئولين الكبار لاستقبالها ، و كانت طريقة الحجاب غير معقولة و هى صلت و سلمت على الرسول صلى الله عليه وسلم من البعيد و نوت أن تزور القبر الشريف فى وقت آخر. و وصلت إلى بيت السيد صافى للقيام به، و قد قررت القيام به من قبل.

أمنية الدخول بالروضة المقدسة :

تقدم الأمير عبيد الله خان بايعاز من الأميرة بطلب دخوله هو و الأميرة إلى الروضة المقدسة إلى شيخ الحرم.

فأخبره شيخ الحرم ان دخول النساء غير ممكن و لكنك تقدر بشرط لباسك العباء و العمامة البيضاء مع القلنسوة التركية (وكان ذلك لباس الدخول بالروضة المطهرة).

فى ١٥/من رمضان المبارك دخل الأمير عبيد الله خان و الميرزا كريم بك و الكابتن محمد حسن خان فى الروضة النبوية ، و قرأوا الفاتحة أوقدوا الشموع و قدم خدام الروضة إليه الأشياء التى تعقد فيها البركة، و ماء الورد التى تغسل بها القبر الشريف.

الإقامة ببيت آخر :

كان بيت السيد صافى بعيدا عن الحرم و كان قصدها بالمدينة المنورة حضورها فى الحرم الشريف . و هى تعبت لبعد بيتها عن الحرم انتقلت إلى بيت أخر قرب الباب المجيدى فى ١٥/ رمضان المبارك ، و كان هذا البيت أخذ على الأجرة بيد المولوى أعظم حسين بعد الاستشارة من شيخ الحرم. و استؤجر بيت أخر قريبا من مقام القافلة ، و كانت أهل شيخ الحرم يحضرن إليها فى هذا البيت.

حضورها إلى القبر الشريف :

كان بيت السيد صافى بعيدا عن الحرم الشريف ، و كان الحضور إلى المسجد النبوى صعبا، و لكنها لما انتقلت إلى بيت عند الباب المجيدى طفقت تحضر معظم الأوقات و قد رتب لها شيخ الحرم الوحدة عندما تحضر بعد العشاء.

و لما حضرت الأميرة إلى الحرم أول مرة كان لاستقبال لها على الباب شيخ الحرم و القاضى و المفتى بها و أعزة أهلها ، و كانت مبرقعة سلمت عليهم و دخلت المسجد ثم توجهت إلى الروضة الشريفة ، و بعد ذلك كانت تحضر كل يوم بعد العشاء ، فلا تجد أحدا حتى النساء.

المآدب من قبل المعالى و المشائخ :

و كانت وجهت إليها دعوة المآدب فى المدينة من قبل أعزة أهلها أول مآدبة حضرتها كانت من قبل على زاهد وترى و كانت مأدبة فاخرة قد دعاها منذ ان كانت مقيمة بينبع. و السيد صافى مضيف الأميرة دعاها و أهل قافلتها على مأدبة كبيرة و كذلك شيخ الحرم وغيرهم. و كانت المآدبة تعتبر فاخرة إذا قدمت فيها أنواع الطعام الاثنى عشر.

شراء الخيول العربية :

طلب الأمير نصر الله خان ولى عهد الامارة من أمها ان تشترى له خيولا عربية لجودتها . فقد اشترت سموهـا اثنى عشـر خيلا نجديا مـن الشيـخ عبد العزيز بن رشيد النجدى فلم تكن فى مستوى الجودة العالية و لكنها اختارت ستة لابنها الكبير ، و اهدت الثلاثة للأمير عبيد الله خان و البقية كانت من نصيب الأمير حميد الله خان.

طريق الرجوع من المدينة :

كانت الأميرة تنوى الذهاب إلى مكة المكرمة من نفس الطريقة التى أتت بها، و لكنها لما ابتليت فى طريق المدينة بالبدو وصلتها الأخبار انهم ينون الفساد و التخريب فحثها شيخ الحرم ان تسافر إلى مكة المكرمة عن طريق البر مع القافلة الشامية ، و لا يكون خطر البدو فقبلت مشورته مشكورة و أردت الذهاب عن طريق البر مرافقة القافلة الشامية و لما استقر رأيها على ذلك أبرقت إلى القنصل بجدة ان لا يستأجر الباخرة ، و لكنها وصلته بعد ابرام المعاهدة مع الشركة العباسية المصرية على باخرة بهرا و أرسل صورة المعاهدة إلى الأميرة.

فردت الأميرة إلى القنصل عن طريق البرقية انه تغير برنامج الرجوع فعليك بالغاء المعاهدة فورا. و لكن المعاهدة لم تلغ أخبر بذلك نائب القنصل عند ما زارها للاطلاع على أسباب تغير البرنامج.

فأخبرته الأميرة بتفصيل ما حـدث فى السفر و ما تسمع مـن اشاعات ، و قالت ان شيخ الحرم و غيره يرون السفر بالبر مناسبا لأجل أنباء خطرة و ما يدور بين البدو فى الحرم المدنى.

فأخبر نائب القنصل بتمام العقدبالباخرة ، فى هذه الحالة تجب الغرامة فقالت الأميرة ان الوقت كاف للالغاء و التنصل من الغرامة ، و طالت مراسلات فى هذا الصدد بين الأميرة و القنصل و الشركة العباسية. حتى قررت الشركة باعفاء الغرامة بشرط السفر عن طريق البر.

و بعد الفراغ من هذه المسئلة كتبت الأميرة إلى سعادة القنصل أن يبرق فى الحضرة السلطانية أنها وصلت إلى المدينة المنورة بخير فى رعاية العساكر السلطانية و استقبلنى شيخ الحرم و محافظ باشا استقبالا حافلا ، اشكركم لذلك و لكن لخطر البدو فى الطريق أريد الذهاب إلى مكة المكرمة مع القافلة الشامية فاقدم الطلب إلى حضرتكم ان تأمروا أمير الحج أن يوصلنى مع القافلة الشامية فى الحراسة الحكومية و كتبت الأميرة إلى القنصل أيضا اذا كان مناسبا فاخبروا السلطان المعظم عن طلقات البنادق التى صوبت اليّ كى تكون الحراسة على أشدها.

فى ١٦ ديسمبر ١٩٠٢م أجاب القنصل البريطانى المستر ديوى الأميرة أن سفير الامبراطور ايدورد السابع لدى القسطنطنية ابرق إلى السلطان المعظم بوصولك بخير إلى المدينة المنورة ، و استمرت الأميرة فى مراسلتها حتى علمت من برقية القنصل البريطانى لدى قسطنطنية ، و أخبار من الباب العالى إلى شيخ الحرم ان السلطان المعظم ابرق إلى محافظ المحمل الشريف السيد عبد الرحمن باشا و مسئول القافلة الشامية باصطحاب سمو الأميرة إلى مكة المكرمة فى حراسة مشددة

و جاءتها برقية من القنصل و موضوعها " بعد ورود القافلة الشامية تقدم هذه البرقية إلى السيد عبد الرحمن باشا ان الحراسة المكثفة تكون سببا لرضى السلطان المعظم".

حلول العيد المبارك :

فى اثناء هذه القضايا و المسائل انتهى شهر رمضان المبارك و حل العيد، صلى القاضى بالناس صلاة العيد فى الساعة السابعة و صلاة العيد تصلى فى البلاد العربية مبكرا . و لم تحضر الأميرة و النسوة فى صلاة العيد للإزدحام و الأميران و الرجال صلوا بالمسجد.

فى الساعة السادسة حضر المفتى الحنفى و المفتى الشافعى و شيخ الحرم مرافقين مع المترجم السيد يسين للقائها و مباركتها بالعيد ، و قدم المفتى الشافعى قصيدة كالعادة فيها المديح النبوى ، و تذكرة العيد ، و بعد اللقاء بها انتقلوا إلى غرفة الرحال و قدمت إليهم الحلاوة و الشاى و القهوة.

و بعد ذلك ذهب الاميران عبيد الله خان و حميد الله خان إلى مقر الحكومة ، و كان به شيخ الحرم و حاكمه ، و الجنود الأتراك مصطفون و قدموا السلام فور وصولها، و تغنوا بالنشيد الوطنى ، و هما رجعا إلى بيتهما بعد

هذه المراسم.

و بعد الظهر ذهب الأميــران إلى بيت شيخ الحــرم و قدمت إليهم الشاى و القهوة و العصير التركى و جاءت زوجتا شيخ الحرم و الحاكم و بناتهما للقائها فى بيتها.

منع التجول للقافلة :

أرسل حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا مكتوبا إلى الأميرة . " اخبر سيادتك ان مراقبى أبواب المدينة حذروا أن لا يخرج أحد من مرافقيك من أى باب من أبوابها لا بقصد الزيارات أو التجول بدون اشعارنا حتى نرسل معه حراس الأمن ، أما اذا لم يسمع أحد نصائحنا بهذا الصدد و حصل ما قدر اللّه لا يكون علينا مسئولية ذلك فأمرت الأميرة ان تنفذ هذا القرار فورا

جوائز للجنود الأتراك :

قسمت الأميرة بتوسط حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا ألفى روبية على الجنود و الضباط الأتراك

مسئلة المزوّر :

عينت الأميرة محمد حماد مزوّرا لأهل بوفال و لكنه جاء شخص أخر حامل رسالة من شريف مكــة يشفــع فيها لــه ان يعين مزورا و كــان اسمه أبا الجود قالت الأميرة لابى الجود إنى عينت محمد حماد مزورا و لو أتيت قبله لعينتك ، و لكنها خافت من شريف مكة فعينته أيضا على ثلاثين روبيـــة و قالت له كن مزورا لأهالى بوفال الآخرين الذين يأتون للحج.

شراء الإبل :

عندما تقرر أن الأميرة سوف تسافر مع القافلة الشامية فكرت سموها فى ترتيب السفر و أهمها الإبل ، و علمت انها اذا لم تحصل عليها مسبقا فستكون مشكلة و لا يمكن السفر مع القافلة الشامية. فراسلت حاكم المدينة بهذا الخصوص . و تكلمت مع شيخ الحرم فابرق الشيخ إلى الأمير عبد الرحمن باشا أمير القافلــة الشاميــة ان يأتــى بخمسين جمــالا يكون قيمته كل منها مائـــة و خمسين روبية.

القافلة الشامية بالمدينة :

فى ٢٤ من ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ وصلت القافلة الشامية إلى المدينة المنورة و كانت تأتى بغلاف الكعبة (كان يقال له المحمل الشريف) و كان يوضع فى صندوق كبير يحمل على جمل قوى الهيكل ، و جمل آخر مرافق له عليه

الشارة الحكومية و كانت تقال لها البيدق. و هذه القافلة مع مرافقيها و أصحابها الذين انضموا إليها من المدينة وصل الحرم النبوى عند باب السلام فى الساعة الحادية عشرة مع السلام الملكى و على أصوات الطبول ، و كان عند الباب مكان مرتفع انيخ الجمل عليه و الصندوق أدخل بالمسجد النبوى و كان الجمع حاشدا و كانوا فرحين مستبشرين ، و بقى المحمل بالمسجد النبوى بالمدينة المنورة إلى حين بقاء القافلة بها.

تهديد من البدو :

أرسلت الأميرة السيد عبد الرؤف خان نائب مدير سفر الحج إلى عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية للاستفسار عن أجرة الجمال و تموين القافلة وغيرها و لما وصل القاصد إليه رأى أن الميدان مملؤ بالبدو الذين تجمعوا من حول المدينة و شيوخهم بداخل الخيمة و ما دار من حديث بينهم و بين السيد عبد الرحمن باشا، كانت خلاصته ما يلى

" قال شيخ ، تكون فتنة كبيرة و أصحابنا مستعدون و مسلحون ، فقال السيد عبد الرحمن بدون اعتناء . الفتنة عليكم لا علينا ، فقال شيخ بجرأة غير معقولة و هدد الفتنة لازمة و لا يمكن ان تسافر الهندية معكم . فقال السيد عبد الرحمن ان الهندية لابد أن تذهب و لو على رؤوسكم. أو لا تعلمون انها ضيفة السلطان المعظم؟ و أمرت بحراستها و ما أقول أقول من قبل السلطان و لوما اطعتم السلطان تخرب قراكم و تحرق بيوتكم و الجبال التى تأوون إليها تمر مرّ السحاب ثم قال ماسحا سيفه سأريكم كيف ننفذ أوامر السلطان

خضع الشيوخ رؤوسهم باسم السلطان و قالوا مولانا السلطان على الرأس و العين نحن لا نعارض السلطان و لكن نسأل منكم لا تضيعون حقنا و نحن نأخذ حق المرور.

فقال السيد عبد الرحمن أنا اشفع لك عندها فى هذا الصدد و اذا اعطتك شيئا لا اعتراض على ذلك و بعد ذلك ذهب الشيوخ و رجع السيد عبد الرؤف خان بعد الاستفسار عن الأمور الضرورية.

من الحرم المدنى إلى الحرم المكى :

وجه حاكم المدينة دعوة مأدبة واسعة قبل مغادرتها المدينة المنورة . فى ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٢١هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٩٠٤م أحرمت الأميرة و أصحابها و سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم و خرجوا بعد العصر من المدينة المنورة مع القافلة الشامية ، مرت من تبريز ثم قامت ببئر علي ، فى يوم ٢٨ من ذى القعدة غادرت القافلة إلى مكة المكرمة. و كانت الخطرات مثل طريق ينبع و المدينة المنورة و لكن برعب القافلة الشامية و خوفها و نظام السيد عبد الرحمن الصارم لم يتجرأ و لا بدو واحد.

فى المنزل الثالث دعا السيد عبد الرحمن الأمير عبيد الله خان و أخبره ان شريف مكة سجن شيخ بئر معين و قال له ان كان أى صعوبة أو خلل فى الأمن في مسيرة أميرة بوفال اقتلك. و هذا كلام ظاهرى و هو يريد ان يسيئ سمعتي فأفراد هذه القرية لابد فاعلون شيئا و اعتقد ان منزل الغد فيه خطر شديد.

و فكر الأمير عبيد الله خان خطة لحفظ الأميرة ثم أخبر بذلك أمير القافلة الشامية فأعجبها هو أيضا. و هو أن نترك جمل الأميرة خاليا و لا يعلم ذلك سوى محافظها و يحرس هذا الجمل كالمعتاد و هى تركب علـى جمـل آخـر و يكون آخر القافلة و بعد ذلك تقدمت القافلة إلى مكمن الخطرات و كانت هذه الخطة ناجحة جدا و لم يمر عليها أى خطر و اطلقت على مركبها الرسمى طلقات كثيرة وردت الجنود الأتراك النيران و كان البدو يطلق من قمة جبل يصعب الصعود عليه

و أمر قائد الجيش التركي جنوده على صعود الجبل و بدأوا يصعدون عليه بدون وجل و خوف و كان الجبل مستقيما و كان البدو وراء الجبل فلم تؤثر المدفعية إلاّ بعد حين . و استمرت المعركة قرابة ساعتين و استشهد سليمان أغا من جنود جدة و قتل بعض أفراد البـدو ايضا و لكن القافلـة كانت فـى حفظ و أمان.

أما البدو المتعنتون لم يقدروا المقابلة وقتا طويلا فهربوا و فى هذا الاثناء وصلت الجنود على قمة الجبل و مضت القافلة بهدؤ و راحة و كان الطريق الباقى مرّ بسكون و عافية.

الدخول بمكة المكرمة :

فى ٦ من ذى الحجة الموافق ٢٣ من فبراير ١٩٠٤م دخلت قافلتها بمكة المكرمة.

وجاء حاكم الحجاز أحمد راتب باشا و شريف مكة عون الرفيق باشا مع مجموعة من الجنود الأتراك إلى مقام الشهداء لاستقبال ، و قدم إليها السلام العسكرى و جيئت بها مع الاحترام و مظاهر التكريم إلى مقام اقامتها فى بيت الأستاذ أحمد لاؤ.

و أرسلت ابنيها الأميرين إلى بيت حاكم الحجاز و أمير مكة للقاء بهما. في اثناء قيامها بمكة المكرمة السيد شريف و عبد الرحمن باشا حاكم دمشق و أحمد راتب باشا حاكم الحجـاز و الشيـخ محمـد صالح الشيبى و السيد على باشا و باشا المصرى جاوءا مع زوجاتهم للقاء بها و الأميرة بدورها ذهبت إلى بيت السيد شريف و السيد أحمد راتب باشا.

أداء مناسك الحج :

ذهبت الأميرة إلى الحرم الشريف لطواف القدوم و السعى لاداء مناسك

الحج ، و ذهبت إلى عرفات فى الثامن من ذى الحجة و حجت يوم التاسع من ذى الحجه ثم رجعت إلى مكة المكرمة فى ١٢ من ذي الحجة بعد تأدية مناسك مزدلفة و منى

قضية أجرة البيت :

السيد شريف كان غاضبا على الأميرة إلى الآن و لكن لأجل كرم السلطان المعظم و معامله الأتراك المخلصة لها لم يجد شيئا يبدى عليه غضبه.

و لكن لما قررت الأميرة تاريخ الرجوع فى ٢٠ ذى الحجه الموافق ٨ من مارس ١٩٠٤م ، طالب السيد شريف سموها عن طريق نائب القنصل ١٥ ألف روبية أجرة البيت الذى أقامت فيه بضعة أيام.

و لكن المبلغ الذى اصطحبته قد نفد ، و كانت مع الأميرة رسالة من تاجر دلهى اسمه عبد الغفار وعدها ان وكلاءه يقدمون إليه المبلغ عند الطلب. طالبت المبلغ منهم قالوا لا يمكن اليوم و لكن نحضر بعد يوم أو يومين و من جهة أخرى بدأ السيد شريف اصراره على تأدية المبلغ فورا و أخيرا أبرقت القنصل المقيم بجدة و أخبرته عن التفاصيل و قالت ان سفر اليوم تأجل لأجل هذا السبب و ربما لا أقدر على السفر بدون تأدية المبلغ و لذلك يجب أن تبرق حضرتك إلى السيد شريف أو أودى المبلغ عن طريقك و أنا أرسل إليك المبلغ فورا

فقدم موظف البريد هذه البرقية إلى حاكم الحجاز و قال مثل هذه الشكوى عار على السلطنة العثمانية و لم ترسل إلى القنصل البريطانى بجدة بل أرسل إلى الحاكم معتمدا إليها و طلب المعذرة منها و قال ان السيد شريف يذل نفسه و الآخرين و أنت ضيفة على السلطان لو علم ذلك يغضب و أنا أخذت بيتا لك على الأجرة قرب الحرم و لكن لما وصلت رسالتك إلى السيد شريف أنا سكتت ، لا يمكن مطالبة الأجرة منك و لاتؤدى على طلب أحد.

فى اليوم الثانى استلمت الأميرة مبلغا من عبد الغفار التاجر فأبت إلاّ أن تؤدى شيئا عوضا عن قيامها فى بيت فأرسلت خمسة عشر ألف روبية إلى الحاكم و كتبت أن ترسل المبلغ إلى السيد شريف كله أو جزئه كما تراه مناسبا. و لكن وجب على أن أودى أجرة الإقامة.

و لكن الحاكم لم يقبل المبلغ و رجعه إليها قائلا ان أخذ أى فلس كأجرة البيت يكون عار للسلطنة العثمانية. (٧)

المغادرة من مكة :

فى ٢٢ مـــن ذي الحجـــة الموافق ١٠ مـــن مارس ١٩٠٤م. غادرت الأميــرة و قافلتها من مكة إلى جدة و نظم حاكم الحجاز أحمد راتب باشا نظاما معقولا للرجوع و أرسل علي باشا جمعيته معها و كانت تشتمل ٢٣٣ مسئولا و جنديا.

في " بجيرا " اخلى بيت فأقامت به و تكتب الأميرة في رحلتها (٨)
" في الرجوع من مكة تعبنا شديدا فلذلك نرى أن راحة هذا البيت ليست أقل من صدر منزل (قصر الأميرة ببوفـ ل)

الدخول بجدة :

في ٢٣ من ذى الحجة الموافق ١١ من مارس دخلت الأميرة بجـدة مسـاء، و كانت باخرة "أكبر" مرسوة على الميناء فما ان دخلت بجـدة حتى ركبت هـي و ابنيه على العبرة ، أما المرافقون و الأمتعة فحملت إلى ١٣ من مارس
أبرقت الأميرة عن طريق القنصل البريطاني إلى عبـد الرحمـن باشـا و علي باشا و أحمد راتب باشا و الشريف عون الرفيق باشا، و استلمت أجوبة البرقية أيضا

المغادرة من جدة :

في ٢٥ من ذى الحجة الموافق ١٣ مارس يوم الأحد بعد العصر رفعت الباخرة مرساها و غادرت جدة ، و كان في التوديع القنصل البريطاني لدى جدة و السيد جي بي ديوى و نائب القنصل بجدة الدكتور محمد حسين.
في ١٧ من مارس القت الباخرة مرساها بميناء عدن و لكن بخوف تفشي الكوليرا بالباخرة لم يسمح لأحد بمغادرة عند المغرب غادرت الباخرة من عدن إلى بومباي وصلتها في ٧ من محرم سنة ١٣٢٢هـ الموافق ٢٥ مارس ١٩٠٤م.
أخبرت الأميرة الوكيل السياسي ببوفال المستر ايمسي و ابنها الكبير نصرالله خان عن طريق البرقية من عدن عن الوقت التقريبي لوصولها إلى بومباي ـ فهما وصلا مع أصحابهما إلى بومباي
وصلت الباخرة إلى وارى بندر ليلا فلم تسمح لها بدخول الميناء حسب القواعد المعتمـد و لكـن أهل بوفال ذهبوا إلى الباخـرة عـن طريق الزوارق و التقوا بها
فـي صباح ٢٦ من مـارس يوم السبـت تقدمت إلـى الميناء ، و هـي و مرافقوها نزلوا على البر بعد سفر البحر الطويل الشاق و استأذن الميجور ميكوارت سموها بعد نزولها من الباخرة و كانت فرقة الحرس للسلام عليها مع طبولها موجودة على الرصيف فسلمت عليها ثم خضعت المدافع.

قيامها ببومباى :

أوقفت الأميرة قرابة أربعين شخصا من مقربيها و أرسلت البقية مع ابنها عبيد الله خان إلى بوفال بقطار خاص.
و أقامت ببومباى في صالة مظفر، في اثناء قيامها هناك زارت المدرسة النسائية ، و المتحف و أمير برودە الذى كان مقيما هنا جاء لمقابلتها. و أقامت هناك أسبوعا.

استقبالها ببوفال :

فى ١٦ من محرم ١٣٢٢هـ الموافق ٣ من ابريل ١٩٠٤م غادرت بومباى بقطار خاص إلى بوفال ، فى اليوم الثانى اى فى ١٤ ابريل وصل القطار إلى بوفال فى الساعة الثالثة ظهرا. و كانت المحطة حافلة باعزة بوفال و أعضاء الحكم بالامارة و أعضـــاء المجلس الشـــورى ، و الشعب كلـــه شوق لاستقبالهـــا و الترحيب بها.

الأمير نصر الله خان الذى رجع إلى بوفال قبل قدومها زين المدينة بزينات جعلتها كالعروس.

الأميرة قبلت سلام المستقبلين بصالة الانتظار ، ثم ركبت العربية الأميرية و توجهت إلى "صدر منزل " قصرها مع مرافقيها و قبلت سلام الجنود و تحيات الشعب من الرجال و النساء و الأطفال الذين اصطفوا فى صفين ، فلما دخلت بصدر منزل أطلقت مدفعية القصر و القلعة و تنور القصر بالأنوار.

تبركات الحرمين الشريفين :

التبركات مثل أجزاء من غلاف الكعبـــة و غيرهـــا جـاءت مع الأميـــرة و وصلت إلى بوفال فى ٤ من ربيع الأول يوم الجمعة على محطة بوفال فاستقبلت استقبالا حارا، تم وضعت مع الاحترام اللائق بموتى مسجد (مسجد اللؤلؤ) فى رقابة عميد المساجد (و كان المسجد يقع قريبا من قصرها و كان مصنوعا من الحجر الأحمر الجميل) و اطلقت قلعة فتح كر إحدى عشرة طلقة من مدفعيتها. و جاء الرجال بالنهار و النساء بالليل و حرقت البخور و العود، ثم أرسلت هذه التبركات إلى المسجد الأصفى ، و تصدقت الأميـــرة على الفقـــراء و المساكين ، و وجهت المآدبة إلى الرؤساء و الأعـزة ، و وزّعت بين خلصائهـا و مقربيها صحونا فيها التمور و السبحـــات و مـــاء زمزم ، و كتب الأوراد و القماش الشامي و العباء ثم ودعتهم.

فى اليوم التالى أعلنت العطلة ، و مساجد بوفال على كثرتها نورت حتى تنورت المدينة باكملها.

تعريب : محمد حسان خان

المراجع :

١ - كتاب كوهر اقبال المؤلفة سلطان جهان بيكم ص ٤٥

٢ - نفس المصدر ص ٤٦

٣ - روضة الرياحين ج ٢ ص ٢٨

٤ - رحلة الحج المؤلفة سلطان جهان بيكم ص ٣١

٥ - نفس المصدر ص ١٣٣

٦ - نفس المصدر ص ١٤٢

٧ - نفس المصدر ص ٢١٨

٨ - نفس المصدر ص ٢٢٣

الحلقة الثامنة و الأخيرة:

ندوة العلماء عبر التاريخ

بقلم: آفتاب عالم الندوي
أستاذ دارالعلوم ندوة العلماء - لكناؤ

إنجازات هذه الحركة الندوية و آثارها

إصلاح المنهاج الدراسي:

كان بناة ندوة العلماء و قادة فكرتها ينظرون إلى مناهج التعليم و برامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو و التطور خاضعة لحاجة كل عصر و مقتضاه، و لم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها، و هي حافلة عندهم بالحيوية الكامنة و الازدهار الصاعد، و كانوا يرون أنه لما مست الحاجة في العصر العباسي - حين ازدهرت العلوم و الفنون و الفلسفة اليونانية - إلى إدخال الفلسفة و الحكمة و الهيئة و الرياضيات في المنهج الدراسي الديني، فعلوا ذلك و هم مقتنعون بذلك. كذلك نحن في أمس الحاجة في العصر الحاضر أن ندخل في منهاجنا التعليمي العلوم و الفنون الغربية و اللغات الأوربية، كي يطلع علماؤنا على موجات العصر و نزعته، فيبرز ابن رشد جديد و ابن حزم جديد و غزالي جديد و رازي جديد و نستطيع أن نهزم الأعداء و نحبط هجماتهم بنفس الأسلحة التي يهاجمون بها و نفس الطريقة التي يسلكونها.

فقد كان من أهداف ندوة العلماء و مشاريعها التعليمية و الإصلاحية إصلاح النظام التعليمي الإسلامي و تطويره على مبدأ الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع، و تعديل مناهج التعليم تعديلا يتفق و حاجة الإسلام و الدين في العصر الراهن و الظروف المتطورة المتجددة و يكون جديرا بتنشئة كفاءات و مواهب تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العالم المتغير المادي.

و لم تزل جمعية ندوة العلماء تسعى لتحقيق هذه الهدف النبيل بطريقة و أخرى، و تدعو رجال المدارس الدينية و القائمين عليها إلى تطوير المناهج

الدراسية تطويرا يحقق متطلبات العصر و حاجات النشئ الجديد ، و تعقد احتفالاتها الشعبية الهامة ، مما كان له الأثر الكبيـــر فـــى إثارة همم المسلمين و إنارة عقولهم و استهواء مختلف الفئات و الطبقات و الشخصيات على اختلاف الوجهات و الاتجاهات و الجمع بين العلماء الدينيين و المثقفين العصريين ، و رجال الدعوة و الدين و رجال الصحافة و الإدارة ، و ذلك نجاح كبير أحرزته جمعية ندوة العلماء" غير أن التعديل اللائق فى المناهج الدراسية الذى كانت تنشده "ندوة العلماء" لم يتحقق بعد على المستوى المطلوب ، و إن المناهج التى كانت قد تمكنت من قلوب القوم من قرون و أجيال، و أخذت بحجر عقولهم و جرت فيها مجرى الروح و الدم لم تكن لتقبل التطوير عن طواعية و بسهولة و يحل محلها منهج آخر ، و بقى أمر التطوير و التعديل يتأرجح بين التعديل و التأجيل.

تأسيس مدرسة مثالية :

فاخيرا ، بعد تجربة طويلة ، و بعد ما عالجوا حيلا عديدة ، أدرك القائمون على حركة ندوة العلماء أن الغرض من التعديل و التطوير لا يتم إلا إذا أسسوا مدرسة مثالية جامعة ، يجربون فيها منهجهم الدراسى تجربة علمية ، فأسست "دارالعلوم التابعة لندوة العلماء" فى لكناؤ عاصمة الولاية الشمالية عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م ، و وضعوا أساسها على حد تعبير سماحة الشيخ الندوى :

"على مبدأ الجمع بين الدين الخالد الذى لا يتغير ، و بين العلم النامى الذى لا يتحجر ، بين صلابة الحديد فى الثبات على العقيدة ، و بين نعومة الحرير فى اقتباس العلوم النافعة ، فبينما العالم الدينى فى عقيدته و عبادته جبل ثابت ، إذا هو فى علمه و دراسته و تقدمه نهر عذب جار ، و بينما هو فى نصوص الدين و عزائمه مرابط على الثغر و حارس للأمانة ، إذا هو فى تفهيمه و دعوته جندى مهاجم و مسلح على أحدث طراز ، و بينما هو فـــى الأول لا يعرف الهوادة ، إذا هـــو فـــى الثانـــى لا يعرف الخمول و الجمود".

فلما تم تأسيس هذه المدرسة المثالية الجامعة نفذ فيها المنهج الدراسى الذى وضعته ندوة العلماء. و قد كان العلامة شبلى النعمانى قام مسبقا بوضع مشروع دارالعلوم" و تحديد مواصفاتها متمثلا فى مشروع محكم الطراز ، بارز الملامح ، واضح الأبعاد و القسمات ، بحيث إن نظرة واحدة عليه لتدل على أن مسافر الهند كأنه قائم فى بلد كبير بقسطنطنية". (١)

كما أن الشيخ محمّد على المونكيرى قام بتضحيات مخلصة و محاولات مشكورة فقد كتب فى التقرير الرسمى عن الاجتماع الأول المنعقد فى كانفور

عام ١٨٩٣م ، و قال فيه

" *إن أهـم ما تهدف إليـه ندوة العلمـاء تعديـل مناهج التعليم و أساليبـه تعديلا يمهـد الطريق لازدهـار العلوم الإسلاميـة و يصلح النفوس و يقوم الأخلاق* " (٢)

و قال فى كلمته للاجتماع الثانى المنعقد فى لكناؤ عام ١٨٩٥م

" *إن أولادنا يلتحقون بالمعاهد الرسمية باقتضاء الظروف الراهنـة ، فيرتمـون ـ بطبيعـة الحـال ـ فى أحضـان الإلحاد و اللادينية، فهل إن فتاوى العلماء لتحريم تعلم اللغة الإنجليزية تقدر على أن تمنعهم من ذلك ؟ لا و كلا ، نحن لا نستطيع أن ننقذ جيلنا الجديد من نـار جهنـم إلاّ بوضـع منهاج جديـد للتعليـم و التربية* " (٣)

و كتب بحثـا قيمـا فـى عـام ١٣١٢هـ عن تاريخ المنـاهج الدراسيـة و استعرض فيه التطورات التاريخية التى مرت من خلالها هذه المناهج فى كل دور، كتب فيه

" *إن هذه التطورات لاتزال قائمة منذ فجر الإسلام و كان ذلك من مقتضيات العقل فلا مبرر للاستغراب إذا عدلت هذه المناهج تعديلا لائقا تدعو إليه الحاجة* " (٤)

و وضع بهذه المناسبة بمشروع للمقرر الدراسى كان فى الواقع خطوة ثورية جريئة و كان موارد دراسيا ثوريا بالنسبة إلى "الدرس النظامى" المقرر الدراسى آنذاك ، فقد هدم فيه نظام "الدرس النظامى" بأسره فى طول الخط ، و روعى فيه فى اختيار الكتب بوجه خاص أن تكون هذه الكتب كفيلـة بـاحداث صلاحيـات و مواهب يحتاج إليهـا الطلبة فى العصر الراهن. (٥)

و مما يجب ذكره أن العلامة شبلى النعمانى أبرز مؤسسى ندوة العلماء قد رفع صوته عاليا لإصلاح المناهج و توسيعها و تطويرها ، و عالج نقايص "الدروس النظامى" و أبرز أهمية إصلاح المنهج الدراسى و إدخال التعديلات اللائقة فيه، و وضع فى ذلك بحوثا و مقالات قيمة فى "*مجلة الندوة*" و صدع به مدويا مجلجلا فى أحاديثه وخطاباته ومحاضراته، يقول فى إحدى المناسبات

" *إن هـذه العلـوم اليونانيـة التـى ليست علومـا الدينيـة و لا يتوقف عليها فهم ديننا و معرفته قد فقدت اليوم تأثيرها و لا خطر على الإسلام اليوم منها ، و قد احتلت مكانها علوم حديثة و قضايا جديدة و دراسات و أبحاث جديدة ، و قد أصبح*

من الضرورى أن يطلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة و العلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولا للمعضلات الحديثة ، و ليردوا على الشبهات ردا علميا مؤسسا على الدراسة و التحقيق." (٦)

و قد واجه فى ذلك مضايقة شديدة ، حيث عارض هذه الفكرة الجديدة ـ فى ذلك الوقت ـ ثلة من العلماء الذين رأوا فى هذه الفكرة و هذه الدعوة خروجا على الدين ، و ثورة على التقاليد المألوفة و ما وضعته أسلافنا من مناهج تعليمية و دراسية ، و هذا شأن كل حركة جديدة و دعوة جديدة تريد أن تشق فى لكناؤ و ظهرت نتائجها مبشرة مشجعة ، خفت صوت المعارضـــة و تضاءلت المضايقة شيئا فشيئا ، و ظهرت تعديلات هامة و إصلاحات جذرية لائقة فى المدارس الممتدة من حيدرآباد إلى بهاولبور ، و لاسيما فى مدارس الولايات المتحدة و ولاية بيهار و أقسام العلوم الدينية و المشرقية فى جامعات حيدر آباد.

و كان العلامة شبلى النعمانى قد أثار قضية تعديل المناهج الدراسيـة ، و لفت إليها أنظارالعلماء و الباحثين لأول مرة قبل أن تقوم ندوة العلماء فى "مذكرة روما و مصر و سوريا" سنة ١٣٠٩هـ – ١٨٩٢م ، و أفاض دموعـا حـارة و أعرب عن أسفه الشديد و قلقه البالغ على المناهج الدراسية السائدة فى المعاهد الدينية لقسطنطنية و مصر بجانب الهند ، و لاسيما على المنهاج السائد فى جامع الأزهر ، و تكهن بأن هذا النظام التعليمى لا يستطيع أن ينجب علماء يواجهون تحديات العصر، و شاء الله أن تجـدى هـذه الزفـرات و الدموع و تترك آثآرها البعيدة ، فقد ابتدأت ـ تحت تأثير دعوة العلامـة شبلى النعمانى ـ الحركة الإصلاحية لجامع الأزهر بعد سفر العلامة بعدة أعوام أى عام ١٨٩٩م و كتب العلامة السيد رشيد رضا المصرى عنها مقالات و بحوثا ضافية نشرته جريدته الموقرة "المنار" تباعا ، و رشح فى "المنار" العدد ٢٠ من جمادى الثانية ١٣١٧هـ لحركته الإصلاحية هذه ثلاث شخصيات فذة بارزة :

الشيخ أحمـــد جــاد روســـى، الشيخ شنقيطى المغربـــى، و الشيـخ شبلى النعمانى الهندى . (٧)

و قد كان العلامـــة شبلـــى النعمانـــى مولعـا للغـاية بندوة العلمــاء و بدارالعلوم التابعة لها ، حيث كان يرى ذلك العامل الوحيد لانتفاضة المسلمين فى العصر الراهن ، فساهم مساهمة ملموسة فى ترقية دارالعلوم ، و تصدر الموكب فى بذل الجهود الضخمة فى احتفالاتها السنوية التى كانت تقام فى مدن الهند المحلية ، حتى فوض إليه الإشراف على الشئون التعليمية لدارالعلوم ندوة العلماء ، فأدخل اللغة الإنجليزية فى المقررات الدراسية ـ رغم المعارضة الشديدة ـ و خصص حصة لدراسة اللغتين الهندية و السنسكرتية لكى يكافح طلبتنا هجمات المعاندين بالاتقان فى هاتين اللغتين. (٨)

يقول الأستاذ أنور الجندى :

> *"إن ندوة العلماء التى كان العلامة شبلى النعمانى أبرز مؤسسيها و رئيسها لفترة طويلة قد استطاعت - كما يرى الاستاذ مسعود عالم الندوى - أن تقضى على الخطر الذى يهدد الثقافة الإسلامية حول منهجين: أحدهما تقليدى و الآخر غربى ، و أن تدعو إلى منهج معتدل فى التعليم و الثقافة بنشأ الشبيبة المسلمة على الأخلاق و الآداب الإسلامية المرضية ، و أن تكون جيلا من الشباب متضلعا فى علوم الكتاب و السنة و أخذا بنصيب العلوم العصرية و اللغة الإنجليزية حتى يكون أهلا لتأدية الواجب الدينى و العلمى على أحسن ما يرجى من الشباب المسلم فى هذا العصر" (٩)*

كما أن العلامة شبلى النعمانى عنى فى عهد إشرافه بدراسة اللغة العربية الحديثة و دراسة علم الكلام و العلوم الجديدة مثل الفلسفة الحديثة و علم الطبيعة و الرياضيات و أدخل كتاب *"الدروس الأولية فى العلوم الطبيعية* طبع بيروت و رسالة فارسية فى الهئية الجديدة طبعت فى قسطنطنية أدخلهما فى المقررات الدراسية ، و استخدم لذلك بعض من كانوا يتقنون اللغة الإنجليزية أنذاك أمثال حميدالدين الفراهى و البروفيسور ميرزا هادى و غيرهم.

و اهتمت ندوة العلماء بتدريس النصوص القرانية بصورة خاصة و أعارت دراسة القرأن الكريم عنايتها متنا و تفسيرا و إجمالا و تفصيلا ، و الحديث خلقا تربية فقها و تزكية ، على العكس مما كان سائدا من الضغط و التركيز فى تدريس الحديث على المباحث الفقهية و الإسهاب فى بيان المذاهب الفقهية و المسائل الفروعية على حساب ما يتحلى به الحديث من فقه و تزكية و تربية و تهذيب ، كما أنها حذفت الفلسفة اليونانية التى طغت أخيرا على المناهج الدراسية فى الهند و إيران ، استنزفت قدرا كبيرا من الذكاء و القوة و العناية من غير جدوى و بدون حافز و باعث.

و ركزت ندوة العلماء عنايتها بتعليم اللغة العربية قبل تعليم أدابها و دراستها كلغة حية ثرية من أغنى لغات العالم و أكثرها حيوية يتكلم بها و يكتب فيها ، حتى فاقت فى ذلك معاهد الهند و مدارسها باقتدار أبنائها النبغاء على هذه اللغة كتابة و خطابة و تأليفا و تصنيفا حتى شهد لهم أدباء العرب بالإجادة و الإبداع و الابتكار.

الاكتفاء الذاتى فى المقرر الدراسى :

كانت نية ندوة العلماء تتجه إلى إعداد منهجها الخاص حسب الحاجات فى

البلاد و الظروف المتغيرة ، و تغيير المناهج الدراسية فى نظام التعليم الحديث فرسمت ـ نظرا للصعوبات فى استيراد الكتب المدرسية من الخارج ـ خطة للاكتفاء الذاتى فى الكتب المدرسية حسب مقتضيات المنهج الدراسى ، فأعد أبناء الندوة مواد دراسية تسد حاجة العصر ، و تلائم الذوق الأدبى المتطور من المرحلة البدائية إلى المرحلة العليا ، فقبلت الكتب الدراسية التى أعدها الندويون ، فى الجامعات و الكليات العصرية التى تشرف عليها الحكومة ، بجانب مئات من المدارس الدينية التى قبلت التطــور فى المنهج التعليمى ، و إن هذه الكتب الدراسية جامعة بين العقيدة و العلم و الأدب ، لأنها تضم مواد قراءة نزيهة تحدث فى الجيل الناشئ علو الهمة ، و سمو الفكر و المبادئ النبيلة، و الذوق الأدبى النزيه المتطور غير الراكد ، كما أن أبناء الندوة قد نقلوا الفنون العربية البدائية التى كانت تدرس حتى الآن باللغة الفارسية ، فأعدوا سلسلة من المؤلفات فى هذه الفنون ، يراعون فى ذلك الذهن المتطور للطالب فى الهند ، و قوة حفظه و وعيه ، و المسائل و القضايا التى تهم فى ضوء الحياة المتطورة المتغيرة ، فقد كانت كتب المتقدمين تكثف مسائل من نحو و صرف و قد تكون الحاجـــة إليها ضئيلـــة ، فجـاء منهج سديـــد يسد الحاجـــة و سيسير عملية الاستحضار و التمرين و الوعى للطلبة ، و من هنا فان أبناء ندوة العلماء وضعوا بأنفسهم فى الصرف و النحو و الأدب و الإنشاء و التاريخ و الجغرافية و السيرة و الكلام و الحديث و الفقه و غيرها تاليفات قيمة تزدان بمراعاة المتطلبات الجديدة بجانب ملاحظة أذواق الطلبة و مستوياتهم، و لايزال أغلبها داخلا فى المنهاج الدراسى الجارى فى دارالعلوم ندوة العلماء و غيرها من المدارس الإسلامية فى الهند و خارجها ، إما دراسة أو مطالعة.

تقلب الزمان :

ظلت ندوة العلماء مشمرة عن ساق جدها مستقطبة لجهودها و كفاءاتها و مواهبها على تحقيق هدفها المنشود ، و ظل الزمان يشهد جولات و قفزات واسعة و طفرات و تطورات هائلة إلى أن أصبح العلماء الذين عارضوا فى البداية دعوة ندوة العلماء إلى إصلاح المنهاج و إدخال التعديل فى المقرر الدراسى العربى و اعتبروا العدول عن القديم و نظم التعليم و الانحراف عنها قيد شعرة ضربا من التحريف و نوعا من البدع ، أصبحوا يخضعون لفكرة ندوة العلمـــاء و دعوتهـــا لإصلاح المنهـــاج و تطويـــره بل و يتجاوبـــون معهـــا و يتحمسون لها ، فإليكم ما تم عليه الاتفاق فى اجتماع "جمعية العلماء" المنعقد فى ٢-٣-٤/ربيع الثانى عام ١٣٦١هـ من القرار بتائيد عميد دارالعلوم ديوبند :

> *" يشعر هذا الاجتماع لجمعية العلماء بالحاجة الملحة إلى إدخال الإصلاح و التعديل فى المنهاج الدراسى السائد فى المدارس*

العربية الإسلامية وفق متطلبات العصر الراهن ، و يأمل من الهيئات التعليمية و القائمين على المدارس العربية أن يتبنوا ـ بالتشاور و التعاون و تأليف لجنة ما ـ وضع مقرر دراسـي فى العلوم كفيـلا بتنشئة النبـوغ و البراعة فى المتطلبات الراهنة مع الإجادة و الإتقان فى العلوم الدينية ، و على جمعية العلماء أن تتشاور فى ذلك أصحاب العلم و الفضل و تتخذ بأسرع وقت ممكن خطوة عملية مؤثرة." (١٠)

أنظروا ، إن الشيء الذى كان موضع النقد و الاعتراض و عرصة التنديد و الاستنكارفى حين من الأحيان إنما أمكن له أن يكون مثار الإعجاب و التقدير و مبعث الاستحسان و الترحيب بعد مرور هذه المدة الطويلة.

منهج دراسي متطور:

و حيث أن ندوة العلماء تضع نصب عينيها الأوضاع الحديثة و الظروف و الملابسات المتغيرة ، و تؤمن بالتطور فى العلم و الأدب و النمو فى القريحة و السليقة العلمية و تدين ـ بتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية ـ "لفكرة الجمـع بين القديم الصالح و الجديـد النافـع" و "بين التصلـب فـى الأصـول و الغايات، و التوسع و المرونة فى الفروع و الآلات" فانها لا تعتبر أى منهج دراسي منهجا دائما غير قابل للتغيـر، فيمـر نظام التعليم فيهـا بالتغيـر و التعديل حينا لآخر.

هذا ، و يحرص المعنيون بشئون التعليم على تفضيل الكتب العصرية الحديثة و يقومون بمتابعة نهضة التاليف و النشر فى العالم العربى الإسلامي لتوفير أحدث المطبوعات لدارالعلوم ، و تزويد الطلبة بأوسع المصادر العلمية و المآخذ القيمة لتوسيع آفاق فكرهم و تطوير مناحى عقليتهم و تنويع ميولهم العلمية و تنشئة ثقافتهم الخاصة و تيسير ركب العلم مع التشبث بعروة الدين، و إقبال كل منفذ لمركب النقص الذى يمنى به خريجو المدارس الدينية فى عامة الأحوال.

و من المشاهد أن أبناء ندوة العلماء لا يشعرون ـ بفضل الدراسة العميقة الواسعة و الثقافة الغالية و الخبرات الدقيقة ـ بالغربة و الاختناق فى أى مجتمع رغـم ما يتمسكـون بالتعاليـم الدينية و يعتـزون بثقافتهـم الخاصـة و هويتهم العلمية و الدينية.

على كل فان القدر الذى حققته ندوة العلماء فى مجال التعليم و الثقافـة و التوجيه الفكرى و تعديل المناهج الدراسية و تطويرها و تكييفها مع متطلبات العصـر الراهن و مقتضيات الحديثـة مع الاحتفاظ بطبيعـة الدين و روح الإسلام رغم قلة العناية و قصر التسهيلات و الإمكانات و كثرة الأشواك و الأحجار يكفى كدليل ساطع على بعد النظر و ثقوب الفكر اللذين كانا يتمتع

بهما مؤسسو ندوة العلماء و مبتكرو فكرتها ، و إن لم يتم الجمع بين القديم و الحديث ، و بين العقل و النقل و استغلالهما على المستوى العالى الذى نشدته ندوة العلماء و القائمون عليها ، فان الذى قد تم في هذا الإطار المحدود يبرهن على عمق الفكرة و ابتكارها و أصالتها و صدق الهدف و نبله و نزاهته ، و النموذج العملى الذى قدمه أبناء ندوة العلماء يشق الطريق الواضح و يمهد السبيل لمن يريد أن يخطو خطوهم و ينهج منهجهم و يسلك مسلكهم ، فأحسن به من منهج و أنعم.

الانتاج العلمى لأبناء ندوة العلماء:

شعر رواد حركة ندوة العلماء و تلامذتهم بأن إعداد منهج تعليمى مهما كان شاملا و سديدا لا يستطيع أن يساعد فى سائر مراحل الحياة فلابد من إعداد مواد للقراء تغطى جميع مراحل الحياة و طوائف الناس.

ثم إن حملة التشكيك التى نفذها الغربيون على التاريخ الإسلامى و إثارة شكوك فى سيرة السلف الصالح و معاملة ملوك المسلمين و قادتهم كانت تهدد الجيل الناشئ بالخطر المحدق ، كما شوهد أن المتعلمين فى الجامعات الذين يعتمدون على مؤلفات الكتاب الغربيين و تلامذتهم يقعون فريسة مثل هذه الشكوك الركيكة و عدم الثقة بتاريخهم و حياة سلفهم من رجال الفكر و الإصلاح و القيادة السياسية و الإدارية. و أكثر من يقع عرضة لهذه الحملة المغرضة المتعلمون و المثقفون ، فيصبح لهم ما يكتبه الكتاب و الباحثون الغربيون بمثابة مصادر و مآخذ علمية لا تقبل جدلا و لا نقاشا.

تفرس بناة الندوة و القائمون عليها لهذا الخطر المحدق و الشر المستطير، فوجهوا عنايتهم ، إلى هذا القطاع بدون صرف النظر عن حركة إصلاح المناهج الدراسية و النظام التعليمى ، و قادوا - بجانب حركة إصلاح المنهج التعليمى الذى رفعوا لواءه فى قوة و صرامة كما سبق بيانه - قادوا حركة إعداد مكتبة قيمة لتغذية الفكر الإسلامى و دعمه و للتصدى للغزو الفكرى و حملة المستشرقين و تضليلهم ، و دعم رأس المال العلمى للمثقفين و المتعلمين من المسلمين ، و نقل الثروة العلمية الفكرية إلى اللغات الهندية و لاسيما إلى اللغة الأردية.

و بذلك أسس علم الكلام الجديد الذى اشتدت إليه حاجة المجتمع الإسلامى المبهور بالعلم و المفتون بالغرب و المسحور ببريق الحضارة الصناعية الحيوانية ، و صدرت من أقلام بناة نهوة العلماء و أبنائها مؤلفات يندر نظيرها فى المكتبة الإسلامية العامرة المعاصرة ، فتكونت مكتبة حافلة مستقلة تمثل الفكر الإسلامى السليم ، و تجمع بين آثار السلف و روائع الخلف و تمثل المنهاج النبوى فى إصلاح المجتمع و تزكية النفوس و بعث الإيمان و إنارة الفكر و الشعور ، فجاءت هذه المكتبة خير زاد زود به النشء الجديد فى هذا الزمان ،

و من خيرها يوثق به و يعتمد عليه في فهم الكتاب و السنة ، و التذوق بهما ، و في البعد عن الانحراف و الزيغ و التأويل ، و فهم النظام الإسلامي و الاطلاع على مزاياه و خطوطه الفاصلة.

و أول بطل من صف الإسلام في هذه البلاد ـ كما قال العلامة السيد سليمان الندوى ـ كان العلامة شبلي النعماني الذي قام بدحض أباطيل المستشرقين المضللة على طريقتهم و في أسلوب أنفسهم. و إن الدور الطليعي الذي لعبته مؤلفات العلامة شبلي النعماني و مقالاته التي صدرت في ذلك الوقت و أصابت هدفها ، لم تكن لتقل ـ في إنجازاتها و مآثرها ـ عن الجيش الظافر المنصور ، إنها قضت على تلك السموم التي دأب الكتاب الغربيون على دسّها في الأذهان الفجة و التي أخذت تفعل فعلها في العقول الناقصة.

لما أصدر الأستاذ جرجي زيدان كتابه المشهور "*تاريخ التمدن الإسلامي*" من مصر في أوائل القرن العشرين كان له دوى في الأوساط العلمية ، و قد كان في الكتاب تجنٍّ على الخلفاء الأمويين و العباسيين و تحريف لبعض الحقائق التاريخية و إعاده لأسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية الخرافية ، ثارت في العلامة النعماني الحمية الإسلامية و تصدى لهذه الحملة الدقيقة بعيدة الأثر ، و ألف كتابه الشهير "*الانتقاد على التمدن الإسلامي*" في نقد الكتاب و الكشف عن دسائسه.

و كان لكتبه و مقالاته في "*الجزية في الإسلام*" و "*حقوق الذميين*" الذين يبحثان في حقيقة الجزية الإسلامية و حقوق الذميين و واجباتهم في الإسلام ، كتابيه القيمين "*مكتبة الإسكندرية*" و "*نظرة على أورنك زيب عالمكير*" الذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة و العامة ، و يكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة ، و دوى و صدى في الأوساط العلمية ، و في الطبقة المثقفة الجامعية ، و كان لها فضل كبير في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد و المقررات الدينية ، و بالحضارة و الثقافة الإسلامية ، و بتاريخهم الزاهر ، و بلغتهم و آدابهم ، و في إحياء الاعتداد بالنفس و الثقة بالذات ، و مكافحة "مركب النقص" الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في ١٨٥٧م ، و أصلته الثقافة الغربية و الغزو الفكري الأوربي.

و كان من فضل العلامة شبلي النعماني و مآثره الجليلة أنه عرض سير الصالحين بلون علمي جديد لم يكن مألوفا قبله ، فألف كتابا في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه باسم "*الفاروق*" يعد من أقوى ما كتب كتابا في هذا الموضوع ، و إنه غرس في قلوب كثير من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حب الإسلام و بذور الإيمان ، و أصبح حافزا لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية الفكرية و الحضارية ، و عرض نموذجا عصريا راقيا في تاليف سير الرجال و العظماء ، و قد يعتبر الكتاب من الآثار الأدبية

الخالدة و مثالا للإنشاء البليغ القوى ، كما ألف كتابا يعرّف بالإمام الغزالى و أعماله و فلسفته و دفاعه عن الإسلام و مكانته العلمية و العقلية ، و كتابا يعرّف بالشيخ جلال الدين الرومى و فلسفته و دوره الرائع الذى لعبه فى تاريخ الفكرى الإسلامى و الإصلاح الدينى.

و ردفه فى كفاحه العلمى و لم يكتف بمضاهاته بل خطى خطوات جديدة فى مجالات جديدة و اكتشف آفاقا حديثة و أبعاد طريفة لنشر العلوم الإسلامية و سدّ متطلبات العصر ، يقول فيه سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى :

> " *قد فاق العلامة السيد سليمان الندوى أستاذه أحيانا فى سعة الدراسة و الاطلاع على المصادر الحديثة الفقهية ، و التزام ما عليه الجمهور من أهل السنة من المسلك فى المسائل الخلافية و الكلامية ، و لكل درجات.*" (١١)

من مآثره العلمية الخالدة أنه أكمل السيرة النبوية الشريفة التى كان بدأ تاليفها أستاذه العلامة شبلى النعمانى على نمط الذى وضعه أستاذه ، فحقق حلمه ، و خلد مأثرة علمية كانت عصارة مئات الكتب على الموضوع ، عالج فيها مواضيع كانت مثار الشكوك لدى المستشرقين و منافذ تضليلهم ، و كتابه "*الرسالة المحمّدية*" من أقوى ما كتب فى السيرة النبوية و الرسالة المحمّدية ، و أكثره تركيزا فاغزره مادة ، و أشده تاثيرا ، و كذلك كتابه "*سيرة عائشة*" من أحسن ما كتب فى هذا الموضوع ، و فى سيرة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضى الله عنها

و قد وصفه الدكتور محمّد إقبال بأنه مفجر عيون العلوم الإسلامية و مجريها من جبال جرداء فى أرض صلبة فى عصره ، و الذى يستحق أن يلقب "بفرهاد" (١٢) بالنسبة إلى خدماته العلمية الأصيلة

و من أبناء الندوة النبلاء الذين مثلوا حركة ندوة العلماء و فكرتها لتأسيس علم الكلام الجديد الأستاذ عبدالبارى الندوى أستاذ الفلسفة الحديثة فى الجامعة العثمانية بحيدرآباد سابقا ، فقد درس الفلسفة القديمة و الحديثة دراسة عميقة ، و سخرها لإثبات العقيدة ، و إبطال الإلحاد الذى يعتبره معظم العلماء المنحرفين نتيجة حتمية للعلم و الفلسفة ، و أهم كتبه فى هذا الصدد "*الدين و العلوم العقلية*" و "*الدين و العلوم الطبيعية*" ، و هذان الكتابان عصارة دراسة طويلة عميقة ، لاسيما كتابه الفريد "*الدين و العلوم العقلية*" فانه يمتاز بإقناع الأذهان الجديدة ، و بعثها على الطمأنينة و الراحة و حتى يومنا هذا ـ و قد حلت العلوم الطبيعية محل الفلسفة ـ لاتزال له نضارة و طراوة و أهمية

و قد *التفتّ حول العلامة السيد سليمان الندوى ـ روح دارالمصنفين*

و قطبها ـ علاوة على الأساتذة عبدالبارى الندوى المذكور آنفا طائفة طيبة من الكتاب الإسلاميين و المؤرخين الباحثين من متخرجي دار العلوم ندوة العلماء ، نكتفى هنا فى هذه العجالة بذكر الكاتب القدير البحاثة الشيخ عبدالسلام الندوى (١٣) صاحب كتاب "*أسوة صحابة*" الذى تلقى بالقبول فى الأوساط الدينية العلمية ، و الأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوى ، و الكاتب الأديب الناقدو المؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوى و الأستاذ الباحث السيد رياست على الندوى ، و الأستاذ السيد نجيب أشرف الندوى و الشيخ عبدالسلام القدوائى الندوى ، و الأستاذ مجيب الله الندوى ، إن هذه الطائفة الندوية المختارة قد عملت فى مجال علم الكلام الجديد فى قليل أو كثير ، و قد ألقينا الضوء فى الفصول السالفة على بعض مؤلفاتهم القيمة التى تندرج فى علم الكلام الجديد.

و لا يخفى على متتبعى التاريخ أن أبناء الندوة العلماء لم يقاوموا فحسب كل تيار فكرى و اتجاه منحرف بل صمدوا كالجبال الراسيات فى وجه كل حركة هدامة تقضى على الفكر الإسلامى و حاربوها بما كانوا يمتلكونه من مواهب و كفاءات القلم و اللسان ، فخلدوا آثارا تبقى على مدى الزمان فى تاريخ الكفاح الإسلامى ، و زودوا المكتبة الإسلامية بثروة غنية ، و لعبت ندوة العلماء دورا بارزا فى مقاومة إجهاض التضامن الإسلامى إثر الحرب العالمية الأخيرة و فتنة القاديانية و المسيحية ، و إنكار الحديث ، و التنافر و التناحر بين رجال المذهب الفقهية و الكلامية ، و انتشار البدع و الأوهام ، و أخيرا قضية تعديل قانون الأحوال الشخصية الإسلامية و إحلال الأحوال الشخصية الموحدة محلها و فرص الحظر على نشر القرآن الكريم ، و غير ذلك من قضايا ذات الحيوية و الخطورة البالغة ، فكانت كل قضية من هذه القضايا تنال عنايتها الموفورة و اهتمامها البالغ من علماء ندوة العلماء و أبنائها و بناتها.

و أخيرا ـ لا آخرا ـ فان ندوة العلماء أدت دورها الرائع فى مكافحة القومية و الاشتراكية و الاستخفاف بالدين التى اكتسحت موجاتها العالم العربى ، و ذلك فى وقت احتبست فيه الأنفاس و انكسرت الأقلام و اختلط الحابل بالنابل و الحق بالباطل و شق على المؤمن الاحتفاظ بشعائر دينه و الاعتزاز بهويته ، و إنها ثبتت على الجادة حين زلت الأقدام ، حافظت على حرمة الحق و الضمير حين خذلها فراعنة مصر على قارعة الطريق ، و ظلت داعية لمبادئها و فكرتها و متحمسة لها حين كتفت الأيدى و خفتت الأصوات إثر حملات شنيعة موسعة للإعدام و النفى و العنف و الاضطهاد و الكبت و التعذيب ، لم يرد عنها عن تأدية واجبها بقوة و دقة و أمانة تهديد أو إغراء ، و وجدت حملة الندويين صدى فى الأوساط العلمية و الثقافية و نفوذا إليها رغم كل محاولة لاسكات صوتها بغرض الضغط السياسى و تضييق نطاق

المنشورات التى كانت تصدع بالحق و تتصدى لمكافحة التيارات و الاتجاهات المنحرفة.

و قد كانت منشورات ندوة العلماء و رسائلها فى ذلك الوقت بلسما للجروح ، و غذاء للروح و زادا للإيمان ، و كان من أقوى هذه الرسائل رسالة بعنوان *"فاستخف قومه فأطاعوه"* و *"اسمعوها منى صريحة أيها العرب"* لسماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، كما كان لكتبه *"إلى الإسلام من جديد"* و *"الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية"* و *"ردة و لا أبابكر لها"* فضل كبير فى إجلاء الحقيقة و فضح المؤامرة و الدسائس ، و أسهمت مجلة *"البعث الإسلامى"* و جريدة *"الرائد"* الصادرتان من ندوة العلماء إسهاما كبيرا في بث هذه الأفكار و إجهاض هذه الحركة المضللة المفرضة ، و دعم الحركات الإسلامية الملتزمة.

و إن ما قام به *"المجمع الإسلامى العلمى"* في ندوة العلماء بلكناؤ فى العصر الأخير من خدمات فكرية و انتاجات علمية و أدبية ، على النطاق الواسع الكبير ، فى شتى اللغات من العربية و الإنجليزية و الأردية و الهندية له فضل كبير فى تغذية الفكر الإسلامى ، و إعادة الثقة فى الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام لقيادة الركب البشـــرى ، و حـــل المعضلات العصريـــة و العقد النفسية ، و لاسيما كتاب سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى *"ماذا خسرالعالم بانحطاط المسلمين"* يأتى هذا الكتاب فى طليعة قائمة الآداب الإسلامية ، و يعالج الفكر الاسلامى الأصيل باستعراض التاريخ بوجهة نظرة جديدة مبتكرة و يحاول بنجاح استخدام طريقة العرض الجديد العادل مع مراعاة تغذية القلب و العاطفة ، و إشعال مجامـــر الإيمان ، الخصيصة التى تعتبر من مزايا علم الكلام - الذى حمل لواءه المؤلف الباحث - و الذى يمتاز به فكر ندوة العلماء و منهجه الجامع الشامل.

من هنا فقد أشاد الأعلام الكتاب و العلمـــاء الباحثـــون بقيمـــة الكتـــاب و مكانته و أهميته الخاصة ، و تكررت طبعاته من كل من القاهـــرة و بيروت و دمشق و الكويت ، و صدرت له عدة طبعات غير رسمية كذلك ، و تم نقله إلى اللغات العالمية ، و أدرجته أوساط "الإخوان المسلمون" فى برامجها التربوية.

و من بين الكتب الهامة الأخرى التى نشرها هذا المجمع العلمـــى العظيـــم و نشرت كذلك في كل من بيروت و دمشق و القاهرة و استانبـــول و الكويـــت *"القاديانى و القاديانية"* فقد أحدث هذا الكتاب اضطرابا و قلقا شديدا فى أوساط القاديانية و القاديانيين، فان الكتاب يعالج قضية القاديانية و فتنتها العارمة التى شغلت الأوساط الإسلامية و الباحثين الإسلاميين كثيرا ، يعالجها بدراسة علمية رزينة و بحث أمين نزيه تجرد فيـــه من التطرف و الانحيـــاز ، و اجتنب عن طريقة المناظرة و الوعظ ، أشادت الجريدة القاديانية الشهيرة *"الفضل"* الصادرة من لاهور بأهميته و قيمته ، و اعترفت بأنه لم يصدر أى

بحث في رد القاديانية مثل هذا البحث الذي يقام له الوزن الكبير (١٤) و قد لعبت طبعات هـذا الكتاب الإنجليزيـة في باكستـان نفسهـا و في إفريقيـا و أوربا دورا طليعا بارزا.

و من الكتب الهامة التي تدخل في نطاق علم الكلام الإسلامي الجديد من تاليفات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتاب *"النبي الخاتم"* تم تأليفه بعد أن صدر الحكم الحاسم بكون القاديانية أقلية غير مسلمة ، و هو دراسة علمية عميقة حاول فيها المؤلف القضاء على هذه القضية الحساسة فكريا و عقليا كما قضى عليها إلى الأبد بما أصدرت الدولة الباكستانية حكمها سياسيا و رسميا ، و من مزايا الكتاب ـ و هي كثيرة ـ أن كل قارئ محايد يتفاعل مع الكتاب في فكرته و مفاهيمه ، فان الكتاب يعالج عقيدة ختم النبوة مؤثقة بحجج و براهين عقلية و منطقية و كحاجة إنسانية ملحة ، مما زاد القضية بلورة و وضوحا هو مقارنتها مع الأديان الأخرى و الدراسة الأمينة النزيهة.

و لابد من ذكر كتب الأستاذ شهاب الدين الندوي الذي أنشأ مجمعا إسلاميا علميا باسم *"أكادمية فرقانية"* إن جميع ما دبجه قلم المؤلف يضفي النضرة و الطراوة على دوحة علم الكلام الخضراء التي سقاها العلامة الكبير شبلي النعماني و تلميذه النجيب العلامة السيد سليمان الندوي بدمائهما ، فمثلا كتابه *"تسخير القمر كما يراه القرآن"* أثبت فيه بدلائل قوية أن تسخيـر القمر بل الكـون كله ليس بمستحيـل و لا بشيء يثيـر الدهشـة و الاستغراب ، و للأستاذ كتب أخرى في أمثال هذه المباحث الحديثـة مثـل *"الإسلام و العلم الحديث"* و *"أسرار النبوة"* و *"القرآن و العلـوم النباتيـة"* و *"القمـر و القيامة"* و *"تخليق آدم"* و كلهـا تبرهـن علـى أن الإسـلام يشجـع العلـم و التكنالوجيا و تحث على الانتفاع مما يقدمه لنا العلم من اكتشافـات حديثـة و مخترعات جديدة و استخدامه فيما هو أصلح و أنفع ، و تؤكد بأن محاولة التوفيق بين الدين و العلوم العقلية شيء لا حاجة إليه ، فان التوفيق بين الشيئين يحتاج إلى سابق اصطدام و تعارض بينهما ، و ليس شيء من ذلك ههنا ، فان أحدهما يسير في طريق لا عهد به للآخر ، فأني الاصطدام ؟ و من أين التعارض ؟ و ما معنى التناقض يا ترى ؟ و بذلك تندفع كثير مـن التهم و الشبهات التي تثار حول جدارة الإسلام و صالحيته لقيادة الركب البشري في العصـر الراهـن عصـر العلـم و التقنيـة و ينكشـف زيـف النظريـات و الاتجاهات التي ترمي الإسلام بتهمة "الأصولية" و التزمّت و الرجعية.

و من الجدير بالذكر أن الانتاج العلمي القيم الذي حققته ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد ، قد تم نقله إلى لغات أخرى ، فزاد تأثيره و اتسع نطاقه و مجاله ، و سد فراغا كبيرا في المجتمع الإسلامي ، و أنجز ـ إلى حد كبير ـ

حاجة الجاليات الإسلامية فى الغرب.

هذا استعراض خاطف لعلم الكلام الجديد ، الذى وضعت ندوة العلماء نواتها الأولى ، و خدمت عن طريقة الإسلام و المسلمين ، و مثلت دورها الرائع فى مجالات الثقافة و التوجيه الفكرى و الدور الطليعى فى مكافحة حملات التضليل الفكرى الموسعة ، و التيارات الضالة التى اكتسحت موجاتها العارمة العالم الإسلامى و العالم العربى حينا بعد حين ، و الكشف عن زيف الاتجاهات المنحرفة ، و المؤامرات المناوئة و الدسائس الخطيرة التى تمثلت فى الحركات الهدامة و المنظمات المتطرفة ، و فى ضوء هذه الانتصارات الباهرة و الروائع المدهشة التى حققتها ندوة العلماء فى مجال علم الكلام الجديد فحسب ، يستطيع المتتبع للأحداث أن يتحقق فراسة شاعر الإسلام الدكتور محمّد إقبال و ثقوب نظره و عبقريته و عصاميته ، حيث إنه قال قبل أكثر من خمسين سنة

إنى لا أزال أعتقد منذ مــدة أن المسلمين فــى الهنــد الذيــن لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة إلى الدول الإسلامية الأخرى من الناحية السياسية ، يستطيعون أن يقدموا مساعدة كبيرة من الناحية العقلية و الفكريــة و ليس مــن الغريب أن تكــون ندوة العلماء أنفع و أجدى من جامعة "عليجره" الإسلامية فى عيون الأجيال القادمة للهند الإسلامية فى هذه الناحية." (١٥)

أبناء ندوة العلماء فى مختلف مجالات الحياة :

إن دارالعلوم ندوة العلماء مدرسة فكرية تربوية نموذجية امتازت عن غيرها من المدارس العلمية و الإسلامية فى هذه البلاد علــى اختلاف أحجامهــا و أعمارها ، و خدماتها و إنجازاتها بالحكمة و التسامح ، و التوسط و الاقتصاد ، و الشمول و الجامعية فقد جمعت فى مجال التفكير و العمل بين القديم الصالح و الجديــد النافع ، و بين المحافظــة على الأسس و المبــادئ و المثل و القيـــم و التجاوب مع المتطلبات الإنسانية الواقعية المعاصرة و تلبية نداء المقتضيات الراهنة ، فكأنها قامت فى تعبير أوجز و أفصح بين الجامعة المصرية و الأزهر الشريف ، أو بين معهد ديوبند الإسلامى الكبير و جامعة عليجره الإسلامية الراقية.

و انطلاقا من هذه الفكرة المتزنة الجامعة دأبت ندوة العلماء على أن تنظر إلى الأوضاع و الظروف بنظر حكمة و تدقيق ، و حرصت على أمانة الوصل بين جيل و جيل ، أمانة نقل التـــراث من السلف إلـــى الخلــف بزيــادة و غربلـــة و تهذيب و حاولت أن تعمل بسياسة التسامح و التضامن فى الخلافات الفقهية و المذهبية ، و الاختلافات الهامشية الفروعية و أن تكون همزة وصل بين طبقتين متنافرتين متناحرتين ، طبقة العلماء و الشيــوخ ، و طبقة المثقفين

العصريين ، و استقطبت جهودها على تأدية أمانة الوفاء بالدين الكامل الشامل و المسايرة للحياة ، أمانة القيادة الفكرية لمواجهة تحدى الغرب بدلا من الفرار منه و الإنزواء عنه ، أو الانحراف معه و الذوبان فيه

و حقا فقد تكللت مساعيها بالظفر و النجاح ، حيث أنجبت عددا كبيرا من العلماء الراسخين الواعين الذين أدركوا خطورة الفلسفات الهدامة الوافدة من الغرب و تصدوا لدحضها و الرد عليها ردا علميا جادا ، و أنجبت نخبة من نوابغ التاريخ الإسلامى المعاصر عنوا بعرض التاريخ الصحيح ، و دحض الشبهات ، و نفى الافتراءات و سد منافذ الشبهات و الاعتراضات ، و اعتزت بهم هذه البلاد ، و شهد بامامتهم الفكرية و رصيدهم العلمى و الأدبى علماء الشرق و الغرب و العرب و العجم

و قد اعترف بذلك فضيلة الشيخ الإمام الأكبر عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا ، فى مستهـــل كلمتـــه الضافيـــة التى تقدم بها إلـى ندوة العلماء ، بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين

> " *و لقد وفق الله الندوة ، منذ أن قامت فى منهجها ، و وفقها فى جهادها و وفقها إلى النتـائج التى وصلت إليها*
>
> *لقد كان من ثمار الندوة كثير من الأفذاذ فى كل مجال لقد أثمرت كبار المحدثين و كبار الفقهاء و كبار المفسرين ، و أثمرت فى جميع مجالات العلوم الإسلامية ، و كان من ثمارها ، الكثير من المدارس التى تربّى أجيالاً على شهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمّداً رسول اللّه* " (١٦)

و يقول فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمّد الحسنى - رحمه اللّه - و هو يلقى الضوء على رسالة المهرجان التعليمى الذى عقدته ندوة العلماء بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين عام ١٣٩٥هـ

> " *إن ندوة العلماء دخلت بهذا المهرجـان العظيم التاريخ العلمـى و الفكرى من أوسع أبوابه ، فالذين لم يكونوا يعرفونها صاروا يفهمونها حق الفهم ، و يعجبون بانتاجها الغنى الخصب فى مجالات التربية و الدعوة و الفكر غاية الإعجاب*
>
> *و الذين كانوا يظنون أن الهند بلاد الغابات أو الأفيال ، أو بلاد الشعوذة و السحر ، أو بلاد التصوف العقيم ، أو شرذمة قليلة من علماء الدين لا يعرفون الدنيا و لا يعرفون الدين ، رجعوا مأخوذين بعبقريتهم فى سائر المجالات من العلوم الدينيـة المتداولـة إلى مختلف الآداب و اللغات — ذلك فى القديم — أما فى الحديث فقـد رأوا صـورة حيـة مشرقة نابضـة بالحيـاة*

و الازدهار و صورة ناضجة زاهية من منهج الفكر الإسلامي السليم الذي سارت عليه ندوة العلماء ، و اطلعوا على نظرتها إلى سائر العلوم و النواحي الاجتماعية مشروحة في معارضها و لوحاتها و في كتابات أوليائها و أبنائها ، متجلية إلى حد كبير في طراز حياتهم و سلوكهم و أذواقهم." (١٧)

و يشهد التاريخ أن الندويين قد خاضوا أنواع الميادين و الكتابة و التصنيف و التاليف ، إلى منصة التعليم و التدريس ، إلى حلقة التزكية و التربية إلى ميادين الصحافة و الإدارة إلى زوايا الذكر و الرياضة ، إلى ساحة السياسة المحرجة الشائكة إلى طرق الاقتصاد الوعرة ، إلى معترك المقاومة الفكرية للغزو الحضاري الغربي ، إلى جبهة مكافحة حملات التشكيك و التضليل و التشويه ، إلى حقول الأدب و التاريخ و العلم و الدين ، لم يتركوا أي مجال من هذه المجالات إلاّ و عملوا فيه و مثلوا أدوارهم الرائعة ، و لم يتركوا أي واد من هذه الأودية إلا و وطأوها و ذللوا صعابها و مهدوا هضابها و شعابها.

كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر و في أوائل القرن العشرين بعد الاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية ، منفذا كبيرا و مدخلا واسعا للشبهات حول الإسلام و حضارته و نظام حكمه و معاملته لمن كان تحت حكمهم ، و كانت الحاجة تشتد إلى العناية بعرض التاريخ الصحيح و تنفيد الأباطيل و نفي الافتراءات ، فهنا أبرزت ندوة العلماء رجالاتها البارعين و نوابغ التاريخ الإسلامي الذين شهد بامامتهم الفكرية و رصيدهم العلمي علماء الشرق و الغرب ، فعنوا بدحض الشبهات و نفي الافتراءات و إماطة اللثام عن وجوه الحقائق و المقررات و عرض التاريخ الصحيح عرضا مؤسسا على الوثائق و الدلائل ، مدعما بالتحقيق و الدراسة المضنية و الاتزان الفكري و سداد الرأي و متسما بالأصالة (Originality) و النزاهة و التجرد من "التطرف" و سوء الفهم ، أمثال البحاثة الكبير السيد سليمان الندوي ، و الأستاذ الشاه معين الدين أحمد الندوي ، و الأستاذ عبدالسلام الندوي ، و الأستاذ مسعود عالم الندوي ، و الأستاذ عبدالسلام القدوائي الندوي ، و الأستاذ رياست على الندوي ، و الأستاذ عبدالقيوم الندوي ، و سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي و الأستاذ رئيس أحمد جعفري الندوي و غيرهم.

لقد كانت الهند ـ بحكم عوامل و أسباب تاريخية لا يعلمها إلا الله ـ أكبر مسروح للصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية الملحدة ، و تليها بعض أقطار شمال إفريقيا و تركيا و مصر ، بلاد الشام حيث مني شعوبها باخطر التحديات ، و قد لقيت منهم أقسى الرد و أشد المقاومة ، فقام في الندوة من يحسن القيام بهذه المسئولية المباركة و يمثل دوره في هذا الصراع الفكري

و الأدبى و الإجتماعى و يجيد اختيار السلاح و يتقن طريقة استخدامه ، كما أن دار العلوم ندوة العلماء كرست جهودها على إصلاح البين و جمع شمل المسلمين على اختلاف وجهاتهم و مذاهبهم و فئاتهم و هيئاتهم ، فاذا الشباب المثقف الذى كان يشمئز من علماء الدين و يسخر منهم صار رهن إشارتهم و سهم كنائنهم، و إذا العلماء الذين تنافروا هؤلاء و انزووا عنهم يقبلون إليهم ، و يحدبون عليهم كالأم الحنون و يتعاونون معهم إلى نهاية المطاف

" و رأى الناس أمة مبعثرة تتجمع و حواجز سميكة تتلاشى و جروحا غائرة تندمل ، و فجوات واسعة تمتلئ ، و مواهب ضائعة و قوى متصارعة تجد طريقها و منفذها و مسيرتها فتنسى خلافاتها و همومها ، و تنسى حقوقها و حظوظها فى سبيل الواجب الدينى المقدس ، واجب الحفاظ على الأمانة ، و إنقاذ الأبناء من جاهلية غربية جاءت بخيلها و رجلها ، و خرجت بزينتها و سحرها و حبثها و مكرها.

و لما اكتسحت العالم العربى القومية و الاشتراكية و موجات الحضارة الغربية الفاتنة ، و نهض الطغاة المعاندون للإسلام و المسلمين ، و صمتت أصوات العلماء المكافحين فى أرض المعركة الفكرية إثر حملات النفى و الإعدام و الكبت و الاضطهاد ، و اكتظت الأسواق بالمواد السامة المضللة باقلام المرتزقين و أذناب الغربيين ، و احتاج العالم العربى ـ فى مثل هذه الأوضاع العصيبة ـ إلى سد أكبر من سد "أسوان" العالى ، يقف فى وجه السيول الجارفة و الموجات الطاغية و الفيضانات ألمدمرة من التيارات الجاهلية و الموجات الفكرية و النزعات المادية و الحضارة الحيوانية ، فكانت هى ندوة العلماء التى أنشأت هذا السد العالى المنشود ، يقول فى ذلك فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمّد الحسنى رحمه اللّه

" إن ندوة العلماء أنشأت هذا "السد العالى" لتقف كالحارس الأمين على أبواب الحضارة الغربية الساحرة الخلابة ، فلا تسمح للجيل الجديد إلا بهذه العلوم البريئة و الوسائل البريئة التى لا تمس جوهر الدين، و لا تواجهه فى أى مرحلة من مراحل الحياة ، بل تسانده و تقويه ، و تقف إلى جانبه فى حمل الدعوة و أداء الرسالة . و إقامة الحجة ، و إثارة الوجدان ، و إقناع الفكر ، أضافت إليها العاطفة و الإيمان ، و الاعتماد عليه ، و قدمت من بين أبنائها طائفة تمثل هذا الطراز و هذا التفكير، و هذا المنهج خير تمثيل، و تحمل هذه الرسالة باخلاص و أمانة ، و صدق و نزاهة . و جراءة و شهامة ، و حكمة و براعة." (١٨)

على كل فان أبناء ندوة العلماء رابطوا على أنواع الجبهات و حافظوا على أصناف الثغور و الحدود ، و ضخم انتاجهم و بهر انتصارهـم و ظهـر فضلهم و نبوغهم فى مختلف الحقول ، و لايزالـون يثابـرون على مختلف الثغـور و الجبهات و يعملون فى مختلف الحقول و المجالات و يشغلون وظائف كبيرة فى ساحات التدريس و الصحافة و السياسة و الاجتماع ، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، يقول سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى:

و كفى متخرجى الندوة فضلا أنهم أثبتوا أنهم لا يعيشون فى عزلة عن العالم و فى جزيرة منقطعة فى بحر الحياة، فكان منهم أدباء، و باحثون ، و مؤلفون فى لغـة البـلاد ، و اجتماعيون يشاركون فى الحياة ، و كان منهم من كوّن للنشء الإسلامى الجديد المثقف مكتبة كاملة." (١٩)

إرتسامات زيارة

و إليكم الآن بعض كلمات الانطباع لزوار ندوة العلماء عن ندوة العلماء ، سجلها بعض كبار رجال العلم و الأدب و السياسة فى العالم الإسلامى على إثر زيارتهم لدار العلوم ندوة العلماء (٢٠)

كلمة وفد الأزهر الشريف :

زرنا مدرسة دارالعلوم ندوة العلماء بلكناؤ واجتمعنا بأساتذتها ، طلبتها و تحادثنا معهم ، و احتفلوا بنا و سررنا بلقائهم و اطلعنا على نصاب تعليمهم و منهاج تدريسهم فرأينا منهجا محكم الوضع متقن الصنع، جمع بين علوم الدين و علوم اللغة العربية ، التى هى مفتاح الكتاب العزيز و السنة النبويـة ، و بين علوم الثقافة العصريـة التى تنيـر الطالب فى حياتـه ، و تعينه على أداء مهمته ، و تجمع بينه و بين طبقات الأمة و عوامهم و مثقفيهم ، و لقد أكبرنا هذه الدقة فى اختبار أمثل الطرق فى التربية و التعليم ، و تساءلنـا (هـذا شأن النصـاب و المنهاج فيا هل ترى ما شأن النتائج و الثمار ؟) حتى برز أمامنا الطلاب يتكلمون و يخطبون ، و إذا بنا نشهد مظهـرا حافلا بالفصاحـة و طلابا يجيدون البيان ، و لقد كان الطلاب الذين رأيناهم من مختلفى الطبقات معا بين كبار و صغار

ابراهيم الجبالى ، محمّد صلاح الدين النجار ، عبدالوهاب النجار
محمّد أحمد العدوى ، حبيب أحمد (سكريتر البعثة)

٨ ذوالحجة ١٣٥٥هـ

كلمة الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم تونس :

زرت نادى اتحاد الطلبة لمدرسة ندوة العلماء ، و رأيت الطلبة مصطفين في القاعة ، و هم على مقاعدهم كأنما على رؤوسهم الطير ، يمثلون الكمال و الوقار ، و هذا مظهر من مظاهر الكمال في النفس الذى استفادوه في هذه المدرسة القيمة من الآداب و التعاليم ، و الطلبة المختلفى الأسنان و التحصيل الذين تمثلت في نفوسهم هذه الثقافة الممهدة لأول دليل على وجود النضج و الرشد في هذه المدرسة الخالدة ، و أنا من شراشر قلبي أدعو لها و أحييها إدارة و أساتذة و طلبة

عبدالعزيز الثعالبي
يوم السبت غرة ذى الحجة سنة ١٣٥٤هـ

كلمة كبير علماء العراق الشيخ أمجد الزهاوى :

لقد رأينا دارالعلوم ندوة العلماء فوجدناها وفية و الحمدلله بالغرض السامى الذى أسست من أجله ، و ذلك تخريج علماء يرفعون راية الإسلام ، و يبثون تعاليمه و أحكامه في أقطار الأرض ، و يظهرون أمام الأمم الأخرى بالمنظر اللائق به ، فهنيئا لمن يتخرج منها فيفوز بخلافة النبوة بنشر تعاليمه و إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وفقنا الله و إياهم لخدمة الإسلام

كتبه أمجد الزهاوى
١٦ ذوالقعدة ١٣٧٣هـ

كلمة سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود المعظم

لقد سرني أن أتيحت لي هذه الفرصة لزيارة مقر ندوة العلماء لكناؤ ، و كنت أسمع عن هذا المعهد الشيء الكثير من مجهوداته الطيبة في نشر العلم الديني و التثقيف الصالح ، كما لمست أثر ذلك أيضا في كثير من الشخصيات العلمية التى أتيح لي التعرف عليها بالحجاز ، و إنى لأرجو لرجال هذه الندوة كل التوفيق و السداد

مساعدبن عبدالرحمن آل سعود
١٧-٤-١٣٧٥هـ

من كلمة طويلة للأستاذ الفاضل الشيخ علي الطنطاوى :

كنت أشتهي على الله أن يريني قبل أن أموت معهدا لا يجمد جمود الأزهر القديم و ما على إثره من المعاهد و لا (يسيل) سيلان المعاهد الجديدة معهدا فيه العلم و التقى ، و فيـه القديم و الجديـد ، فيـه الدنيـا و الآخرة و أنا أحمدالله أن كافأني على رحلتي هذه فأرانيه هنا في قلب الهند

و أما أن أقول إن هذا معهد خير و إنه خير معهد ، فهذا من تحصيل الحاصل، و لكني أقول كلمة عن نفسي ، و الأدباء (مع الأسف) ما تكلموا عن شيء إلا جعلوا الكلام عن أنفسهم.

و لقد عشت حتى قاربت الخمسين ، و رأيت دنيا الإسـلام قاصيهـا و دانيها ، و جربت الحياة حلوها و مرها ، و أوتيت بحمـدلله مالا و ذكـرا و منصبا ، و نلت ما يتمنى أكثر الناس أن ينالوه ، و مع هذا فاني أحلف أني ما زرت هذا المعهد حتى اختصرت أماني نفسي كلها في أمنية واحدة هي أن أعود طفلا (لو كان إلى العود سبيل) حتى أنشأ في هذا المعهد فأجمع بين الدين و الدنيا ، و امتع النفس بجمال الكون فيـه ، و القلب بتوجيه مدرسيه ، و العقل بما فيه من علـم و ما في مكتبته من الكتب.

و قد قطعت الأرض من دمشق إلى أقصى جاوا فما دخلت مكانا ، تمنيت أن أقيم فيه إلا هذا المكان.

فأرجو أن يفهموا التلاميذ ما قلت ليدركوا قيمة النعمة التي أنعم الله عليهم بها

علي الطنطاوى
ذوالقعدة ١٣٧٣هـ

من كلمة سماحة المفتى أمين الحسينى :

دهشنا حين زرنا مدرسة "ندوة العلماء" الشهيرة التي تخرج منها ألوف من كبار العلماء و الكتاب و الأدباء ، و التي تضم ألوف الطلاب ، فشهدنا فيها جميع الأساتذه و الطلاب في أقسام العالمية و الثانوية حتى الإبتدائية يتكلّمون اللغة العربية ، و علمنا أن الكلام بغير اللغة العربية في جميع أقسام المدرسة محظور.

كلمة الشيخ عبدالمنعم النمر والشيخ عبدالعال العقباوى :

كنا نسمع عن دارالعلوم ندوة العلماء ، و نعرف عنها معلومات حببتها إلينا ، و شوقتنا إليها ، حتى أتاح الله لنا أن نأتي إلى الهند ، و أن نزور هذه الدار التى أحببناها من قبل ، و نتلاقى مع الأصدقاء و الإخوان الذين عرفناهم شخصيا أو بالمراسلة ، و لقد سرنا و شرح صدورنا أن وجدنا حقيقتها تفوق كثير ما سمعنا عنها ، و أن نجد طلابها على قسط كبير من معرفة اللغة العربية حتى لتعد دارالعلوم ندوة العلماء في لكناؤ واحة العربية في البلاد الهندية

عبدالمنعم النمر ، عبدالعال العقباوى
١٢/ محرم ١٣٧٩هـ

كلمة المفتى ضياء الدين بابا خانوف
رئيس المعهد الدينى الإسلامى السوفيتى (تركستان)
و الحاج أحمد جان مصطفى إمام و خطيب :

نحن الوفد الذى يؤلفه مواطنو مدن سوفيتية مختلفة ، قد تمتعنا بزيارة ندوة العلماء لكناؤ ، و لمسنا الطابع الإسلامى هو الغالب على القائمين عليها ، و شعرنا بأن طلاب علوم الدين مخلصون فى نواياهم و مكتملون فى الخلق الإسلامى ، و شهدنا فى أساتذتها النبوغ العلمى و الفكرى ، و قد وجه سماحة الشيخ السيد أبى الحسن علي الندوى إلينا الدعوة للقدوم إلى هذه الدار ، إنه ألقى كلمة تعريف بالعلماء الذين ظهروا على أرض ماوراء النهر ، و خص بالذكر منهم إمام المؤمنين فى العلم و الحديث الإمام أبو عبدالله البخارى ، و الإمام مرغينانى صاحب الهداية . نحن جميع أعضاء الوفد نشكر القائمين على هذه الدار العظيمة و المشرفين على إدارة شئونها ، كما نوجه شكرنا و تقديرنا إلى الذين يؤيدون الحق ـ و الحق أحق بالاتباع ـ و يتحمسون له ، و نحن مسروررون جدا بزيارة ندوة العلماء

ضياء الدين ، أحمد جان مصطفى

كلمة شيخ الإسلام مولانا السيد حسين أحمد المدنى.

تشرفت اليوم فى ١٤/محرالحرام" عام ١٣٦١هـ بالحضور فى دارالعلوم ندوة العلماء ، و اتفق لى كذلك إلقاء كلمة فى اتحاد الطلبة "الإصلاح" ، و الحمدلله على أن نظام الاتحاد المذكور محكم مشجع ، يرجى منه و لاسيما من أعضائه الأذكياء المجتهدين أنهم سيطلعون فى آفاق الأمة الإسلامية كنجوم زاهرة ، أدعو الله أن يصلح هذه الجمعية بأوسع معناه ، و أن يحتل هؤلاء الشباب مكانة بارزة فى قيادة الشعب و الأمة و البلاد

(مترجمة)

حسين أحمد

١٤/محرم الحرام ١٣٦١هـ

كلمة سماحة مولانا حبيب الرحمن خان الشروانى وزير الأمور الدينية فى دولة حيدر آباد سابقا:

اهتبل هذا العاجز الذى صلته قديمة و متينة بدارالعلوم هذه الفرصة لزيارتها ، فشاهدت مختلف الصفوف الدراسية و استمعت إلى دروس كل من الحديث الشريف و الفقه و الأدب العربى ، فتاثرت بحسن الإلقاء ، و الذى شاهدته و استمعت إليه أثلج فؤادى و قرت بــه عينـاى ، و ملأنى فرحا و سرورا

و إنى لأشكرالله كثيرا على أن دارالعلوم لاتزال مستمرة على مزاياها و تؤدى واجباتها متمسكة بأساليبها النافعة فى الدرس و البحث ، و رأيت أن الرحمة الإلهية لا تزال تغشاها و تحيط بهـا ، بارك الله فيهـا و فى أبنائها و خدمها (مترجمة)

حبيب الرحمن

١٧/فبرائر ١٩٢٨م

الهوامش.

١ - حياة شبلي ص ٣١٠.
٢ - تقرير الاجتماع الأول ص ١
٣ - تقرير الاجتماع الثاني ص ٦
٤ - مشروع المقرر الدراسي ص ٧
٥ - سيرة العلامة محمّد علي المونكيري لمؤلفه محمّد الحسني ص ١٥٩
٦ - حياة شبلي ص ٢٠.
٧- نفس المصدر ص ١٩
٨ - حياة شبلي ص ٤٢٩
٩- مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز ج/٢٠ عدد ٢ -٣ - ٤ سنة ١٣٩٥هـ ص ٧٦
١٠- حياة شبلي ص ٤٢٤
١١ - الإسلاميات بين كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص ٥٣
١٢ هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي، و يضرب به المثل في الوفاء و التفاني و القيام بمهمته في منتهى العسر و شبه مستحيل، فإن ملك عصره خسرو كلفه أن يفجر عينا عبر الجبل، فاشتغل بذلك و مات في سبيله
١٣ - يعتبره كثير من النقاد أشبه تلاميذ العلامة شبلي بأستاذه في الأسلوب و البيان و اللغة
١٤- بيام ندوة العلماء (رسالتها) ص ١١٠.
١٥- إقبال نامه ج/١ ص ١٦٨
١٦- مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز عن المهرجان التعليمي لأعداد محرم صفر و ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ ص ٥٥
١٧ - المصدر السابق ص ٢٩١-٢٩٢
١٨ - و هي كلها موجودة في الملف التذكاري لصحيفة الرائد و مجلة البعث الإسلامي
١٩- مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز لأعداد شعبان، رمضان و شوال ١٣٩٥هـ ص ١٠٤

دور تكنولوجيا المواصلات
فى دمقرطة التعليم فى الهند

بقلم : الدكتور دلنواز أحمد الصديقى
أستاذ قسم المواصلات
جامعة كلاريون بنسلڤانيا

التعريف :

هذه الورقة تهدف إلى تحديد العوامل الرئيسية المؤثرة فى استخدام تكنولوجيا المواصلات فى دمقرطة التعليم فى الهند أولا انها تقوم بتعريف الأهداف العامة، و تحدد ملوحات دمقرطة التعليم من منظورات متعددة و ثانيا تتوجه الورقة إلى القوى الرئيسية التى اعترصت - و لاتزال - فى سبيل عمل الدمقرطة هذا، و ثالثا و أخيرا فانها تتعرض لتوصيات من شأنها المساعدة فى تجاور تلك العقبات

إن تكنولوجيا المواصلات - فى تعرفة عامة - موجهة إلى الاستخدام كأداة، أو هى عبارة عن عمل يضيف إلى الكفاءات الانسانيسة الفعلية و الفزيائية. و يسعها بذلك الطريق أن تمكن أبناء البشرية من التغلب على القيود المكانية و الزمنية أثناء التفاعل مع البيئات الطبيعية و الانسانية. الأدوات كلها من قطعة خشب أو حجر، إلى العقول الالكترونية المتطورة و الأقمار الصناعية ، و أشكال متنوعة لتكنولوجيا المواصلات.

الهند - فى زحفها المتواصل على طريق التنمية الوطنية - نجحت فى تنمية التكنولوجيا المتطورة للأقمار الصناعية و ربطها من الفضاء مع محطات التلفزيون، و تستخدمها منذ اكثر من عشر سنوات لبث البرامج التعليمية إلى قرى نائية . و لقد عززت الأقمار الصناعية (انسات ١ ايه ، و انسات ٢ بى) المساعى التى تبذل لتعليم الملايين من المواطنين الهنود

الاقتصاد و السياسة و الثقافة بأنماطها المتعددة. بالاضافة إلى ذلك فان الإذاعة و الصحافة باتت تستخدم لنفس الأغراض منذ عدة عقود، و خاصة فى العقود التى تعاقبت استقلال الهند.

لا داعى للتركيز على أهمية العلاقة بين وضعية نمو الموارد البشرية لشعب ما، و تقدمه الاجتماعى ـ الاقتصادى و الهند لم تكن تفتقر منذ أول وهلة إلى مساعدة خبير أو اخصائى أجنبى ليكشف لها الستار عن هذا السرّ. و من بداية انطلاقة حركة التحرير من بريطانيا ظل القادة من أمثال البروفيسور جوكليه و المهاتما غاندى يركزون على ضرورة تثقيف الجماهير الهندية، و تمكينها بذلك الطريق أولا من تاكيد حقها فى الحرية و الاستقلال، و ثانيا من المساهمة فى عمل التنمية و اقتسام ثمارها فى المراحل اللاحقة. تلبية لنداء غاندى لاتخاذ التعليم وسيلة لنهضة الريف قام السيد محمود (من بيهار) و راجاجى (من مدراس) و أمراء اقليم أودهـ بجولات بين القرى لمئات الكيلومترات يوميا، ينظمون برامج تعليمية لذلك الغرض (بهولا ١٩٨٧م)

اذا اعتبرنا نوعا من التعليم و تعميمه بين الجماهير بمثابة محرك للتنمية الوطنية، فعندئذ ينبغى أن تستغل تلك التنمية خدمة لجميع أفراد الأمة بغض النظر عن العرق و القومية و الثراء و العقيدة و الجنس و العمر. و دستور جمهورية الهند العلمانية الديمقراطية الشعبية هو الآخر يدعو لإنشاء و دعم نظام حكم من ذلك النوع و اذا أريد للهند أن تحيا كدولة، و تواصل مسيرتها على درب التقدم و الازدهار، فيتوجب على قادتها العمل على تأمين ربط الديمقراطية و التعليم برباط التكافل و التكنولوجيا الحديثة للمواصلات يمكن أن تكون عونا كبيرا على تحقيق ذلك الهدف المنشود.

قبل تناول الدور الذى لعبته تكنولوجيا المواصلات لغاية الآن، أو الدور الذى ستستمر فى اضطلاعه مستقبلا لدمقرطة التعليم فى الهند، من الضرورى أن نقوم بتحديد معنى دمقرطة التعليم، و نعرف أهدافها و منهاجها. بل الحقيقة ان الديمقراطية نفسها تتطلب شرحا و ايضاحا قبل الدمقرطة. ذلك لأن الديمقراطية تفسر أحيانا ـ عن طريق الخطأ ـ بكونها هدفا وطنيا أو نظرية محضة، و فى زحمة هذه التفسيرات يتناسى المرء أنها عمل و منهاج لصنع القرارات، و لاغير.

و لو قدر للديمقراطية ـ فى دولة من الدول ـ أن تجد هذا التطبيق، و تنعكس فى صنع القرارات، فعندئذ أيضا لا تتعين قيمتها الاجتماعية بين مختلف الطبقات. و إيجاد حل لهذه المشكلة يكون ذا أهمية حرجة، و بدون حل مقنع لها، يمكن أن تلتبس على الأمة حتى معالم الجهة العامة فضلا عن مخصصات أهداف التنمية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية.

و اذا كانت الأوضاع بهذه الدرجة من الغموض، فاستخدام تكنولوجيا المواصلات سوف لايثمر سوى عن المزيد من الانحطاط و الانهيار. و الولايات

المتحدة الأمريكية هي خير و أبرز مثال لذلك - يقول فريدريك وليمس (FREDERICK WILLIAMS) (١٩٨٢) . " الخير في المواصـلات ، ما هو خيـر لنا، و عن مسائل قيمية أعمق و متصلة بالتكنولوجيات الخاصة بالمواصلات، فانها تقع في اطار السلوك الانساني - أي الأهم من الناحية القيمية نهائيا ، هو كيف ندبر المواصلات و نديرها، و لا ماتصنعه المواصلات علينا.

حسبنا أن نركز هنا على أهمية الناحية القيمية للمواصلات بهذا القدر، و قبل أن نعود إليها بشيء من التفصيل يبدو من الضروري أن نناقش دمقرطـــة التعليم بمعانيها المختلفة. هاتان الكلمتـــان تقبلان عـدة تفسيـــرات و شروح ، و أبرزها أن يكون التعليم في متناول سائر أفراد الشعب. لكن نفس التركيب اللفظي يمكن أن يدل على ضرورة تكييف محتوى التعليم مع حاجات الديمقراطية - أي التعليم لأجل الديمقراطية . و يمكن أيضا أن يراد بدمقرطة التعليم اتاحة مختلف طبقات الأمة قدرا من الحرية في اختيار المواد الدراسية. و هناك معنى آخر لها، يتلخص في أن يكون اجراء صنع القرار مفتوحا لمساهمة جميع من هم على صلة بالأنشطة التعليمية مـــن الطلاب و الأساتـــذة و الادارات و الموظفين و الآباء. و هكذا يجوز أن تفسر دمقرطة التعليم بكونها عملا موجها إلى تسهيل التعلم للجميع عن طريق ازاحة العقبات المتمثلة في المال و العمر و الوقت و الجنس و الدبلومات ، و أي نوع آخر من المشاكل التي تعترض طريق التعلم . و كثيرا ما يراد بدمقرطة التعليم التعامل الذي يلقاه الطالب في الغرفـــة الدراسيـــة ، أو نوعيـــة العلاقات القائمـــة بين الأساتـــذة و الادارة ، بين الطلاب و الادارة ، بين الاساتذة و الآباء ، أو بين الطلاب أنفسهم.

و لقد عرّف إم . أدلير (M. ADLER) (١٩٨٢م) العمل الديمقراطي هذا بأنه الانفتاح المشترك على (أ) المساهمة السياسية للجميع و (ب) تعميم التعليم من مستوى مماثل ، و بدونه تتحول الديمقراطية إلى الفوضوية. و يقول ادلير " الفشل في تنفيذ الواجب الديمقراطي ، فشل في تنفيذ الوعـــد الديمقراطـــي . و التوصل إلى هدف مجتمع غير طبقي بمعناه الحقيقي ، يكون مرهونا بتحقيق مجتمع غير طبقي تعليميا. التعليم بوابة للعدالة الاجتماعية. و المساواة الاجتماعية بمعناها الأعمق هي : أن يتهيأ لجموع السكان نفس مستوى الحياة الذي يتطلب أن يتمتع الجميع بتسهيلات تعليمية من نوعية نفسها. على هذا - كما يقول ادلير - فانه بالسرعة التي يتحرك المجتمع الديمقراطي لمعالجة ظاهرة عدم المساواة على مستوى البيوت و البيئة العامة، بنفس الدرجة من السرعة يتمكن من انجاز تفويضه . توفير فرص تعليم متكافئة للجميع.

هنا أود أن أتقدم خطوة ، و اميز بين فرصة تعتبر متكافئة بمعنى أنها مفتوحة للجميع و بين انها متكافئة لأن الجميع يقدرون على الاستفادة منها. يتولد الأطفال جميعهم مؤهلين للتثقف بشرط عدم اصابتهم بعاهة و توافر الظروف للبدء في حينه. و جملة ما في الأمر أن توفر تقنية مناسبة و ملائمة

لنزعات الدارس و كوائفه. و هنا يسع لوسائل المواصلات أن تلعب دورا فى أهمية قصوى

دمقرطة التعليم و مجموعة منتخبة من ملوحاتها:

في الفقــرات السابقــة تصدينا لمجموعــة من تعاريف ممكنــة لمصطلح " دمقرطة التعليم" . و مجموعة التعاريف هده تتضمن عددا من الملوحات الوصفية لذلك العمل ، و هى تأتى ملخصة فى النقاط آتية الذكر : -

أ) تعليم الكبار مائة بالمائة و بحسب المعايير العملية الدارجة

ب) التحاق المائة بالمائة من المواطنين من مختلف مجموعات سنية إلى برامج تربوية رسمبة و غير رسمية، أو الاستفادة من برامج تعليمية أخرى مفتوحة.

ج) كون مراكز التعليم - المدارس / الكليات - سهلة المنال بالنسبة للجميع و بغض النظر عن العمــر و عــن اعتبارات أخــرى دينيــة و عرقيــة و اجتماعية و اقتصادية

د) انخفاض نسب التهرب لدرجة لا يعبأ بها

ه) مساهمة الجميع فى صنع القرارات حيال شئون متصلة - مثلا - بحاجات المركز و تقديرها، و بالمواد الدراسية و المنهاج التعليمى و التعويم.

و) استبدال المسئولية و السلطة بادوار نموذجية مناسبة يتم انتقاءها برعاية الاعتبارات المصلحية المعددة.

ز) ربط كيه اس ايه (KSA) مع الحاجات التنموية و مع المساعى الموجهة إلى التغلب على الطائفيــة و العرقيــة و الأوهام وغيرهــا مــن العلل و الاجتماعية

انجازات الهند فى حقل التعليم :

لم تكن النسبة المئوية لتعليم الكبار تتعدى ١٤/ لدى الاستقلال من الحكم البريطانى عام ١٩٤٧م و منذئذ فقد قطعت الهند أشواطا كبيرة ، و أصبحت أكبر دولة ثالثة في العالم من ناحية توافر المهرة و الفنيين، و مكانتها بين شعوب العالم الثالث - بدون شك - مكانة دولة قائدة فى جميع الميادين، مع أن الانفجار السكانى يعد عقبة رئيسية فى طريق التقدم فى الهند، إلاَ أن نفس الطاقات البشرية الهائلة تشكل أهم و اعظم مورد ، لأن الكمية - فى التحليل النهائى - وحدها تصنع النوعية و القوة - و يبدو أن التنافسية الشديدة فى مختلف مجالات الحياة الهندية ، جعلت وجود الكفاءات العالية فى شتى الحقول أمرا مضمونا رغم شيوع الفساد ومحاباة الأقرباء على جميع المستويات، و رغم كون هذه الظواهر تسببت فى خلق شعور باليأس فى أكثر من حالة.

و لو نظرنا إلى الوضعية فى اطار الأرقام المجردة ، لوجدنا أن نسبة التعلم بين الكبار (و هى ٤٠٪) ليست متدنية . منذ عام ١٩٤٧م ارتفع عدد الطلاب ثلاثة أضعاف ، و فى الأهمية بمكان أن عدد الفنيين فى الهند قد وصل الآن ٢.٢ مليون، فيما لم يكن يتعدى عدد الطلاب الملتحقين بالمعاهد الفنية عام ١٩٤٧م، سبعة الاف . و عن عدد الكليات الهندسية و الصناعية ، فانه أيضا بلغ ٦٠٠ بالمقارنة مع ٩٢ قبل أربعين سنة من الآن . الخلاصة أن التعليم فى الهند أصبح - بمرور السنين - أكبر صناعة ترشد الطريق إلى ثورة فنية فى المعلومات.

المشاكل الدائبة :

بيد أن هذا الاتساع الهائل فى الأنشطة التعليمية لم يأت مقرونا بتغييرات اجتماعية ايجابية ، و فى الوقت نفسه تسبب تباطؤ عجلة النمو الاقتصادى فى بقاء ظاهرة عدم المساواة مستفحلة لغاية الآن ، كما استمرت الفجوات المزمنة بين انتاج نظام التعليم العالي و حاجات السوق شاسعة كحالها فى الماضى.

لقد لفت جيه . دى سيتى (١٩٨٥) الانتباه إلى تعاظم نسب التهرب فى المراحل الابتدائية (٦٠٪) ، و إلى أن هذه الظاهرة قد تسفر عن تضخم عدد الأميين بين الكبار لدرجة قد يستحيل استيعابه فى الأنظمة المتوافرة لتعليم الكبار. ذلك اضافة إلى نسبة التهرب فى المراحل الابتدائية بين الأطفال من القوميات المدرجة فى قائمة القوميات المتخلفة، تصل ٨٠٪ و ان ٤٠٪ من المدارس ليست لها أية مبانىء ، و اكثر بكثير منها لا تتمتع حتى بتسهيلات السبورة و الماء و المراحيض. و أن فى ٣٠٪ من هذه المدارس يوجد معلم لتدريس أربعة صفوف دراسية ، و ٥٠٪ من مجموع سكان الهند، حتى ألان يعيشون حياة يسودها الفقر و الأمية و البؤس.

و على أساس ما ذكره سيتى (Sethi) فى عرضه العام تم افراز ستة مواضيع تتصل بالهيكل النظامى ، و هى : ـ

أ) نوعية النظام التعليمي : نظام للغنى و أخر للفقير.

ب) اجبار الفقير على دعم الغنى فى تعليمه.

ج) ثمة أربعة أنظمة تعليمية فرعية تشمل فى طيها على ما يعرف بمتاجر تعليمية خاصة و رسومية.

د) الطبقة المتوسطة المؤلفة من الموظفين، اسوأ ضحية لذلك النظام.

ه) المجموعة المستفيدة من البرامج التعليمية المهنية ـ كالطب ـ لا يميل لخدمة الريف .

و) يوجد ثمة ١٥ مليون مثقفا عاطلين .

الملاحظات آنفة الذكر تدل على ان الخطة التعليمية الجديدة لاتتجه إلى المشاكل الحقيقية المتمثلة فى الفقر و الميول النخبية ، و إلى مواطن النقص فى المنهاج التطبيقى شاملة محاباة الأقارب و الفساد السائد فى اجراءات القبول فى معاهـــد التعليم العالـــي. و المطلـــوب أن نعـي أن المشاكل في التعقيـــد و الضخامة بدرجة انه لا يمكن للحكومة أن تتغلب عليها بالاعتماد على أنظمتها المرنة.

الاستعمالات المعاصرة لوسائل المواصلات :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الهند استخدمت وسائـــل المواصـــلات حتـــى و قبل استقلالها من الحكم البريطانى و هذا التقليد مازال مـ ـثلا - بصفة جزئية - فى البرامج الزراعية و ما تطلبته من أعمال ميدانية مكثفة مدعومة ببرامج اذاعية إلاّ أن اتخاذ النموذج الغربى - منذ الوهلة الأولى - للتنمية الصناعية و للزراعة العلمية المزعومة ، أسفر عن استمرار معاناة المواطن الفقير في المدينة و القرية و بنفس القدر فى مجال التعليم. هذا ما ينطبق على تعليم الكبار أكثر من أى شيء آخر، فان أمره بات منسيا لغاية عام ١٩٧٧م.

و بالرغم من هذا و داك، ما انعكت وسائل المواصلات فى أشكال المسرحية الشعبية و الاذاعة الارشادية و البرامج التلفزيونية تستخدم فى الأنشطة التعليمية المرتبطة بالجانب العملى منذ بزوغ فجر الاستقلال و أكثر هذه البرامج أهمية و منفعة كان تجربة سايت (SITE) ـ تجربة الارشاد من خلال التلفزيون SATELLITE INSTRUCTION TELEVISION EXPERIMENT ـ الأولى من طرازها، و التى أجريت فى أوائل و منتصف السبعينات. و يمكن أن تلخص النتائج التى وصل إليها التقرير (من اعداد يونيسكو ١٩٨٢م) عن هذه التجربة، فى النقاط آتية الذكر -

أ) وصل هذا البرامج إلى ٢.٥ مليون نسمة من مواطنى ست مناطق التجمع البشرى ، و اقتسم جهاز تلفريون حوالى مائة مواطن

ب) المشاهدون طالبوا ببث المزيد من برامج ارشادية.

ج) بعد مشاهدة البرامج اجتمع القرويون فى كثير من الأحيان لمناقشتها فيما بينهم

د) غالبية المشاهدين كانت مـــن الذكور ، و تألفـــت عامة مـــن الفلاحيـــن و العمال الزراعيين ، فيما شكل الأناث اقلية من جمهور المشاهدين

ه) أكثر القرويين استفادة من هذه البرامج خاصـــة فـــي مجالي الصحـــة و الزراعة ، كان أشدهم ميلا للتجربة

و) الاقبال على مشاهدة هذه البرامج ، كان مقصورا على مدى المام المشاهد بمضمون المادة المرسلة

ز) خلقت هذه البرامج لدى الأطفال اهتماما بمحتويات البرامج المنشورة .
ح) هذه التجربة ساعدت أيضا فى اختلاط المشاهدين من قوميات مختلفة.
ط) نتيجة لتجربة "سايت" تقللت الهوات بين المتخلفين و المتقدمين من سكان القرى .
ي) و هذه التجربة أتاحت فرصا جديدة للمزيد من الابحاث فى مجالى العلوم الاجتماعية و وسائل المواصلات العامة.

لقد أثار المقومون و الباحثون سؤالين رئيسيين بهذا الصدد، أولهما كان على صلة بأداء المهندسين و علماء الاجتماع و خبراء الاعلام الهنود ، و ثانيهما عن مدى نجاح تجربة "سايت" فى انجاز الأهداف ، و الإجابة عليهما أتت على النحو التالى -

أ) العلماء و الفنيون الهنود أثبتوا كفاءتهم فى جميع مراحل التخطيط و التجميع و التشغيل لكافة الأنواع من الأنظمة الثقيلة و رغم بعض المشاكل و العقبات فان الاتقان كان ٩٨/
ب) وسائل الإعلام لعبت دورا متواضعا فى ايقاظ الوعى العام ، و مساهمتها فى احداث تغيير فى الاتجاهات السائدة منذ أزمنة طويلة كانت تدريجية فقط

و على هذا يعتقد بأن تجربة " سايت " فشلت فى تحقيق هدفها الاجتماعى، و فى مرده يعاد ذلك الفشل إلى تدنى مستوى المادة المنشورة من ناحيتى التصميم و المضمون ، و إلى اساءة الادارة و إلى عدم وجود تنسيق مطلوب بين الوكالات المتعددة.

بعد انطلاقة قمرين صناعيين - انسات أى ايه و انسات أى بى - فى عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٣م ، أصبحت الآمال كبيرة فى اشراك المناطق النائية فى الاستفادة من البرامج الموجهة إلى التضامن الوطنى و خلق الوعى العام حول التنمية الاجتماعية - الاقتصادية و السياسية ، مع التركيز على أن المساهمة العامة فى العمل التنموى ضرورة لا مناص منها

بيد أنه بالرغم من التوسع و من التزامات الحكومة ازاء برامج انسات ، فانه لم يتيسر بعد البت فى قيمة الاحتكارات التى فرضتها الصفوة المدنية على تلك التسهيلات، و ضد محتوياتها العادية و المسلية كالأفلام السينمائية. و هكذا فانه لا توجد ثمة سياسة اعلامية واضحة تساعد فى حل الصراعات التى تكون سمة لأدوار و أهداف و وسائل الإعلام العامة و استعمالاتها فى الوقت الحاضر و أثيرت أيضا تساؤلات عن مخصصات الميزانيات العامة لمختلف مقومات القطاع الإعلامى . فى الخطة الوطنية السابعة تم ترصيد ١٥٧٠٠ مليون

روبية هندية للانفاق على المواصلات ، إلاّ أن مجموع ما خصص (من المبالغ مؤخرة الذكر) للانفاق على أنشطة موجهة إلى ايقاظ الوعي العام على مستوى عموم البلاد، لم يتجاوز ما يعادل ١٦٩٠. مليون روبيه

و اذا أراد المرء أن يسلط الأضواء على المشكلة الكبرى التى يواجهها خبراء المواصلات فى الهند، فله أن يبينها بهده الكلمات تم احراز تقدم هائل فى تقنيات المعدات الثقيلة ، إلاّ أن هناك نقصا خطيرا فى المهرة القادرين على تصميم ارسال مؤثر و ذى صلة بعمل الدمقرطة و التنمية (أى المعد الخفيف) بعبارة أخرى، وجود الوسيط فى مكانه لا يأتى مقترنا بوجود الرسالة

الدمقرطة من خلال الحملات لتعليم الكبار :

لقد ذكرنا فى مكان أن الهند تسبق على غيرها من شعوب العالم النامي فيما يتعلق الأمر بالبدء فى المساعي لاعداد عامة الجماهير للديمقراطية و بالرغم منه فان تعليم الكبار تلقى اهتماما قليلا لغاية عام ١٩٧٧م و لأول مرة حظى هذا القطاع بالأولوية فى الخطط التنموية و التعليمية التى رسمت أثناء فترة حكم حزب جنتا بقيادة مورارجي ديساى فى أواخر العقد السابع فى هده الفترة شنت الحكومة برنامجا لتعليم الكبار استنادا إلى (كما ذكر بهولا ـ ١٩٨٧) الافتراضات الآتية

أ) الأمية تشكل عقبة خطرة على طريق التنمية على مستوى الفرد و الشعب بوجه سواء

ب) التعليم عمل متواصل من المهد إلى اللحد

ج) التعلم و العمل و الحياة مرتبط بعضها مع البعض

د) وسائل التنمية لا تقل أهمية عن أهداف التنمية

ه) يمكن رفع مكافحة الأمي و الفقر من خلال التثقيف و الحوار و العمل

بعد عودة حزب الكونجرس إلى الحكم اسقط بعض المخططين البرنامج الوطنى لتعليم الكبار عن الاعتبار على قناعة بان ذلك البرنامج لم يكن سوى حدث طارىء و قصير الأمد، أريد من خلاله تحقيق مكاسب سياسية عاجلة و بعيدة عن معنى الأمانة ، و لم يقترنه أي التزامات على مستوى الأمد البعيد

كان البرنامج الوطني لتعليم الكبار موجها إلى تغطية مائة مليون رجلا و إمرأة فى ٢٢ ولاية و تسع مناطق اتحادية (Union Territory) من عام ١٩٧٨م إلى ١٩٨٤م، و الثلث من هذا العدد كان من المتهربين لقد وضع هذا البرنامج ليكون فيما بعد برنامجا تعليميا متنوعا و شاملا سنى الحياة كلها، و ليحول المجتمع كله إلى مجتمع متعلم فى نهاية المطاف و الأهداف المنهجية تضمنت معرفة القرأة و الكتابة و الوظيفة و الالمام بالتنمية، و رسمت المناهج بطريق

مفيد، و كانت مرنة و متنوعة ، و منتظمة بدقة . لقد أصبح البرنامج الوطنى لتعليم الكبار، برنامجا للجماهير، و من ناحية التخطيط و التنفيذ اتصف بخصائص أى برنامج منتخب، و القراءة و الكتابة الموفرتين ضمنه، ارتبطتا ـ على وجه مؤثر ـ مع التنمية الريفية المدمجة، و مع التنمية العشائرية المؤسسة على التخطيط الموجه إلى خلق فرص العمل داخل المنطقة.

إلاّ أن هذا البرنامج أيضا أصيب بمواطن ضعف، تمثل أكبرها فى عدم وضوح أهداف الحملة. و بما أن المخططين أنفسهم لم يعرفوا الأهداف معرفة جلية، فان عدم الوضوح ذاته انعكس فى المناهج المرسومة أيضا. و الأمر كان أسوأ منه بالنسبة لمن تولوا العمل فى الميدان ، فانهم كانوا أقل عدة و اعدادا و غير مؤهلين لزرع تلك الأفكار فى صورة " عمــل المكالمــة " (Dialogic Action) و الجوانب الأخرى من المشكلة تمثلت فى المكافآت القليلة (٥٠ روبية شهريا) المدفوعة للمتطوعين و فى كونهم غير مدربين تدريبا وافيا و لائقا.

و بالرغم من مواطن النقص آنفة الذكر فان وسائل الارشاد كانت متنوعة ، و تضمنت الالكترونيات و المواد المطبوعة وغيرها من الوسائل الشعبية الدارجة، بجانب المواد التعليمية التى تلائمت مع حاجات الحياة الحقيقية. و هكذا فان نظام التقويم كان مثاليا و لو أن تطبيقه لم يكن كذلك بأى وجه من الوجوه .

وسائل الاعلام العامة الأخرى المستعملة فى التنمية الوطنية :

تستعمل الأفلام و المسرح و الاذاعة و الڤيديو و الكمبيوترات استعمالا واسعا فى الزمن الحاضر. لقد تسبب تفشى الأمية فى شيوع استعمال الراديو و الأفلام كوسائل رئيسية للاستعلام و التسلية . و المتوقع أن تستمر الكمبيوترات و الڤيديو لفترة زمنية من امتيازات الأغنياء ، و تكون بالتالى عقبة فى طريق دمقرطة التعليم. و بغرض خلق الوعي ازاء حاجات المجتمع أيضا تستخدم المسرحيات التى تقيمها الفرق على الشوارع فى مختلف انحاء البلاد استخداما بليغا و مؤثرا.

تحليل المشكلة :

يمكن أن تصنف المشاكل التى نواجهها فى استخدام وسائل المواصلات لأغراض دمقرطة التعليم فى فئتين . ـ

أ) البديهية من تلك المشاكل التى تتصل بالتكنولوجيا.

ب) و الدقيقة منها و التى هى فى طبيعتها غير تقنية.

المشاكل المتصلة بالتكنولوجيا تتضمن المشاكل القابلة للانقسام إلى البسيطة و المتشابكة، و هى :

– عدم توافر الوسائل التكنولوجية بمقادير مناسبة.

- عدم التطابق مع الحاجات.
- اعواز المهارات لتخطيط و تصميم الرسالة
-انتقاص الأموال المخصصة للانفاق على الخطط على وجه العموم
- تدنى مستوى التدريب على التنظيم و تمديد الشبكات و العمل الجماعي
- اعواز المهارات المطلوبة للإدارة المتوسطة.
- المشاكل النقلية المتمثلة فى المسافات و قلة الأموال الموفرة للرحلات و كون البنية الاساسية غير موافية.

و عن المشاكل غير التقنية التى تعترض الطريق المؤدى إلى هدف دمقرطة التعليم بالمعنى الحقيقى ، فهى -

أ) المشاكل الايدولوجية و الروحية

- الحياة سائرة فى اتجاهات غير موضحة المعالم.
- التباس القيم
- نظرة أحادية البعد تجاه الحياة (المادية)
- الايمان بالقدر و القضاء
- كون المحسوبية عند الخالق غير واردة فى الحسابات
- فصل العقيدة و الاتجاه و السلوك بعضها عن الآخر

ب) المشاكل الاجتماعية

- العلاقات بين الأشخاص يمعين فى ظل الاتجاهات الاستعمارية
- النظام القائم على الطوائف القومية
- التعصبات اللغوية و الاقليمية
- الفساد و محاباة الأقارب
- وقوع القيم الفاضلة موقع رفض أعمى لا لسبب سوى كونها غير منسجمة مع تقاليدنا
- التنكر للاستماع للغير و اعواز التدريب فى العمل الجماعى و الديناميكيات الجماعية.
- شيوع الأمراض و الظروف الغير صحية
- سرية المواد الاحصائية على المستوى الحكومى ، و من دون مبرر

ج) المشاكل السياسية

- الطقوس السياسية الوصول إلى الحكم مهما تكن قيمته .
- عدم اتخاذ المبدأ / المؤهلية اساسا لتوجيه القضايا.
- استرداد الأموال التى تنفق على المعركة الانتخابية.
- الاقبال على الكلمة المنمقة اكثر منه على الخدمة الحقيقة لأفراد المجتمع.

د) المشاكل الاقتصادية :

- انخفاض انتاجية الشغيلة (بسبب النزعات و الفقر و الظروف الصحية)
- التوفير تحت المستوى المطلوب.
- اساءة ادارة الأعمال صغيرها و متوسطها بوجه خاص.
- الأفات السماوية.
- استخدام المناهج المهجورة في الخدمات و في انتاج القطاع المصغر للأعمال .
- الاعتماد المتزايد على الآلية خاصة فى قطاع الصناعة الثقيلة.

ه) الغزو الثقافي . خطة وكالات الاعلانات الدولية لنشر اعلانات مماثلة من دون رعاية الحدود الثقافية، و استخدامها لتنمية الاستهلاك المادى .

- القوى العظمى و زبائنها المحليين (الجهتان الرئيسيتان المستفيدتان من عدم استقرار الظروف السياسية و الاقتصادية و من التباس القيم الثقافية فى العالم الثالث).

الاستنتاجات و الحلول المقترحة :

بالنظر فى التقارير التى تتناول موضوع استخدام وسائل المواصلات لأغراض التنمية متعددة الجوانب فى العالم الثالث على وجه العموم ، و فى الهند على وجه الخصوص، يتبين أن هناك مبررا للافتراض بأن الأخطاء فى الحسابـات فى مـردها تعـود لأسباب غير تقنية اكثر منها لأسبـاب تقنيـة . و بعبارة أخرى فان المشاكل التى تواجه الهند فى هذا المجال ، ناجمة عن اسباب ايدولوجية اكثر من اسباب فنية

فى وقت توجد ثمة مشاكل تقنية ، و لها حلول تقنية ، لاتوجد ثمة مشاكل غير تقنية محضة و بحلول غير تقنية محضة. ففى مصر زمن حكم جمال عبد الناصر أزدوجت الرسالة الاشتراكية الالحادية و الثقافية السائـدة، و اذاعة القاهرة تولت نشر تلك الرسالة مع الأغاني الشعبية في صوت أم كلثوم، إلاّ أن المستمع المصرى الذى استمع إلى الأغانى بنشوة ، لم يكن يتردد فى اغلاق الجهاز بمجرد أن بدأ فى بث رسالة الحكومة. و بعكس الناصر فان غاندى و نيريرى و أوكو و الخمينى استخدموا - بنجاح - القنوات التقليدية مثل الاجتماعات العامة و الأسواق و المساجد لتوصيل رسالتهم الثقافية الشعبية إلى عامة الجمهور. و الخمينى دمج تكنولوجيا المواصلات مع المسجد فى ايران لأغراض التعليم و نشر رسالته الثقافية و الاجتماعية و التعبئة السياسية معا. (مولانا ١٩٨٦م).

العالم كله يشهد ثورة فى مجالى الثقافة و وسائل المواصلات، مما يؤدى بكل من الرأسمالية و الشيوعية تستنفدان طاقتهما و القضايا الرئيسية التى تواجهها الشعوب، ليست فقط سياسية أو اقتصادية أو تقنية ، و انما هى جميعها مختلطة بطريق لا يمكن فصل بعضها عن الآخر يعلق كونار ميردال على هذا الوضع و يقول يودى أن تكون لديهم (أى لدى الرأسماليين و الشيوعيين فى العالم الثالث) جرأة لنفض العقائد و النظريات عديمة الصلات، و الغير منسجمة - كليا - مع الموضوعات المطروحة فى بعض الأحيان، و للانطلاق من جديد من واقع الضرورات و المشكلات و دراستها الموضوعية هذه التوجهات ستساعد فى الابتعاد عن كل من الماركسية و النماذج المهجورة للاقتصادات الحرة الغربية

و يقول ساتهيه (١٩٨٤م) انه ينبغى العمل على البحث عن هواء طلق و منعش فى افاق الاشتراكية المؤسسة على حرية الفرد و على النماذج الجديدة للتعايش الاجتماعى كما يتوجب أن يكون هذا النظام الجديد قائما على مبدأ المسئولية التى تجعل من الديمقراطية نبراسا لاستعمال الفائض خدمة للمجتمع لكى يتسنى بذلك الطريق تكديس ثمرات التقدم الفنى و توزيعها بين الأفراد توزيعا عادلا

من هذا المنطلق الثقافى نطرح بعض الاقتراحات أن تكون عونا على حل بعض المشاكل التقنية و غير التقنية و هى .

١ - تدريب المعلمين و القائمين بتنمية عمل الإرشاد و علماء الاجتماع و الخبراء فى المواصلات و فى المواد المطروحة ، على العمل جماعيا
٢ - المام هؤلاء الخبراء و العلماء و توريطهم فى المناقشات التى تتناول المواضيع الاقتصادية
٣ - توعية مخططى الاقتصاد و المستثمرين و اشراكهم فى الشئون و القضايا المرتبطة بخدمة المجتمع
٤ - تدريب واضعى البرامج وغيرهم من العاملين (فى المواصلات) على التفكير الابداعى و على خلق تصاميم للارسال الابداعى و اعطاء الانتاج صورة و هيئة و تعميم البيئات التعليمية المفتوحة
٥ - تقدير الصلة بين العقيدة الصادقة (دون المعترفة باللسان) و النزعة و السلوك ، و المجسدة فى الكلمات و الأعمال و المؤسسات و المنظمات.
٦ - رؤية واضحة للهدف الوطنى و لهدف حياة الانسان، و رؤية للكون.
٧ - إقامة أنظمة للكوابح و الموازين ، و تطبيقها على القائمين بالعمل السياسى جميعهم . (ليس هناك أحد فوق القانون و المبادىء الخلقية).
٨ - احترام عقائد الجميع.
٩ - استغلال الموارد العامة خدمة للفقراء و المحتاجين، و ليس للأغنياء على حساب الفقراء

تعريب : راشدعلي

التنعّم فى الشقاوة و الانحلال

بقلم : البروفيسور نثارأحمد الفاروقي
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة دهلى

قبل أن نستعرض أوضاع مجتمع يجب علينا أن نعلم أن تقدم الشعوب و انحطاطها شئ طبيعي ، و أن الانحطاط يعقب التقدم كما أن الانحطاط يتمخض عن التقدم و الازدهار ، و أن أي شعب من الشعوب لا يأخذ طريقه إلى الانحطاط و الزوال دون عوامل و أسباب. و من أكبر عوامل الانحطاط هو التعامى عن محاسبة الذات و نقدها. إن شخصا أو مجتمعا يعمى عن سيئاته يتعذر إصلاحه، لأنه إذا لم توجد فيه محاسبة الذات فلاتوجد فيها العقلانية أيضا. إن كل قضية تحمل عدة جوانب ، و كل من يريد أن يتبنى وجهة نظر عادلة فعليه أن يقلب الأمر على جوانبها و الإنسان يفكر أولا و يثنيّه بعمله ، فمن اللازم أن يقوم بإصلاح فكره قبل إصلاح أعماله. و الإنسان حينما يطرح العقل جانبا فتتحكم عليه العواطف، و المُخّ مصدر العواطف، فيترك المخ التفكير على خطوط سليمة صحيحة. و من الجهالة الجهلاء أن نأمل أن الدنيا تسير كما نريدها أن تسير. و العقل يحدث الاتزان فى حياة الإنسان ، أما العواطف المفرطة فتخل بميزان الحياة.

و العواطف تلد عصبيات عرقية و دينية و لغوية و إقليمية، و العصبية تعمى قلوبنا، و تحملنا على الظلم و الإجحاف و الخيانة، و الخيانة تحرم الناس من حقوقهم ، و بالتالى يحدث القلق و التذمر فى أفراد المجتمع ، و التذمر يحثهم على مواجهة التحديات . إن الإنسان حيوان اجتماعي ، يتعذب بالعزلة و الوحدة، و يحب أن يعيش بين أبناء جنسه. و قد خلق اللّه سبحانه و تعالىٰ المجتمع البشرى بحيث أنه جعل الإنسان دواء لأخيه الإنسان، و جعل أمور الناس متشابكة و مرتبطة إحداها بالأخرىٰ. فاذا أخذ طبقة من المجتمع يشعر أنه حرم من حقوق يتمتع بها الآخرون فتنمو فيها قوة مقاومة الظلم و الخيانة ، و يؤدى ذلك فى نهاية المطاف إلى تبديد استقرار المجتمع و هدوئها. إن الطبقة التى تحكم على البلاد تسيطر على مصادر الانتاج فيها،

و تريد الانتفاع بمواردها الاقتصادية أكثر فأكثر دون غيرها. فلايصير إلى أيدى عامة الناس إلاّ قدر ما يجب لبقاء مصالح الطبقة الحاكمة، و هكذا يجرى تقسيم الأموال بصورة غير عادلة ، و يتولد التذمر و القلق فى الطبقات المتخلفة. و لكن إذا قسمت الأموال بصورة عادلة مشروعة فحينئذ لا يوجد الاستغلال ، و تشعر كل طبقة على أنها على قدم سواء مع الطبقات الأخرى ، و يسود الرفة و الرخاء فى المجتمع و ينبغى أن لاننسى أن الشعور المتزايد محقوقنا يؤدى إلى إجحاف حقوق الآخرين

و الطبقة التى تستغل مصادر الانتاج ، و تنتفع بها دون سائر الناس ، تسعى إلى أن تشغل الجماهير فى قضايا تافهة غير مهمة ، إذا أمعننا فيها النظر أو استعرضناها استعراضا محايدا فلا تبدو تلك القضايا قضايا وطنية ألبته و هكذا يسقط الأبرياء السذج ضحايا اضطرابات طائفية ، و يتهالكون فيما بينهم ، و تسنح للطبقات المستغلة فرص لتكديس الأموال و جمعها. هناك طرق عديدة لإبعاد الناس من المنافع الحاصلة من السلطة و الحكومة ، و إلهاءهم عن الحقائق و أنجع هذه الطرق و أكثرها تأثيرا هو استغلال الدين و من ميزة الدين أنه إذا لم يطلع الإنسان على روحه و فلسفته و نظريته عن الحياة و الكون، فإنه يوصله إلى عالم خيالي لايمت إلى حقائق الحياة الحية بصلة ما، و يجلس المرء ، مغمض العينين، فى أي مكان شاء، و يستغرق في الخيال، و يظن أنه يستفيد من هذا المكان نفسه

إن نفع الدين الأصيل هو أنه ينقى باطن الانسان ، و يطهر المجتمع من الفساد و المساوئ الخلقية ، و يخلق التسامح و الحب و الصداقة و المواساة بين الناس ، و لكن معرفة ناقصة عن الدين تولد التوهم ، و يأخذ الإنسان يظن أن الأشجار و الأحجار والحيوانات و الكواكب كلها تعلم ماضيه و حاله و مستقبله، و هو بوحده لا يعلم شيئا بين سائر موجودات الكون ، مع أننا نرى أن الإنسان هو أعظم المخلوقات بأسرها قدرة و قوة و أكثرها علما و معرفة ، و هو بالرغم من ذلك يعتبر نفسه عاجزا غير قادر على شئ . و قد يذهب به التوهم لحد أنه يذبح بيديه حتى فلذة كبده لأغراض تافهة، و لايهمه تحليل الحقائق مثلما تعجبه التنبؤات. إن التوهم و العقيدة الواهنة و الهيام بعالم خيالي يسفر عن الكسل و فقدان الفعالية بصورة لازمة، و بالتالى يفقد الإنسان الثقة على مؤهلاته و فكره و عزائمه و قد قال علي رضى اللّه عنه " عرفت ربّى بفسخ العزائم " و ذلك يعنى أن عزيمة الإنسان قوة عظيمة لا يستطيع أن يفسخها إلاّ شئ مافوق الطبيعية. كذلك يدلنا التاريخ على أنه حينما يشيع تفسير خاطئ للدين، فانه يتدخل فى العلوم، كما نرى فى القرون المظلمة فى أوروبا، حيث كانت الكنائس تنزل عقوبات صارمة على اللذين كانوا يميطون اللثام عن اكتشافات علمية. إن كبت البحث العلمي و الأفكار الحرة في مجتمع إلى مدة أيضا يؤدى إلى الانحطاط. و المجتمع التقدمي

لا يكبت الأفكار الجديدة ، و إن كانت ضربتها على التفكير التقليدى ضربة قاضية. و ينبغى أن يكون الدين ينبوعا للقوة الروحية، لا باعثا على الفوضى و الكراهية و العداوة و الفساد فى المجتمع. إن هذا الاستغلال المهيب للدين يرقى إلى إهانة التعاليم الأساسية للديانات و مؤسسيها و كتبها المقدسة. أي كتاب مقدس لدين مـن الأديان يقول إن السرقـة فعال حسن ، أو أن الكاذب يثاب على كذبته ، أو يحل قتل الأبرياء ، أو أن مـن أطعـم جائعـا فقـد اثم. و المجتمع الذى يعيش فيه أتباع ديانات مختلفة يجب على أبناءها أن يطلعوا على المعتقدات الأخرى و يتعرفوا على نقاط مشتركة فيما بينهـا، و يسعوا لترويج نظرية عالمية للدين. و من لا يعلم إلاّ دينه كأنه لا يعلم دينه نفسه.

و اتخاذ العدوان وسيلة للنهضة الحضارية أيضا سبب من أسباب الانحطاط. إن العدوان الحضاري لا يوجد مجتمعا صالحا بل بالعكس من ذلك إن مجتمعا متحضرا توفر فرص النمو و الازدهار لحضارات متنوعة مختلفة إزدهارا طبيعيا حراً و الطبقة النفعية قد تجنّ الشعب بإيقاعهم فى حب الحضارة. إن الحضارة لا توجد بقرار يتبناه مؤتمر أو باجتماعات تعقدها أكاديمية علمية ، و لكنها حرة كالهواء و جارية كالشلال ، و نواميس الطبيعة هى التى تبرزها إلى الوجود ، و لذلك أخفقت مجهودات تكوين حضارة مصطنعة فى كل عصر. إن الحضارة إنما تتولد من الرياضة الاجتماعية الممتدة عبر القرون ، و المساوئ الصغيرة لمجتمع مشرف على الزوال تجوّف أولا جسم تلك الحضارة، و بعد فترة تفيض روحها أيضا، حتى تصبح أخيرا جزءا من التاريخ تعتبر بها الأجيال القادمة، و دولة الروم العظيمة مثال لذلك و قد تولدت حتى الآن ثمان و عشرون حضارة على هذه المعمورة ، و كانت لكل منها دولة و صولة فى الزمن الذى وجدت فيه ، و لكن ثمانى عشرة حضارة منها - فيما قال المؤرخ الفلسفى توين بي - قد اندثرت اندثارا تاما ، و تسع حضارات آخذة فى الاندثار ، و لم تبق حتى الآن إلاّ الحضارة الصناعية ، و لكن هذه الأخيرة أيضا تصنع أسلحة فتاكة يمكن أن تقضى على حياتها ، و قد أن أنه لو بقى الإنسان لحرب كونية رابعة على هذه المعمورة فانه يحـارب باللبن و الحجر. إن التوتر و الاستغلال الاقتصادى اللذين يتراءى لنا فى العصر الراهن هو نوع من أنواع قانون الغابة ، حيث تفترس السباع القوية حيوانات صغيرة لا قبل لها بها. و إذا لم يستطع الإنسان التخلص من هذا القانون بعد، فكيف يجمل به أن يزعم ازدهار الحضارة.

ثم ما هى معايير العزة و الإجلال و التقديـر فى مجتمع متحضـر؟ و لو كان الإنسان حيوانا كاسبا فحسب ، فإذن ماهو الفارق بينه و بين حمولات الدواب . إننا ما تعلمنا حتى الآن كيف ينبغى أن نقدر العلم و الفن، كما لايوجد لدينا تصور واضح عن القيم العليا. و كذلك ما عرفنا تعريفات صحيحة للخير و الشر و المعروف و المنكر و الصلاح و الفساد ، فكيف

يمكننا أن نصف المعلومات التى نلتقطها من هذا المنهج التعليمي الناقص بصفة العلم. إن النار تحرق كل ما تصيبه ، ولكن الشئ الذى لا يحرق فكيف يرضى أحد منا أن يقوله ناراً

إن غاية العلم هى أنه يعرفنا بالحقيقة، فإذا كنا غافلين عنها، فمن دعانا علماء كأنه أهان العلم نفسه. إن التعليم المصطنع الناقص يحدث الفوضى فى تفكيرنا ، و يعوّدنا على تحليل و تفسير الحقائق تفسيرا خاطئا ، و يدفعنا إلى انتهاك القيم العالمية، و يحول دون نشوء وعي سليم صالح عن المجتمع و التاريخ . و ذلك لأننا قد فصلنا التربية عن التعليم ، و ليست الأخلاق جزءا من مناهجنا الدراسية و لو كانت الأخلاق جزءا من مناهجنا لنشأ فينا تصور للعظمة الإنسانية إلى حدما. إن الإنسان هو الأذل و الأقل اعتبارا فى هذا المجتمع ، و بخاصة فى ذلك المجتمع الذى يتخلف من المجتمعات الأخرى فى سباق الحضارة الصناعية.

و لكن المأساة الكبرى هى أن المجتمع الذى هبط فى هوة الطمع و الحرص و أصبح فريسة للاستغلال يحسب أسباب الأنحطاط ، فمثلا إذا لم يستطع مجتمع من المجتمعات أن يتقدم فكريا لأنه كان يعبد مؤتاه، و كان يحبهم أكثر من الأحياء ، فلا تستطيع أن تجرأ على إبداء رأيك فيه ، و إنه لايلبث أن يتهمك بإهانة الأسلاف و التقليل من شأن الآباء إن الإنسان يولع بأسباب الإنحطاط ، لأنه لايعود على محاسبة ذاته ، و يحسب نقد الناصحين له سما قاتلا ، و يستلذ الإنحطاط كما أن المتعاطى للأفيون يضع جزءا من الأفيون فى فيه، و ينعس، و يظن أنه يجوب السموات العلى هل يمكن أن يتخلص مجتمعنا من هذه الكارثة ؟

حمى الدق
فى ضوء الطب الإسلامي (اليونانى)

بقلم : الدكتور ضياء الدين أحمد الندوى

إن مرض حمى الدق الذى يوجد فى سائر العالم، و فى الدول المتخلفة بصفة خاصة ،ليس من صنائع الطب الحديث ، بل الطب الإسلامى و الأطباء الكبار القدامى من أمثال الطبرى و بوعلي سينا و أبوسهل المسيحي وغيرهم تناولوه بشرح و بيان فى كتبهم و تصانيفهم ، و بينوا ما له من خطورة و ما هى الأسباب التى تؤدى إليه و ما هو الطريق الأمثل لعلاجه.

ينشأ هذا المرض من "مادة السل" (MICOBACTERIUM TUBERCULI) و من خصائص هذا المرض أنه يؤثر فى القلب وغيره من الأعضاء الرئيسية و يبدأ بتحليل الرطوبات. يقال لهذا المرض " حمى الدق " ، و معنى الدق لغة " الدقة و الهزال " ، و سمّى الدق لأنه يهزل بدن الإنسان. و يقال له باللغة الإنجليزية (Hectic Fever) ، و أصل ذلك الكلمة اليونانية (HEKTIKOS) و هى تعنى " المعتاد و المألوف " لأن الحمى تتعود على الإتيان مرة بعد أخرى.

عرف هذا المرض فى الطب الإسلامى منذ قديم ، ففى تصانيف الأطباء القدامى و الأطباء المسلمين من أمثال بقراط و جالينوس و ريطاوس و الطبرى و الرازى و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي و علي بن عباس المجوسى ، يوجد تعليمات مفصلة عن هذا المرض. و لكن الجرثومة الخاصة التى هى سبب هذا المرض كشفها للمرة الأولى الطبيب الشهير الألمانى روبرت كوخ (ROBERT KOCH) عام ١٨٨٢م ، أما بعض الأطباء القدامى من أمثال الطبرى و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي فجعلوا سبب هذا المرض "مادة السل" (التى تتولد بسبب دخول بعض الجراثيم فى البدن). و أما نظرية تعدى هذا المرض فهى من اكتشافات أطباء العرب، و دليل ذلك أن مهرة علم التشريح "ماركينكى" و "ولسلوا" كانوا يحذرون من تشريح الأجسام الميتة حتى القرن السادس المسيحي مخافة ألا يصيبهم المرض عينه ، و من ثم كانوا يحرقون

فراش المصابين بالسل و ثيابهم و ملابسهم كلها بعد موتهم.

إن الجسم البشرى يتألف من ثلاثة أشيـاء "الجامـد" كأعضـاء البـدن، و " المادة السائلة " كالرطوبات ، و"المواد الهوائية " كالروح. كما قال بقراط .

"إن البدن الإنسانى هو مركب من الأشياء الجامدة و السائلة و الأرواح ".

و قال أبو سهل أستاذ أبي سينا مثل ذلك:

"جملة البدن تشتمل على ثلاثة أصناف من الأجسام

أحدها الأجسام التى لها فى أنفسها تماسك و صلابة ، و لاتحتاج إلى الانحصار فى الأوعية بحيث تمنعها من السيلان، و هذه هى الأعضاء ".

و ثانيها : أجسام رطبة سيالة محصورة فى أوعية تمنعها من السيـلان ، و هى أخلاط.

و ثالثها أجسام رقيقة بخارية محصورة فى أوعية صفيقة تمنعها عن التحلل سريعا، و هذه هى الأرواح".

و الطب الحديث أيضا يوافق على هذه النظرية أنه توجد فى البدن ثلاثة أشياء الجامد (SOLIDS) و السيال (LIQUIDS) و الروح (GASES) .

ثم قسمت الأجسام الرطبة إلى ثلاثة أقسام كما ذكر ذلك أبو سهل المسيحي فى كتابه.

. و رطوبات البدن ثلاثة

أحدها الرطوبة الاسطقسية التى بها اتصال أجزاء الأعضاء بعضها ببعض ، و هى التى متى فنيت تناثرت الأعضاء.

و الثانى . الرطوبة التى فى العروق

و الثالث . الرطوبة التى فى التجاويف الخالية بين الأعضاء ".

و الطب الحديث أيضا يؤيد هذه النظرية فيقول إنه يوجد فى البدن ثلاثة أنواع من الرطوبات (Intercellular, Extra cellular, Intra cellular)

و إنما تصيب الحمى إذا تولدت الحرارة الغريبة في البدن التى تؤثر فى أحد الأجسام الثلاثة (الأعضاء و الأخلاط و الأرواح). ثم إن أثرت هذه الحرارة الغريبة فى الأرواح فتصيب "الحمى اليومية" و إن أثرت فى الأخلاط فتصيب " الحمى الخلطية " ، و إذا أثرت فى الأعضاء فتصيب "حمى الدق" كما كتـب أبو سهل

"الحمى حرارة خارجة عن الطبـع ، فهي تكـون فى موضـوع لا محالـة و ليس فى البدن جسم هو جزء من الأجزاء غير الأعضاء و الأخلاط و الأرواح.

فمتى كانت فى الأرواح كانت حمى يوم ، و متى كانت فى الأخلاط كانت حمى العفونة ، و متى كانت فى الأعضاء وجدت حمى الدق"

و كذلك قسم ابن سينا و الطبرى الحمى إلى هذه الأقسام الأساسية.

و ذكر الأطباء المسلمون سببين لهذا المرض

الأسباب المهئية للمرض (Pre - disposing Causes)

و الأسباب الخارجية (External Causes).

إن الأسباب المهيئة هي التي بوجودها يتم الاستعداد لقبول مرض السل كالعمر و الجنس و الوراثة و المهنة و السكنى و شمّ الغاز السامة. هذا ، و من الممكن أن تكون بعض الأمراض الأخرى أيضا سبب هذا المرض من مرض الالتهاب الشعبي الرئوي (BRONCHO PNEUMONIA) و الشهقة أو السعال الديكي (HOOPING COUGH) و النزلة الوافدة (INFLUENZA) و ديابيط أو البول السكرى (DIABETES) و ما إلى ذلك.

و الأسباب الخارجية هى التى تؤثر من الخارج كالحزن و الوهم و الغضب و التعب و الأرق المفرط و الجماع المفرط و الغذاء غير المتوازن و البيئة القذرة و البيوت الضيقة و تعاطي الخمر و التدخين و ماإلى ذلك .

إن هذه الأسباب المهيئة و الخارجية تضعف قوة مدافعة الإنسان فتنشأ الاستعداد لقبول الأسباب الواصلة (EXCITING CAUSES) أى الجراثيم فى البدن. و هذا النوع من الأجسام عند الاتصال بالمصاب بالسل ، إنسانا كان أو حيوانا ، يقبل هذا المرض بكل سهولة ، و عامة تكون عملية التعدى هذه بواسطة التنفس أو بالأكل و الشرب حيث تدخل الجراثيم فى البدن، و فى الرئة على وجه التحديد، للوهلة الأولى ، ثم تولد مادة السل . و هذه المادة بعد تحللها فى الدم تصل إلى القلب ، و يأخذ القلب يتحرق و يولد الحرارة الغريبة ، و تسري هذه الحرارة إلى سائر أعضاء البدن بواسطة جريان الدم ، و تبدأ تؤثر فى الرطوبات البدنية.

و قسم الأطباء المسلمون هذا المرض إلى ثلاث درجات و الطب الحديث أيضا يؤيد هذا التقسيم.

درجات المرض :

فى البداية يترأى المرض كئيبا بائسا حزينا، و يحس بالوجع بعد الأكل فى الصدر و فوق عظم الترقوة و تحته ، كما يشعر الألم فى جنبيه إلى الظهر ، و يشتد الوجع عندما يسعل ، و أحيانا يقيئ بعد تناول الطعام ، كما يشكو سوء الهضم . و يكره المريض الأغذية الدسمة و تصبح حركة قلبه و نبضه سريعة ، و كذلك حركة التنفس أيضا تكون سريعة إلى حدما، و يجد صعوبة فى التنفس عند العمل الشاق ، و المريض يهزل و يضعف يوما فيوما ، و فى المساء تزداد الحرارة عامة.

و فى الدرجة الثانية من المرض يقل جوع المريض ، و يتحرق القدم و الكف ، و يشتد السعال و يخرج البلغم الذي يكون مزيجا بالقيح، و يجد صعوبة فى التنفس ، و لايزال الضعف و الهزال يزدادان على مرّ الأيام ، و كذلك حركة النبض أيضا تستمر فى إزدياد، و تركبه الحمى ليلا و نهاراً.

و فى الدرجة الثالثة من المرض تكون هذه الامارات شديدة وتكون آثارها

أوضح في الرئتين ، و يشتد السعال صباحا ، و يخرج البلغم أكثر بزيادة من القيح ، و كذلك يسيل العرق كثيرا في الصباح ، و يكثر الهزال ، و تسقط الأشعار، و تبيض الأظفار و نصير مدورة ، و تبدو آثار في الصدر و الظهر، و قلما يحس المريض بالجوع ، و لايزال المريض يعاني من القيئ و الإسهال ، و يهزل هزالا شديدا، و تتورم اليدان و الرجلان حتى تكون مصيره الموت

الإجراءات الوقائية :

إن الجسم البشري لا يتاثر بالجراثيم أو الأسباب الواصلة (Exciting Causes) إلا إذا ضعفت فيه قوة الدفاع ، فمن الواجب الاحتياط في كل ما يؤدى إلى ضعف البدن الإنساني ، و تنشأ فيه الاستعداد لقبول المرض كالأمكنة القذرة و السكنى في البيوت التي لاتصل إليها الهواء و النور و استعمال الغذاء الناقص و تعاطي الخمر و استعمال المسكرات و الإفراط في الجماع و التورط في العادات القبيحة و استعمال اللحم الناقص الطبخ و تناول الطعام دون غسل الأيدى ، و لذلك نجد في الإسلام تعليمات تهدف إلى حفظ البدن الإنساني من سائر الأمراض الخبيثة ، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم " *لا يغمسن أحدكم يده في إناء حتى يغسل يده ثلاثا* " و قال في حديث آخر "*كل مسكر حرام*" و ما إلى ذلك

طريقة العلاج :

لابد من مراعاة البرودة و الرطوبة في الطعام و الحياة و الأدوية ، فالواجب أن يعطى هذا النوع من المرضى الأغذية اللطيفة كماء الشعير و خبز الحنطة الموضوعة في الماء البارد و لحم الغنم و فراخ الدجاجة و الخضراوات اللطيفة. و تعد هذه الأغذية من أحسن الأغذية للمصابين بمرض السل. و كذلك يحسن أن يأكل المريض البيض و الحلاوى ، و لكن من الواجب أن لا يأكل أكثر من شهيته و من الأحسن أن يغمر غرفة المريض العطر و الرائحة الطيبة. و كذلك يجب أن ينظف المكان باهتمام ، كما يجب إزالة الهموم و الأحزان من ذهن المريض و بصدد العلاج يجب إزالة أسباب المرض قبل كل شئ، و فيما يلي الأدوية التي تستعمل في علاج حمى الدق بصفة خاصة

الإسم العام	الإسم العربي / الإسم النباتي
طباشير	طباشير (من قصب الهند) Bambusa bambos Druce
گل ارمني	الجذع الأرمني، طين أرمني Armenian Bole

ريشه برگد	التين البنغالي، لحية ذات الذوانب Ficus bengalensis Linn
بادام	اللوز Prunus amygdalus Batsch
كدو	اليقطين ، القرع Lagenaria siceraria Standle
كاهو	الخس Lactuca sativa Linn
بارتنك	لسان الحمل Plantago major Linn
خشخاش	خشخاش Papaver somniferum Linn
كافور	كافور (مادة عطرية) Cinnamomum camphora Nees
زهر مهرة	سليكات المغنسيوم Silicate of magnesia & Iron
حب الآس	حلموش ـ آس Myrtus communis Linn
مرواريد	لؤلؤة Pearl
ياقوت أحمر	ياقوت احمر Puly
تخم ألسى	بذر الكتان Linum usitatissimum Linn
اسپغول	بذر قطونا Plantago ovata Forsk
گل سرخ	الزهرة الحمراء ، الوردة Rosa damascena Mill
خرفه	الرجلة ، بقلة الحمقاء Portulaca oleracea Linn
زعفران	زعفران Crocus sativus Linn
گلنار	زهرة الرمانة ، جلنار Punica granatum Linn

املتاس	خيارشنبر ، الأبنوس الكاذب Cassia fistula Linn
كتيرا	كثيرا Astragalus gummifera Linn
انجبار	انجبار Polygonum viviparum Linn
صندل سفيد	صندل أبيض Santalum album Linn
ملهتى	اصل السوس Glycyrrhiza glabra Linn
بهيدانه	السفرجل Cydonia oblonga Mill
گل نيلوفر	اللوتس Nymphaca alba Linn

المراجع:

١ - ابوعلي ابن سينا القانون في الطب (ترجمة أردية) الجزء الأول ، الطبعة الأولى، مكتبة نامى ، منشى نول كشور ، لكناؤ عام ١٩٢٩م

٢ - على ابن العباس مجوسي كامل الصناعة (ترجمة أردية) ، الجزء الثانى ، مكتبة نامى، منشى نول كشور ، لكناؤ ، عام ١٨٨٩م

٣ - أبو سهل مسيحي (كتاب المائة) كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مجلة المسيح طبع دهلى ، عام ١٩٤٦

٤ - جون تيتلر (أنيس المشرحين) كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مجلة المسيح ، طبع دهلى ، عام ١٩٤٦م

٥ - غلام جيلانى مخزن الحكمة ، الجزء الأول ، طبى كتب خانه ، بهاتى گيت ، لاهور عام ١٩٤٤م

٦ - منير البعلبكى المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، عام ١٩٧٧م

شاه عبد اللطيف

و

الثقافة المركبة من عناصر مختلفة فى الهند

بقلم : ك. ك. كوللر

كان من عام ١٧٥٢، الشهر الذى تندب فيه الكراكي و العشاق يتأوهون، شهر مايو، شهر العاصفة الهوجاء و الهواء السموم فى السند. مرتديا عباءة طويلة سوداء و عمامة بيضاء، كان درويش مع عصاً فى يده يمشى عبر الصحراء. فأوقفه جمّال فجأة عند وانج ويلا سور (WANG WILLA SUR) قرب كوتشر

"أين تذهب فى هذه الصحراء، أيها الشاه الكبير؟ إن مريدك المتواضع يحييك" "إلى كربلا " أجابه الشيخ "فقلبى يحن إلى كربلاء يا بني". "لكن يا أبى المؤقر، كنت تقول دائما إنك سوف تدفن فى بهيت (BHIT) فى السند. فلماذا غيرت رأيك، و لماذا تغادر وطنك فى نهاية سفرك؟ " سأله الجمّال و أخذ سبيله

متأثراً تأثراً عميقاً بكلمات الشاب، رجع الشيخ إلى بهيت و مات بعد بضعة أيام.

كان هذا، الشاه عبد اللطيف، مبدع " الرسالة " الخالدة، الشاعر الذى بلغ إلى مكانة حافظ و الرومي و السعدى فى الفارسية، و فريد و وارث شاه بالبنجابية، إنه فعل نفس ما فعله تشوسر (CHAUCER) للإنجليزية و الشيخ فريد للبنجابية. فجعل الشعر سنديا و السندية شعرا.

تكشف دراسة نقدية تحليلية دقيقة لتاريخ الهند الحاضرة و عبر العصور الممتدة إلى أكثر من ألفين سنة أن بعد كل ثلاث مئة سنة إجتاحت الهند حركة أزالت كل حواجز الطائفية، و اللون و العقيدة و تحولت تدريجيا إلى حركة دينية، و فى نهاية المطاف أسفرت عن نتائج سياسية غنية.

فعندما قامت البوذية على رماد البرهمية فى القرن السادس ق م. ظن الناس أن البرهمية إندثرت للأبد. و لكن لم يحدث هذا فقد تعرّضت البودية بعد ثلاث مئـة سنـــة للتغييـر فى عهـد أشوكا حتى اتّسعت للفاصبيـن و خلال القرن الأول الميلادي حدث إنقسام فـى صفـوف البوذيـة فـــى شكـل " هنيـــانا " (HINYANA) و " مهـــــايانا " (MAHAYANA) و شوهدت ثورة دينية فى عهد " هرشا " (HARSHA) لا فى الهند فحسب و إنما فى العالم كله. و قد برز الإسلام كقوة دينية جديدة ليغير مصير عدد من البلاد فعند ما دخل الهند، أنشأ حركات جديدة مثل التصوف و الطرق الأخرى على يـد نظام الدين أولياء و أمير خسرو، و بعد ثلاث مئة سنة بالضبط نجد بروز حركة بهكتى (BHAKTI) و تبعتها بعد ذلك بثلاث مئة سنة حركات دينية جديـدة فـــى القــرن التاســع عشــر مثـل برهمو سمـــاج و آريا سمـــاج و جمعية ثيوسوفية وغيرها. إن دراسة حركة بهكتى على طول الزمن ليست طريفة فقط و إنما هامة تاريخيا و مفيدة إجتماعيا و ممتازة إقتصاديا أيضا، كانت بعض الحركات منها بسيطة و الأخرى معقدة، و لكن الجوهر الذى تملكه هو هو. و لم تهدد حركة وحدة الهند بل أغنت كل حركة بطريقتها الخاصة الثقافة المركبة من العناصر المختلفة فى شبه القارة الهندية. و من جهة منظور تاريخى أوسع، كان شاه عبد اللطيف جـزءا لهـذه الحركة و أعناها بصورة ملموسة جدا كما استفاد منها.

أحدثت حركة بهكتى تاثيرات إجتماعية و سيكولوجية هائلة، و حلقت شعورا من الوحدة و التضامن بين أهل الهند الذين اعتبروا كل فاتح أجنبى عدوا مشتركا لهم. و من الطريف العلم بكيفية إندماج الغزاة واحدا بعد اخر فى الثقافة المزيجة الهندية فكان هنا مشهد تاريخى، يمكن مقارنته بمشهد قطار مزدحم متحرك إلى الأمام فقد حاول فيه مسافرون جدد الدخول فيه فى كل محطة، و المسافرون القدامى الجالسون فيه أبدوا كل المقاومة المتوفرة لديهم. إننى أدعو دائما هذا القطار قطارا ثقافيا هنديا متحركا على الدوام رغم المقاومة. و كما يحدث دائما قد انقلب غزاة المحطة السابقة إلى المقاومين فى كل محطة تالية، و حاول المسافرون الغزاة الدخول فيه بكل مالديهم من الوسائل، منها بوسائل العنف أو بأية وسيلة أخرى و الراكبون القدماء فى القطار و منهم المسافرون الغزاة الراكبون فى المحطة السابقة، إتحدوا ليقاوموا الغازى الجديد بكل قواهم. مما ترتب على ذلك أن عنـــد كل محطـة قد تم إدخال بعض الغزاة فى القطار الثقافى الهندى الواسع و هو يتحرك إلى الأمام هذه العملية جارية منذ أيام الأريين، إن قائمة الغزاة فى الهند طويلة جدا فعندنا الفرس، و الإغريق، و البكترانيون، و البـــارسيـــون، و الهـون، واليوك و الساكيون، و العرب، و الأفغان، و الأتراك. و تتجلى هذه الروح من التركيب و الإندماج أيضا فى أساطير الحب فى البنجاب فمنها على سبيل

المثال فى قصص ســوهنى و مهيوال، و ساسى و بونو، و سيهاتى و مــراد، و ميرزا صــاحبان و هير و رانجها. و يتحدث وارث شاه الذى ألف قصة هير (HEER) فى القرن الثامن عشر، عن الأعياد المشتركة و تقاليد الهندوس و المسلمين. كان رانجها (RANJHA) المسلم، يلبس ملابس زعفرانية اللون المختصة بالدراويش الهنود و يعلق حلقات كبيرة فى آذانه و يلوّث جسمه بالرماد و يعزف المزمار، و هى آلة موسيقية محبوبة لدى الإله كريشنا. كما يذكر رانجها زواج مهاديو مع باربتى، و يتحدث عــن بيراكيــين و أوداسيــين و رامانندين و العديد من الطوائف الهندوسية، كما اشتــرك أيضا فى مهرجان السند قرب جهيلم، و كانت له مهارة تامة فى أكثر من ١٦ من الألحان الكلاسيكية الهندوسية و عندما لدغ هير ثعبان، نالت الشفاء باستخدام أدوية أيوروبدية، إنها كانت تضع الزنجفر فى شعرها، و كانت مهرها مهرا هندوسيا تقريبا مما يعرض فى بيت الحماة و كان رانجها مولعا بالمخدر الذى يستعمل فى الرياضيات الهندوسية فقط، و مع ذلك يتحدث عن الصوفية المسلمين و يرى وارث شاه أنه لا فرق بين الدرويش الهندوســى و الصوفى المسلم حيث أن كلا منهما يعتقدان بأن الله موجود فى داخل الإنسان، و بأن العبادة ليست إلاّ سلّما للبلوغ إلى مكان الخلاص. توجد تقاليد الدراويش المسلمين فى كشمير حتى الآن كما يوجد مسلمون (يحترمون شيئا فى ذلك الوادى) و قد أبقى السنديون فى باكستان تقاليــدهــم الهنـدوسية، فتضع نســاءهم الزنجفر فى شعرهن، و هناك أسماء هندوسيــة للشيــوخ و هكذا أسماء إسلامية لكهنة الهندوس كان تصوف شــاه عبداللطيف أكبر جسر بين الهندوس و المسلمين إنه كان ضد الطقوس الدينيــة و زيف الكهنة و نفاق المتعصبين و أشار إلى نهر الجنج كنهر الهند، النهر الذى اجتذب إليه الآريون بمجرد النظــرة الأولى إليه، النهــر الذى تتطهــر الروح بالإستحمام فيه، أنظر إلى بيت شعر من أنشودة رامكالى حيث يقول الشاه للدرويش ناث.

" إغتنم فرصة صحبتهم
كن معهم و زد تجربتك
إنهم قريبا ينطلقون إلى سفر طويل
تاركين هذا العالم البهيج للجنج المقدس

يتحــدث الشــاه عــــن " سادهنا " (SADHANA) و يتحــدث عــــن " ستنام" (SAT-NAM) فيقول

تأمل فى هذا العالم. إنه يشفيك من كل بؤس.
إحتفظ " بالميم " فى ذهنك وضع " الألف " قبل ذلك.

قال السوامى رام تيراث نفس الشىء بعد ذلك بمئتين سنة . كانت

ولادة الشاه عبد اللطيف فى ١٦٨٩ بقرية بهارفور بمقاطعة هالا. فى حيدر آباد (السند) فى عهد أورنجزيب إن وادى السند لكون أرضها خصبة و مناظرها خلابة تنتج الذهب منذ عهد هرايا (HARRAPPA) " و موهينجدارو" (MOHENJODARO). كان العرب أول من فتحوا السند و لكنهم إستسلموا بعد أن واجهوا حضارة أعلى و لكن مرّ فى السند حين من الزمن تحمل أهلها فيه المشقات، و فى أيام طفولة الشاه كانت السند تمر بأوقات عصيبة جدا. و بعد ذلك بعشر سنين، مرّ سياح إنجليزى بنهر السند فقال أميرها لما رأى الإنجليز فى أسطولهم الصغير، يا للأسف إنهم شاهدوا السند، فقد حدث إنه بعد مئة و أربعين سنة فقط ضم السير شارل نابير السند إلى أراضى اللورد دلهوزى. و قد تجلى شعوره هذا فى سيرته الذاتية التى كتب فيها فصلا تحت عنوان " بكاوى " (إرتكبت إثما) و بعد ذلك بقليل إنتقل أبوه شاه حبيب إلى مكان آخر إسمه كوترى فى نفس المقاطعة و على مسافة أربعة أميال من هذا المكان تقع بهيت، الهضبة الصغيرة التى قضى فيها الشاعر سنواته الأخيرة بين الرهبان و الدراويش. المكان الذى لا يوجد فيه شيء تذكارى للشاعر ما عدا مسجد صغير و لكنه مشهور عالميا. و مثل ضريح بابا فريد، هذا المكان أيضا محجّ للناس كان جد الشاه عبد اللطيف الشاه عبد الكريم (١٥٣٦ ـ ١٦٢٢) شاعرا كبيرا. هاجر إلى هذا المكان من هيرات مع الأمير تيمور فى ١٣٩٨

كان درويش قد تكهن بأن الطفل الجديد فى أسرة الشاه حبيب سوف يرفع المعاناة من أهل السند، و يقرض أبيات ملهمة و يعتبر نجما قطبيا فى صحراء السند، يقال إن الطفل لما أرسل إلى نور محمد بهتى للتعليم، و هو ابن خمس سنين، رفض أن يتعلم شيئا بعد الحرف الأول من الأبجدية و هو " الألف " و أيضا هو الحرف الأول من كلمة " اللّه " و قد رأى المعلم نورا فى عيون الطفل فصاح قائلا سيكون هذا الطفل متعلما بنفسه فمنذ ذلك الوقت لم يذهب أبدا إلى مدرسة و فى سن الشباب تجول بين دراويش الصحراء حتى قابل شاه عنايت، الصوفى الأكبر فى السند آنذاك، إن الزهرتين اللتين منحهما الصوفى الكبير للشاه عبد اللطيف كانتا رمزا للرؤية الجديدة التى أدركها فى عيون الشاب البراقة هناك حكاية تروى أن الشاه عبد اللطيف فشل فى حب بسبب عوائق وضعها والد البنت ميرزا مغول بك فى طريقهما. فهام فى صحراء السند وفى هذا الهيام وصل إلى ملتان ثم اتجه إلى مكران فى بلوشستان كما زار جيسلمير و كوتش و غجرات كاتياوار. و زار الأماكن المقدسة للهندوس فى غيرنار حيث رقص أمام تمثال الإله كريشنا، و قدم إجلاله للإلهة دورجا فى هينجلاج فى لاسبيلا، و اختلط بحرية مع أتباع جوركنات و تحدث مع دراويش نات بالتفصيل. و افتتن بالموسيقارين الهندوس وقضى معهم وقتا ملحوظا.

و أعجب بالإثنين منهم إعجابا شديدا و هما أتال و شنشال. إن الألحان كليان و رام كالى من تاليفه تعبير ربانى رائع فى عالم الموسيقى. فهذان التأليفان يشتملان على رؤية الشاه نحو التصوف و الموسيقى. و فعلا، توفى الشاه و هو يستمع إلى الموسيقى . إن تأليفاته الأخرى مثل " السمودى " و " سريراج " تشير إلى رحلاته البحرية.

و يحكى لنا الأستاذ فتح شاند فاسفانى فى مقدمته لرسالة الشاه قصة لشبابه عند ما فشل فى الحب فيقول لما أدرك بعدم استطاعته فى الوصول إلى حبيبته، رقد على كثبان رملى فى حزن و كآبة غير منتبه للبيئة المحيطة به حتى أخبر راع والده فجاء به إلى البيت و لكنه هنا أيضا لم يمكث طويلا و غادر قريته و جال مع الدراويش الهندوس لمدة ثلاث سنين و قد تحولت هذه المدة إلى التعليم العملى الحقيقى بالنسبة له. فى الواقع يشبه شغفه في الترحال بالشيخ السعدى و غورونانك. و لما عاد يوما فجأة إلى دار أبيه، وجد هناك بهجة و حبورا.

تزوج الشاه من سعيدة بيجوم فى ١٧١٣م. و قد أعطى له هذا الزواج رفيقة في إحداث ثورة اجتماعية كما خططها و كان تصوف الشاه المعروف عند سواد الناس فى السند بـ "رُومي السند"، متأثرا فى جانب بكتب فيدا الهندوسية، و فى جانب آخر مرتكزا بصورة راسخة على التعليمات القرآنية، كان الشاه عبد اللطيف أساسا جزءا من حركة بهكتى فى شبه القارة الهندية و رفع مشعل الثقافة الهندية المركبة عاليا خلال أصعب وقت مرّ به السند، و قد فضح نفاق رجال الدين و عارض الضرائب التى فرضها الحكام المغول على الزوار الهندوس، و من أقواله إنه لا فائدة فى تحريك الأصابع على حبات المسبحة و العقد. و إنما المطلوب هو العمل الصالح، كان الشاه شيعيا و لكنه كان محترما جدا لدى السنيين و كان مسلما بل كان محبوبا لدى الهندوس أيضا، احترمته جماعة السيخ لأنه كان تابعا صادقا لغورونانك فى الواقع كان الشاه هنديا، انه لم يكن محترما فى طول الهند فقط و إنما فى العالم الإسلامى بأسره.

مرتديا لباسا درويشيا طويلا مخاطا بخيوط الجوت السوداء كان الشاه شاعرا من طراز الشيخ فريد يقال إن المهاتما غاندى اتخذ فكرة المغزل من كلمات الشاه عبد اللطيف عندما زار السند بعد عودته من جنوب افريقيا. خلص الشاه الشعر السندى من طغيان العربية و الفارسية و تبنى شعرا شعبيا (DOHA) بدلا من الغزل ، إن الشاه عبد اللطيف الذى كانت أشعاره معروفة بالأفكار النيرة و الأخيلة الخصبة و حبه للطبيعة و جمالها ، استخدم على طريقة غورونانك فى البداية و السوامى رام تيراث بعد ذلك، إستعارات و حكما محلية كثيرة مستلهمة من رعاة الأغنام و الجمال فى السند. أنظر كيف يعبر عن لوعته:

مثل النبات المتسلقة إشتبكت الأحزان بقلبى
مثل الحشرات دبت الآلام إلى صدرى
و حلّت فيه كما يحل الملح فى الماء
هكذا يعشق قلبى الحب
مثل شجرة النيم يدخل الأثر فى قلبى.

كان الشاه عبد اللطيف أساسا شاعر الحب مثل الصوفية، الحب الذى لا يعرف حدودا جغرافية أو تاريخية و لا تقييدا نفسيا، إنـه زار هينجلاج و كمؤمن قوى بالثقافة الهندية المركبة، اعتبر البلاد كلها بلدا متحدا جغرافيا و كيانا ثقافيا موحدا إنه كان درويشا مسلما يعتقد بعظمة جميع الأديان. و اعتبر الهندوسية و الإسلام مظهرا لحقيقة واحدة و كافح من أجل ذلك بعزم و ثبات بغض النظر ممن نطق بها أو من أين جاءت.

يقول الدكتور ايش إم جوربخشانى إن الشاه كان مديد القامة، عريض الكتفين، معتدل الجسم، متمتعا بصحة جيدة طول الحياة. فى الصغر، كان شعره أسود و مدورا، و له لحية أنيقة و جلد قمحى اللون مائل إلى البيض، عريض الجبين و وسيم الطلعة ، له عيون جذابة سوداء تلمع دائما مثل ضوء المشعل. و فى الكبر، عكست خاصة الرونق و اللمعان، كان يحمل كأسا مصنوعا على شكل مركب فى يده للصدقات على طريقة الكهنة البوذيين و الصوفية فى العصور الوسطى و فى جلسته لازم دائما مروحة لا ينام إلاّ قليلا و لا يأكل إلاّ ما يغنيه عن جوع إن مثل هذا الحكيم فقط يستطيع أن يبدع شعرا عظيما فى الحب و الشفقة و الرحمة ، و مثل هذا الذهن فقط يستطيع أن يهضم الساسى (SASSI) و البنو (PUNNU) و تاماشى (TAMACHI)

تميز القرن الثامن عشر بطغيان الأساليب العربية و الفارسية و رغم إنحطاط الإمبراطورية المغولية، بقيت للعربية و الفارسية سيادة و سيطرة، و كان الرجوع إلى الكتابة فى لغة محلية محفوفة بالمخاطر يعتبر الشاه عبد اللطيف فى السندية مثل مير تقى مير فى الأردوية و غورونانك بالبنجابية. الناس يغنون أبياته و أناشيده حتى الآن بحماسة كان الشاه ملما بالقرآن و جرنت صاحب، و حمل مشعل الثقافة العلمانية مثلما فعله بابا فريد فى القرن الثانى عشر، و نظام الدين أولياء فى القرن الثالث عشر. و فيما يلى أنشودة من السدية إنها أغنية مقدسة من الصحراء من SHAH JO RISALO الكلام الكلاسيكى و الرسالة عن الحب،

إننى مت مثل بابيو (BABIO)
فى هبة رياح حار.
لو كان فى مقدورى أن أنسى حبيبى للأبد.

يتجلى أثر "جيتا" في شعره. و هو يريد من أتباعه أن يستمروا في العمل بدون أمنية في الجزاء لأن الله دائما في عـــون من يكافـــح و يعمـــل. و الجبال لا تجزىء بالألماس للمتكاسلين و البطالين.

أنتج الشاه الرجل المتواضع و الشفوق أبيات سلسة و رقيقة و غناها بطريقة حساسة جدا. و قال : الإتكال على أحد إثم ما عـدا التوكـل علـى اللّه و إنه لم يوافق على التوكل على اللّه أيضا إذا كان مع الكسل. بل أراد التوكل على اللّه مع العمل. و قال : من أجل السباحة عبر التيار، لا بد أن تعرف السباحة جيدا، و عندئذ فقط يكون اللّه في عونك. إن الدينامية و الحركة هما ميزتان بارزتان لفلسفة الشاه فلو إستطاعت زهرة حقيرة أن تلقن دروس الإنسانية لقلب ورد زورث الجريح، فإن ذرة ضئيلة في التيار كانت درسا للشاه.

أنظر إلى وريقات الأعشاب هذه
إما إنها تنقذ الرجل على وشك الغرق
أو تغطس معه في التيار.

كواحد من الرجالات الأفذاذ في القرن الثامن عشر في الهند، حمل الشـاه عبـــد اللطيف، مثل بوليه شاه (BULLEEH SHAH) و وارث شاه (WARIS SHAH) في البنجاب مشعل الثقافة المركبة في الهند و التي توارثها من الدراويش و الصوفية في العصور الوسطى. و مثل السانت فـــرانسيس (ST. FRANCIS) من أسيسي أولا و المهاتما غاندي فيما بعد، قد نشر رسالة الحب و عدم العنف و تطلع إلى مجتمع يكون فيه القوى عادلا و الضعيف مستحقا لعدم العنف و عدم الإستغلال و العدالة الإجتماعية و الإقتصادية. كان هو نفسه أميا و لكنه ناضل من أجل التعليم للجميع، و رفع صوته ضد الجور و عدم المساواة في عصره ، و حتى في لغته المجازية عن الطيور كان يعطف على الطيور الضعيفة و الهزيلة و الجريحـــة و التي يسيل منها الدم، و حذر الصياد من أن يصيد الطيور الضعيفة لأن هناك صائدا أكبر. و هو الموت الذي سوف يصيد كل واحد و قال : لا تقتل الطير لأنك لن تنال إلاّ جسدها فقط لا الطير.

مات الشاه عبد اللطيف في ١٧٥٢م و دفن في بهيت في حيدرآباد السند ولكنه خالد الذكرلم يفتح الموت فاتح القلوب هذا، فإنه يعيش في مجد.

يقول سوين بوم (SWINBUM) إن أعلى شعر لابد أن يتمشى مع الموسيقي، فنظرا لهذه الميزات كان الشاه عبـــد اللطيف شاعـرا عظيمـــا. و يقول الأستاذ إن. ايه بلوتش (N. A. BLOCH) فـــي بحثه الرائـــع بعنـــوان " شاه عبد اللطيف ـ مؤسس موسيقي جديدة " طبعته إدارة الإعلام في باكستان في ١٩٦٢م: *ابتكر شاه عبد اللطيف آلة موسيقية جديدة و أسلوبا*

جديدا للتأدية و أسس تقليدا جديدا في الموسيقى مبنيا على تأليف فن أعلى و فن شعبى. و الآلة الجديدة التى ابتكرها هى "الطنبورة " مع سلك اضافى. فالطنبورة السابقة لها أربعة اسلاك. وإنه زاد واحدا بجوار " زبان " إن " شاه ـ جو رسالو " (SHAH-JO-RISALO) عمل فنى موسيقى رائع إلى جانب كونه عملا أدبيا كلاسيكيا.

و فى رأى الدكتور موتى لال جتوانى انضم شاه عبد اللطيف متأخرا إلى حركة بهكتى فى الهند. و لكنه نهض بها بأفكاره النيرة و عمق إحساساته. و قال الدكتور ك. م سين. فى كتابه بعنوان " الهندوسية " إن مثل تصوف المناطق الأخرىٰ فى العصور الوسطىٰ تأثر البهكتى بالأفكار الصوفية. و فى الهند لم يبق طريق صوفى بدون أن يتأثر بأفكار بهكتى. و قد أنجب القرن السابع عشر شاه عبد الكريم و شاه عنايت و شاه عبد اللطيف و هذه الحركة مستمرة حتى الآن

منح شاه عبد اللطيف أتباعه أملا و فرصة جديدة للحياة و نفخ فيهم روح الاحترام الذاتى و حب الله. و خلص أهل بلاده من عبودية رجال الدين و لعب دور جسر بين فئات مختلفة فى شمال الهند. إن كلماته و أبياته مليئة بالأخيلة العلمانية و الثقافة المركبة فى الهند. و لما دخل معبدا هندوسيا فى ثاتا (Thatta) قال "نحن ندخل الضريح بمعية إلاله و ستجرو المقدسين .

الأحداث التاريخية :

١٦٨٩ ـ ولد بقرية هالا هويلى بمقاطعة هالا، بحيدر آباد (السند) باكستان الآن.

١٦٩٤ ـ أرسل للتعليم إلى أخوند نور محمد بهتى بقرية فالى. رفض الطفل أن يتعلم شيئا أكثر من الحرف الأول من الأبجدية العربية و هو الألف

١٧ ٨ ـ فشل فى الحب بسبب كونه درويشا

١٧١٢ ـ ١٧٠٩ ـ تجول فى الصحراء وزار لا كبات، و سيرنار، و دواركا، و جيسلمير، و بيكانير، و ثار، و غجرات، و هارو، و لاهوت، و لاماكان، و كابول، و هنجلاة، و كراتشى، و بهامبهور، و موغابهيم، و فورببدر، و ثاتا

١٧١٤ ـ تزوج من سعيدة بيجوم بنت الميرزا مغول بك.

١٧٢٠ ـ مات شاه عنايت خان

١٧٢١ ـ زار ملتان، دبر حاكم ملتان، ميان نور محمد، مكايد عديده لقتله. و بعد أن فشل فى هذا العمل و أدرك بعظمة الشاه، خرّ على قدمه و طلب العفو منه.

١٧٤٢ ـ مات أبوه شاه حبيب

١٧٥٢ ـ مات فى بهيت فى ١٧٥٤، أقام ميان غلام شاه كولهورو ضريحا فوق قبره من و مبنى الضريح تصميم إيدان، الفنان الكبير فى ذلك الوقت.

مراجع البحث المختارة
(الإنجليزية)

١ ـ الوادى الحزين ريتشارد بورتون، لندن (١٨٥١).
٢ ـ الرسالو · أرينست ترومب، ليبزيج (١٨٦٦)
٣ ـ حياة شاه عبد اللطيف بهيتائى ميرزا قالش بك (١٨٨٧)
٤ ـ حياة شاه عـبد اللطيف و ديانته وشعره · ليـلا رام و أتا غيل (١٨٨٩)
٥ ـ السند جازيت أى . اتش ابتكين. بومبائى (١٩٠٧)
٦ ـ قصص السند سى. ايه كينكائد (١٩٢٢)
٧ ـ شاه عبد اللطيف إم إم جيدوانى، إنديا سوسائتى لندن (١٩٢٢)
٨ ـ السند و صوفياؤها . جيثمال برسرام، حيدر آباد (١٩٢٤)
٩ ـ شاه عبد اللطيف من بهيت اتش. تى سورليه لندن (١٩٤٠)
١٠ ـ السكان الربانيون فى الصحراء . مليك غورديال (١٩٤٩)
١١ ـ روح الأدب السندى فى ال. ڤاسوانى (١٩٥٤)
١٢ ـ الشاعر النابغ فى السند كريم بخش خالد، حيدر آباد (١٩٦١)
١٣ ـ أغنية العقد فيراث داس هو شاند، حيدر آباد (١٩٦١)
١٤ ـ الصوفية و المتصوفون و اليوجيون فى الهند بينكيه بيهارى، بومبائى (١٩٥٢)
١٥ ـ تقديم الشعر الباكستانى جى ألانا، كراتشى، (١٩٦٢)
١٦ ـ شاه عنايت شهيد الجوك انيه مارى شيميل، لندن (١٩٦٩)
١٧ ـ شاه عبد اللطيف حياته و أعماله موتيلال جوتوانى، جامعة دلهى (١٩٧٥)
١٨ ـ شاه عبد الكريم، الشاعر الصوفى من السند، موتيلال جوتوانى، نيو دلهى (١٩٧٠)
١٩ ـ شاه عبد اللطيف كليان إدوانى ساهتية أكاديمى، نيو لهى
٢٠ ـ الشعراء بالفارسية فى السند . اتش، جيه سدارنجانى.
٢١ ـ التصوف فى السند . اتش جيه سداربخانى، جورنال جامعة البنجاب للأدب الهندى فى العصور الوسطى.
٢٢ ـ المهاراجا رنجيت سينغ، باب السند ك. ك كهوللر نيو دلهى (١٩٨٠)
٢٣ ـ التصوف الاسلامى تارا شاند رستوجى، استرلينج (١٩٨٣)

الأردوية

١ ـ عكس لطيف . أغا تاج محمد · حيدر آباد (١٩٥١)
٢ ـ مفكر مهران اختر انصارى · كراتشى (١٩٥٣)
٣ ـ نظر لطيف كراتشى (١٩٥٤)
٤ ـ روح لطيف رشيد أحمد لاشارى حيدر آباد (١٩٥٤)
٥ ـ نغمات لطيف : كراشتى (١٩٦٠)
٦ ـ شاه جورسالو الشيخ أياز حيدر آباد (١٩٦٣)

الهندية

١ ـ شاه لطيف كاويا موتيلال جوتوانى، نيو دلهى (١٩٦٩)
٢ ـ شاه لطيف كليان ادوانى، نيو دلهى (١٩٧١)

تعريب : شميم الحسن أمانة الله

قصة قصيرة :

عقــار الغابــة

بقلم : أمريتا بريتم

كانت أنجورى زوجة جديدة لخادم فى بيت جارلى بجوار جيرانى جديدة لأنها كانت زوجة ثانية لزوجها على هذا كان زوجها ذو زواجين فإنه دخل عالم الزواج الثانى و أنجورى جديدة لأنها كانت حتى الآن فى عالم الزواج الأول و جديدة أيضا لأنها لم تمض على زفافها سنة كاملة

مضت خمسة أعوام منذ أن ذهب بربهاتى إلى قريته فى إجازة للاشتراك فى جنازة زوجتها الأولى و المراسيم الأخيرة لها يقولون إن والد أنجورى قد عصر منديل بربهاتى يوم المراسيم الأخيرة فى القرية. فمن لم يتبلل منديله بدموعه بموت زوجته ، فيتبلل فى اليوم الرابع أو يوم المراسيم الأخيرة بمسح جمسها و عندما ينهض والد بنت فى ذلك اليوم ليعصر ذلك المنديل فكأنه يقول " إننى أعطيك إبنتى مكان تلك الزوجة الميتة. فلا داعى لك الآن للبكاء. إننى جففت منديلك المبتلة.

هكذا تم زواج بربهاتى الثانى بأنجورى و لكن لكونها صغيرة و إصابة أمها بمرض وجع المفاصل تأخر زفافها لمدة خمس سنين على أى حال مضت تلك السنون، الواحدة تلو الأخرى و كان قد أخبر بربهاتى مستخدميه عند ذهابه إلى قريته للزفاف بزوجته هذه السنة بأنه إما أن يأتى بزوجته لتسكن معه فى المدينة أو أنه لن يرجع من قريته، فتردد مستخدموه أولا لأنهم لم يريدوا أن يتحمّلوا نفقة أكل شخصين مكان شخص واحد. و لكنهم وافقوا بعد ما سمعوا خادمهم يقول إنه سوف يتخذ المكان الخلفى غير المبلط لغرفته مطبخا لزوجته بعد تنظيفه. هكذا جاءت أنجورى إلى المدينة. إنها لم ترفع قناعها لمدة أيام أمام رجال الحىّ حتى أمام النساء و لكن بعد ذلك تخفف تدريجيا. كانت أنجورى تضيف إلى رونق الحى عندما كانت تمشى لابسة حلاها الرنانة. و كذلك تزيد البهاء هناك بابتسامها العذبة الخلّابة. و مع أنها كانت تنفق معظم أوقاتها فى غرفتها ، إلا أن رونقا عجيبا تصاحبها لما كانت تخرج من بيتها.

" أية حلية هذه فى قدميك يا أنجورى ؟ "

" إنها حلقات فضية "

" و ما هذا فى أصابعك ...؟ "
" إنه خاتم"
" و فى ذراعيك ...؟ "
" إسمها بشيلا "
" و على جبينك ...؟ "
" يقال لها على بند "
" اليوم لم تلبسى شيئا فى خصرك ؟ "
" إنها ثقيلة جدا ألبسها غدا ، اليوم أنا ما لبست الطوق أيضا. فقد انكسر لحامه. أذهب غدا إلى المدينة لأستصلحها. كما أشترى مسمارا لأنفى. كانت عندى حلية كبيرة لأنفى أعطتها لى أم زوجى."

هكذا كانت أنجورى تلبس حلاها الفضية بتدلّل و تريها بتدلل.

و بعد قليل لما تغير الجوّ و صارت أنجورى تختنق فى غرفتها ، كانت تجلس أمام بيتى ، عند أشجار النيم.

و كانت بئر قديمة على مكان مرتفع بالقرب من تلك الأشجار و كانت البئر مهجورة فلم يكن أحد يجلب الماء منها إلاّ أن شارعا كان يعبّد بالقرب منها على نفقة الحكومة. و العمّال كانوا يستعملون ماء البئر لذلك كان يوجد هناك وحل فى معظم الأوقات.

" ماذا تقرأين يا سيدتى ؟ "
" يوما لما جاءتنى أنجورى ، كنت أقرأ كتابا تحت أشجار النيم "
" هل تعرفين القراءة يا أنجورى ؟ "
" لا أعرف "
" فتعلّمى ؟ "
" لا "
" لماذا ؟ "
" إن تعلم القراءة إثم بالنسبة للمرأة "
" هل القراءة إثم للمرأة فقط و ليست إثما للرجل ..؟ "
" لا .. ، ليست إثما للرجل "
" من قال لك هذا ؟ "
" أنا أعرف ذلك "
" لكننى أقرأ . هل أنا آثمة ...؟ "
" النساء فى المدن لا يرتكبن الإثم و لكن نساء القرى يرتكبنه "

انفجرت أنا ضاحكة و ضحكت أنجورى و لكن كل ما كانت أنجورى قد سمعت و اعتقدت ، كانت حقيقة. لذلك لم أقل لها شيئا. فلو كان بإستطاعتها أن تقضى أوقاتها فرحة مسرورة داخل حدود حياتها ، فكان ذلك شيئا حسنا. كنت حينذاك أحدق فى وجه أنجورى. إنها كانت ممتلئة الجسم سمراء اللون. يقولون إن المرأة مثل عجينة الدقيق و البعض منهن يكن ألين من العجينة حتى لا يمكن جعلها خبزا مدورا و لكن جسم البعض فقط يكون مثل خمير

الدقيق و يصعب طلمها بمطلمة. و إن لحم بعض المرأة يكون صلبا بحيث يسهل صنع أي شكل من الخبز منه.

ظللت أحملق إلى وجه أنجورى ، و إلى صدرها و إلى أرجلها. إنها كانت متماسكة الجسم متناسقة الأعضاء. و كنت قد رأيت زوجها بربهاتي أيضا فإنه كان قصير القامة ، منخفض الوجه.

فلما رأيت شكل أنجورى ، خطرت لي في نفسي مقارنة عجيبة بأن بربهاتي لا يستحق أكل هذه العجينة المتصلّبة. و إنّ من يضع هذه العجينة مغطيا بغطاء كثيف ، فهو قاسي القلب. فضحكت بنفسي على هذه المقارنة. و لكنني ما شئت أن أشعر أنجورى بهذه المقارنة.

فانتقلت بحديثي إلى أمور بسيطة متعلقة بقريتها و أبويها و إخوتها و أخواتها و حقولها و مزارعها ، فسألت

" ما هي طريقة الزواج في قريتك ؟ "

" عامة تكون البنت صغيرة في عمر خمس سنين تقريبا حينما تعبد هي قدم شخص."

" كيف تعبد القدم ؟ "

" يحمل والد البيت صينية مملوءة بالزهور و فيها روبيات فيضعها أمام الولد."

" إنها عبادة الأب و ليست عبادة البنت ؟ "

" لكن الوالد يعبده نيابة عن البنت "

" و هل تنظر البنت زوجها المنتظر ؟ "

" لا ، البنات لا ينظرنه "

" هل البنات لا ينظرن أزواجهن ؟ "

" كلا "

" أ لا ترى أي بنت أبداً ؟ "

" لا أبداً "

" قالت أنجورى أولا " لا " ثم سكتت قليلا فقالت

" البنات العاشقات، ينظرنه "

" هل بنات قريتك يعشقن .؟ "

" بعضهن "

" هل البنت التي تعشق شخصا أ لا تكون أثمة .. ؟ " (في الحقيقة ، أنا تذكرت كلام أنجورى بأن المرأة تكون أثمة لو تعلمت القراءة. فافتكرت أن الحب أيضا على هذا يكون سببا للإثم) فقالت أنجورى فوراً .

" إنه إثم ، إثم كبير "

" إذا كان الحب إثما فلماذا هن يحببن أحدا ..؟ "

" في الحقيقة يطعم شخص البنت شيئا. فيتولد في قلبها الحب له "

" ماذا يطعمها . ؟ "

" عقارا من عقاقير الغابة. يطعمها في الحلاوة أو في التنبول فتبدأ البنت

تحبّه و تفضله على كل رجل فى العالم."
" صحيح ..؟ "
" نعم أنا أعلم. فقد رأيت بعيونى "
" رأيت من . ؟ "
" كانت لى زميلة ، تكبرنى قليلا فى السن"
" إذن ، ماذا حصل .؟ "
" إنها ، صارت مجنونة. و هربت معه إلى المدينة "
" لكن كيف علمت أنه أطعم زميلتك عقارة .؟ "
" هل أطعمها فى حلاوة ؟ أ تظنين أنها هجرت أبويها و ذهبت معه إلى المدينة .؟ "
" إنه كان يعطيها أشياء كثيرة ! يعطيها الساري، و أسورة زجاجية و عقودا من الدّرر."
" هذه أشياء ! و لكن كيف علمت أنه أطعمها عقارة ؟ "
" إذن كيف أخذت تحبها إذا لم يطعمها شيئا ؟ "
" الحب قد ينشأ له بدون ذلك أيضا "
" كلا . ، كيف يمكن لأحد أن يحب شخصا يكره أبويه ؟ "
" هل رأيت ذلك العقار..؟ "
" لا ، ما رأيته ، هم يجلبونه من بعيد جدا و يخلطونه خفية فى الحلاوة أو فى التنبول. لذلك نصحت لى أمى بألا آكل شيئا من يد أحد."
" استحسنت جدا بأنك لم تأكلى شيئا من يد أحد ، و لكن كيف أكلت زميلتك ...؟ سوف تجد ما عملته ؟ "
" نعم .. تجد ما عملته " قالت أنجورى ذلك و لكنها أحست بعد ذلك بشفقة على زميلتها. فقالت فى حزن .
" أصبحت المسكينة مجنونة. فلم تكن تمشط شعرها. كانت تنهض مرات فى الليل و تغنّى."
" ماذا تغنى ؟ "
" لا يعلم أحد ماذا كانت تغنّى. إن التى تأكل عقارا تغنى كثيرا. و تبكى أيضا كثيرا."

انتقل الحديث من الغناء إلى البكاء. فلم أسأل بعد ذلك من أنجورى شئيا آخر.

لم تمض إلا أيام قليلة. لما جاءت أنجورى يوما و وقفت أمامى ساكتة. قبل ذلك كلما أتت كانت حليتها ترنّ " شم شم " نسمعها و هى على بعد عشرين قدما. و لكن اليوم لا يعرف أحد أين اختفت رنّة قدميها. فرفعت رأسى من الكتاب و سألتها " ماذا حدث يا أنجورى .. ؟ ظلت أنجورى تنظر إلىّ برهة ثم قالت بصوت خفيف .

" علمينى القراءة يا سيدتى ..؟ علمينى كتابة الإسم . ؟ "
" هل تكتبين رسالة إلى أحد ..؟ "

" لم تجب أنجورى شيئا. و ظلت تنظر إلى وجهى لمدة "

" أ لا تكونين آثمة بسبب القراءة .؟ "

" لم تجب أنجورى بعد ذلك أيضا و بدأت تتفحص فى السماء "

كان ذلك عند الظهر. أنا ذهبت إلى داخل البيت تاركة إيّاها تحت شجرة النيم. و لما خرجت مساءاً مرة أخرى رأيت أنها مازالت جالسة تحت شجرة النيم. كانت منكمشة جدا. لعل الهواء البارد فى المساء أثرت فى جسمها أنا كنت وراء ظهر أنجورى. و كانت على شفتى أنجورى أغنيـــة. كأنها تبكى و تقول . " لا أدرى كيف أقضى عمرى الباقى و خاصة شبابى"

و لما أحست أنجوري بمجيئتى خففت من غنائها و أدارت وجهها إلىّ وهى تردد أغنيتها تحت شفتيها بخفية

" أنت تغنين جيداً ، يا أنجورى "

و ظهر لي أن أنجورى قد حبست دموعها المرتجفة و وضعت مكانها ابتسامة مرتعشة.

" أنا لا أعرف الغناء "

" أنت تعرفين "

" إنها .. "

" هل سمعت هذه الأغنية من زميلتك ؟ "

" غنى لى مرة "

" إنها ليست إلاّ أعــدادا. فى السنة، يكون موسم المطر لمــدة أربعة شهور، و الصيف لمدة أربعة شهور و الهواء البارد لمدة أربعة شهور."

" لا هكذا. بل اسمعينى بالغناء ؟ "

لم تغن أنجورى. و لكنها عدت الشهور الإثنا عشر على أصابعها. كأنها تعد كل الحساب بها.

" يكون الموسم باردا لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه القلوب. و يكون الموسم حاراً لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه الهواء. و يكون الموسم مطيرا لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه السحاب."

و جعلت أنجورى تنظر إلى وجهى. أردت أن أضع يدى على كتفها لأسألها. " هل أكلت عقار الغابة يا مجنونة ؟ " و قد وضعت فعلا يدى على كتفها و لكنى سألتها بدلا من ذلك .

" هل أكلت الطعام ؟ "

" الطعام " رفعت أنجورى وجهها و رأتنى و أنا شعرت بيدى الموضوعة على كتفهابأن جسم أنجورى كلها ترتعش. لعل الأغنية التى غنتها الآن عن السحاب المرتعش فى موسم المطر، و الهواء الحار المرتعش فى موسم الصيف ، و القلب المرتعش فى موسم البرد ، قد أثرت أثرا واضحا فى جسمها

كنت أعرف أن أنجورى تطبخ طعامها بنفسها و زوجها بريهاتى كان يطهو الطعام لمستخدميه. و كان يأكل هناك ولذلك ما كانت تنتظره أنجورى للأكل. فسألتها مرة أخرى.

" هل طبخت الطعام اليوم أم لا ...؟ "
" ما طبخته حتى الآن "
-" هل طبخت صباحا و هل شربت الشاى ؟ "
" الشاى ...؟ اليوم لم يكن اللبن موجوداً "
" لماذا لم تأخذى اللبن اليوم ..؟ "
" أنا لا أخذ اللبن. بل .... . "
" أ لا تصنعين الشاى كل يوم ...؟ "
" إنما أشرب "
" إذن ماذا حدث اليوم ..؟ "
" اللبن ، فى الأصل رام تارا .... . "

رام تارا خفير فى حيّنا. و هو حارس مشترك لكل واحد. يحرس البيوت طوال الليل. و يشعر بالنوم العميق صباحا. تذكرت أنه لما لم تكن أنجورى قد جاءت ، كان يأخذ رام تارا كوبا من الشاى من بيوتنا صباحا. من بيت يوما و يوما أخر من بيت و يشـربه ثم ينـام على سريـره عند البئر. و منذ أن جاءت أنجورى ، كان يأتى بلبن من صاحب جاموس. ثم يضع على موقد أنجورى قدر الشاى. و كان بربهاتى و رام تارا و أنجورى كلهم يشربون الشاى جالسين حول المـوقد. و لعلى أذكـر أن رام تارا كـان قد أخذ إجـازة و سافر إلى قريته منذ ثلاثة أيام.

شعرت بضحكة مؤلمة ثم قلت لها:
" و أنت يا أنجورى ! أ لم تشربى الشاى منذ ثلاثة أيام "
" لم تقل أنجورى شيئا بل هزت رأسها بالنفى فقط "
" أ لم تأكلى الطعام أيضا ؟ "

لم تعرف أنجورى الكلام و بدا لى أنها إما لم تأكل الطعام مطلقا أو إن أكلت فقدراً يسيراً منـه.

و قد تمثل أمام عينى شكل رام تارا تماما. وسيم القامـة ، سليم البنيـة ، و صاحب عيون جذابة خجولة ، و ذا أسلوب خاص للتكلم.
" أنجورى ...؟ "
" نعم يا سيدتى "
" هل أكلت عقار الغابة ؟ "

سالت دموع على وجه أنجورى. فبللت شعرها و شفتيها. و كانت الكلمات الصادرة من فمها أيضا مبللـة " أحلف لك بأننى لم آكل أبدا حـلاوة من يـده. و لم أقبل التنبول أيضا ، ماعدا الشاى ، يمكن أنه قد ......" ثم غرقت أصوات أنجورى كلها فى دموعها.

تعريب : سراج الحسن

استعراض الكتب

إسم الكتاب : فلسفة الحب فى "طوق الحمامة" دراسة تحليلية

تأليف ، عبد الله كوتى . سى . فى.

الناشر: مكتبة الهدى ، تيرورانكادى كيرلا، الهند

عرض : د/ شميم الحسن أمانة الله ،
جامعة جواهرلال نهرو ، نيودلهى.

يتناول هذا الكتاب بدراسة تحليلية أحد المنجزات المهمة فى الفكر و العلم لمفكر اندلسى إسلامى كبير و هو كتاب طوق الحمامه الذى ألفه ابن حزم الفقيه و الطبيب و الشاعر و الفيلسوف و المؤرخ (٩٩٤ - ١٠٦٤) فى علامات الحب ونشره المستشرق بتروف فى ليدن فى ١٩١٤م و مما تتمس أهميه هذا الكتاب انه ترجم إلى لغات عالمية عديده مثل الانجليزيه و الروسيه و الألمانية و الإيطالية و الفرنسيه و الأسبانية كما حلل و طبع فى البلاد العربية مرات

قسم الباحث هذا الكتاب إلى أربعة فصول فدرس فى الفصل الأول تاريخ الأندلس ثم حياة ابن حزم و شخصيته و البيئة التى عاش فيها و فى الفصل الثانى تناول تحليل طوق الحمامة من كل النواحى تحليلا علميا دقيقا وبهذا الشان ذكر نظرية الفلاسفة و المفكرين فى الحب منذ افلاطون إلى الوقت الحاضر. و نقل ما قاله افلاطون بأن محبة الله هو الحب المثالى و قول ابن حزم " إن محبة الله هى الدرجة العليا فى الحب

ثم تحدث الباحث فى الفصل الثالث عن الحب و اقسامه مثلا الحب الجنسى و غير الجنسى ثم الرومانطيقى و الرفاهى و ما إلى ذلك

و فى الفصل الرابع يبحث فى الاتصال الشعرى و الإتصال الوجودى و الاتصال بالكلام و الاتصال بالإشارة و الاتصال فى القرآن وغيرها

و هكذا حلل الباحث كتاب طوق الحمامة تحليلا جيدا و استنتج من ذلك بأن ابن حزم مع كونه فقيها، فقد كان من أوائل الكتاب الذين كتبوا عن الحب و أقسامه فى ضوء العلوم الحديثة و علم النفس بصورة خاصة و إن النظريات و الآراء التى ذكرها فى هذا الكتاب تتوافق تماما مع ما توصل إليها علماء النفس فى موضوع الحب فى العصر الحديث

مجلــــة **ثقافة الهند** فصليـــة

المجلــد ٤٣ العـــدد ٣

١٩٩٢م

محتويات هذا العـــدد:

شيخ الحديث حيدرحسن خان التونكى

بقلم: سماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى
ندوة العلماء لكناؤ

كان أهالى لكناؤ السعداء - و قد تمتعوا فى كل دور من أدوار التاريخ بالفرص السانحة لزيارة أجلة العلماء و كبارالمشائخ - قد تعودوا فى الفترة ما بين سنة ١٩٢٣م و ١٩٤٠م ، قرابة سبع عشرة سنة على رؤية وجه مشرق وجبين زاهر تذكر رؤيته ذكرى العلماء السلف الصالحين، و تنجذب إليه النفوس تلقائيا كالحديد إلى المغناطيس، ويتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور، كان مربو القامة وربعا من الرجال، متناسب الأعضاء، بهى الطلعة، وضاء الجبين، أبيض اللون مشرب الحمرة، كأنما فقىء فى وجنتيه حب الرمان، عيناه فيهما خيوط حمراء تشفان عن آثار السهر والعبادة، خافض الطرف، يمشى هونا هادئ المشية غير أنها تنم عن الثقة والاعتداد، ملتزما للعمامة الأفغانية حمراء أحيانا وبيضاء فى أكثرالأحايين مائلة إلى الجبين، يلبس الحذاء البسيط المصنوع من الأديم الرخو، إزاره شرعى يرتفع كثيراً عن الكعبين، لباسه فى الصيف قميص نظيف، وفى الشتاء قميص وعليه صديريّة قطنية أزراها الفوقية مفتوحة، دائم الأخذ في يده بعكازة خاصة كثيراً ما يستعملها سكان الولايات الهندية، بسيطة لكن صلبة منيعة يمكن بها الدفاع عن حوزته والحفاظ على غيرته وأنفته، صورة بريئة نزيهة، وشخصية كريمة محببة رآها أصحاب دكاكين لكناؤ و المارون بالطريق مراراً وتكراراً ذاهبة وقادمة مشياً على الأقدام من كوبرى" غومتى" إلى سوق جهاؤلال" و التى تعرف الآن " بغونن رود" - مارة بقيصرباغ ونظيرآباد وأمين آباد، و لاسيما فى مساء الجمعة التى هى يوم العطلة فى المدارس العربية، ذلك كان الشيخ حيدرحسن خان التونكي الذى كان يروح من ندوة العلماء مشياً على الأقدام بصورة متواصلة بعدصلاة العصر إلى مدير ندوة العلماء، و كان بيت مدير ندوة العلماء آنذاك يقع حيث تبتدأ منه "سكة محمد على" كانت عادة

الشيخ مادام العلامة السيد عبد الحي الحسني مديرندوة العلماء الأسبق حياً أن يزوره في كل جمعة، فيجلس عنده ساعة، ويحيطه علماً بأوضاع المدرسة وملابساتها، ويتشاورمعه ثم يعود، ثم لما خلفه نجله الأكبر الدكتورالسيد عبد العلي الحسني ، وتولى الاشراف على إدارة ندوة العلماء لم يتخل عن عادته، فكان يزوره بنفس الصورة في الفترة ما بين سنة ١٩٣٠م و ١٩٤٠ م زهاء عشر سنوات، ويعود بعدما يقضي معه ساعـة، وقـد يكون معـه طالب أو طالبـان أو ضيف زائـر مـن "تونك" لم يتنازل الشيخ عن عادته هذه قيد شبرة في الصيف والشتاء والمطر، فإذا مرّ بالسوق أهوى إليه كثيرمن أصحاب الدكاكين تاركين دكاكينهم ، واندفعوا لمصافحته، وقديسعد بعضهم بتقبيل اليد.

ولدالشيخ في تونك (TONK) إحدى إمارات "راجبوتانه" سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤م) كان والده الجليل إسمه أحمد حسن خان، انتقل جده من"بنير" إلى نجيب آباد" و أقام بها، ثم انتقلت هذه الأسرة بعد زمن إلى إمارة " تونك" التي كان الأمير مير خان مؤسسها من سكان منطقة "بنير" نفسها، درس العلوم البدائية من أخيه الشيخ المفتي محمد حسن خان و أخيه الثاني الفاضل المتبحر مولانا محمود حسن خان (مؤلف معجم المصنفين) وعالم كبير آخر الشيخ محمد حسن خان و مولانا عبد الكريم، ثم غادرإلى لاهورالتي كانت أنذاك مركزاً علمياً كبيراً، والتزم هناك بأذيال مولانا غلام أحمد النعماني، و لم يفارقه إلابعدمانال البراعة في جميع العلوم العقلية والنقليـة، و كان مولانا النعماني أنذاك عميد المدرسة النعمانية ومبعث جمال و شهرة وافتخارلها، وعادت هذه المدرسة لأجله موئلا للطلبة ذوي المواهب والكفاءات العالية والعزائم و الهمم الصميمة، وظل الشيخ حيدرحسن خان يعتبره إلى النهاية مرشده و مشرفه العلمي، وكان يحكي لنا وقائع الإقامة في لاهور بتلذذ وحلاوة، وفي نفس الزمن إنه رأى هناك مرزا غلام أحمد القادياني، كما استمع إلى خطب مولانا محمد حسن البتالوي، وفي زمن إقامته بلاهور قدم إليها ذات مرة الراحل منشي نولكشورمن لكناؤ، ودعاه أصحاب المدرسة النعمانية إلى مدرستهم لكونه ناشراً هاماً للكتب الدينية وشرفوه بالإكرام والتبجيل ، وفي نفس زمن طلب العلم زار مع أستاذه العـالم المعـروف مـن بنجـاب الشيـخ مهر علي شاه غولروي.

ولم تكن في ذلك الزمان علاقة التلاميذ مع أساتذتهم محددة ومقيدة بحلقة الدرس فقط، بل كانت علاقتهم علاقة الأبناء السعداء البررة والخدم المتفانين والأصدقاء الأوفياء في وقت واحد، و كان "نحو" بنجاب في ذلك الوقت معروفاً، درس الشيخ "شرح جامي" بغاية من الجدية والإهتمام ، ويغلب الظن أنه قام بتذريسه قرابة ست عشرة سنة، تعلم جيمع العلوم العقلية والرياضية أيضاً بغاية من العناية والإهتمام ونال فيها البراعة التامة، كماأنه درس دراسة تحقيق وإمعان المصادرالرئيسية لعلم الهيئة والفلك، و كان

المولعون بعلم الهيئة والهائمون بـه يتعلّمون منه "شرح تشغميني" و "التصريح" ويتعرفون منه استعمال الاصطرلاب والكرة حتى بعد ما اعتزل عن جيمع العلوم وانزوى إلى علم الحديث وجعله موضوعه وهوايته، واستظهرالمسائل النحوية إلى آخر حياته، وكان يحكي: عندما بدأ الشيخ غلام أحمد يخرج من محطة وطنه بعد ما ودّعني في السفر الأخير رجع إلى أدراجه من الباب وقال أوصيك بالإشتغال بالحديث والعكوف عليه، وحاول أن يغلب ذوق الحديث على كل ذوق وفن ، كيف امتثل الشيخ هذه الوصية المباركة سنُوافيكم بتفصيله فيما بعد

و التحق الشيخ بعد ما قضى نحبه من تحصيل العلوم السائدة بلا هور بالشيخ حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي نزيل بهوبال، واشترك في درسه للحديث الذى طارصيته في العالم وامتاز أنذاك بأسلوبه الخاص في شرح الحديث والخصائص اليمنية وعلو الاسناد لا في الهند فحسب بل في عهده كذلك (٢) تلقى الشيخ التونكى من الشيخ الخزرجي دروس الصحاح الستة ، وظل يقتبس من أشعة أنواره بغاية من الامعان والانهماك والتحقيق، منحه الشيخ الخزرجي سند جميع الصحاح و كتب الحديث المتداولة الذى قليل الوسائط وعال جدا، والذى ينتهي بواسطة واحدة إلى العلامة الشيخ محمدبن على الشوكاني صاحب "*نيل الأوطار*" ظل الشيخ التونكى يفدى أستاذه بنفسه إلى آخر حياته ويتفانى في حبه وهيامه ويعتبره أستاذا جيداً وعالماً متبحراً في الحديث، كان يقول إن الشيخ الخزرجي كان يحفظ الثلاثة عشر جزءا بكاملها لفتح الباري يورد محتوياته ويسمعها من حيث شاء، إنه اختارنفس أسلوب الشيخ واحتفظ به، كما أن الشيخ شارك في درس أستاذ آخرللحديث معروف في زمانه الشيخ السيد نذير حسين الدهلوى و أخذ منه الإجازه كذلك، لكنه كان في الواقع تلميذ الشيخ التونكى نفسه ويعد ذلك ثروة و مفخرة لحياته.

عاد إلى وطنه بعد إكمال الدراسة، و كان وطنه" تونك" أنذاك يعد مركزا كبيراً للدرس والتدريس، وكانت هي وحدها منطقة علمية رطبة خضراء في أرض "راجبوتانة" القاحلة الجرداء و كان يتهافت عليها مجانين شمعة العلم و الأدب حتى من باكستان وأفغانستان، و كانت في ذلك الوقت مدرستان مستقلتان قد أصبحتا مرجعاً للطلبة والراغبين في العلم، إحداهما المدرسة الخليلية والثانية المدرسة الناصرية، أما الأولى فقد كان يشرف عليها وإلى الإمارة الأمير إبراهيم على خان نفسه، وكان يحتل هنا منصة التدريس الشيخ حكيم بركات أحمد الذى كان يعد تلميذاً باراً للشيخ عبد الحق الخيرآبادى ووارثا لعلمه وفنّه، والذى طارصيته في العلوم العقلية خارج الهند والى أفغانستان و باغستان، والثانية المدرسة الناصرية كان يشرف عليها أخو الأمير السابق ذكره عبدالرحيم، و كان منصة الدرس و الإفادة هنا أيضاً متحلية بعدد من كبار العلماء، وفي مقدمتهم مولانا سيف الرحمن التونكى

لهاجر إلى كابول، استهل الشيخ التونكى التدريس في هذه المدرسة، وكان شرف المدرسة عبدالرحيم غاية الإجلال والتكريم له، يعدّ كل خدمة له مفخرة سعادة لنفسه، ولم يكن راضياً بأن يتوجه الشيخ إلى مكان آخر مهما كان لأمر، وكان الشيخ نفسه غاية الإحترام له ، ومشيداً و معترفاً بخلوصه صفائه و حبه للعلم و تواضعه و دماثة خلقه وعرفانه بالجميل، وظل يذكره إلى خر حياته بشئ كثيرمن الحب والإحترام وغاية من الرقة والتأثر القلبى، اول الشيخ التدريس في هذه المدرسة مدة طويلة، وبرز منها عدد كبير من لطلبة ذوى الصلاحيات والكفاءات الجيدة.

وسافر الشيخ على جناح الشوق والحنين في عنفوان شبابه إلى الحجاز ع أخيه الأكبر مولانا محمود حسن خان التونكى وغالبا مع السيد بد الرحيم خان، وسعد بالحج والزيارة، وكان شيخ العرب والعجم الحاج مدادالله المكى آنذاك حياً ـ بايع الشيخ على يده و أجازه الشيخ المكى في زمن قامته ذلك لما لمس فيه من صلاحيات واستعدادات باطنة قيمة، وكان مما أوصاه دم إقامة أية علاقة مع الأمراء والولاة و الاستغناء منهم والابتعاد عنهم مهما مكن ذلك، عمل الشيخ بهذه الوصية بقوة وشدة حتى لم يرض بأن يرى صورة لأمير إبراهيم على خان كذلك، ولم يتجشم لقاءه ولا أقام معه علاقة إلى آخر ياته، وله في ذلك ملحة تجدرهنا بالذكر بمناسبة هذه الوصية، و هي أن لأمير خان أصيب بمرض شديد فرغب أو أشارعليه بعض أمنائه وجلسائه أن حضر جميع صلحاء البلد وعلمائه للرقية، و كان لعالم جليل مثل الشيخ من لصعب جداً أن يتخلص أو يتستر فى ولاية صغيرة بل كان ذلك ذا خطر ضرر كذلك. فقال له أحباؤه و مخلصوه إن رفضك للحضوريمكن أن يحدث سعوبات ومشاكل في إقامتك والخدمة هنا، ويهيئ للحاسدين والانتهازيّين ضعاف النفوس فرصة سوء الظن بك، فرضي الشيخ رغم أنفه بعد جهد كبير الذهاب ، وعاد بعد مارقاه بدون أن يلقى نظرته على وجهه، ذلك ما كان عمله وصية مرشده، ومن هنا كان الشيخ لايعرف الأمير ابراهيم علي خان بوجهه لى آخر حياته، وتولى الإمارة بعد الأمير إبراهيم على خان نجله الأمير سعادت على خان . فعامل الشيخ معه نفس المعاملة، كان فى أسرتنا احتفال، كان الأمير سعادت علي خان يحضر أعياد أسرة السيد أحمد الشهيد و حفلات لنكاح بنفسه، فقدم الأمير إلى قافله (٣) بتونك للحضورفي مثل هذا الإحتفال، كان الشيخ قد حضر الإحتفال بناءاً على ما كانت علاقاته القديمة مع هذه لأسرة، و لم يعرف الأمير، و علم بإخبارأحد أنه أميرالولاية، و رغم ذلك م يتقدم إليه للتسليم وبقى جالساً في مكانه.

كانت دارالعلوم ندوة العلماء محرومة منذ زمان من خدمات أستاذ لحديث و اخصائى فيه، فقد كان مكان المحدث فيها شاغرا منذ استقالة الشيخ محمدعرب (خلف الشيخ حسين بن محسن الأنصارى) سنة ١٩٢١م، وكان ذلك

زمـن إدارة العلامـة السيـد عبد الحـي الحسنى، و كان هونفسـه تلميذاً للشيخ حسين، ويتمتع بالإجازة لرواية الحديث من الشيخ مياں، فوقع اختياره على أستاذه مولانا حيدرحسن خان نفسه الذى كان يعرفه من "تونك" و كان عديد من أقربائه من تلاميذه، وكان العلامة السيد عبد الحي الحسنى نفسه قدأقام في "تونك" فكان يطلع على فضل الشيـخ و نبوغـه و زهـده و تقـواه و براعته في علم الحديث، فوجّه العلامة الحسنى إليـه الدعـوة للقدوم إلـى ندوة العلماء مع السيد طلحة الحسنى أحد تلاميذه و قبول منصب شيخ الحديث، فرصة الخدمة فى مدرسة معروفة علاوة على المنصب و الراتب كان كل ذلك دونما شك من الدوافع واللافتات لعالم عام ومدرس عادى، لكنه لم يكن كافياً للحكم بالمغادرة والإرتحال لعالم له حظه الوافر من الزهد والقناعة وخدمة العلم بالغيرة والوفاء والإخلاص مثل شيخنا التونكى، ثم إن طبيعته لم تكن تسمح بأن يزعج أميراً كريماً عالى الهمة رحب الذراع عارفاً بالجميل مثل السيدعبدالرحيم، فرفض هذا الطلب، ولم يزل الإلحاح من جانب والرفض من جانب آخر قائماً إلى أن لبّى هذه الدعوة الملحة بعد وفاة السيد عبدالرحيم خان (٤) وتولى وظيفة شيخ الحديث في نـدوة العلماء فـى ذى الحجة سنة ١٣٣٩ هـ الموافق أغسطس ١٩٢١م، وفوّضت إليه كتب هامة للحديث، وبدأ الشيخ يدرّسها بغاية من الإنهماك و الإهتمام، و كان العلامة السيد عبد الحى الحسنـى ـ كما ذكرت ـ آنذاك مدير ندوة العلماء، قام الشيخ التونكى بوظيفة التدريس في حياة العلامة السيد عبدالحى الحسنى قرابة سنتين، توفى العلامة الحسنى في ١٥/ جمادى الثانية سنة ١٣٤١هـ (٣/ فبراير سنة ١٩٢٣م) إثر مرض خفيف، و كان الشيخ قد زاره قبل وفاته بساعات حسب عادته بعدصلاة العصر في كل جمعة، وعاد إلى دارالعلوم بعدصلاة المغرب بعد مالقيه وتحادث وتشاورمعه، وبعدوفاة العلامة الحسنى اختير الأمير السيد على حسن خان (نجل الأمير السيدصديق حسن خان) مديراً لدار العلوم ندوة العلماء و مشرفاً على شئونها.

ابتدأ عهد إدارة الدكتورالسيدعبدالعلى الحسنى بصورة مستقلة من سنة ١٩٣١م ، واستمر إلى آخر يوم لإقامة الشيخ حيدرحسن خان التونكى في رحاب دارالعلوم ندوة العلماء، تعاضد الشيخ مع كل منهم وتقاسم مسئوليتهم بكامل الإخلاص والنصيحة،وقد مارس مسئولية العمادة سبع سنوات في عهد إدارة الدكتورالسيد عبد العلى الحسنى الذى كان سافر إلى تونك بصورة مستقلة للفترة مابين ربيع الأول سنة ١٣٥١هـ و ١٣٥٨هـ ولم يتغير شىء من حسن شارته و أناقته و أنفته واعتداده طوال هذه المدة رغم تنوع المسئوليات وتلون الأشغال، وأرى وظائفه واجباته بغاية من التحرق و الإهتمام و بقوة و حماس، و قدحدثت في هذه الفترة أزمات و مآس و ثورات هامة، حيث تمّ تعطيل الأساتـذة و تعيينهم، و تغيـر المديـر، و وقـعت الاضطرابـات، و واجهت

نـدوة العلماء أزمات اقتصادية ومشاكل مالية، و وقع التخفيف في الرواتب، ولكن الشيخ ثبت صامدا فلم يكل عزمه ولم تفتر همته ولم تزل قدماه و لا تغير وفاؤه و إخلاصه شيئاً إنما كان همه وتفكيره في أشغاله وواجباته، وكان مثله في ذلك مثل الأساتذة المتقدمين الذين أعلنوا بلسان الشاعر ما معناه

" لم نقرأ قصص سكندر و دارا، فلاتسألنا إلا حكايات التضحية والوفاء وروايات الحب والتفاني"

سعدت بحبه وعلاقته سنة١٩٢٩م عندما انتهيت إلى دراسة كتب الحديث العالية، درست منه في دارالعلوم ندوة العلماء صحيحي البخاري و مسلم و أباداؤد و الترمذي، كماتعلمت منه بعض أجزاءالبيضاوي على حدة، و قد درّسني الشيخ بعض دروس المنطق بشوقه ورغبته، وأقمت معه ليل نهار مدة من الزمن في غرفته التي كانت دار الحديث أيضا، والتي كانت واقعة في الطابق الفوقي للجزء الشرقي الجنوبي من مبنى دارالعلوم الأساسي بجوارالقبة، رأيت آنذاك عن كثب وتجربة في خلوتـــه و اجتماعـــه و شغلـــه و راحته و مآكله و مشربه و آناء الليل و أطراف النهار ولم تستمر هذه السلسلة أسابيع وشهوراً بل قرابة سنتين، و كان الشيخ في ذلك الوقت كصحيفة مفتوحة أمام عيناي ، و حق لي و الله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا	عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت	أذني بأحسن مما قد رأى بصري

كان جدول أعماله اليومية أن يستيقظ مبكراً في الجزء الأخير من الليل ويطيل النوافل، ويجهرها قليلاً، كانت قراءته رقيقة مرققة، و كان يطيل السجــدة كثيــراً، ويصل صوت بكائه فيهــا حتى إلى آذاننــا نحــن الغافلين ، و يشتغل بالذكر الخفي طويلا بعد أداءالنوافل بالقاء منديل على وجهه كان يضعه لديه، و كان مولانا حفيظ الله عميد دارالعلوم هوالذي يؤم ، و كان من أهل الحديث مذهباً و عاملا به بقوة و شدة، و كان الشيخ التونكي يأتم به دونما أدنى تكلف رغم كونه حنفياً متصلباً، ولما استقال مولانا حفيظ الله وتم تشييد المسجد في هذه الفترة بدأ شيخنا هو الذي يؤم بالقوم. كان يبرهن في دروسه على إسفار الفجر الذي هو المسلك الحنفي المشهور، لكن كان عمله على العكس من ذلك أن يبدأ صلاة الفجر في الغلس ويطيل القراءة و يختمها في الإسفار، ويقول هذا هو الأرجح و الأقرب إلى السنة، وبذلك يتم التطبيق بين أحاديث كلا الطرفين، كان قارئ القرآن بالضبط والإهتمام، و حفظ القرآن في شبابه ، يقرأ في الفجرالسورالطويلة عامة، قراءته لسورة القلم و الحاقة تدوي في الأسماع إلى الآن، كانت قراءته مؤثرة مرققة تترنح بهـا أعطاف المستمعين، لم تكن معرفته بالتجويد بسيطة عادية بل كانت له ملكة راسخة وبراعة تامة في هذا الفن، فكان يقرأ " الشاطبي" الذي يعد من أصعب كتب التجويد بكل

يسر و سهولة، وكان يعير فن التجويد أهمية كبيرة و خطورة بالغة، ويعت
ناقصاً من العلماء لا يقرأ القرآن صحيحاً و يجهل المبادىء العامة للتجويد، ،
هنا كانت علاقته وثيقة بالمدرسة الفرقانية (لكناؤ) التى كانت تهتم كثي
بالتجويد، وما دام منشئها مولانا السيد عين القضاة حيا ظل يزوره ويلتقى ب
وبعد ما توفى قامت علاقاته بكبار الأساتذة هناك مثل القارى عبد الما
والقارى نذر،وبناءاً على هذا الذوق أنشأ في وطنه " تونك" مدرسة للحا
والتجويد بنفس إسم المدرسة الفرقانية، وحصل بها خدمات القارى عبد الما
لمدة قصيرة.

و كان من عادة الشيخ أن يشتغل بعد الفجربالمطالعة، ولم يكن الفطو
من عادته و لا الشائ، ومقول "تونك" ليس من عادتهم الفطور بصورة عامة، ك
يتناول الغداء فى أول الوقت حسب الفصول، فكان ذلك فطور وغداءه، فـ
ابتدأ وقت المدرسة قدم الطلبة أنفسهم إلى غرفته و ابتدأ الدرس ، كان درسه
تطبيقياً لم يكن الطلبة يحتلون فيه منزلة السامعين أو الحاضرين في حفلة ء
حفلات الوعظ، كانت المصادرالرئيسية لفن الحديث والكتب المتعلقة بالرجـ
وأصول الحديث متوفرة لديه فى الرف بالقرب منه، يؤمرالطالب: هات الكتا
الفلانى ، وافتح الصفحة كذا وكذا واقرأ ، فكانت تنفتح عشرات من الكتـ
لحديث واحد أو مسئلة واحدة، و كان يتم أثناء الدرس مراجعة أحوال الرواة فـ
كتب الجرح والتعديل، وتقدم الدلائل والمقتبسات من الكتب الأخرى تأييـ
و إثباتا لمذهبهم، ويدورحولها البحث و النقاش بحرية و حياد تام، و كا
الطلبة يساهمون فى النقاش بالحرية وعدم التكلف، كان الشيخ معجباً بطريـ
التدريس لمولانا لطف الله العليغرى، وقد سعد بلتمذته لمدة من الزمن، يقو
الشيخ التونكى:كان الشيخ العليغرى، يجلس في مكانه و الطلبة فى أمكنتـ
ويبتدأ الدرس و ما إن تمضى ساعة حتى يرى أن الأستاذ والطلبة مختلطو
متشابكون و قد حمى و طيس البحث والنقاش، كان شيخنا مولعا بنفـ
الأسلوب، وكان أحب طالب لديه من يباحث ويناقش بحرية و يحاول فـ
المسئلة بجميع أبعادها، و لذلك ربما كثر عطفه و إهتمامه رغم كونه حنفـ
متصلباً بطلبة أهل الحديث الذين كانوا يحضرون الدرس بالاعداد و المطالعـ
و يحاولون إدراك حقيقة المسئلة و كنهها، و كان لايحب بالعكس من ذلك
لايحب الطلبة الذين يظلون ساكتين وصامتين أو يصدقون كل غث و سمـ
صما و عميانا، كان صوته يرتفع في أثناء الدرس و ينغمس في البحـ
والتحقيق تماماً، كان أسلوبه فى تدريس الحديث أسلوبا حديثياً يتحلـ
بخصائص المحدثين اليمنيين، وتنعكس فيه ملامح درس الشيخ حسين، كان قـ
استفاد من كتب العلماء اليمنيين كثيراً و لاسيما كتب الأميرمحمدبـ
إسماعيل الصنعانى (٥) والسيد محمدبن إبراهيم بن الوزير (٦) والعلا
مقبلى والعلامة الشوكانى، ويراجعها و يعزو إليها، كما كان يكثر المراجعة ـ

علماء الأحناف كتب أولائك الذين يحتلون مكانة ثابتة في علم الحديث، والذين كان جل اعتمادهم على الأحاديث في إثبات المذهب الحنفى مثل الإمام الطحاوى فى المتقدمين والعلامة الزيلعي و إبن التركمانى و إبن الهمام فى المتوسطين والمتأخرين، وكان من ميزة درس الشيخ الكبرى أن ينشأ فى الطالب الشغف بفن الحديث والتذوق له ويحدث الإلمام الشخصى بكتب الحديث المبدئية والإطلاع الواسع العميق على طبقات كتب الحديث و درجاتها، وتبرزصلاحية الإستفادة من كتب أصول الحديث وأسماء الرجال ، و كانت للشيخ وظيفة خاصة للصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم يقوم بها بإستمرار و انتظام، سعد بالزيارة النبوية مرارا و تكرارا، كان يقول ربما استغرقت كثيراً فى قضية خلافية فحصلت على التوجيه أو الإشارة عنها فى المنام كذلك ، لقد كان بلغ حبه مع الإمام أبى حنيفة غاية العشق والتفانى، وحلت محبته مع المذهب الحنفى محل العقيدة واليقين، ربما رق قلبه و تملكه البكاء إذا ذكر الإمام أباحنيفة، ولأجل هذا الحب والتفانى ربما انطلق لسانه ببعض كلمات النقدللمعترضين على المذهب الحنفى ، مما يتجلى فيه لون المظاهرة والشكوى، وكان ممن تناوله بالنقد والإعتراض الإمام البخارى (رح) الذى قام بعدة انتقادات علمية على الإمام أبى حنيفة وراء ستار" قال بعض الناس" كان رأيه فى جامع الإمام البخارى الصحيح الوحيد الفريد ـ الذى تلقته الأمة بالإعجاب والقبـــول واعتبرتـــه أصح الكتب بعـــد كتاب الله ـ أن رواياته تقبل البحث و الانتقاد و أن رواته لايترفعون عن الجرح و التعديل، كانت دراساته هذه ربما تشكل محنة وابتلاءاً لأكثرتلامذته، لكن زهده وتقاه، واحترامه للحديث النبوى الشريف،وشغفه الزائد بالجامع الصحيح للإمام البخارى كان يتغلب على كل ذلك ويلقى عليه الستار، ولا يدع تلامذته يراودهم أى شك أو سوء ظن بالحديث والسنـــة أو ينشأ فـــى نفوسهم أى خلل و تقصير فـــي تعظيم السنـــة و احترامها، ولم يكن ذلك إلاّ ثمرة طيبة لنزاهة نفسه وصفاء نيته و نتيجة مشكورة لما كان يعتقد حجية الحديث والحاجة الملحة إلى السنة بل كان يدعو إلى ذلك ويتحمس له ويتفانى فى سبيله.

لم تكن له أى علاقة بأى عمل سوى الدرس و التدريس و لا أى عنايـــة و إهتمام بأى أمر آخر، أما السياسة فلم تكن له أدنى معرفة بهذا المجال بل كان يستوحش منها، ولم يكن للجرائد و الصحف أى سبيل إليه، و إذا أخبره طالب عن خبر سمعه وربما أعرب عن رأيه كذلك، وكان يكره حضور العلماء والمدرسين فى الحفلات و خطابهم فيها، و لايعتبر بين الوعظ والتدريس المنافاة و التغاير فحسب بل المعارضة و المنافرة كذلك، و كان يقطع رجاءه من الطالب الذى أولع بذلك وأصبح هوايته، كان شيخنا أصدق تذكاروأكمل نموذج للأساتذة المتقدمين، الذين أحرقوا جميع سفنهم و اطرحوا على عتبة العلم و ارتموا في أحضانه، وصاموا عن الدنيا و مافيها، و إنّ الاهتداء إلى دليل قاطع لمسئلة أو اكتشاف

حديث قوى أو الفوز بتأييد أحد من المتقدمين لرأيه كان ذلك عند شيخنا مبعث لذة لاتعدلها أى لذة، و كذلك تهلل وجهه بشراً و ترنحت أعطاه إذا ما توفرله كتاب مخطوط أوتحلى كتاب جديد لأحد من المتقدمين بالطباعة، كان يشترى الكتب بنفسه كما أنه كان استنسخ بعض الكتب الهامة من مكتبة السيدعبد الرحيم أو من رام فور، التى كان يلتزم بها ويعكف عليها دراسة ومطالعة، كان يواصل المطالعة بالليل مؤخرا جداً، وأذكر أنه لم يحتج إلى النظارة إلى آخر حياته، و كان ذوقه فى التدريس كذوقه فى الدراسة والمطالعة، ولاينظر فى ذلك إلى أن الكتاب قيم أو بسيط، فكان يدرّس الكتب البدائية للنحو و الصرف و المنطق بنفس العناية و الحماسة و الإهتمام الذى كان يدرس به المصادرالهامة أو كتب الحديث، كان يرغّب بعض الطلبة الأذكياء بنفسه و يشوقهم فى البحث و المطالعة ويكشف مسئوليته بتدريسهم إضافياً، كان كثير العناية بصحته، خائفا من الأمراض و الأسقام يتحاشى الدواء و العلاج ماأمكن ذلك، و يفضل الغذاء الطيب الهنىء البسيط على أكبر دواء منشط و مقو، يحاول التخلص ما أمكنه من تهمة الهرم والشيخوخة، ولم يكن يراعى في ذلك إلاّ و لا ذمة، أكرمه اللّه بالحظ الوافر من الحياء والغيرة الأفغانية، و كان لا يحب أن يكشف أى عضو من أعضاء جسمه - سوى الأعضاء التى تنكشف عادة - أمام الآخرين ، وكان يعتز بكونه أفغانياقحا، ويذمزايا الأفغان وخصائصهم كثيراً، لكن كان يحترم السادة كثيراً ويلقاهم بتواضع وإكرام و حفاوة بالغة.

كان من أبرز خصائصه بساطته وعطفه مع الطلبة ومساواته معهم، مما لم أرنظيره في العلماء والمدرسين، لم يكن يميزشيئا بين أولاده والطلبة بل لا أكون مبالغاً فيما إذا قلت إنه كان يفضل الطلبة السعداء الأذكياء على أولاده، وأنا شخصياً سمعت أولاده يذكرون ذلك ويشهدون به، لم يكن يعامل مع الطلبة معاملة أى تمييز و تفريق، و لايحب الترفع أو الخصوصية في أمرما، كان يشاركهم و يقاسمهم واجباتهم و أشغالهم دونما أدنى تكلف، ربما أدى ذلك إلى ابتلاء الطلبة. لكن كان الشيخ يشارك فيهابالحاح و إصرار، ربما حدث أن ذهبنا إلى النهر و كان قبالة المدرسة فإذا بالشيخ قد رافقنا، قلنا له أين تذهب يا شيخنا ؟ قال أذهب إلى حيث تذهبون ، اشتغلنا بغسل الثوب و الشيخ ظل جالساً قريباً منا، ذات مرة ذهبت إلى السوق أشترى الحذاء فرافقنى الشيخ، والتمست منه أن يستريح و أصررت عليه إصرارا لكن الشيخ أبى إلاّ أن يرافقنى، و كان الشيخ يغتاظ بأن يمنعه أحد من عمل جهد واجتهاد أو نزهة مشروعة ظانّا منه أنه ضعيف أو هرم، كنا قد ذهبنا إلى أعظم جره نعود العلامة السيد سليمان الندوى، أخذ مولانا مسعود على يوما البندوقية و خرج للصيد، و رافقناه نحن المدرسين الشباب لدارالعلوم ندوة العلماء، فنهض الشيخ وانطلق معنا، أكثرنا الإلحاح بأن لايتجشم الشيخ المشاق معنا،

ولكنه أبـي و قال واعجباً ! هل أنا أضعف منكم؟ فذهب معنـا ولم يسترح شيئا فـي الطريق ولا كلّ عزمه و لا فترت همته.

و كان من غناجه الخاص أن كان يتحاشى لقاء كبارالمشائخ و مشاهير العلمـاء و يقـول: لايرتاح القلب بلقـاء أعيـان الناس و سـرواتهم، فإنهـم لا يتقابلوننا بعاطفة الأخوة و التساوى و إنما هم معجبون بأنفسهم، و كان الشيخ لا يحب شيئاً من التكلف و أو الترفـع والإعجـاب بالنفس، كان يقـول: " قابلت العالم المعروف الفلانى و أبديت له انطباعاتي و خواطرى هذه، فقال: لا، والله قد سررت جداً بلقائك" لكن الشيخ شك فيما أنه قال ذلك صناعةً أو حقيقةً، كان كثيراً ما يقول: أبتهج و أرتاح بلقائكم أنتم الطلبة ولقاء عامة الناس و جماهيرهم، و لا آلف و لاأستأنس إلاّ بكم أنتم، و كان عمله فى ذلك قدبلغ حد المبالغة و الإفراط، ولعله مرّ في ذلك بتجارب قاسية حملته على أن يتخذ من ذلك مبدأ و قاعدة لحياته، كان يستأنس كثيراً بأهل "تونك" ولا سيما بسادات " القافلة" و بصوٌرة خاصة بزوج عمتى مولانا السيد طلحة و أخيه الأكبر أبو حمزة السيد زبير، فإذا قدم إليه أحد منهما أرسل الشيخ نفسه على سجيتها و استرسل فى بيان الأحوال القديمة لتونك، و ذكرخاصة أحداث الزمان الذى تم فيه نفي سادات "القافلة" (٧) واستمرالحديث إلى نصف الليل، كان الشيخ يفرح كثيراً و يتهلل بشرا بقدومهما، ويهتم بالطعام، و كان هو نفسه سليم الذوق بالنسبة إلى الطعام، و كان ذوقه فى الطعام أن يكون بقدر كبير و إن كان ساذجاً وبسيطاً، و كان فى ذلك نصيب كبير لأفغانيته و عشرته في تونك، فكان يتغيظ كثيراً من الطعام القليل، و كان جواداً سخياً لين الجانب رحب الذراع و كان فى ذلك حظ لميراثه القومى والسلالى وأثرللبيئة كذلك، كان يرتاح كثيراً بالانفاق على الآخرين و لاسيما على الطلبة ولكن بالعكس من ذلك ينزعج و يتضايق كثيراً بالانفاق على نفسه حتى كأنه اقترف ذنباً، ذات مرة برىء من المرض و قد ضعف كثيراً، فوصف له أخى الدكتورالسيدعبد العلى دواءاً مقويا. جئت بهذا الدواء، ولما علم الشيخ قيمته وقع في حيص بيص، وظل يضطرب طويلا، ويقول كيف يمكن لى أن انفق هذا المبلغ على نفسي، لو أرسلته إلى "تونك" لاستفاد به الأهل، و آل الأمر إلى أن رددت ذلك الدواء فهناك قرقراره، وكان للشيخ من الصعب جداً أن يضبط الحساب بانتظام، و كان الشيـخ بجانـب ذلك مختبـراً لبعض المواد فـي جامعة بنجاب، فإذا تسلم البقشيش لهذا الاختبارأو الراتب الشهرى فوض إلى طالب قريب يسكن معه، و إذا قدم الطالب الحساب غضب و قال : يا عزيزى ! هل أنا أحاسبك أنت؟

و قد قمت مع الشيخ بجولة طويلـة إلى ناغفـورو مـدراس، و كانت ندوة العلماء تعانى آنذاك من الوضع المالى المنحطّ، فاقترح أخى المكرم إرسال وفد لهذاالغرض، و التمس من الشيخ الذهاب فى هذا الوفد فقبل الشيخ ذلك

مشكوراً، و كان من المرافقين للشيخ فى ذلك الوفد الشيخ الحافظ محمدعمران
الندوى ، و الشيخ عبد السلام قدوائى الندوى، و كاتب هذه السطور ، غادرهذا
الوفد في ١/ مايو سنة ١٩٢٧م، و وصل إلى مدراس بعد ما مكث عدة أيام فى
ناغفور ، تظهرأخلاق الإنسان وطبيعته الأصيلة متجلية في السفرالطويل
و يظهر كثير من الناس بحكم التجربة والاحتكاك غير ما نجدهم فى بيوتهم
و منازلهم، لكننى شهدت في هذا السفر بطوله مرارا وتكرارا بساطة الشيخ
وعدم تكلفه وروح المساواة وعدم التمييز و المؤانسة التى تغلغلت في أحشائه
و حلت محل طبيعته، لم يرض بالتمييز و الترفع عنا فى أى مناسبة ما، كنا
نحن الثلاثة تلامذته، و لم يكن هو أستاذنا فحسب بل و شيخ الحديث عميد
دارالعلوم و خليفة الشيخ الحاج إمدادالله المكي كذلك، و كان الفرق فى السن
أكثرمنه بين الوالد و الولد، و لكنه رغم ذلك كيف نفسه معنا بحيث لم نشعر
فى السفر بكامله فى قليل أو كثير بأنه ينتمى إلى غير طبقتنا أو أن هناك
بونا شاسعا بيننا فى السن أو العلم والفضل

ذهبت فى مايو سنة ١٩٣٦م، إلى تونك للمرة الأولى على دعوة وإيعاز
منه، وكانت الوطن الثانى لأحد فروع أسرتنا منذ مايقارب مائة سنة، وكانت
الأواصر و القرابات تقوم إلى الآن مع هذا الفرع، و لم يكن أحد فى سادة
"القافلة" إلاّ ولنا معه من القرابات مثنى أو ثلاث، لكن لم تتح لى فرصة
الذهاب هناك، فكان ذلك جاذبية الشيخ وتأثيره الذى تغلب على جاذبية
الأقارب ومغناطيسيتهم، و كان يرافقنى في هذا السفر الشيخ محمدالعربى
المراكشى أستاذ دارالعلوم ندوة العلماء سابقاً و السيدعبد السميع أستاذ
الإنكليزية فى نفس الدار سابقاً والشيخ عبدالرشيد النعمانى الذى هومن
أسعد تلاميذالشيخ وأحبهم إليه و أكبر حامل و أمين لعلومه و معارفه، تهلل
وجه الشيخ بقدومنا بشراً وانبسطت أساريره، و كانت نفسه لاتشبع
بالضيافة و المداراة بأى صورة، و يرينا كل شئ بغاية من الشوق و الفرح،
ونعرف بنا للأعيان هناك بشئ كثير من الجدية و الاهتمام، و كان غاية الحب
والاعتزاز بكل ذرة من ذرات وطنه، فكان يجد ماء وطنه و بطيخه أحلى
وأعذب و خضراواته و غلاته ألذ و أهنأ و جوّه أجلب للصحة و أنفع للجسم،
و كانت جل إقامتى بل كلها ببيت الشيخ نفسه، و كنت أثناء ذلك إنما أزور
الأقارب كضيف ، أمكث يوما أو يومين ثم أعود، ما كان الشيخ ليحتمل فراقنا
أبداً، يمتاز نهر" تونك" المعروف "ببناس" بكون مائه هاضماً للطعام ومفيداً
للصحة ، أقام الشيخ على مورد من شاطئه عريشاً نزلنا فيه معا عدة أيام
نشرب من مائه و ننام فى أجوائه الفسيحة المنعشة ، و كان الطعام يأتينا
مطبوخاً بالبيت ، و في نفس المكان افتتحت في يوم من أيام مايو
سنة ١٩٦٣م ، وقت طلوع الشمس تأليف "سيرة *السيد أحمد الشهيد*" جالساً ٦
على حجر بشا طئ النهر ملقياً رجلى فى الماء ، مما كان أسعد عمل تاليفى

و أيمنه فى حياتـى، و تمت كتابـة أول مقالـتها "النظرة الخاطفـة على سيرة السيد أحمد الشهيد" في مجلس واحد، يقدر أن الشيخ بذل علينا نحن الضيوف الأعزة شيئاً كثيراً مما و سعه ، لكنه شعر في ذلك بلـذة تتلاشى أمامها كل قيمة و أهمية لمتاع الدنيا و حطامها الزائف.

وفّر الشيخ جميع فرص النزهة و التفرج، و أرسلنا باصرار و تأكيد في حفلة الإحتفال بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم التى كانت تنعقد بغاية من الفخفخـة و الأبهـة فـى قصر الأمير، و كانت لها آداب ملحوظـة و أصول هامة ، إنما أرسلنا الشيخ إلى هذه الحفلة لنتعرف شيئاً على بعض التقاليد و الرسوم القديمة السائدة هناك، و علاوة على ذلك فقد سنحت لنا فرص الصيد، و عرّف بى الشيخ للأمير عبد الرحمن الذى كان زوج الأخت لحاكم الولايـــة آنـذاك و زوج البنت للأمير إبراهيـم علـى خان و إقطاعيـا و أرستقراطيا كبيراً ، و الذى كان معروفاً بإصابة الهدف بالبندوقيـة ، فكنت أنا و الأستاذ محمد العربى ظللنا نختلف إليه، و ما تعلّمنا إطلاق البندقيـة و إصابـة الهدف إلاّ بـه ، و ساح بنـا فـى العودة فـى الأمكنة الأثرية "بجى فور" و لاسيما "بآمير" و بالجملة لم نلمس فى الشيخ عينا و لا أثراً للتقشّف و المشيخة و الجمود و العبوس و التقطّب ، فكان يضحك فى موضع الضحك و يقص الملـح و اللطائف ، و يستلـذ بالشئ اللذيـذ الشهىّ و يثنـى عليـه، و يبدى كرهه و استياءه إذا ما كان شئ مكروهاً يأباه الطبع.

كان الشيخ خمسة إخوة و الخمسة كلهم ـ ما شاء الله ـ علماء و فضلاء ، و لعل ذلك كان ثمرة لحسن نية والده و أكل الحلال و تعظيم العلم و العلماء أن أكرم الله أولاده الخمسة كلهم بالعلم و الفضل و التدين و البر و السعادة ، أمّا أخوه الأكبر مولانا المفتـى محمـد حسن خان فقد كان مفتياً للولايـة ، و إن المفتى ولـى حسـن مفتـى دارالعلوم بالمسجـد الجامـع فـــي "نيوتـاؤن" بكراتشى حالياً الـذى حاز ثقة الأوساط العلميـة و إعجابها و تقديرها إنما هو حفيده ، و أما أخوه الثانى مـولانا محمود حسن خان فهـو بمثابـة حجر الزاوية و واسطة العقد في جميع الإخوة ، و جديـر بأن يعـد من كبار العلماء و الباحثين في زمانه لا في الهند وحدها، و إن تأليفه" معجم المصنفين" لمأثرة قيمة فريدة في مجال البحث و التأليف، و نموذج مثالى لعلو الهمة و سعة النظر و الجهد المتواصل المضنى، يحتوى على ستين مجلدا و عشرين ألـف صفحة، و يغطى أربعين ألفاً من التراجم، مع الأسف إنما تم نشر أربعة أجزاء لهذا الكتاب الموسوعى القيم بعناية المملكة الآصفية، و كتابه الآخر" أصول التوارث" قليل المبانى كثير المعانى يبحث في مـدى أهمية و مكانـة التوارث و التعامل فـي إثبات العقائـد و الأحكام، و الدرجـة الثالثـة عليها شيخنـا و أستـاذنا الذى هـو عنوان هـذه الصفحات و مبعث الزينـة و الجمال فـي هذه المقالة، و الدرجة الرابعة كان عليها مولانا مظهر حسن خان الذى كانت له

براعة تامة في علم الألسنة و باع طويل في الأدب العربي، و ظل أستاذاً للعربية فى إحدى كليات " ميسور " مدة طويلة، إنه ألّف كتاباً ضخماً للبرهنة على أن اللغة العربية أم الالسنة و مصدر جميع اللغات، ذكر فيه نكتاً بديعةً و لطائف دقيقة، غير أن هذا الكتاب الضخم مطمور لايعرف له عين و لا أثر، و الأخ الخامس هو الشيخ حكيم مسعود حسن خان ، و كان هو أيضاً عالماً و طبيباً فاضلاً، و أولاد هؤ لاء الإخوة الخمسة أيضاً أقاموا على العلم و الدين و اتصلوا بهما، إن أكبر أولاد شيخنا مولانا سعد حسن من أفذاذ العلماء و الباحثين و كبار الأساتذة و المحدثين، و أخوه الأصغر القارى أسعد حسن خان من متخرجى " المدرسة الفرقانية " و كبار القراء و معلمى التجويد، كلاهما غادرا إلى باكستان بعد إنفصال الهند و يسكنان بها، أكبر أولاد الشيخ مولوى سعيد حسن خان توفى فى عنفوان شبابه، ظل عقله غضا طريا إلى آخر حياته.

و إن كان جميع طلبة الصفوف النهائية و المتخرجون من ندوة العلماء فى ذلك الوقت من تلاميذ الشيخ فى الحديث بعد ما قدم الشيخ فى دارالعلوم ندوة العلماء ، و كثير منهم يشتغلون بالخدمات العلمية و قد حازوا إعجاب الأوساط العلمية و تقديرها فى طول البلاد لكن أرشد تلاميذ الشيخ و الوارث لذوقه و فنه هو صديقنا الفاضل عبد الرشيد النعمانى أستاذ الحديث و الشريعة في جامعة بهاولفور (باكستان) حاليا، إنتاجاته و اسهاماته العلمية معروفة شائعة ، منها *"لغات القرآن"* في ثلاثة مجلدات، إنتاجه العلمى الحقيقى و مأثرته الدرسية الموضوعية هى كتابه *" ما تمس إليه الحاجة لمن يطالع سنن إبن ماجة "* الذى يدل على سعة دراسته و دقة نظره ، كبر باعه فى علم الحديث و يحتل مكانة خاصة فى مكتبة علم الحديث ، إنه اغترف من بحر الشيخ و علّ منه عدة سنوات في السفر و الإقامة و دارالعلوم ندوة العلماء و في تونك كذلك، و اقتبس حظاً وافرا من معارف الشيخ و دراساته، و كان الشيخ نفسه يضع فيه الثقة و يحبه حباً جماً، و هناك تلميذ له آخر يرجع زمن تلمذته إلى زمان إقامة الشيخ في تونك و هو الحكيم أحمد حسن التونكى الذى يشتغل الآن بالعيادة الطبية فى"جى فور" و مرجع الخلائق فيها، و كانت له علاقة أبوية قوية من طلبة زمان ندوة العلماء بمولانا عبد السلام القدوائى الندوى (رئيس قسم العلوم الشرعية فى الجامعة الملية الإسلامية دلهى و المشرف على الشئون التعلمية فى ندوة العلماء سابقاً) و مولانا رئيس أحمد الجعفرى الندوى، يوانسهما و يتعاطف عليهما، و هما مبايعان عليه في سلسلة الشيخ الحاج المكى و من تلاميذه الخاصة فى الحديث و التربية و التزكية، و إن صديقنا مولانا عمران خان التونكى نجل الشيخ عرفان أحمد خان قاضى ولاية تونك هو أيضاً من تلاميذ الشيخ فى آخر العهد و أقربائه الخاصة كذلك.

كان الشيخ مقلاً من التأليف و التصنيف، فعلى حد علمي إنما ثلاث أو أربع رسائل من ذكراه، منها رسالته حول الحجاب الشرعي الذى قام تلميذه الرشيد مولانا رئيس أحمد جعفرى بطبعه و نشره من إحدى مطابع بومبئى و رسائله الأخرى حول الصاع و رفع اليدين التى تم نشرها بصورة كتب مستقلة ، و يمكن أن تكون بعض بحوثه و دراساته في حوزة تلاميذه أو فى مسوداته ، كما يمكن أن تكون بعض مواده العامية عند مولانا عبد الرشيد النعمانى و حكيم أحمد حسن خان ، لم يكن الشيخ متعوّدا على الكتابة و التأليف بنفسه، و لعله لم يتعلم فن الخط بصورة مستقلة ، و لكن والده مولانا أحمد حسن خان خطاطا جيّدا و كاتباً بارعاً ، كان الشيخ يقول: "سئم والدى و مل من هذا العمل الكثير الجهد القليل النفع الذى يصدق عليه المثل السائر (حفرالجبل و لم يخرج منه إلا الكلأ) و كان يقول : ضيعت في ذلك وقتاً كثيراً، غير أن ولد المتوسط مولانا محمود حسن خان كان خطه جميلا و رائعا جداً، و إن بعض رسائله حلية مجموعة صورى (ALBUM) وتبدو باقة أزهار الخط ، كان الشيخ مقلاً من كتابة الرسائل ، ربما كانت الحاجة تدعو إلى كتابة بعض أشياء أو التوقيع على بعض أوراق دارالعلوم فيتطلب ذلك جهدا منه و عناية كبيرة و يواجه فى ذلك عشا، رغم هذا العنت و التعب كتب شهادتي للحديث بقلمه عطفا عليّ و محبة ، أذكر أن ذلك استغرق يومه بكامله، و واجه في ذلك عنتاً و مشقة كبيرة.

مما يبعث على الأسف و الاستياء أن الشيخ ملّ و سئم سنة ١٩٤٠م لأسباب قاسرة من الإقامة في لكناؤ و عمادة دارالعلوم ذات المسئولية الضخمة، كما كان من مقتضيات السن أن يقيم الشيخ الآن بصورة مستقلة وبكل حرية و انطلاق مع أقربائه في وطنه" تونك" التى كان جوها أوفق لطبيعة الشيخ و أكثرتنمية و تقوية لذهنه و جسمه ، و علاوة على ذلك فقد كانت المدرسة الفرقانية التى أنشأها الشيخ في وطنه جذبته مقتضياتها المتواصلة و متطلباتها المتكررة و نازعته، فبالجملة عاد إلى تونك بالإستقالة من دارالعلوم في ٣/ ذى الحجة سنة ١٣٥٨ هـ ، و اشتغل هناك قرابة ثلاث سنوات بالدرس و التدريس و نشر العلم و البحث و الدراسة و الذكر و التلاوة و التحنث و العبادة إلى أن وافاه الأجل في ١٥/ جمادى الأولى سنة ١٣٦١ هـ (٣١/ مايو سنة ١٩٤٢م) و تم تدفينه في تونك بالمقبرة الشهيرة " موتى باغ" التى تعمرها أرواح ألوف من الصلحاء و الأتقياء و مئات من العلماء و الفضلاء و عشرات من المجاهدين المتخلفين من ركب السيد أحمد الشهيد و كثير من سادة " القافلة" فنوّرالله مرقده و أجزل مثوبته و أدخله فسيح جنانه.

و هنا نقدم لكم رسالتين كتبها إليّ ، أولاهما ترجع إلى ١٣/فبرائر سنة ١٩٣٠م عندما غادر الشيخ إلى تونك بإجازة طويلة، و ثانيتهما ترجع إلى

مولانا حيدر حسن خان التونكي

سنة ١٩٤٠م عندما فارق ندوة العلماء و عاد إلى وطنه "تونك" بصورة مستقلة.

"محبي سلّمه اللّه تعالى"

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

تسلمت رسالتك ، و اطلعت على صحتك و أحوالك، لكن تألمت كثيراً بما سمعت أن الأخ محمود (٨) سلّمه اللّه تعالى مريض ، شفاه اللّه و عافاه، أرجو أن تكون خدماتي لكم باعث خير و بركة ، أخبرني عن أحوالك إذا ما سنحت لك الفرصة ، أواجه هموماً و أحزانا متواصلة في هذه الأيام و أحتاج إلى تسكينك و تسليتك، قام الأمير بتخفيف كبير في الرواتب، مما أثار ضجة و عويلا في كل بيت و جعل الناس يشتعلون غضبا و حنقاً، تم إيقاف رواتب جميع السادة ، لعله لم تبق الرواتب إلا لأمرأة أو امرأتين، بلغنا أن أوشك إذن المخرجين لكن طرأ السكوت ، و قد جرى الأمر، و إنما بقي التوقيع و لاينفع الإذن إلا إذا عادت لإقطاعات و الرواتب إلى مجاريها، أدى التخفيف في الرواتب إلى تخفف المعونات و التبرعات ، كان قدومي هنا أمراً لازماً ، و تلافياً لذلك أواصل الجهود كل وقت

حيدر حسن عفي عنه

"عزيزي سلّمه اللّه تعالى"

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

أحمد اللّه على أنني بخير و عافية على مايرام، سامحني فقد تأخر الرد على رسالتك، أرجو أنك لن تنساني، ليس عندي أي كتاب "للإصلاح" (٩) كان السيد مظفر (١٠) وضع الكتب باعداد قائمة لها، أدع اللّه لي أن أعيش الآن و أقضي أيامي بحرية و انفتاح فيما تبقى من عمري فقد أفكر ذلك دائما و أسعى له جاهدا ، تقبل اللّه دعائي و حقق أمنيتي، لكل شيء حد معلوم لقد كتبت إلى رئيس أحمد (١١) أطلب منه أن يرسل ٢٥/ روبية إليّ ، و البقية إلى أبي الحسن علي في لكناؤ، لكنّه لم يرد على ذلك شيئاً، خذ شرح الترمذي من عبد الستار الملتاني وفوّضه إلى زبير أحمد (١٢) إنه سيقدم إلى تونك في ١٦/ مايو، قل لعبدالسلام أن يعجل في إرسال الرسالة

فالعطلة حان وقتها، دلنى على عنوانك بالكامل الصحيح كى أواصل المراسلة ، سلّم على مولوى نجم الديـن، سكت "حليم عطا" نهائيّـا و لايذكرنا بتاتا، لا تتأخر يا بنـىّ ا في رد الرسالة إذا ما تأخرت، إقرئ منىّ السلام على المـدير المكرم والشيخ عبـدالغفور، أذكره دائمـا، و لاأكاد اعتزل عن ذكراه شيئاً.

العاجز
حيدر حسن

تعريب: آفتاب عالم الندوى

الهوامش.

١ ـ توفى في ٢/ فبرائر سنة ١٩٢٢م
٢ـ راجعوا لمزيد من التفصيل أحوال حفيده الشيخ خليل بن محمد
٣ـ إحدى حارات" تونك" التى أقام فيها من بقى من أسرة السيد أحمد الشهيد والمتخلفين من ركبه ، و اعتبارا من ذلك سميت هذه الحارة بالقافلة و كانت من أروع حارات البلد و أجملها
٤ـ توفى عبد الرحيم في ١/ رمضان المبارك سنة ١٣٣٩ هـ ـ ١٠/ مايو سنة ١٩٢١ م
٥- وفاته في سنة ١١٨٢هـ
٦- توفى سنة ١١٤٠هـ
٧- واجه سادة "القافلة" سوء ظن من قبل و إلى الإمارة زمن حركة الخلافة سنة ١٩٢١م و أمروا بمغـادرة الإمـارة مباشـرة ، و نتيجـة لـذلك عـادوا إلـى وطنهـم "راى بريلـى" محرومين و مطرودين من منازلهم و إقطاعاتهم وممتلكاتهم ، وبعد مدة أذن لهم بالعودة إلى " الإمـارة" ولكن الاقطاعـات و الممتلكات لم تـرد إليهم و كان فى ذلك نصيب لكل من مؤامرات الحساد و سوء فهم للأمراء و المسئولين
٨ـ يعنى إبن أختى الأكبر السيد محمود حسن بن السيد رشيد أحمد، الذى عاجلته المنية و هو فى عنفوان شبابه، الأعزة مولوى محمد ثانى و مولوى محمد رابع ومولوى محمد واضح سلّمهم الله ليسوا إلاّ إخوته الصغار
٩ـ جمعية طلبة دارالعلوم المعروفة "بالإصلاح" التى تختص بها مكتبة لها.
١٠ـ مولانا سيد مظفر حسين الندوى الكا شميرى الذى كان مدرساً في دار العلوم آنذاك.
١١- مولانا رئيس أحمد جعفرى الندوى مؤلف عدد كثير من الكتب و أحد تلاميذ الشيخ النجباء.
١٢ـ أبو حمزة السيد محمد زبير أخو مولانا السيد طلحة الأكبر

الحلقة الثانية :

حياة العلامة شبلى النعمانى

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوى

رحلته إلى البلدان الإسلامية :

لم يوافق العلامة شبلى مناخ عليجره و هجم عليه داء الملاريا (Malaria) سنة ١٨٩٢م ، و لزمه المرض ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر، و نشأ فى قلبه أن تغيير الجوّ سيؤثر فى صحته تأثيرا إيجابيا ، فأراد أن يقضى إجازة الصيف فى كشمير التى تعتبر جنة الهند ، ثم اطلع على أن زميله الأستاذ آرنولد (ARNOLD) سيغادر إلى وطنه لقضاء الإجازة ، فاغتنم الفرصة و أراد أن يرافقه فى السفر و يزور البلدان الإسلامية و يتخذ برنامجاً لجولة لبلاد الروم و الشام و مصر ، و بذلك يستطيع أن يقضى جزءا من رحلته مع الأستاذ و تتحقق أمنيته القديمة لزيارة هذه البلدان ، فغادر عليجره فى ٢٦/ابريل سنة ١٨٩٢م بعد استشارة من الأستاذ ارنولد، و رجع إلى الهند فى نوفمبر سنة ١٨٩٢م و قد زار قسطنطنية و بيروت و بيت المقدس و القاهرة

لم تكن رحلته هذه رحلة سياحية ترفيهية و ترويحية فحسب ، بل كانت وراءها عوامل و نــوازع أخرى كذلك ، نقسمهــا إلى نواح علميــة و تعليميــة و سياسية ، و هذه النواحى الثلاث كلها لعبت دورا كبيرا فى تكوين مساره العقلى و مجراه الفكرى.

زادت هذه الرحلة من كراهيته للإنجليزية و تذمره منهم. و حبه للتــرك و إجلاله لهم ، و أما من الناحية العلمية فان زيارتــه لمكتبــات قسطنطنيــة و القاهرة فسحت مجاله الفكرى و زودته بدراسات علمية جديدة ، و اطلع على كتب قيمة نادرة مطبوعة و خطية من العلوم و الفنون المختلفة ثلج بها صــدره و قرّت عيناه ، و حمل معه مقتبسات لبعض كتبه التى كان بصدد تأليفها

و أما من الناحية التعليمية فقد كانت لرحلته هذه أثار بعيدة المدى ، ساعدت هذه الرحلة فى تدعيم رأيه بأن المسلمين يحتاجون إلى منهاج دراسى جديد يجمع بين العلوم القديمة و العلوم الحديثة جمعا متزنا عادلا ، فان القديم

وحده لن يساير الزمان ، و إن الحديث وحده يفصل المرء عن الدين و الإيمان.
و كذلك أهم العلامة ما شاهد من أوضاع المسلمين المتدهورة و انحطاطهم المشين ، فقد كتب إلى والده من قسطنطنية:

" قد خابت آمالي في تقدم المسلمين ، فان وضعهم هنا لا يختلف عن وضعهم في الهند ، إلا أنى لا أنكر فضل هذه الرحلة و قيمتها، إن الأثر الذى تركته هذه الرحلة في قلبي لم أكن لأوفق إليه بدراسة الألوف من الكتب ، أسفاً على أولئك الذين يعيشون حياتهم في حجرة مغلقة أو برج من العاج."

كان يرى إصلاح المنهاج الدراسي خطوة أولى لتقدم المسلمين ، و لكن مما آلمه أن المدارس كانت قد أصابها الجمود و العقم كذلك في قسطنطنيـــة و مصر و الشام ، فيقول في رحلته:

" إن الذى سلبنى السرور في هذه الرحلة هو انحطاط هذا المنهاج الدراسي القديم و ما أصابه من البلىٰ ، كنا نصبر في الهند نظرا إلى أن النظام الذى لا تتولاه من الطبيعى أن يضيع ، و لكن أخذت بالدهشة و الحسرة و الألم بأني شاهدت نفس الشيء في قسطنطنية و الشام و مصر."

و كان شعوره هذا هو الذى تجسد في صور نظام ندوة العلماء و خطة دارالعلوم و منهاجها التعليمى فيما بعد.

الوسام المجيدى :

و في هذه الرحلة أكرم بالوسام المجيدى ، كان نائما إذ جاءه زميل له فأيقظه و بشّره و قال : "يا شبلى و الله لقد طلع لك النيشان".
و أكرم بهذا الوسام في ١٤/ محرم الحرام سنة ١٣١٠هـ ، فلما رجع إلى الهند أراد أن يستعمل هذا الوسام و لكن الحكومة الإنجليزية منعته من ذلك طبقا لقانونها المعلن في ٢/ مايو سنة ١٨٨٦م.

خطاب شمس العلماء :

و رجع العلامة شبلى النعمانى إلى الهند و قد منحته الخلافة الوسام المجيدى الرسمى ، فأحسب السيد أحمد خان أنه مما يزرى بالحكومة الإنجليزية في الهند أن لا تكرم العلامة شبلى بوسامها الرسمى ، و قد أكرمته به الحكومة التركيـــة ، فلما اطلعت الحكومـــة الإنجليزيـــة على ذلك أكرمتـــه بخطـــاب شمس العلماء سنة ١٨٩٤م.
و كان هذا أول خطاب أكرم به أستاذ من أساتذة كلية عليجره و زملاء

السيد أحمد خان ، و كان لهذا الخطاب قيمة كبيرة فى عيون الناس و أكرم العلامة بهذا الخطاب و لم يتجاوز من العمر خمسة أو ستة و ثلاثين عاما و كل ذلك جعل هذا الخطاب حادثا تذكاريا خطيرا ، فعقدت حفلات كبيرة للترحيب به. و ألقيت الخطب إشادة به و كتبت إليه رسائل ترحيبية من أحبته و زملائه و نشرت المقالات فى المجلات

و كان فى الكلية مجلسان علميان ، إخوان الصفا ، و لجنة الأدب و عقدا حفلة ترحيبية فى ٩ / يناير سنة ١٨٩٤م ، و كان العلامة شبلى عضوا أساسيا للمجلسين ، حضر فى هذه الحفلة كبار أساتذة الكلية منهم السيد أحمد خان ، و السيد محمود ، و الأمير محسن الملك ، و مولانا ألطاف حسين حالى ، و الأمير مزمل الله ، و الأستاذ أرنولد ، و القاضى السيد كرامت حسين.

قدم فيها المولوى بهادر على قصيدة عربية للمولوى داؤود فى لهجته العربية:

حمد لمن جعل النجوم دراريا	و الشمس نورا للحناد ماحيا
أشرقت شمسا من سماء معالم	لتمد اقماد العلا معاليا
أضحى بفيضك روض علم ناصرا	من بعد أن قد كان دهرا ذاويا
لاغرو لو أدعوك روح زماننا	تحيى لعلم الدين عظما باليا
علامة مستنبط من آية القرآن	سرا خافيا و معانيا
حينا يحبّر فى العلوم رسائلا	حينا يشيد للفنون مبانيا
و هو الذى شرح المهيمن صدره	فغدا لأبناء المعارف تاليا
للّه درّ مدرّس تدريسه	سيل أتى و قد يغشى واديا
سحبان وقت لا يشق غباره	من كان للفرد الوحيد مجاريا
قس الفصاحة لا ينال مقامه	من كان للشمس المنيرة ثانيا
إن قال فى العربى شعرا فاق	حسانا و فى العجمى فاق قآنيا
قد يخلب الألباب سحر بيانه	إذ ما تصدى خاطبا أو شاديا
هو حصرم الأخبار غير مساجل	يعطى الورى مرجانة لآليا

ثم ألقى المولوى نذير أحمد خطبة باللغة العربية و هى

" يا أيها السادة الكرام يشق علىّ أن أقرع اذانكم بعد إذ فرغنا من تنقل الفواكه الشهية و الألوان اللطيفة و كيف يمكن لى أن أمد فضائل مولانا الكرم و أحصى محامده ما لى أن أقول إنه سحبان فى الفصاحة و ما لى أن أقول أنه قسّ فى البلاغة و ما لى أن أقول انه قاآنى فى سلاسة لسانه و لطافة نظمه ، بل

أنشد هذا الشعر للمتنبى إذ قال :

خـذ مـا تراه و دع شيئـا سمعت بـه
فى طلعة الشمس ما يغنيك من زحل

تفخر اللجنة الأدبية بأن أعظم أركانها بل بانيها لقب بشمس العلمـــاء و تهنئه الآن بهـذا الإعزاز و الإكــرام ، و اختم كلامـى بتشكر السـادة الذين شرفونـا بقدومهم و الذين كرمونا باللطف و الإحسان ، و أن الله لا يضيع أجر المحسنين".

ثم قدم فى هذه الحفلة المولوى حميدالدين الفراهى قصيدته باللغة العربية.

يا خير مـن يسمـو إلى العليـاء ... كالشمس بـازغة بوسـط سمـاء
قد كنت قدمـا للمعـالى ساميـا ... أورستـه عـن شيمـة الآبـاء
فلئن سموت إلى المكارم و العلى ... فلقـد نشـأت بعـزة قعسـاء
لاغرو فصل الصيف إن يك صادقا ... أو يستهـل البـرق باللألاء
فلانت بالعزمـات سيـف صـارم ... و لأنـت بـرق لامـع بذكـاء
قد أمحلت أرض العلوم وأصبحت ... عرصـاتهـا كسمـائق البيـداء
لعبت بها هـوج الريـاح تنوبهـا ... مـن كل عاصفـة مـن النكبـاء
فضللت تمطرهـا بسـح و اكـف ... صـوب الربيـع بديمـة هطـلاء
فربت رياض العلم منك و نـورت ... مهتـزة بغصونهـا الخضـراء
علمتنا سبل الرشـاد و انمـا ... كنـا كخـابط ليلـة ليـلاء
كنـا لمحجلـة يخاف بهـا الروى ... فهديتنـا لمحجـة بيضـاء
و لا سئلـن اللـّه طـول بقاءكـم ... فى كـل بكرتنـا و كـل عشـاء
و أهنئنكـم بمـا أعطيتـم ... من خير ما وجـدوا مـن الأسمـاء
إن كان تلك الشمس شمس سمائها ... فلصرت شمس العلم و العلمـاء
إذا أنت شمس و العلوم سماء كـم ... فالشمس شمسى والسمأ سمـائى

و قدم المولانا الطاف حسين حالى فى الأخير فى هذه الحفلة قصيدته عنوانا "من الحبيب إلى الحبيب":

يـا وحيـدا من الكـرام فريـدا ... و عزيـزا كمثـل علـق نفيـس
أنت أولـى بأن تلقـب شمسـا ... بل بأن يجعلـوك شمـس الشموس
أنت شمس الهدى و لست لشمـس ... يعتريهـا الخنـوس بعـد خنـوس
أنـت طهـرت ذيـل ديـن مبـين ... لـّوثتـه اللئـام بالتـدليس
ثم دافعـت عـن أمـام تقـى ... كان بعد النبـى خيـر رئيـس

و عن الحـق قـد كشفـت غطـاءا | بعـد مـا أغلقـوه بالتلـبيس
سرت فى الأرض بـرا و بحـرا | للمعـالـى و لا لأمـر خسيـس
فلدوك التـزام مـدرس قـوم | فيه يرجى لهم كمـال النفـوس
فتقلـدت و التزمـت لزومـا | خدمـة المسلمـين بالتـدريس
قمت بالـدرس و الدراسـة فيهم | فارغـا عـن رياسـة و رئيـس
و جعلـت الكمـال غايـة هم | و اتخذت الكتـاب خيـر جلـيس
فعلى القـوم لازمـا لك حـق | كلـهم مـن وجوهـهم و رؤوس
صانك اللـه عن مكـاره حتـى | صرت كالقلب آمنـا فى الخميـس

اتصالة بامارة حيدر آباد:

و بعد أربعة أشهر تقريبا من عودة العلامة شبلى النعمانى من زيارة البلدان الإسلامية أسست ندوة العلماء، و كانت أهدافها أن تتفق المشاريع التعليمية التى خططها خلال رحلته و تجاربه العلمية و التعليمية الطويلة فشارك فى أعمالها و دعم نشاطاتها مشاركة فعالـة حتى أصبحت حركة ندوة العلماء عبارة من شخصه و دعوته إلى الفكرة التعليمية الإصلاحية و تدين ندوة العلماء فى جميع إصلاحاتها فى مناهج التعليم لجهوداته و مساعيه و فكره المتزن العادل الدقيق ، و لولا العلامة شبلى لكانت ندوة العلماء كغيرها من المؤسسات التعليمية القديمة فارغة عن أى رسالة و عن أى حيوية و نشاط، و سنتحدث عن كل ذلك إنشاء الله تعالى فى فصل ندوة العلماء.

و لم تبق الآن للعلامة شبلى أى رغبة فى كلية عليجره و نشأ فى قلبه عن تجرى له إمارة حيدر آباد راتبا علميا أو تأليفيا فيقطع صلته عن عليجره و يقف حياته على خدمة العلوم الإسلامية و شئون المسلمين التعليمية فرحل إلى حيدر آباد فى أغسطس سنة ١٨٩٦م و كانت له صلات قريبة بالمولوى السيد على البلجرامى فشفع له إلى الأمير مير محبوب على خان فأجرى له راتبا شهريا مقداره مائة روبية فى سبتمبر سنة ١٨٩٦م

و كانت إقامته بحيدراباد مصدر خير و بركة لتلك البلدة و أهاليها فرحب به علماءها و أمراءها و أكرموا مثواه و عقدوا حفلات أشادوا فيها بفضله و علمه و خدماته الجليلة

و حصل من كلية عليجره على إجازة لسنة واحدة من ديسمبر سنة ١٨٩٦م إلى نوفمبر سنة ١٨٩٧م و بعد انتهاء هذه الإجازة حصل على إجازة أخرى لستة أشهر فى مايو سنة ١٨٩٨م و أخيرا استقال منها

و بعد أن قطع صلته عن كلية عليجره واجهته مشاكل و مصاعب شتى عاش معظم أجزاء سنتى ١٨٩٨م و ١٨٩٩م يعانى السقم و المرض و ارتحل أبوه

إلى رحمة الله فى نوفمبر سنة ١٩٠٠م و رفعت مشاكل اهانية و عائلية رأسها و أهمه كل ذلك و شغل باله فسافر مرة أخرى إلى حيدر آباد فى فبرائر سنة ١٩٠١م حيث عين أمينا عاما لقسم المعارف فى ٢٢/مايو سنة ١٩٠١م على راتب قدره أربع مائة روبية يتقاضاها شهرية و لازم هذه الوظيفة إلى فبرائر سنة ١٩٠٥م و ألف خلال هذه الفترة كتبه المعروفة *"الغزالى"* و علم الكلام، و الكلام، و المقارنة بين أنيس و دبير.

حركة ندوة العلماء:

أقيمت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مؤسستان علميتان إسلاميتان فى الهند الكلية الإسلامية بعليجره، و مدرسة دار العلوم بديوبند، أما الأولى فقد انحرفت مع تيار الحضارة الغربية و لم يكن المشرفون عليها يرون سبيلا لتقدم المسلمين إلاّ أن يتطفلوا على مائدة الغرب و يصبغوا نفوسهم بحضارته و ثقافته و أما الثانية فقد تمسكت بالقديم، و اعتبرت مخالفة شيء منه مروقا من الدين فكانت هاتان المؤسستان على طرفى النقيض.

و كانت الحاجة ماسة إلى منهج وسط عادل متزن، متصلب فى العقيدة و مبادئ الدين، و مؤمن إيمانا راسخا بالقرآن الكريم و ما جاء به النبى محمّد صلى الله عليه و سلم من الحجة البيضاء و الشريعة السمحة العادلة، و متفتح للحضارة الإنسانية و العلوم التجريبية التى ليست إلا اكتشافا لما أودع الله هذا الكون الهائل من الإمكانيات و الوسائل التى توفر للإنسان تسهيلا فى أداء واجباته نحو خالقه و الحياة و الكون، و هذه الحاجة هى التى قادت علماء المسلمين و زعماءهم إلى أن يفكروا فى تأسيس هيئة للعلماء تقوم بإصلاح المسلمين فى جميع نواحى الحياة الدينية و الشرعية و العلمية و التعليمية.

مدرسة فيض عام:

عقد اجتماع للعلماء فى مدرسة "فيض عام" ببلدة كانفور بمناسبة توديع للطلاب المتخرجين فى نهاية العام الدراسى سنة ١٨٩٢م، فناقشوا فيما بينهم وضع المسلمين فى الهند، و أسسوا هيئة ندوة العلماء.

و العلماء الذين حضروا هذا الاجتماع أسماؤهم كما يلى:

١- أستاذ الأساتذة الشيخ الكبير مولانا محمّد لطف الله العليكرى.

٢- الشيخ الحافظ الشاه محمّد حسين الإله آبادى.

٣- مولانا الشيخ محمّد خليل أحمد المدرس بدارالعلوم ديوبند ثم بمدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور.

٤- مولانا الشيخ ثناء الله الأمرتسرى.

٥- مولانا الشيخ نور محمّد البنجابي المدرس بالمدرسة الإسلامية بفتحفور.
٦- مولانا أحمد حسن الكانفوري المدرس الأول في مدرسة "فيض عام" بكانفور.
٧- الشيخ مولانا محمّد على (الرئيس الأول لندوة العلماء).
٨- مولانا الشيخ محمّد ظهور الإسلام الفتحبوري
٩- مولانا الشيخ الكبير و المربي الجليل محمّد أشرف علي التهانوي
١٠- مولانا محمود حسن المعروف بشيخ الهند
١١- مولانا الشاه سليمان الفلواروي
١٢- مولانا الحكيم فخر الحسن الكنكوهي
١٣- مولانا السيد الشاه الحافظ تجمل حسين

و عين الشيخ مولانا محمّد على أول رئيس لهيئة ندوة العلماء و ألقيت عليه مسئولية عقد أول اجتماع لندوة العلماء

الاجتماع الأول لندوة العلماء :

و عقد أول اجتماع لندوة العلماء بمدرسة فيض عام في بلدة كانفور في ١٥- ١٧ شوال سنة ١٣١١هـ الموافق لـ ٢٢ - ٢٤ ابريل سنة ١٨٩٤م ، حضره العلماء المسلمون من المدارس الفكرية و المذهبية المختلفة نابذين خلافاتهم وراء ظهورهم.

و وافقت دعوة ندوة العلماء خطة العلامة شبلي لإصلاح المسلمين في النواحي العلمية و التعليمية ، فأجابها متبادراً إليها ، و كأن هذه الحركة بضاعته التي ردت إليه ، شارك في اجتماعها الأول مخلصا لها لأعمالها

و في هذا الاجتماع الأول قدم العلامة شبلي النعماني خطة لأعمال ندوة العلماء فوضت إلى لجنة دراستها و النظر فيها

و عقدت جلسة خاصة لدراسة خطة ندوة العلماء حضرها ثلاثون شخصا من العلماء الكبار و الأمراء العظام ، إذا قرأ العلامة شبلي عليهم بندا من الخطة تناولوه بالنقاش ثم وافقوا عليه ، حتى تمت الموافقة على جميع بنود الخطة

و في إحدى جلسات هذه الاجتماع قام العلامة شبلي ، و قدم بعض المقترحات للمناقشة و الدراسة ، فيها

١- إن المنهاج التعليمي السائد في جميع أنحاء الهند يستحق إصلاحاً جذريا.
٢- أن يحضر مدراء جميع المدارس الإسلامية أو وكلاؤهم أو ممثلوهم كل عام في اجتماعات ندوة العلماء

المنهاج التعليمى :

ركزت ندوة العلماء منذ أول يوم من تأسيسها على إصلاح المنهاج التعليمى ، فقد قدم مولانا الشاه محمّد حسين الإله آبادى اقتراح إصلاح المنهاج التعليمى فى الاجتماع الأول ، و أعرب من رأيه و فكره بكل دقة و شمول ، ثم قدم العلامة شبلى النعمانى خطبة علمية عن تطور المنهاج التعليمى عبر العصور من العهود الإسلامية الأولى إلى أن ساد المنهاج النظامى (المنهاج الذى وضعه الملاّ نظام الدين الفرنكى محلى اللكناوى) كما استعرض بشىء من التفصيل ، مفاسد هذا المنهاج و مثالبه و عيوبه.

ثم ألفت لجنة من إثنى عشر من العلماء الكبار لدراسة المنهاج التعليمى و صياغته صياغة جديدة ، و كان من أبرزهم العلامة شبلى النعمانى ، و ألف بعض هؤلاء العلماء رسائل أبدوا فيها عن آرائهم و أفكارهم تجاه إصلاح المنهاج التعلميى و أما العلامة فقد قدم خطة شاملة لتأسيس دار العلوم.

و اختير فى هذه الاجتمــــاع ستـــة عشــر عضــوا للهيئة الإداريــة لنــدوة العلماء، و بذلك تم تأسيس ندوة العلماء.

اجتماعات ندوة العلماء :

تتابعت اجتماعات ندوة العلماء فى المدن المختلفة من الهند و برز العلامة فيها كعالم متزن جامع بين القديم و الجديد ، داع إلى إصلاح المناهج التعليميــة و حريص على رفع مستوى المدارس الإسلامية العربية.

شارك فى الاجتماعين الثانى و الثالث لندوة العلماء و أكد فيها على أهمية إصلاح المنهاج التعليمى ، و تمت الموافقة على تأسيس دارالعلوم تابعة لندوة العلماء فى ١٢/ابريل سنة ١٨٩٦م فى الاجتماع الثالث لندوة العلماء الذى عقد فى بلدة بريلى ، و ألقى العلامة شبلى خطبة شرح فيها أهمية دارالعلوم و الهدف من تأسيسها ، و قرر أن تعقد لجنة باسم مجلس دارالعلوم ، و وضع العلامة شبلى قواعد هذا المجلس و أرسل بها إلى الأعضاء.

دارالعلوم لندوة العلماء :

و عقد الاجتماع الخامس لندوة العلماء فى ٨-٩ مارس سنة ١٨٩٨م ، قرر فيه أن يزور وفد لندوة العلماء بلدة لكناؤ ، يشترى بهــا أرضا لــدارالعلــوم ، و يختار مكانا تفتتح فيه دارالعلوم شئونها التعليمية و كان العلامة شبلى أحد أعضاء هذا الوفد ، زار هذا الوفد الكريم لكناؤ و اختار مكانا لدارالعلوم ندوة العلماء ، افتتحت فيه شئونها و أعمالها التعليمية.

صياغة المنهاج الدراسي الجديد و تطبيقه :

و كان تأسيس دارالعلوم يعني تأسيس مدرسة تطبق فيها ندوة العلماء فكرتها نحو إصلاح المناهج التعليمية و كان العلامة شبلي النعماني هو العقل المفكر و الداعي المخلص الواقعي إلى التغيير الإيجابي البناء و إصلاح النظام التعليمي ، فقد كانت له تجارب طويلة في مجال التعليم و لاسيما إقامته بكلية عليجره و رحلته إلى مصر و الشام و الروم اكتسباه تجربة واسعة عميقة

و كان العلامة ينوي أن يقيم في دارالعلوم لندوة العلماء حتى يحقق حلمه في إصلاح المنهاج الدراسي و يجسد فكره التجديدي ، و قدم في ذلك عدة مقترحات ، و لكن معظم أعضاء ندوة العلماء من أجل خلفيتهم الخاصة لم يستسيغوها و لم يستجيبوا لها و أحس أنهم لن يؤيدوا أي تغيير مهما كان إيجابيا بناءا ، كتب في إحدى رسائله إلى الأمير مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني (و كان مطبوعا على الاعتدال و الاتزان ، و جامعا بين العلوم القديمة و الصناعات الحديثة و محببا لدى جميع الطبقات من العلماء) في ٢٨/ سبتمبر سنة ١٨٩٩م

" إن كنت أنت و أعضاء الندوة يريدون أن أعمل لندوة العلماء فما السبيل إلى ذلك ؟ إن المقترحات و الخطط التي رسمتها لن يوافقوا عليها أبدا ، إلا أن يرفع التحزب رأسه ، فما الفائدة إذاً من المجادلات و المنازعات ، أعمل الفكر و الروية ثم رد على رسالتي هذه "

ثم كتب إليه في ١٢/ اكتوبر سنة ١٨٩٩م

" إن كنت تريد أن أعمل للندوة و أخدمها فاني ألتمس منك أن تزور لكناؤ و تقيم بها نحو أسبوعين ، سأصنع أنا خطة للعمل و المنهج تستعرضها أنت و تشير علي برأيك ، ثم نقدمها إلى الأعضاء يدرسونها و يناقشونها ، و يطبق ما صدروا عنه جميعا و اتفقوا عليه ، و لقد أرى من الجريمة و الأثم المشاركة في أعمال الندوة في وضعها الراهن ، و من المؤسف الغريب الباعث على العجب أن كثيرا من كبار أعضاء الندوة يعتبرون هذا الوضع الراهن محط آمالهم و نهاية طموحهم و غاية تفكيرهم ، فكيف يستجيبون لي و أني تنفسح صدورهم لاقتراحاتي و آرائي ، و مع ذلك فاني سأزور لكناؤ - إن شاء الله تعالى - إتماما للحجة." (رسائل الشيرواني ص ٢٠)

اللغة الإنجليزية:

اقترح العلامة شبلى النعمانى فى اجتماع الندوة فى أغسطس سنة ١٨٩٩م أن تضم اللغة الإنجليزية إلى مقررات دارالعلوم ، و عامة الناس و إن كانوا لا يعتبرون دراسة اللغة الإنجليزية كفرا و زندقة ، و لكنهم كانوا يرون اشتغال العلماء بهذه اللغة جريمة كبرىٰ ، و اقترف العلامة شبلى هذه الجريمة ، و أيده فى ذلك بعض العلماء ، و لكن اقتراحه لم ينل الموافقة بسبب عصبية العلماء العمياء فسأل العلامة أن يسجل هذا الاقتراح ضمن جدول الأعمال ، و لكن لمّا طبع الجدول لم يكن فيه أى ذكر لهذا الاقتراح.

لاشك فى أن حركة ندوة العلماء كانت تهدف إلى أن تزيل العصبية و تجمع بين العلماء و المثقفين ، و العلوم القديمة و الصناعات الحديثة ، و لكن لما كان أعضاء ندوة العلماء بصفة عامة متخرجين من المدارس القديمة و ناشئين على المنهج الأثرى المتحجر لم تكن لديهم فكرة واضحة نقية عن هدف ندوة العلماء ، و نلاحظ أن العلامة شبلى وحده هو الذى ركز اهتمامه على إصلاح المنهاج الدراسى و تجسيد فكرة دارالعلوم و تحقيق أهداف ندوة العلماء، و قد واجه فى ذلك معارضات من هؤلاء العلماء المتعممين ، و كل ما نشاهده من إصلاح و تطوير فى منهاج دارالعلوم ليس إلا منة لهذا العالم الجليل و العلم الشامخ ، و لو أن فكره طبق تطبيقا دقيقا شاملا لأحدثت دارالعلوم ثورة كبيرة و تغييرا جذريا فى مجال العلوم و الآداب و الفنون ، و لكن العلماء القدامى المتزمتين عارضوه منذ أول يوم ، و اتهموه بالكفر و الزندقة و رأوا فى وجوده فى دارالعلوم خطرا لكراسيهم و وظائفهم فلم يقبلوه عن طواعية نفوسهم.

و لكن العلامة صمد لهذه المعارضات و العصبيات العمياء و احتمل كل طعن و عقمة ، و واصل نضاله و كفاحه فى سبيل إصلاح المنهاج الدراسى و تطويره و نفخ الروح و الحيوية فيه ، حتى انتصر و فوضت قضية إصلاح المنهاج الدراسى إلى مجلس خاص للعلماء فى اجتماع امرتسر سنة ١٩٠٣م. و جرت مناقشات طويلة و كان النصر حليف العلامة ، و اتفق معظم الأعضاء على إجراء التعديل فى المنهاج الدراسى النظامى الخشيب الجامد ، و لكن المسئولين فى دارالعلوم لم يطبقوا هذا القرار و ظلوا متمسكين بالمنهج القديم ، فكتب العلامة رسالة إلى أمين مجلس المنهاج الدراسى مولانا حبيب الرحمن الشروانى يقول فيها :

> " *تسلمت اليوم جدول مقررات دارالعلوم لندوة العلماء ، و فيه الكتب التالية " شرح الملا جلال ، و شرح الملا جامى ، و فصول الأكبرى ، و الكافية و الميبذى ، و الشافية ......*
>
> *أخى ! كيف نقوم بين يدى الله تعالى يوم الحساب ؟ أ كانت الندوة تزعم أنها تتخذ المبنى العتيق البالى لدارالعلوم بديوبند*

قبلة لها و وجهة ، أ لذلك اخترت رئيسا للجنة المنهاج الدراسي ؟ لاشك أنه كان خلاف في بعض البنود ، و لكن أين تلك الأمور التي اتفقنا عليه ؟ ماذا يريد الأساتذة و المدرسون ؟ وا أسفاه ، وا أسفاه ."

(رسائل الشرواني ص ٤٨)

ثم كتب إليه في يوليو سنة ١٩٠٢م:

"*كتبت رسالة معنفة إلى المدرس الأعلى لدارالعلوم ، قلت فيها لماذا تلحون على تدريس المقررات القديمة ؟ ما لكم لا تدخلون المقررات التي وافق عليها اجتماع امرتسر ؟ فرد علي بأنه لم يطلع بعد على المقررات الجديدة ، فلم هذا التغافل و الإهمال يا أخي ! لعلك لم تبعث بالمنهاج الدراسي الجديد إلى دارالعلوم لمافيه من بعض الخلافات. و لكن كان أشياء اتفقوا عليها فما الذي منعك من أن تبعث بها ، يا للعجب ! الظلام مطبق ، و الغفلة سائدة ، و أنت رئيس للجنة ..؟*

أرسل إلى دارالعلوم المنهاج المقرر و أوص أن يطبقوه ، و دع ما اختلفنا فيه."   (رسائل الشرواني ص ٥٠)

و كتب إليه مرة

"*أكتب إلى مسئول دارالعلوم أنه لابد من تقصير فترة الدراسة إنما يدخل في كل فن و علم الكتب الشاملة لبحوثه و لا تتخللها بحوث العلوم الأخرى قل لي إذا كانت الندوة تتبع آثار ديوبند و تحتذي حذوها في منهجها و نظامها فلماذا تضاع ثروة القوم إذاً ..؟*"

كان المنهاج الدراسي النظامي حافلا بكتب الفلسفة و المنطق الرتيبة الجافة و كتب النحو التي يغلبها لون الفلسفة ، و كتب البلاغة التي لا تنشئ في الطالب ذوقا للأدب و لا تنمي فيه ملكة للبيان ، فأراد العلامة شبلي أن تطرد هذه الكتب الجانية على الطلاب ، و تحل مكانها كتب طبيعية بعيدة عن العجمة و جفاف الأسلوب ، و الكلمات النابية المستكرهة ، لا تمتزج بها جدليات اليونان العقيمة.

فكتب في ذلك رسالة إلى مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني سأله فيها أن يقصي الشافية ، و الكافية ، و شرح الملاجامي ، و التلخيص ، و ديوان علي ، و مختصرالمعاني ، و منتقى الأبحر ، و الميبذي ، و شرح العقائد للنسفي ، و تصريح الأفلاك ، و الملا حسن ، و المير زاهد ، و الملا جلال ، و القاضي مبارك و الصدرا ، و اقترح أن تدخل في المقررات هداية النحو ، و المفصل للزمخشري ، و كليلة و دمنة ، و حسن التوسل في صناعة الترسل ، و ديوان أبي العتاهية ،

و المعلقات السبع ، و ديوان الحماسة ، و إعجاز القرآن للباقلانى ، و هداية المعاملات.

اجتماع مدراس :

عقد اجتماع ندوة العلماء السنوى فى مدينة مدراس فى ١٤- ١٦ شوال سنة ١٣٢١هـ الموافق لـ ٣-٥ يناير سنة ١٩٠٤م شارك فيه العلامة شبلى و ترأس حفلته الرابعة ، و ألقى فيها خطبة بليغة استهوت قلوب المستمعين حول موضوعه الأثير الحبيب "الحاجة إلى دار العلوم".

و فى هذا الاجتماع قطعت مرحلة إصلاح المنهاج التعليمى ، و كونت لجنة ثلاثية أعضاؤها العلامة شبلى النعمانى و الملا عبدالقيوم و المولوى السيد عبدالحى الحسنى و قرر أن رأى العلامة شبلى هو القاطع إذا وقع خلاف، كما تمت الموافقة على إصدار مجلة شهرية باللغة الأردية باسم "*الندوة*" كلسان حال ندوة العلماء ، تحت إدارة العلامة شبلى النعمانى و مولانا حبيب الرحمن خان الشروانى.

عقد العلامة العزم على أن ينفذ المنهاج التعليمى الجديد فى دار العلوم و أن يقيم بها أبا حتى يطلع على ما فيها من نواح مظلمة و مفاسد ، و ما هو السبيل إلى إصلاح الفساد و رتق الفتق ، فكتب إلى مولانا حبيب الرحمن خان الشروانى فى ٥/ سبتمبر ١٩٠٤م .

> *" يبدو أن ندوة العلماء تكاد أن تصحو من سكرتها و تفيق من غفوتها و تنتبه من سباتها ، و إن نفسى تحدثنى أن أحصل على إجازة شهرين و أقيم بلكناؤ ، و أركز اهتمامى على أمرين و تطبيقهما: إصلاح المنهاج الدراسى ، و إصدار المجلة ، كما ينبغى أن لا نتغافل عن تدابير أخرى ، و لكن الشرط أن تزور لكناؤ ، و لو لشهر واحد على أقل تقدير ، فانى لا يمكننى أن أنجز عملا و أجسد فكرة بدونك .*
>
> *إن كانت نفسك ترضى بأن تقيم بدارالعلوم على حساب اشتغالاتك و شئونك الشخصية فأجبنى على الفور، و إلاّ فاعتزل عن الندوة ، إن قدومى فى هذا الوقت يسبب لى خسارة كبيرة فادحة ، فقد ينقص من راتبى ، و تواجهنى مشكلة انقطاع الوظيفة و مشكلة الأهل ، و لكن سأضحى بمصالحى و أحتمل كل هذه المشاكل و المصاعب.*
>
> *و إنى سأقدم كل يوم مرة خلال إقامتى بدارالعلوم محاضرة حول موضوع من المواضيع على منهج المتقدمين."*

إقامته بدارالعلوم :

غادر حيدرآباد إلى لكناؤ فى نهاية سبتمبر سنة ١٩٠٤م و نزل بمبنى دارالعلوم القديم ، و ركز جهوده على إصلاح المنهاج الدراسى و إصدار المجلة ، و رفع مستوى الطلبة العلمى ، و تنمية ذوق الكتابة و التأليف فيهم ، و بعد مدة قصيرة استقال عن وظيفته فى إمارة حيدرآباد ، فى نهاية سنة ١٩٠٤م ، و بداية سنة ١٩٠٥م ، و سافر إلى بيته أعظم كره.

موجة من السرور تكتسح دارالعلوم :

لما عرف طلاب دارالعلوم لندوة العلماء أن العلامة شبلى سيقيم بدارالعلوم إقامة مستقلة ، جرى فيهم تيار من الفرح و السرور، و عقدوا حفلات ألقوا فيها الخطب و أنشدوا قصائد ترحيبا به و إعرابا من مسرتهم

عمادة دارالعلوم :

كان أعضاء ندوة العلماء طلبوا من العلامة شبلى النعمانى سنة ١٩٠٣م أن يقيم بدارالعلوم و يتولى عمادة شئونها التعليمية ، و اتفقت كلمتهم على ذلك فانه كان يمتاز بينهم بتجاربه العلمية و التعليمية الواسعة و دراسته العميقة للعلوم القديمة و الفنون الحديثة ، و جمعه بين الشرق و الغرب ، و بفضل هذا الجمع اتسمت فكرته بالاتزان و العدل و الدقة و الشمول

و لكن لم يتهيأ للعلامة أن يتولى عمادة الشئون التعليمية إلاّ فى ١٥/صفر سنة ١٣٢٣هـ الموافق لشهر ابريل سنة ١٩٠٥م

تطبيق المنهاج الدراسى الجديد:

كان الهدف الحقيقى من وراء إقامته بدارالعلوم إصلاح المقررات الدراسية القديمة و المنهاج التعليمى القديم ، فكتب مقالات فى مجلته "الندوة" و ألقى الخطب فى دارالعلوم و اجتماعات ندوة العلماء ، و لخص العلامة مفاسد المنهاج التعليمى العربى القديم فى نقاط تالية

١- إن العلوم المقصودة (كالتفسير و الحديث) لم تنل حقها فى هذا المنهاج ، و المقررات حافلة بالكتب الآلية ، فالغرض - على سبيل المثال - من تدريس النحو و الصرف هو إيجاد الأساس و توفير الوسيلة لدراسة العلوم الأدبية و العربية و ، و لكن الاهتمام الذى يركز على تدريس مواد النحو و الصرف لا يركز مثله على تعليم الأدب ، و هذا هو الشأن فى تدريس العلوم و الفنون الأخرى.

٢- المنهاج القديم حافل بكتب الفلسفة و المنطق بوفرة لا تبلغها مجموعة

كتب التفسير و الحديث و الفقه و الأصول.

٣- معظم الكتب تشتبك مباحثها بمباحث العلوم الأخرى و تختلط بها ، فمثلا كتب "*حمدالله*" و "*المير زاهد*" و "*الملا حسن قاضى*" كلها فى فن المنطق ، و لكنها مليئة بمسائل الفلسفة ، فالطـالب تواجهـه معوقـات و عراقيل فى سبيل تركيزه على "المنطق" و لا يمكنه الإلمام بهذا الفن.

٤- إن علم التفسير علم عظيم القدرولكن المقرر فى هذا العلم ليس إلاّ كتابان: تفسير الجلالين ، و تفسير البيضاوى ، أما الأول منه فموجز غاية الإيجاز حتى أن عدد كلماته يساوى كلمات القرآن الكريم ، و أما البيضاوى فلا يدرس إلاّ جزءان و نصف من أجزائه الثلاثين

٥- علم التوحيد و العقائد علم عظيم جليل ، و المقرر فيه "*شرح العقائد للنسفى*" لا غير، و هو كتاب عادى لا قيمة له.

٦- أكثر الكتب المقررة فى المدرسة ليست مسائلها منقحة حتى تستقر فى الأذهان المسائل الأصلية ، إن استثـارة الأسئلـة و الردود و الاحتمـالات و التعليلات و التأويلات قد سبب إغلاقا و إبهاما بل و فوضى يفطن الطالب أنه وقع فى حبالة أو تورط فى ورطة.

٧- هذه المقررات لا تضم كتابا من كتب المعارف الحديث.

٨- اللغة الإنجليزية مطرودة منها.

و نظرا إلى هذه الأسباب ركزت ندوة العلماء منذ البداية على إصلاح المنهاج الدراسى ، و وجهت استشارات و استفتاءات إلى جميع علماء الهند ، فورد ٢١/ رأيا عن المقررات الدراسية ، و طبعت كلها و نشرت ، و كانت كلها تختلف بعضها عن بعض ، فعقد اجتماع فى شهر رجب سنة ١٣٢٠هـ الموافق لشهر اكتوبر سنة ١٩٠٢م فى امرتسر. شارك فيه العلماء الكبار و قررت فيه مبادئ أساسية ، ثم عقد اجتماع فى شهر شوال سنة ١٣٢١هـ الموافق لشهر يناير سنة ١٩٠٤م فى مدراس ، قرر فيه أن يضع العلامة شبلى و الملا عبدالقيوم الحيدرآبادى و المولوى عبدالحى الحسنى منهجا وفق المبادئ المقررة ، فرتب ذلك المنهج، و كان الجزء الغالب فيه وفق تعديلات العلامة شبلى النعمانى، و ركز فى إعداد ذلك المنهج على النقاط التالية :

١- عنى بالأدب و اللغة عناية بالغة و قرر فى مادة التدريس "دلائل الإعجاز" و "إعجازالقرآن" للباقلانى ، و نقد الشعر عدا مختصرالمعانى.

٢- و قررخمسة عشر جزءا من تفسير البيضاوى، و كتاب الصراط المستقيم الذى تناول فيه مؤلفه تفسير الآيات التى تتصل بمواضيع الفقه و الكلام و الأخلاق.

٣- و قرر تدريس معالم فى أصول الدين للإمام الرازى فى مادة "العقائد" بدل "كشف الأدلة" لابن رشد ، و "الاقتصاد" للإمام الغزالى.

٤- و قرر في مادة الفلسفة تدريس "الهدية السعيدية" و "شرح حكمة العين" و "شرح حكمة الإشراف".
٥- و قرر في مادة أسرار الشريعة تدريس كتاب "حجة الله البالغة".
٦- و قرر في مادة الفلسفة الحديثة كتاب "الدروس الأولية".
٧- و قرر تدريس اللغة الإنجليزية كمادة إجبارية.

و لكن العلماء و المدرسين لتزمتهم الشديد و جمودهم المتحجر لم يستسيغوا إجراء أي تعديل أو إصلاح في المنهاج الدراسي القديم ، فان هذا المنهاج الجديد و إن كان قد تم إعداده سنة ١٩٠٤م و لكن لم يشهد التطبيق و التنفيذ ، و ألحّ المدرسون على تدريس الكتب القديمة المعهودة حتى أقام العلامة شبلي النعماني بدارالعلوم و أصدر أمرا إجباريا بإدخال المقررات الدراسية الجديدة حتى تم تطبيق المنهاج الجديد بفضل مساعيه و جهوده المشكورة.

اللغة الإنجليزية :

رأى العلامة شبلي النعماني أنه لا يمكن للعلماء أن يحافظوا على مكانتهم العلمية و يقدموا بأداء فريضة الدعوة الإسلامية في البلاد و خارجها و يردوا على شبهات أعداء الإسلام و يقنعوا الطبقة المثقفة و يعيدوا ثقتها بالثقافة الإسلامية إلا أن يتسلحوا باللغة الإنجليزية ، نظرا إلى ذلك كله أكد العلامة شبلي تأكيدا بليغا على إدخال اللغة الإنجليزية في منهاج دارالعلوم ندوة العلماء ، و لم يرض العلماء بهذا الابتداع في المنهاج التعليمي ، حتى أنه لما قدم العلامة اقتراحه هذا في بعض جلسات الهيئة الإدارية لندوة العلماء أعرض الأعضاء عن تناوله النقاش و الدراسة و فيهم الأمير مولانا حبيب الرحمن الشرواني ، و كان معروفا بتنوره الفكري ، فكتب العلامة شبلي إلى مولانا حبيب الرحمن الشرواني في ١٠/ديسمبر سنة ١٨٩٩م

" قدمت اقتراح إدخال اللغة الإنجليزية في منهاج دارالعلوم ، و الححت على أن يسجل الاقتراح في جدول أعمال ، و لكن لم يسجل ، لماذا كل ذلك ؟ "

ثم أعاد اقتراحه في جلسة الهيئة الإدارية سنة ١٩٠٠م و نال الموافقة و لكن بعض أعضائها المرموقين عارضوه معارضة شديدة حتى أن بعضهم هدد بأن دارالعلوم لو قررت تدريس اللغة الإنجليزية في منهاجها ليهدمنها و ليخربنها.
و على كل ، فان العلامة شبلي و بعض من وافقه ظلوا ثابتين على عزمتهم على إدخال اللغة الإنجليزية في منهاج دارالعلوم حتى تم تعيين أستاذ للغة الإنجليزية في ربيع الأول سنة ١٣١٩هـ ، الموافق لسنة ١٩٠١م ، و بدأ بعض

الطلاب أبجدية اللغة الإنجليزية ، و لكن هذه الدراسة كانت فارغـة ضعيفـة ، و بقى المسئولون عن الندوة يغفلون هذا الجانب ، فلما تولى العلامة شبلى عمادة الشئون التعليمية لدار العلوم ندوة العلماء سنة ١٩٠٥م ، قرر تعليم اللغة الإنجليزية على مستواها المطلوب تعليما إجباريا.

و كان العلامة شبلى النعمانى يرى أنه بعد ما يتم الطلاب دراستهم للغة الإنجليزية خلال المرحلة التعليمية يخصصون سنتين لاتقانها و إجادتهـا نطقا و كتابة بدار العلوم ، يقول :

> "*إن خصص الطلاب سنتين بعد التخرج لدراسة اللغة الإنجليزية و إتقانها فانهم سيصلون إلى مستوى الطلاب المتخرجين من الكليات الإنجليزية الرسمية و حينئذ تتيسر لهم خدمة الدعوة الإسلامية فى أوساط المثقفين و البلدان الغربية.*"

و لكن يا للأسف .... أن هذا الفصل للتخصص لم يفتح فى دار العلوم إلى الآن و لو تحققت أمنيته لأتت بنتائج حلوة و ثمار يانعة و تمهد المجال لنشر الدعوة الإسلامية و الفكر الإسلامى فى المجتمع الغربى و فى أوساط المثقفين.

و هذا الابتداع الذى سبق إليه العلامة لم يذهب سدى بل ترك آثارا بعيدة المدى ، و لم تمض فترة من الزمان إلاّ و خضعت له معظم المدارس الإسلامية العربية فى الهند، حتى ان دار العلوم بديوبند كذلك قررت تدريس اللغة الانكليزية فى منهاجها.

و للبحث صلة ....

تعريب : محمد أكرم الندوى

شرح بيتي الرقمتين
للأمير عبد القادر الجزائري

حقق النص و قدم له و علقّ عليه :
الأستاذ عبدالإله نبهان
جامعة البعث، حمص،
الجمهورية العربية السورية

البيتان لابن المستوفي
الشرح للأمير عبدالقادر الجزائري

المقدمة:

للصوفية فهم رمزي للدوالّ ، فهم ينظرون في النص و يسبرون أعماقه و يقتحمون عموديا بالتأويل المناسب لما يعتقدونه قال القشيري في *لطائف الإشارات* ٢ ‏ ٢١٠. لدى تفسيره الآية الكريمة "و عَلَّمْتَنِي مِنْ تأوِيلِ الأحَادِيْثِ" قال التأويل للخواص و تفسيرالتنزيل للعوام. لذلك جعلوا التفسير متعلقا بالرواية، و جعلوا متعلق التأويل الدراية، و قد اعتمدوا في مذهبهم ما ورد في التنزيل و في الحديث مما لا يستقيم معناه و لا يقوم عموده إلاّ على التأويل و في "فصوص الحكم" و غيره من كتبهم صفحات رائعة في التأويل و آفاقه.

ذلك الفهم الرمزي للنص القرآني نقله الصوفية إلى ميدان الأدب و الشعر، فمن خلال تجردهم المطلق و اتجاههم إلى الحقيقة الكلية المطلقة و من خلال فهمهم للنبوّة و الولاية و العلم، و تعلقهم و ولعهم بالحب و هيامهم و أشواقهم الكونية . من خلال ذلك كله فهموا الشعر فهما يناسب مذاهبهم و آراءهم. فإذا سمعوا شعرا نقلوه من معناه عند عامة الناس إلى معانيهم التي يستروحون إليها و يستريحون، فالخمرة لديهم ليست خمرة الناس، إنها خلقت

قبل أن يخلق الكرم. و حبّهم و عشقهم ليس ذلك الحب الذي يعرفه سائر الناس، و حبيبهم ليس هذا الشخص أو تلك الفتاة إنه أعلى و أجمل و أجلّ و أعظم... لذلك كان لهم معجمهم الخاص، و غدا من لا يعرف لغتهم لا يفهم مقاصدهم ، بل قد يرميهم بما هم منه براء اعتمادا منه على التفسير، و تعويلا منهم على التأويل.

هذه المقدمة الموجزة توضّح لنا مذهب شارح البيتين المعروفين ببيتي الرقمتين فقد نحا في شرحهما منحىً رمزياً صوفيا. و قد يقال: إن ما أورده الشارح ربما كان مما لم يخطر من الشاعر على بال ! و لكن متى كان الصوفية يعبأون بمقاصد الشاعر، إنهم ينقلون شعره إلى ما لهم من المعاني. يقال إن أبا الفتح الأعور الصوفي سمع هذا البيت:

وجهك المأمول حجّتنا　　　يوم يأتي الناس بالحجج

فتواجد و صاح و دق صدره إلى أن أغمي عليه و سقط. فلما انقضى المجلس حركوه فوجدوه ميتا، فغسلوه و دفنوه.

و هذا البيت من أبيات رجل فاجر هو عبدالصمد بن المعذّل يتغزّل بغلام، نقلها أبوالفتح إلى فضاء آخر فبلغت في نفسه ما بلغت - ("*التصوف الإسلامي*" ٢: ٢٣١ ").

الشاعر:

و هذان البيتان (بيتا الرقمتين) هما لابن المستوفي. قال الشهاب الخفاجي في كتابه "*طراز المجالس*": ٢١٢ - قرأت في ديوان الرئيس شرف الدين مستوفي إربل ، قال: قلت بديهة في سنة أربع و ستمائة : و ذكر البيتين -

قال الخفاجي: اعتنى الناس بهذه القطعة حتى رأيت بعض الأدباء صنّف في شرحها تأليفا لطيفا أتى فيه بما لم يخطر ببال قائلها فتدبر.

و شرف الدين الشاعر المذكور هو المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي المعروف بابن المستوفي ، و هو مؤرخ أديب ناقد شاعر، كان رئيسا جليلا. ولد بإربل سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٩م و ولي فيها استيفاء الديوان ثم الوزارة. و لما استولى الصليبيون على إربل انتقل إلى الموصل و توفي بها سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩م. له كتاب تاريخ إربل ، و كتاب النظام في شرح شعر المتنبي و ابي تمام و ديوان شعر. انظر ترجمته في :

مرآة الجنان ٤: ٩٥، *بغية الوعاة* ٢: ٢٧٢ - *الأعلام* ٦: ١٤٩ طبعة ثالثة و ٥: ٢٦٩ ط ٤. *معجم المؤلفين* ٨: ١٧٠.

الشارح:

هو الأمير عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري،

ولد في القيطنة من قرى وهران في الجزائر عام ١٢٢٢ هـ = ١٨٠٧م و حج مع أبيه سنة ١٢٤١هـ و زار المدينة المنورة و دمشق و بغداد نهض بأمر الجهاد ضد الفرنسيين لدى احتلالهم الجزائر ١٨٣٠م و قاتل الفرنسيين خمسة عشر عاما و اضطر بعدها إلى الاستسلام بشروط ، فنفاه الفرنسيون إلى طولون و منها إلى أبنواز ثم أطلق سراحه فزار باريز و القسطنطينية و استقرّ بدمشق و بها توفي في ١٩/رجب عام ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٣م و دفن في مسجد الشيخ محي الدين بن عربي في ضريح إلى جانب ضريح الشيخ ، ثم نقل رفاته إلى الجزائر بعد انتصار الثورة الجزائرية .[انظر معجم المؤلفين ٥ ٣٠٤ - الأعلام ٤ ٤٦ ط٤]

و للأمير كتاب في ثلاثة مجلدات في التصوف سمّاه *المواقف* و له ديوان شعر.

البيتان و شرحهما:

كان الأستاذ عبدالقادر زمامة وجّه نداءً في مجلة مجمع *اللغة العربية* بدمشق يسأل عن صاحب هذين البيتين و قد أجيباه في مجلة *المجمع* في المجلد ٥٤ ص ١٠٠١ ، ثم رأينا الأستاذ الدكتور عزّة حسن نسبهما في فهرس الشعر في الظاهرية ص ٢٦٢ إلى الأمير عبدالقادر و هو وهم لأن الأمير شرح البيتين و لم يقلهما. و قد عثرت على نسختي شرح للبيتين في مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ثم رأيت هذا الشرح منشورا ضمن كتاب *المواقف* فكان لدي بذلك ثلاث نسخ

النسخة الأولى: و رمزت لها بالحرف م ، قد نسخها محمد الطنطاوي عام ١٢٨١ هـ أي قبل وفاة الشارح بتسعة عشر عام، و قد كتبها بخط معتاد بحبر أسود و تقع ضمن مجموع من ٥٦ ـ الف ـ ٥٦ ب و يبدو من مقارنتها أنها أدق من النسخة الأخرى و أدق من المطبوع و قد كتب على هامشها ما يلي تشطير هذين البيتين للشيخ قاسم الحلاق رحمه اللّه تعالى

رأت قمر السماء فأذكرتني ... محاسن وجهها و الرقمتين
فلا أسلو و لست بذي سلوٍّ ... ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرا و لكن ... زها قمري بورد الوجنتين
فعيني عينها فلأجل هذا ... نظرت بعينها و رأت بعيني

و أيضا كتب على هامشها بجانب البيت الذي أنشده الشارح

أعارته طرفا رآها به ... فكان البصير لها طرفها

قال الناسخ و قبله

و مخطوبة الحسن محجوبة ... فلا تألفن سوى إلفها
إذا ما تجلّت على عاشق ... و أهدت إليه شذا عرفها